

الدين والظماً الأنطولوجي

د. عبد الجبار الرفاعي



د. عبد الجبار الرفاعي

الدين والظماً الأنطولوجي

د. عبد الجبار الرفاعي

الدين والظماً الأنطولوجي

مقدمة الطبعة الثالثة

منذ صدوره قبل عامين نُشِرَت أكثر من خمسين مقالة تُعرِّف بهذا الكتاب، وتتناول أفكاره بالتحليل والنقد. وفوجئ مؤلفه باحتفاء القراء الشباب به، واهتمامهم بما أثاره من أسئلة، وما خلص إليه من رؤى حيال الدين، وبواعت حضور الدين المزمّن أمس واليوم في الحياة البشرية، وكيف أنه كان وما زال أحد العوامل الفاعلة في تاريخ المجتمعات، بكل ما يحفل به التاريخ من تقدّم وتخلّف، وبقظة وسبات، ونهوض وكبوة، وحرب وسلام، وانتصار وهزيمة.

تابت آراء القراء في مضامين هذا الكتاب، فرأى بعض القراء أنه دعوة لـ«تصوف مفتح»، ووصفه آخرون بأنه دعوة مغرية للإيمان، ودفاع لـ«محام بارع» عن الدين، ورأى فريق ثالث أنه يتعد كثيراً عن مفهوم الدين الذي يتحدث به معظم الكتاب الإسلاميين. وتسلّم الكاتب رسائل كثيرة تبدي انزعاجها وألمها من نقده لـ«أدلجة الدين في فكر علي شريعتي»، وأقلق غير واحد من القراء أن النقد الذي يطال شريعتي ينطبق على مفكرين إسلاميين كبار من معاصريه الذين تحوّلت كتاباتهم إلى ملهمة لعدة أجيال، إذ تنهوا إلى أن نقد الكتاب لفكر شريعتي إنما جاء بوصفه مثلاً لنمط تفكير أيدولوجي تغلغل في أدبيات الجماعات الدنّية كلّها في النصف الثاني من القرن العشرين.

لعل تنوع مواقف قراء الكتاب، واختلاف آرائهم في الكتاب يعود إلى كثافة حضور التجربة الذاتية للكاتب في موضوعاته، وتداخل تنويعات العقل والقلب والروح فيها،

فهي تجربة القُتْ بتقلها على موضوعات الكتاب. لم يفرّد فيها صوتُ العقل فقط، بل إن القارئ يستمع فيها للعقل يتحدّث للقلب والروح، كما يستمع فيها للقلب والروح يتحدّثان للعقل.

يعترف الكاتبُ أنه أفاد من آثار فلاسفة وروحانيين كبار ملهمين للمعنى، لكن القارئ الخبير يتحسّ صوت مؤلفه الذي حرص على ألا يكرّر غيره أو يستنسخه. فعندما كان المؤلفُ يحيل إلى التراث الروحاني في الإسلام لم يكن داعيةً له تصوف مفتح، لأنه لا يعوزه الحسّ التاريخي، لذلك تعاطى مع ذلك التراث بوصفه فهماً للدين، وتأويلاً للقرآن الكريم، يتميّان للأفق التاريخي الذي وُلدا فيه. ومع ثابته على ما يميّز به التصوفُ الفلسفي من الخروج على الأنساق المغلقة لعلم الكلام التي انطفات فيها أشواقُ الروح وذبلت فيها جذوةُ الأخلاق، وإعجابُه بطاقة المعنى الخلاقة في التراث الروحاني الذي منح روحَ وقلبَ المسلم فضاءً فيحاً يمكنه من بناء صلة ديناميكة بقطعة بالله، وإدراكه لقدرة النظام المعرفي للتصوف الفلسفي على تحرير العقل من الأسوار المغلقة للرؤية التوحيدية للمتكلمين، وتخطي الفهم المتصلّب للدين والتفسير الحرفي لتصوصه. لكن مع كل تلك الميزات الباهرة في التراث الروحاني فإنه كثيره من تراث الإسلام يتسع لاتجاهات متضادة ومقولات متازعة، اصطفت بالوان عديدة، من خلال تشكيلها في أزمنة وأمكنة مختلفة، واتخذت صياغات متباينة على وفق السياقات المتنوعة التي تموضعت في مناخاتها، وأنماط التجارب الروحية لأصحابها، لذلك ترى في آثار المتصوفة والعرفاء ما هو أشدّ فتكاً من الشعوذة والوثنية، مما يُعطلّ العقل ويُهشم القلب ويُسوّه الروح، وترى فيها، بعد تمحيص واختبار، كما يرى فيها كل قارئ محترف، درراً ولآلئ نادرة، توظف العقل من سباته، وتنقذ الروح من متاهاتها، وتغيث القلب حالة يبابه.

أما القراء الذين رأوا المؤلفَ داعيةً للإيمان و«محمياً بارعاً» في الدفاع عن الدين، فقد تسبّحوا بذكاء لرسالة هذا الكتاب وكتاباتي الأخرى، إذ كنتُ ومازلتُ مؤمناً بالدين، ومدركاً لحضوره الأبدي، ودارساً لتنوع تملّثاته في حياة الفرد والجماعة. بل إنني قلتُ أكثر من مرة: «أنا كائنٌ ميثافيزيقي، لا تتحقّق ذاتي إلاّ حت بتحقّق إيماني».

أما أولئك المنزعجون من هذا الكتاب وغيره من كتاباتي فإني أنفهم مشاعرهم، وأظن أن الكثير منهم يشعر بالخذلان عندما يجدني في موقع فكري غير الموقع الذي كنتُ فيه في شبابي. حين كان صوتي مجرد صدى لأصوات كتابات مليئة بالشعارات

التعبوية، والأحكام الوثوقية الجاهزة، التي تفتقر للتحليل والغريزة والتمحيص والنقد، ولا تعرف شيئاً عن المناهج الحديثة للبحث العلمي، وتفشل في توظيف أدواته في دراسة الظواهر المجتمعية وفهمها.

بعد سنوات طويلة أمضيتها في دراسة وتدريب معارف الدين بدأت بالتدريج اكتشاف قصور فهمي للدين، وهشاشة تفسيري لنصوصه. وبعد أن اختنق تفكيري في مدارات التراث المسدودة، حاولتُ أن أعتمد الفلسفة وعلوم الإنسان والمجتمع الحديثة في فهم الدين بوصفه ظاهرة عميقة في حياة الإنسان، وتحليل كيفية نشأة وتطور معارفه، وتراكم التراث الذي تكوّن في فضائه، وتنوّعه عبر العصور، فرايت طبقات للدين والتراث لم أرها من قبل، وأضاءت لي أعماقاً لم أكن أدركها. رأيت كيف تتشكّل معارف الدين عبر التاريخ، وكيف ينتج كل عصر فهمه للنص، وتعلّمت كيف يؤثر النصّ الديني في الواقع، وكيف يتوالد تفسير النصّ من الواقع، ورأيت نسيج العلاقات المجتمعية المعقدة وأثرها المباشر في إنتاج أشكال المعارف الدينية المختلفة.

يبقى مؤلف هذا الكتاب مديناً للقراء الذين منحوه ثقتهم، ولم يقطع تواصلهم المباشر معه بوسائل الاتصال المختلفة حتى اليوم، كل منهم يدي وجهته نظره ورأيه في القضايا التي أثارها الكتاب إثباتاً ونفيّاً.

آراء القراء وأسئلتهم ومناقشاتهم حثني على التفكير مجدداً في قضايا لازمت تفكيري منذ بداية مطالعاتي ودراساتي لمعارف الدين، وكنتُ فيما مضى أغلق التفكير فيها بإجاباتٍ لم أجد الكثير منها منطقيّاً اليوم، لذلك حاولتُ إثارتها بشكل أدق، والسعي لتقديم إجابات لها، تتخذ القرآن مرجعيةً، والمناهج الحديثة في التأويل أدوات تبصر في ما ترمي إليه مدلولاته. ويتضمن شيئاً من هذه الإجابات كتابي الجديد «الدين والاعتراب الميثافيزيقي»، الذي يتزامن صدور طبعته الأولى مع الطبعة الثالثة لهذا الكتاب، والطبعة الثالثة من كتابي «إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين» الصادر عام 2010، والذي كان يمثل الحلقة الأولى في مسعى لإرساء لبنات فهم للدين، وبوصلة ترسم مطلق فهم آيات الكتاب، من أجل بناء رؤية «إنسانية إيمانية» للدين، عساها تطل بنا على أفق مضيء نرى فيه الدين من منظور مختلف، يصير فيه الدين دواءً لا داء، والإيمان محرراً لا مستعبداً، والتدين حالةً روحانية أخلاقية جمالية تتجلى فيها أجمل صورة لله والإنسان والعالم.

وامل أن نطلّ كتاباتي القادمةً وفيّة لهذا النهج الذي خلصت إليه بعد رحلة تفكير وتأمل توصلت لأكثر من أربعين عاماً من حياتي، واكبتُ فيها دراسةً وتدرّيسَ معارف الدين، وعشتُ حياةً روحيةً وأخلاقيةً تكرّستُ اثر مكابداتٍ صور مضادّةً لها، تبدّت في سلوك بعض المتدينين، ممن تتخذُ شخصياتهم أقنعةً دينيةً زائفةً، تلبسُ فيها القيمُ الرديئةَ بالأمراض الأخلاقية والنفسية، وتختبئُ أحياناً خلف طقوس وشعائرٍ صاخبة.

عبدالجبار الرفاعي

بغداد 5-5-2018

مقدمة الطبعة الثانية

منذ صدور كتاب «الدين والظلم الأنطولوجي» لم تتوقف الكتابات عنه، ومازالت حتى اليوم تتواصل مقالات وانطباعات ورسائل من قراء معظمهم ممن لا أعرف. رغم أن الكتاب صدر بداية هذا العام لكن ما نُشر عنه حتى اليوم أكثر من ثلاثين مقالة في الصحافة الورقية والألكترونية.

لعل احتفاء القراء بالكتاب يعود إلى أنه لا يسعى لتفكيك الضير السلفي للنص الديني فقط، بل يحاول أن يكشف عن خارطة طريق للوصول إلى الله، بوصفه إله الحب والرحمة والخير والفرح والجمال والارادة والثقة والحرية والكرامة والسلام، وليس إله الكراهية والشر والحزن والقبح والاسترقاق والخنوع وإهدار الكرامة البشرية والحرب.

يختصر هذا الكتاب مطالعاتي ودراساتي وتدريسي، وما تعلمت من تلامذتي وأساتذتي، كما ترسم في ثنايا كلماته محطات وجروح حياتي. إنه شكل من أشكال تدوين السيرة الذاتية.

الكتابة بلا تفكير أسوأ أنواع الكتابة، والأسوأ منها الكتابة قبل تعلم التفكير. الكتابة ضرب من التفكير المزمّن، والعمل المستمر على تعلم التفكير. وإن كان كثيرون في بلادنا يكتبون بلا تفكير، أو يكتبون قبل أن يتعلموا التفكير. لا نتعلم التفكير إلا بالتفكير. لا تبدأ أية كتابة من الصفر، ففي كل نص ترقد عدة طبقات من النصوص.

في كل نص يتحدث الكثير من النصوص الينا. في كل نص ترسب نصوص متنوعة تحيل إلى مطالعات الكاتب وقراءاته.

كتاب «الدين والظلم الأنطولوجي» خلاصة أسفار الروح والقلب والعقل مدة تزيد على نصف قرن، لبثت فيها افئس عن ذاتي الهاربة مني، وبصراحة لم اظفر بها كلها حتى اليوم. كنت أغور كالفواص في طبقاتها، وكلما قبضت على شئ منها انزلت مثلما ينزل الزئبق بين الأصابع. أدركت الأباب للنجاة إلا اكتشاف الذات والعمل على بنائها وتربيتها مادامت الحياة.

لا قيمة لأفكار تنصل بالدين لا صلة لها بمثال بشري مُجسد، في القرآن الكريم وغيره من الكتب المقدسة يقترن الايمان دائماً بأمثلة بشرية مُجسدة للأنبياء ومن يلزم بهم.

أردت أن اتحدث عن سيرة روحية اخلاقية فكرية حية في هذا الكتاب. لا أكتب للاكاديميين، أكتب أشواقاً روحي، وسيرةً قلبي، وأسئلةً عقلي. أنشد إحياء إيمان المحبة والرحمة والجمال والخير والارادة والثقة والحرية والعدل والسلام. تلخص مهمتي في بناء الحب إيماناً والإيمان حباً، واكتشاف صورة الله الرحمن الرحيم، وتطهيرها مما تراكم عليها من ظلام وتوحش، فرحمة الله وطن حيث تُفتقد الأوطان.

هذا الكتاب «رسالة في الايمان»، بمعنى انها وثيقة لإحياء الإيمان، وليس كتاباً أكاديمياً. الكتب من هذا النمط تخاطب الروح، والقلب، والضمير، عبر العقل. الكاتب الأصيل يكتب ذاته. أعمق تجلٍ للكائن العميق أن تكون كتابته هو، ويكون هو كتابته. هذا هو الكتاب الذي يمثلني، ويعبر عن مفهومي للدين والايان. كل كاتب يكتب كتاباً واحداً، ما قبله تمارين، وما بعده تنويغات. من هنا يرى القراء ومضاتٍ من نصوصي الماضية في «الدين والظلم الأنطولوجي».

الكتابة الحقيقية هي تلك التي تثير نقاشاً جدياً (مع/ ضد) الكتاب. كلّفني الاصرارُ على هذا اللون من الكتابة الذي يشدّد على عدم تكرار المكررات الكثير من الازعاجات، كما هو الموقف من كل تفكير حر. ضريبة كل تفكير ينزع للحرية ويشغل خارج إطار المفاهيم والقوالب المتداولة الجاهزة بأهصّة في مجتمعنا. رغم غيابي الاختياري عن الحضور الفيزيقي الجسدي في المشهد الاجتماعي والفضائي، لكنني ألتقي باستمرار ضرباتٍ قدرة من أعداء متطوعين، لا أعرفهم غالباً، ولا أعرف حتى ملامحهم أحياناً. وهذه حالة بشرية ليست غريبة، ذلك أن الكائن البشري يخترن

الكثير من الشر، ولديه رغبة هائلة في الانتقام والتدمير. ما عدا الأبوين، وبعض الاخوان، وقليل جداً من الأقرباء والأصدقاء، فإن أكثر الناس بطبيعتهم يستفهم أيّ مُنجز تقدّمه، لذلك يفسدونه عليك، وإن تظاهر كثيرٌ منهم بالاحتفاء به معك.

كلنا ضحايا سجون واطارات وأغلال وأوثان فرضتها علينا تقاليدنا وعاداتنا وثقافتنا، ذلك هو سرّ فشل دولنا وهشاشة مجتمعاتنا. ضريبة تكسير الأطر وتحطيم الاغلال والتحرش بالأوثان موجعةٌ. يهكك الحررُ من الإطار في مجتمع يستمرئ العبودية وترعبه الحرية، إذ تجد الكل يتضامنون ضدك ويوظفون كل أسلحتهم لهزيمتك، لو تخطى تفكيرك تلك الأطر. أقسى المعارك حين يستخدم خصمك كل سلاح لكنك تفتقد كل سلاح.

يرمي هذا الكتاب إلى عزل الممارات عن بعضها، إذ إن كل شيء يفتقد غرضه حين يتم استعماله خارج سياقه. كثيراً ما يقع الخلط بين مفهوم الدين وبين توظيفه خارج وظيفته الحقيقية. هكذا يفرغ التوظيف الدين من مقاصده ويهدر غاياته وأهدافه، بل غالباً ما ينقلب استعمال الدين خارج مقاصده إلى الضد منها، كما يفضي استعمال كل شيء خارج سياق وظيفته إلى نفي غرضه.

معظم الكلام في الدين غامض تختلط فيه الممارات. تفسيرات الدين تنشأ بمرور الزمن تبعاً لثلاثاته في حياة الانسان، ثلاث الدين تفرضها احتياجات الانسان وثقافته المحلية، وهي لا تعبر بالضرورة عن جوهر الدين، بل تكيف تبعاً لما يكيفها الواقع ومتطلباته عندما تخضع لمشروطيات ذلك الواقع وإكراهاته.

أعرف أن كتاب «الدين والظما الأنطولوجي» يغرّد خارج السرب، إذ يحاول أن يعزف لحنه الخاص، لكن تفاعل الكثير من القراء معه نشأ من أنه يسعى للاعتراف بما يتطلبه كل من الروح والقلب والعقل، فلم يحذف أحدها، ولم يختزلها كلها بأحدها. الناس حيارى بين من يتبنى العقل بلا قلب وروح، ومن يتبنى القلب والروح بلا عقل. موقف «داعية العقل» قد يفضي إلى موت الروح وانطفاء نور القلب، وموقف «داعية الروح والقلب» غالباً ما يفضي إلى الفرق في الخرافة والضياح في الوهم. ومحو الحدود بين الله من جهة، وبين الألهة الزائفة وتقديس ما لا يستحق التقديس من جهة أخرى. لم يالف العقل النقدي المستنير في مجتمعنا: ايماناً حراً يمنح العقل مرجعيةً، مثلما لم يالف معظمُ التدين الشائع لدينا: مؤمناً حراً يمتلك عقلاً نقدياً مستنيراً. هذا

المتدين يفتقدك لأنك لا تكرر تفكيره وفهمه ورؤيته للعالم، وذاك العقلاني لا يجدك لأنك لا تختزل الكائنَ البشري بالمعل فقط.

ينشد تحديثُ التفكيرِ الديني الذي أدعو إليه تحريرَ النصِ الديني المؤسس من اسلام التاريخ، ذلك أنه بمرور الزمان تراكم الشروح والتأويلات على هذا النص، حتى تسجنَ الانسانَ داخله. وغالباً ما يسمي تفسيرُ النصِ المقدس مقدساً، يتمصي على النقد، بل يسمي مفسرُ النصِ مقدساً أيضاً، لا يخضع للمساءلة فيما يقول ويفعل. تحديثُ التفكيرِ الديني ضربٌ من الحرية، ذلك أنه يمنح الانسانَ والنصَ خلاصاً من تلك السجون. إنه ضوء ييوح بتحيين النص عبر قراءة تدمجه برهانات العصر وأسلته، بعد أن لبث طويلاً لا يقرؤه كثيرون إلا في الظلام.

البعض ينشر كتاباتٍ تهاض الدين، وغيبلاً يتحكم على الدين، ويهجو المتدينَ ويسخر منه، بسبب عقد شخصية عاشها في طفولته، أو مواقف ثارية اثر معاناة واضطهاد واهمال تعرض له في مدرسة أو معهد أو جماعة دينية. مثل هؤلاء يضللون الشباب المفتونين بهم حين يعلنون أن مهمتهم هي تحديث التفكير الديني، بينما هم أعداء كل الجهود الحقيقية في هذا المضمار.

كل من يتحكم على الايمان والدين ويسخر من التدين لا يصلح لمهمة تحديث التفكير الديني، لأن تحديث التفكير الديني يهيمه ايقاظُ الايمان لا تقويضه، وينشد تجديدَ الصلة بالله لا اجثائها، واكتشافَ الحدود بين الدين وتمثلاته البشرية المتنوعة، والنص وتاويلاته المتضادة، كما يحاول تفكيك ركاب التاريخ الذي حجب رسالة الدين، وأطفأ جذوة النص الديني المؤسس، ويفضح التفسيرات المتمصفة لهذا النص، والأبعاد المنسية لإكراهات إسلام التاريخ.

لا أعني بالأيديولوجيا في هذا الكتاب حينما وردت «علم الأفكار»، أي دراسة الأفكار دراسة علمية، وهو المعنى الذي وضع له المصطلح بعد الثورة الفرنسية أنطوان دسنت دو تراسي⁽¹⁾.

لكن نابليون استعمل مصطلح الأيديولوجيا بعد ذلك بمعنى سياسي يزدري مفاهيم التنوير. وفي كتاب «الأيديولوجيا الألمانية» استعملها أنجلز وماركس 1845

(1) 1754 فيلسوف وسياسي فرنسي صاغ مصطلح الأيديولوجيا. - Antoine Destutt de Tracy



بمفهوم الادراك المقلوب والزائف للواقع. وتغلب هذا المفهوم في استعمالها لاحقاً. أي أنه تمت أدلجة الأيديولوجيا، بإهمال معناها الذي صاغه أنطوان دستيت دو تراسي وتغليب معنى بديل عنه.

أعني بالأيديولوجيا نظاماً لإنتاج المعنى، يصنع نسجاً ميكروسلطة متشعبة لإنتاج حقيقة متخيلة، تبعاً لأحلام تخيلية مسكونة بعالم طوباوي موهوم. إنها عملية تزييف للحقيقة، وطمس لمعناها عبر حجب الواقع، واحتكار نظام إنتاج المعنى.

أبدى بعض قراء هذا الكتاب امتعاضهم من نقدي لأدلجة الدين لدى المرحوم علي شريعتي. ولم أجد إلا القليل من القراء النابهين التقط ما يهدف إليه نقدي لشريعتي، إذ اتخذته نموذجاً لنقد وتفكيك الأدبيات الاسلامية المسكونة بأدلجة الدين. انما درستُ شريعتي هنا بوصفه مثلاً «مبهماً ملتبساً» لاتجاهٍ في التفكير الديني الايديولوجي اجتاح عالمَ الاسلام الحديث والمعاصر. تفكيرٌ شريعتي يتلغص بأقنعة متنوعة، كلماته لا تخلو من غواية فاتنة، عباراته تدلي ببحر الأدب والفن والشهامة والشجاعة والغيرة والنقد والتحريض والمويل والتعبئة والدعوة للثورة. لذلك يتطلب كشفُ وجهتها الايديولوجية مزيداً من الفحص والتفكير والحفر والتفكيك. نقدُ شريعتي هو نموذج لنقد اتجاهٍ واسع في التفكير الديني الحديث والمعاصر الفاعل والمؤثر في عالم الاسلام.

ربما يقال إن الفكرة المجردة لا طاقة فيها لتحريك الجمهور. المهم هو تعبئة وتجييش المجتمع في اللحظات الحاسمة والمنعطفات الكبرى التي يتعرض لها، وذلك لا ينجزه إلا تحويلُ الدين أو أي معتقد آخر إلى أيديولوجيا. لكن ذلك الكلام ليس صحيحاً، إذ ليس المهم أن نحرك الشارع بأية وسيلة، حتى إن كانت تزور الواقع، وتخدع الوعي، وتنمّ العقل. الدعوات الفوضوية تمتلك طاقةً هائلة لتعبئة الناس، إذ سرعان ما تشعل الغرائز، وتفجّر مخزونَ الشر، وتبعث العقْدَ المكبوتة، لكن تلك التعبئة الشريرة التدميرية تهدر كرامة الانسان وتنتهك كلّ حرياته، وتصادر أبسط حقوقه البشرية عندما تحطّم كل شيء أمامها.

المهم أن يتحول العقل إلى مرجعية في التفكير والتعبير والسلوك، وأن تكون أحكامه هي الأصل، وأعني بالعقل هنا ماهو أعم من العقلين النظري والعملي، أي على ألا نخترل كلّ الكائن البشري بالعقل المجرد، بل من الضروري أن يحضر العقل العملي الذي يخرج به هذا الكائنُ من توحشه بعد أن يتخلّق فيتأنسن.

أما الشجاعة والحماسة والغيرة والشهامة والشرف فهي تتصل بالأخلاق، والأخلاق على الضد من الأيديولوجيا غالباً، ذلك أن الأيديولوجيا ربما تصير الحسن قبيحاً والقبيح حسناً. حدود الأخلاق الحسن والقبح العقليين، بمعنى ما ينبغي وما لا ينبغي حسب منطوق العقل العملي. أدلجة الدين تفسده، بل تفسد الايمان. الايمان ليس فكرة مجردة أو مفهوماً بارداً أو صورة ميتة، الايمان ضربٌ من الحماسة والجدوة الروحية المتوثبة والنبوغ الأنطولوجي المتدفق بكل ما يثري الوجود ويكرسه، لحظة تنظفي. هذه الجدوة يسمي الايمان رماذاً تذرره الرياح.

حين أتحدث عن السلفية في كتاباتي ولا أخصها بسلفية جهادية أو غيرها، فأعني بها ما يشمل كل قراءة سلفية للنصوص الدينية، وكل محاولة لاستدعاء للماضي أياً كان ودته في الحاضر كما هو. مهما كانت الفرقة أو المذهب الذي يدعو لها ويتبناها. أعني بالسلفية ما هو أعم من المعنى المتداول اليوم الذي تصرف فيه لمن يتبع ابن تيمية ومدرسته خاصة. إنها تشمل كل تفسير حرفي تبسطي للنص الديني قابع في الحرف، عاجز عن تذوق مقاصد النص وأهدافه، مهما كانت الفرقة أو المذهب الذي ينتمي إليه صاحب التفسير، سواء كان سنياً أو شيعياً أو اباضياً أو زيدياً.

السلفية اتجاة في التفكير الديني حاضرٌ في كل تفسير حرفي للنصوص الدينية، يتفشى في كل الأديان والفرق والمذاهب، يرسم صورته الخاصة لله، وهي صورة يشدد على تعميمها وفرضها على الكل بالاكراه. صورة تتصف ملامحها بالقسوة والشدة والعنف ومطاردة الانسان ومحاربه، لا تحضر في ملامحها الرحمة والمحبة والشفقة والجمال والسلام.

يحب البعض انه يمتنع اجتماع الايمان مع العقل، أي أن تكون مؤمناً - في مفهومهم - فأنت غير عاقل، أن تكون عاقلاً فأنت غير مؤمن. أما أن يجتمع فيك العقل والايمان، مثل: ابن سينا وابن رشد وابن عربي، وديكارت وكانط وشلاير ماخر وكيركيغورد، فهذا نهافت. كررت الاعلان أكثر من مرة: أنا مسلم، مؤمن بالله تعالى ورسالة نبيه الكريم «ص». أمضيت حياتي في دراسة وتدریس علوم الدين ومعارفه. لست ناطقاً باسم الله، ولا باسم أحد. أحترم معتقدات الآخر، متمنياً أن يحترمني الآخر.

تعتاز هذه الطبعة بتصويبات وتقويم لغوي، وإضافات تتضمن مقالات متقاة مما نُشر حول الكتاب، مع مناقشات لبعض المقالات النقدية حول أفكاره. حرّضني

الرؤى النقدية للكتاب على التفكير والكتابة مجدداً عن المفاهيم والمصطلحات والآراء التي تبدو غامضة أو مبهمّة أو ملتبسة أو هشة فيه، فأوضحتها بمزيد من الشرح والتحليل، وحاولت أن أقدم تفسيرات وأدلة إضافية على ما أشار النقاد الكرام إلى غموضه ووهنه.

عبدالجبار الرفاعي

بغداد 1 - 9 - 2016

الدين والظلم الأنطولوجي للمقدس

ما كان لهذه النصوص أن تجتمع في كتاب واحد، لو لارغبة مجموعة من الأصدقاء، ممن بدؤوا يتساءلون عن مفهوم «الظلم الأنطولوجي»، وترويجه بكثافة في كتاباتي المتأخرة، بوصفه منشأ لحاجة الكائن البشري للدين. لذلك جاء هذا الكتاب بعنوان: «الدين والظلم الأنطولوجي»، لعله يكشف غموض المفهوم، ويفصح عن شيء من إبهامه.

أعني بالظلم الأنطولوجي الظلم للمقدس، أو الحنين للوجود، إنه ظلم الكينونة البشرية، بوصف وجود الإنسان وجوداً محتاجاً إلى ما يثريه، وهو كائن متعطش على الدوام إلى ما يرتوي به.

كل نصوص الكتاب شروح ومعالجات للظلم الأنطولوجي للمقدس، من مداخل متعددة، وكلها يشي بأنه حيثما كان في الأرض بشر لم يفارقه ذلك الظلم، وحيثما كان الظلم للمقدس لا بد أن يحضر الدين. ولو استعرنا لغة الحكماء والمتصوفة والعرفاء، فإن البشر لا ينفك عن نقص في كينونته، وهو في ترق وشغف أبدي يطلب كماله الوجودي. وليس الإنسان فقط هو ما يعتره النقص في عالم الإمكان، بل النقص حقيقة هذا العالم الوجودية، إذ لا كامل إلا الواحد.

لكل موجود نمط كماله الذي هو من جنس كينونته، ويتسق مع هوية وجوده. الظلم الأنطولوجي إنما هو الفقر الوجودي، وارتواء هذا الظلم هو الغنى الوجودي. أي أن هذا النقص لا يكتمل إلا ببلوغ الكائن البشري طوراً وجودياً جديداً، يضعه

في رتبة أعلى في سلم التكامل. الدين هو ذلك السلم الذي يرتقي عبره هذا الكائن صموذاً للكمال، ويرتوي من خلاله ظمؤه الوجودي.

الفقر الوجودي حقيقة يتفق عليها الكثير من الفلاسفة والمتصوفة والعرفاء، لكن ربما يقال: لماذا الدين هو سلم الكمال لا غيره؟ ولماذا بالدين يرتوي ذلك الظمأ، ولا يكون للفنون والآداب والعلوم والمعارف ومختلف إبداعات الإنسان نصيب في ذلك، فمثلما يسكن ويطمئن المرء بالدين، بوسعنا أن نظفر بذلك مما تهبه لروحه الفنون، حين يبدع مبدع أو يتلقى شخص عملاً فنياً كلوحة أو قصيدة، بل يمكن له أن يتهج لو ابتكر أي منجز إبداعي، أو اكتشف نظرية، أو اهتدى إلى اختراع، أو تقانى من أجل إسعاد المعذبين والضحايا، وغير ذلك؟

لا أشك أن كل ذلك وغيره مما يعزز كينونة الكائن البشري ويشري وجوده، ويمنحه السكينة والسعادة. لكن ذلك كله لا يغنيه عن الحاجة للدين، ولا يكون بديلاً عنه، وإن قدّم له شيئاً مما يهبه الدين.

مادام هناك إنسان على الأرض هناك موت، الموت هو الحقيقة الوجودية العميقة الصادقة التي يكف فيها الكائن البشري عن الكذب. مادام هناك موت هناك دين. الدين هو الجواب الوحيد لتحدي الموت. الموت هو نهاية الحياة الدنيا، وذوبان وجود الكائن البشري، الذي له وجودٌ هو الأغنى، مقارنة بسواه من الموجودات الممكنة، ولا يمكن أن يتصاع هذا الوجود لنهاية ينعدم فيها، ذلك أن هذا النوع من الوجود لا يطلب إلا الأبدية.

الدين هو ما يقدم تفسيراً وتبريراً لتأييد الحياة، واستمرار وجود هذا الكائن على الدوام. يشرح الدين الموت بالشكل الذي يغدو فيه مجرد تحول من طور وجودي إلى طور وجودي آخر، أو تبدل من نمط وجود إلى نمط آخر، أو انتقال من نشأة إلى نشأة أخرى. صحيح أن الطور الثاني يكتفه إبهام وغموض، غير أن الدين يقدمه كمعطى نهائي ناجز لا نقاش فيه، ويصوره بنحو يتبدى فيه مقنعاً لمعتقيه، بوصفه شكلاً من التطور والصمود والتجرد والتسامي في رحلة تكامل الكائن البشري.

كينونة الكائن البشري أكثف وأعمق وأغنى مما نظن. لا يعني الموت في مفهوم الدين حالة سكون، أو توقف، أو تعطيل، أو نهاية، بل إن ما بعد الموت مسمى تكاملي يقادر فيه هذا الكائن نمط كينونة ذنوبية، ويدخل نمطاً مختلفاً لكنيونه. الحياة حركة،

الموت أيضاً حركة يتواصل فيها إثراء كينونة الانسان وتطورها، في ضوء هذا الفهم فإن جماعة من حكماء ومتصوفة وعرفاء الاسلام يقولون بعدم الخلود الأبدي في النار.

نعم في الفلسفة والأدب والمعارف والفنون محاولات لتفسير معنى الحياة، وثنى من إجابات سؤال الموت، وأسئلة ميتافيزيقية أخرى، لكن الدين هو مصدر التفسير الأخصب والأثرى لمعنى الحياة والموت، وغير ذلك من الأسئلة الميتافيزيقية، وكل أسئلة المبدأ والمصير والخلود.

الدين والفن كل منهما ضروري لحياة الانسان، لكن لا يمكن اهدار الدين، والاكتفاء بالفن، ذلك أن الدين خاصة، هو: ما يروي الظمأ للمقدس، ويشبع الحاجة للخلود، بوصف الكائن البشري يتزعم للكمال، وهو في ترق أبدي للخلود، ولا يشبع الشغف بالكمال والخلود سوى الحق تعالى، وهو ما يحدّد الدين السبيل للوصول اليه.

وعودُ الدين تلقى وعودُ الفن أحياناً، غير أنهما لا يتطابقان في كل شئ. الفن ينشغل بتصوير عوالم الموت والحياة، إنه يهتم برسم ما تخيل، أي يتكر لأحلامنا وأوهامنا وآلامنا عالمها المتخيل، مما نشده وما لانشده منها، من صور الخير وصور الشر، وما يبهجنا وما يحزننا.

الدين مثلما يحكي لنا ما ينبغي أن نشده في هذا العالم، يهتم أيضاً برسم صورة ممتدة رحبة للحياة. تمديد الحياة وتخليدها، وإشباع توف البشر للتكامل والأبدية، كلها خارج حدود الفن، فهي ليست من وعوده. نعم، الفن يخلد الذاكرة، لكنه لا يقدم تفسيراً يبرر تخليد الحياة.

ومع أن الفن يرفد حياة الكائن البشري بشيء من المعنى، غير أنه لا يمكن أن يكون بديلاً عن الدين، ذلك أن الفن يلون العالم بالجمال، أما الدين فيخلق هالة سحر على العالم، وهو بذلك يسافر بنا إلى خارج ماهو معيش ومحسوس ومادي جاف، في ما يحيطنا من عالم محدود، لتخرط في إيقاع موسيقى الوجود اللامتناهية.

مضافاً إلى أن الفن لا ينشد طقوساً. أو يرسم شعائراً وعبادات. لكن لادين بلا طقوس وعبادات، لأنه لا دين بلا عبادة منبثقة عن اعتقاد. الطقس يوصل الكائن البشري عضوياً بإيقاع صيرورة الوجود وحركته، ويشدّه الى مداراته، بل يدمجه في تلك الصيرورة الأبدية، ويوصله بوشيجة عضوية بها، ولا يقيه متفرجاً مخترباً، لا

تربطه به أيةً وشيجة، مما يقوده إلى اغتراب عميق، يشعر معه أنه منفي عن هذا الوجود وهو منفي عنه، فيبدو الوجود له شيئاً مخيفاً لا يتمي إليه، رغم أنه يعيش فيه، لكنه يعيش بمرارة وقلق، لأنه مسكون بالاغتراب.

كذلك يفتر لنا الدين ألغازَ هذا العالم، الذي تسوده الألغاز، وكل ما هو غير مفهوم. فما هو غير مفهوم يجعله الدين مفهوماً، وما لا معنى له يجترح الدين له معنى. ليس بوسع الإنسان أن يعيش في عالم كله مجاهيل والأغاز غامضة، عالم مبهم غريب مظلم، عالم لا يعرف عنه شيئاً، ذلك سيقوده إلى الخوف والرعب، وربما إلى الجنون.

ينشد الدين اضمحاء دلالات متماسكة على العالم، تشعر الكائن البشري بالانتماء إليه، وتخلصه من الاغتراب الوجودي. الإنسان يبحث عما يتجاوز الوقوف عند سطوح الأشياء، والاكتفاء بظواهرها، ومفهوم أعراضها الحية، هو يفش على الدوام عما هو أبعد مدى من المعنى البسيط. إنه في ترقق لاكتشاف «روح المعنى». في رحلته مع الدين وبالدين يمكنه بلوغ «معنى المعنى» وروحه، ذلك أن الدين يمتلك جهازاً تفسيرياً يسمح بتعدد التأويلات وتوالدها، فكما أن الوجود لا متناه، فإن الكائن البشري بطبيعته لا يكف عن ملاحقة التفسيرات والتأويلات اللامتناهية أيضاً، كي يعزز ذلك شعوره بأنه ليس منتهياً.

العالم كله أسرار، الإنسان مسكون بأن تبوح له الأسرار بما هو محتجب في طبقاتها. الإنسان لا يكفي بالتفسيرات المسطحة، ولعه أبدي بتفسيرات تقوده إلى الماهية المحتجبة لتلك الأسرار. ذلك هو منبع تعدد التأويلات، وهو ما يفضي إلى تنوعها وتهافتها، بل هو منشأ نزوع الإنسان المزمع للتأويل، والتنقيب عن فهم إضافي جديد، يراكمه على ما يمتلكه من فهم قديم. وهو ما ينجزه اللاهوت والفلسفة، إذ كثيراً ما نعثر في مباحث الفلسفة على لاهوت متخفي، وإن كانت تبدو فلسفة لا صلة لها باللاهوت.

يتكرر هذا التناؤل لدى الباحثين والمهتمين: ما الذي يسوق الشباب في الغرب وغيره، ممن هم في كفاية معيشية، وبعضهم يعيش ترفاً مادياً، للهجرة إلى ولانم الذبح، وحفلات الرقص على أشلاء الضحايا في بلادنا. والتسابق على الانخراط في وحشية عشية، تلتذذ بالدم المسفوح، وتهافت على مغامرات مهووسة في العمليات الانتحارية؟

الشباب يساقطون في ولائم الذبح، ويتلذذون بالدم المسفوح، كالفراش المتهاطل على لهيب الشمعة في ليلة مظلمة، بسبب ما يعانون من ظمأ أنطولوجي للمقدس، وبسبب رتابة الحياة، وذبولها، وتكرار كل شيء فيها، وانطفاء المتعة التي تمنحها لهم الملذات الحسية، فمهما كان شغفهم بالملذات الحسية، فإنهم يصلون حداً يفترق فيه كل شيء معناه في حياتهم، بل يبلغ غرقهم بكل ماهو مادي من متع جسدية درجة الغياف، عندما تتخشب فلا تبوح لهم بأي معنى. لذلك يتهافتون على ما يتوهمون أنه منبع المعنى، الذي يفقدونه في عالمهم، فيحسبون هذه الدروب الخاطئة المظلمة التي تقودهم إلى تناقض المعنى، وكأنها مار يوصلهم إلى روح المعنى.

إنهم ما انفكوا يهرولون بغية التثبت بأي شيء يتكامل به وجودهم، واقتباس لهيب شعاع يوحد جذوة أرواحهم، بعد أن انطقت فيها جذوة الحياة، والشغف بامتلاك بصيرة تكشف لهم عن تجليات جماليات الوجود المحتجة عن قلوبهم، وتخلصهم من كل هذا القبح المتفشي في العالم.

إنهم بمثابة الظامئ الذي يحسب ماء البحر عذباً، لكنه كلما شرب منه ازداد عطشاً، أو كالعطشان الذي يحسب السراب ماءً، لكنه يظل ينهكه المزيد من الجري وراء ذلك السراب الموهوم.

إن كل ذلك ينشأ من قلقهم الوجودي، وتفاقم اغترابهم في مجتمعاتهم، وتلاشي الوشائج العضوية للانتماء لأوطانهم، وشعورهم المرير بالعزلة وسط محيط عدائي، وتفاقم إحساسهم المومج بعدم الأمان، لأن كل شيء ضدهم: الحياة ضدهم، المجتمع ضدهم، الثقافة ضدهم. إنهم لا يعلمون أن مسار المعنى في حياة الإنسان لا يتكره إلا الأحلام الكبيرة، لا تنجزه إلا الأرواح المتوثبة، لا يراكمه إلا الصبر الطويل، لا يشبعه إلا الأيمان.

تؤشر فصول هذا الكتاب إلى أن الصياغة الأيديولوجية للدين تخفض طاقته المقدسة، بعد أن تهتك سحر العالم، وتطفئ شعلة الروح التي يتلمسها الإنسان فيه، وتجفف منابع ما يولد روح المعنى في مداراته، فيصاب الكائن البشري بالسأم والاحباط والضجر والغياف، بعد أن يموت كل شيء من حوله، ويفترق إلى ما يلهمه مزيداً من الطاقة.

ما وضع الدين اليوم في مأزق تاريخي، هو ترحيله من مجاله الأنطولوجي إلى المجال الأيديولوجي، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، إزدراء بعض النخب للدين

واحتقارهم للتدين، اثر الفهم الساذج المتبدل لحقيقة الدين في فهمهم، والصدور في احكامهم عن نمط التدين الأيديولوجي الشائع.

الكتابات العربية التي تدرس الدين في بعده الأنطولوجي شحيحة، رغم كثافة ما ينشر من نصوص تناول الدين والتدين، لباحثين وكتاب من الجماعات الإسلامية، أو المحاضرات والجامعات والكليات المتخصصة بالشريعة والمعارف الإسلامية، أو المهتمين بتطبيق مناهج العلوم الإنسانية في تحليل وتفسير الظواهر الدينية.

وأخال أن دراسة الدين في بعده الأنطولوجي، هي ما يضعنا في مستوى غائب في الدراسات الدينية، وما ينقلنا إلى أفق بديل، يكشف عن الحضور الحقيقي للدين في كيان الكائن البشري، وحاجته الوجودية الدفينة إلى ما يروي ظمأه الأنطولوجي للمقدس، ويفضح كل توظيف زائف للدين في صراعات المال والنفوذ والقوة والهيمنة.

عبر البعد الأنطولوجي يمكننا العبور الى جوهر الدين، فيرتوي ظمونا للمقدس، وتشرق على أرواحنا تجليات جمال الله، ونتذوق الأبعاد الجمالية المطموسة في الدين، وندرك ما يمكن أن يفيضه الدين على مشاعر المتدين في عالمنا، من: جمال مع كل ما يتفشى فيه من قبح، وضوء مع كل ما يفرق فيه من ظلام، وخير مع كل ما يسوده من شر، وسلام مع كل ما يفترسه من حروب، وحياة مع كل ما يعتمه من موت.

عبر البعد الأنطولوجي للدين يمكننا أن نشعر، بأنه كلما طغى الشر لن ينهزم الخير، كلما طغى القبح لن ينهزم الجمال، كلما طغى الظلام لن ينهزم الضوء، كلما طغى صوت الموت لن يصمت صوت الحياة، مادام هناك إله رحمن رحيم غني كريم، ونواميس أخلاق كونية.

عبر البعد الأنطولوجي للدين يمكننا أن ندرك أنه مثلما لا يزدهر الربيع بوردة واحدة، ولا تتحقق الصلاة بسجدة واحدة، أيضاً لا يعث التدين حياتنا الروحية، ولا يمنحنا طهارة أخلاقية بصلاة واحدة، بل لا ينجز الدين وعوده مالم تصبح الحياة كلها صلاة واحدة، متجهة صوب هدف روحي أخلاقي واحد.

لا أزعم أن في هذه الكلمات خلاصاً، وإنما هي إشارات لتثية القراء إلى ما هو مهمل في دراسة طبيعة الدين، وأنماط التدين، وتجليات الظاهرة الدينية. وهو فيما أرى يحثل حاجة راهنة لتحرير الدين من الاغتصاب، وإنقاذه مما انتهى إليه التوظيف

المخيف له، كآلة للقتل والإبادة والتدمير، وإعادته إلى مهمته الأصلية في الحياة البشرية، ووضعه في نصابه الحقيقي، وتحرير البحث في الدين من الاتجاهات المغالية في التعاطي معه نفيًا وإثباتًا.

أود التنويه إلى أن بعض النصوص المنشورة في مناسبات ماضية من هذا الكتاب، قد أعدتُ تحريرها، زيادةً وحذفًا وتهذيبًا، بصورة أصبح بعضها لا يكرر ما سبق نشره، فخرجت عن صيغتها السابقة، إن من حيث شكلها أو مضمونها.

وأذكر القارئ هنا بما أشرت إليه في مقدمة كتابي: «إنقاذ النزعة الانسانية في الدين»، من أنني طالما أتأخر في نشر ما كتبه من نصوص، وكثيراً ما أتردد في طباعتها، ذلك إنني عندما أبتعد عن لحظة تدوينها أتهب نشرها، ومتى ما حاولت طباعتها أعود إليها مجدداً، لأمحو وأحذف وأضيف وأصحح، وكأنني أزج نفسي في حلقة مفرغة، أعود فيها كل مرة من حيث أبدأ، لكن أيضاً كلما أحجمت، يشجمني على النشر قول الأديب الشهير خورخي لويس بورخيس: «كل ما نشرته كان يتطلب مني عشرة إلى عشرين مسودة قبل صياغته النهائية، فأنا لا أستطيع أن أكتب دون مسودة. أحياناً أقوم بتشطيات، حتى يبدو العمل أكثر تلقائية. كل الكتاب يعانون من صعوبة الكتابة.. سألت الفونسو ريس، لماذا نشر أعمالنا، أجبني: نشر حتى لا تبقى طوال حياتنا نُصحح المسودات».

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

عبدالجبار الرفاعي

بغداد 1-9-2015

- 1 -

نسيان الذات

الأنا الخاصة:

لا تعني بـ«الذات» هنا، الذات المشتركة، أي: الذات القومية، أو الذات الحضارية، أو ذات الأمة، أو ذات الجماعة، وإنما نريد بها، «الأنا الخاصة»، و«الذات الفردية»، و«الهوية الشخصية»، التي هي قوام الحياة الباطنية للكائن البشري. من دونها يفقد كل إنسان ذاته، ويصير نسخةً مكررةً متطابقةً مع نموذجٍ محدّدٍ مصاغٍ سلفاً، وتجري «نمذجة» الكلّ في سياق صفات ذلك النموذج وسماته وخصائصه، وكأنّ الجميع يُسكّرون في قوالبٍ متماثلة، تُلقى فيها اختلافاتهم وتمايزاتهم، وتُحمى البصمة الشخصية لكلّ منهم. هنا يتنازل الفرد عن ذاته، ولا يكون سوى بوقٍ يتردّد فيه صدى أصوات الآخرين، فيما يخنفي صوته الخاصّ.

الذات البشريّة بطبيعتها باطنية، داخلية، عميقة، تتطوي على أسرارها، وتخصّب وتتغنى بمنابع إلهامها، وديناميتها الجوانية، وتتحقّق على الدوام حين تشرع بوجودها وتجاربها وحياتها الخاصة. ولا يمكن لنا اختراق هذه الحياة واكتشاف مدياتها، إلّا بحدود ما تبوح هي به.

يولد الإنسان بمفرده، ويحيا بمفرده، ويموت بمفرده، ويتألّم بمفرده، ويمرض بمفرده، ويشعر بالخطيئة بمفرده، ويستفيق ضميره بمفرده، ويؤمن بمفرده، ويلحد بمفرده. ويجتاحه بمفرده أيضاً: القلق، والأسى، والاعتراب، والضجج، والسأم، والألم، والحزن، والغيان، وفقدان المعنى، وذبول الروح، وانطفاء القلب، والسوداوية، والعدمية، والعشبة، والجنون.

لا تبدأ الحياة الإنسانية الحقيقية إلّا عندما تتحقّق وتوجد الذات الشخصية، وهذه

الذات لا تتحقّق من دون الفعل، فالوجود الإنساني لا يصل إلى الامتلاء إلّا بالفعل وحده. الذات البشرية وجودها وصورورها الحرّية، وحيث لا حرّية تنطفئ الذات. الحرّية ليست أمرًا ناجزًا قبل أن نشرح باستعمالها، وجود الحرّية يعني ممارستها. الحرّية لا تتحقّق بعيدًا عن مسؤولية الفرد تجاه ذاته. لحظة تنفسي الحرّية تنفسي الذات، إذ لا نفتني الذات وتتسع وتكامل إلّا بالحرّية.

جدل الحرّية والعبودية في حياة الكائن البشري هو القيد الأزلي الذي لا ينتهي، وربّما لو انتهى فنتهي حياته معه، إنّ هذا الجدل هو مصدر الحركة، ومولّد الطاقة لاستمرار الحياة. وكأنّ هذا الكائن مجبورٌ في حرّيته، بقدر ما هو مجبورٌ في عبوديته؛ ذلك أنّ الكائن البشري في توقي أبعديّ للحرّية، فهو لا يكون إلّا بالحرّية. لو لم تطارده عبوديته على الدوام لن يتطلع للحرّية، الحرّية بطبيعتها في صراعٍ أبديّ مع العبودية.

الحرّية لا تمنح، بل تمتلك، وامتلاكها يتطلب: شجاعة الإرادة، وجسارة العقل، ومغامرة تحطيم الأغلال. الإنسان الحيّ اليقظ يكدح ما دام حيًّا للتحرّر من سجون: جسده، هويته، تاريخه، ثقافته، لغته، رؤيته للعالم، أوثانه.

الحرّية أشقّ من العبودية؛ ذلك أنّها: إرادةٌ، وحضورٌ، واستقلالٌ، وشجاعةٌ، ومسؤوليةٌ، وخيارٌ إيمانيّ، وموقفٌ حيال الوجود. أن تكون حرًّا فهو يعني أنّك تواجه العالم كلّهُ، وتحتمل كلّ شيءٍ وحدك. العبودية: هشاشةٌ، وغيابٌ، واستقالةٌ، وخضوعٌ، وانقيادٌ، وتفزّجٌ، وتبعيّةٌ، ولا موقف، ولا أبالية، ولا مسؤولية. أن تكون عبدًا يعني أنّك لست مسؤولاً عن أيّ شيءٍ، حتّى عن نفسك.

الأمّ العبودية قاسيةٌ، لكنها ليست كالآلام الحرة. مع كل ألم للحرية تنفس الروح عبيرها، بعد أن يحطّم الألم أحدّ أغلالها. مع كل ألم للعبودية تنزف الروح جراحها، بعد أن يصنع الألم أحدّ أغلالها.

أخطرُ أنماط العبودية عبودية العقل، إنها هي التي تُفضي إلى عبودية الروح والعواطف والمشاعر والضمير. الجبانُ عقله مشلولٌ، لا طاقةٌ لديه للتفكير، ذلك أنّ التفكير شجاعٌ، أحيانًا تكون ضريته موجعة. في بلادنا من يفكر بحرية لا بد أن يكون مُستعدًّا للتضحية بمقامه وماله وانتمائه لجماعته، بل ربما حياته.

صاحبُ العقل يشقى بعقله. الجاهلُ يمرحُ بجهله. تعطيلُ العقل مهربٌ للخلاص من مرارات الواقع. تنويمُ العقل ملاذٌ لتخديرنا من آلام الحياة المنهكة. لكنه أيضًا

ضرب من الحياة النيابية، التي تغيب فيها الأنا الشخصية، ويكف فيها الكائن البشري عن أن يكون هو.

الناس بطبيعتهم ينفرون من التفكير، ومن كل ما يوقظ العقل من سباته، لذلك يفتشون على الدوام عن يفكر عنهم بالنيابة، فيعودون في كل شيء يسير أو خطير في حياتهم إلى من ينوب عن عقولهم. من لا يُدرّب عقله على التفكير لن يتعلم الاستقلال في التفكير. لا تتعلم التفكير إلا بالأدمان على التفكير.

تنميط الكائن البشري:

إن أدبيات الجماعات والأحزاب تتجاهل فردية الكائن البشري، ولا تتحدث عن الأنا الشخصية عادة. وهو ما يبدو مائلاً في أدبيات الأحزاب اليسارية، والقومية، والجماعات الإسلامية، التي تعاطي مع الفرد بوصفه عنصرًا يذوب في مركب هو الجماعة، ليس له وجود حقيقي مستقل خارج إطارها، وتشدّد في مقولاتها وشعاراتها وتربيتها على أن مهمة كل شخص في الحياة هي: الامتثال لما يؤمر به، والتكسر لذاته، والدوبان في المركب، والكف عن أية محاولة لاستبطان الذات، واكتشاف فضاءات ومديات عالمها الجواني. أما قيمة الفرد، ومكانته، وحاجاته الذاتية، الروحية، والعاطفية، والوجدانية، والعقلية، فلا أهمية لها، إلا في سياق تموضعها في إطار هذا المركب، الذي هو الجماعة ومطلباتها.

وعادة ما تجري في تقاليد التربية والثقيف الخاص للجماعة عملية «تنميط» للأعضاء من: الناشئة والشباب والكهول، أناثًا وذكورًا. يتمحور الـ«تنميط» عادة على: صهر الذات في المجموع، ومحو ما يشي بخصوصيتها، وهويتها المتميزة، فكل شيء لا بد أن يشابه، ويتكرر، ويلزم به الجميع، من: النصوص المقروءة، وأسماء الكتاب والمؤلفين، والتدريب، والأنشطة والفعاليات الدورية، والبرنامج اليومي، والسلوك الشخصي، والعادات، والهوايات، والاهتمامات، والأزياء، والطعام والشراب، بل كل ما في حياة عضو الجماعة، وكل ما هو حوله، ينبغي أن يتطابق على التتابع بين هذا الإنسان ومجموع الأعضاء.

يُسمى الأفراد مخلوقات لا لون لها، أو هيئة تشخصها، متماثلة في كل شيء، مبتدلة، من دون أن نثر على سمات وخصائص فارقة، تحيل إلى طبيعتهم البشرية المختلفة، وهوياتهم الذاتية. حتى كأنهم أشخاص بلا ملامح خاصة، كأنهم أشباح،

وأشياء متعدّدة كئماً، لكنّها متّحدة كيفاً، بوصفها تنتمي إلى النموذج نفسه، الّذي تصوغه أيديولوجيا الحزب والجماعة، مما يفضي إلى: غفلة الكائن عن كينونته، بعد طمسها، بل تسيؤ الذات البشرية، وسبات العقل، والعودة في عملية التفكير وصياغة الآراء، والقرارات والمواقف، سواءً كانت عادية أو هامئة، إلى ما تعلمه تعاليم الجماعة، وتحكيه مفاهيمها. ويؤدّي ذلك إلى: هشاشة الإرادة، والعجز عن اتّخاذ أيّ قرارٍ أو موقفٍ شخصيٍّ، بعيداً عن اختيارات الجماعة وتوصياتها.

وربما ينتهي تجاهل الأعضاء لحياتهم الداخلية، وتكتّمهم على عالمهم الباطني، إلى نورّ طمهم في ارتداء أقنعةٍ شتى، تعلن عن سلوكٍ خارجيٍّ لشخصيةٍ تجسّد ما تعلمه تعاليم الجماعة، فيما تخفي هذه الشخصية داخلها قناعاتٍ ومعتقداتٍ ورؤى، تنفي ما يتبدّى من سلوكٍ لها، وتفشي في المحطّات الخاصّة ومجالس السرّ شيئاً ممّا أخفته وتكتّمته عليه في سلوكها الظاهري. وكلّ من عايشوا هؤلاء الأعضاء، وتوغّلوا في حياتهم الشخصية، يسمعون ويعثرون على ما يفضح عنه سلوكهم من ازدواجيةٍ ونفاقٍ.

واللافت للنظر أنّ هذه الجماعات تهتمّ بكلّ شيءٍ وإخراج الذات، فيما تعدّ الانهماج بالذات أنانيةً وتفاهةً، ومروفاً عن الجماعة، وانحرافاً عن الوظيفة العظمى في إنقاذ الجماهير وخلصها.

لحظةٍ يصحو أحد الأفراد يدرك متأخراً انه بعد أن غرق في شؤون الجماعة وشجونها، قد غادر حياته الشخصية، وأضحى بمثابة من يتعرض في غفلة منه لاستعبادٍ طرعي. في هذه اللحظة تسبّعه الجماعة وتخرجه من صفوفها عادةً، ذلك أنّ كلّ شخصٍ عندما يتفريق وعيه تخسره الجماعة، إذ لم يعد مطابقاً لغيره من الأعضاء في تفكيره وتعبيره عن احتياجاته الذاتية. بعد أن يتفريق الوعي يدرك الإنسان انه مختلف عن غيره من الأشخاص، ذلك أنه حين يتعرّف على ذاته يكتشف أن لها: بأسها، وقلقها، وخوفها، وحزنها، وغرائزها، ومشاعرها، وعواطفها، وحاجاتها، وأحلامها، وتطلّعاتها، وهمومها، وآلامها، وغضبها، وفرحها، وترحها، ومرحها، ومرضاها، وسقمها، وصحّتها، وحياتها، وموتها.

من هنا تحرص أدبيات الأحزاب والجماعات في بلادنا، خاصة الدينية منها، على مناهضة الثروة الفلّسية، ورفض مدونة التصوف والعرفان في الإسلام، وتتهمها بالهرطقة والخروج عن الدين، وتحذّر أتباعها من الاطّلاع عليها والنظر فيها، وهو

موقفٌ تضامن وتلتقي فيه تلك الجماعات بأسرها، لا تشذّ عنه آية واحدة منها؛ ذلك أنّها تدرك ما تطوي عليه الثروة الفلسفية من الحثّ على: بعث العقل، والنظر والتدبّر والتفكير والتأمل. كما تعلن هذه الجماعات موقفها المناهض لما تفيض به مدوّنة التصوّف والعرفان، من: التوغّل في فضاء الذات، واستكناه أسرارها، وإيقاظ الروح، وإشعال القلب، وإثراء الوجدان، وتكريس التجربة الروحية الفردية، والحثّ على سرّ أغوار الحياة الشخصية، واكتشاف طبقات النفس، واستبطان عالمها الجوّاني، والحفر في سراديبها وانفعالاتها وتوتراتها وعنفها وبراكينها.

الشخصية المستعارة:

يسود مناير ووسائل إعلام هذه الجماعات ضجيجٌ، تفرق به الصحف والمطبوعات والفضائيات، وكلّ ما هو مرئيٌّ ومسموعٌ، يستزف وقت المجتمع، ويرهقه بخطاباتٍ لا تقول معنىً جديدًا، ولا تمنح الناس فرصةً للتفكير والتعبير عن ذواتهم، وإنّما تفرقهم بفائضٍ لفظيٍّ، وشعاراتٍ تعبوية، وضوضاء تقودهم إلى حالة تنويم اجتماعيٍّ شاملٍ، ويتحوّلون إلى بشرٍ مطّحين، شخصياتهم مجوّفة، لا تستطيع أن تعثر على بصمتها الخاصّة، وصوتها المتميّز. وقتلٌ يغيب هؤلاء عن ذواتهم، وواقعه، وعصرهم الذي يعيشون فيه.

وعادةً ما تعلق مشكلاتهم كافّةً على مشجّب جاهزٍ، يختزل كلّ ذلك في أعداءٍ خارجيين، ولا ييوح بالجدور التاريخية الداخلية لتلك المشكلات، ونمط السياقات الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية المولّدة لها.

وغالبًا ما يتشعب ذلك الفائض بكلماتٍ ومصطلحاتٍ وعباراتٍ عداءٍ وكرهيةٍ قاسية، تنعت الآخر بمختلف ألوان الهجاء، متكأةً على تفسيرٍ تأمريٍّ جاهزٍ للأزمات والصراعات كافّةً، يسعى لترحيل بواعث كلّ المشكلات إلى الغير، من دون أن يرشد إلى جذور وعناصر التخلف والانحطاط المترسّبة في طبقات الماضي، والثاوية في أعماق تاريخ المجتمع.

عندما يغيب الوعي الفردي، تضمحلّ تبعًا له الهوية الشخصية، وتلاشى الذات في الجماعة، في هذه الحالة تختفي الشخصية الحقيقية الأصلية، ويسود نموذج الشخصية النيابية المستعارة.

ويفضي ذلك إلى سيادة روح القطيع، وشيوع منطق الجموع وأحكامها الجاهزة،

وتبدل معه معايير الحقيقة والحق والقيم، بنحو نمسي معه الحقيقة والحق والقيم أموراً منحصرة بما يقتضيه منطق الجمهور، ورغبات الجمهور، أي أن ما كان أصيلاً وحقيقياً لا محل له في معايير وأحكام الجماعة.

ويؤول ذلك إلى نشي التعضبات، والنزعات الفاشية؛ لأن أي شخص أو جماعة بشرية، لا تتبنى القيم السائدة في معتقدات وسلوك الجمهور لن تجد من يقبلها، وتنفى معتقداتها وقيمها.

مضافاً إلى ما ينجم عن ذلك من اضمحلال القدرة على الخلق والإبداع، والتي هي فردية دائماً، أما النسخ المتماثلة من البشر، فإنها عاجزة عن اختراق السائد، وابتكار أي شيء خارج ما هو مألوف. ولا قدرة لدى النسخ المتماثلة تمكّنها من أن تخطف ما هو شائع، فكل ما تنجزه إنما هو محاكاة لما هو مكرّر دائماً.

في هذه المناخات لا يستفيق وعي الناس، ولا يستطيعون مواجهة ذواتهم، ويفرقون في سكرة وذهول، ينسون فيها أنفسهم، فضلاً عن نياتهم حاضرهم ومصيرهم. وينخرط الناس في أزمات ومعضلات ومتاعب المجتمع، ولا يكفون عن الاستغراق فيها كل يوم، والتورط في كل ما هو خارج ذواتهم، فيما تغيب الذات، وربما تُمحى نهائياً، فلا تجد أثراً واضحاً يشير إليها، ويتوهم الجميع أن سعادتهم لا تعني ذواتهم، ولا يتنبهون إلى التفكير في حياتهم الشخصية، وطرح أسئلة جريئة على أنفسهم مثل: ما فائدة أن يتغير العالم إن لم أتغير أنا قبل ذلك؟ ما فائدة أن يسود العالم السلام إن لم تكن حياتي أنا قبل ذلك سلاماً؟ ما فائدة أن يغدو العالم سعيداً إن لم أكن أنا قبل ذلك سعيداً؟ ما فائدة أن يغدو العالم جميلاً إن لم أكن أنا قبل ذلك جميلاً؟ «ما فائدة أن تريح العالم وتخسر نفسك»⁽¹⁾، حسب قول السيد المسيح (ع)؟

الإنسان كائن عميق:

الإنسان كائن عميق شديد الغموض، فلو أنفقنا العمر كله باكتشاف الإنسان لم يضع عمرنا هدراً. مشكلات الإنسان تعود للفشل في اكتشاف حقيقة الإنسان. إن اكتشاف الكائن البشري في غاية الصعوبة؛ ففي كل شخص بيط عمق لا نراه، وفي كل شخص عميق صوت طفل لا نسمعه.

(1) ورد قول السيد المسيح في: متى فصل 16 آية 26، مرقس فصل 8 آية 36، لوقا 25 / 9، قسدي

تختين في أعماق الأشخاص الذين نعيش وتعامل معهم كل يوم أشياء من أشخاص لم نكتشفهم. كل شخص نكتشفه، ما زالت لديه أبعاداً غاطسة لم نصل إليها، وربما لن نصل إليها ما دنا أحياء. نعم، يمكننا أن نصيد أحياناً ما يكشف عن ما هو مضمّر لديهم، مما يؤثّر إليه ما يصدر عنهم، من: الهفوات، وقلبات اللسان، والنيان، والرغبات المتضادة، والآراء المتهافنة، والمواقف المتناقضة.

الشخص البشري تجتمع في ذاته التناقضات. ليس هناك شخصية ساكنة قازة كالصخرة، إلا إن كانت من جنس الحجر لا البشر. كلما اشتدت حيوية الذات ومواهبها اشتدت تناقضاتها. نعم، تبدو هكذا، أي أنها تناقضات بحسب معايير العرف والتقاليد والأديان والأيدولوجيات، ولكن هل الإنسان إلا تلاقي الأضداد؟ اليس ضعفنا جزءاً من طبيعة الحياة؟ اليس التضاد هو ما تتحقق به حيورة الحياة ويتواصل ندفقها؟

هذه التناقضات يؤثّر إليها في الكائن البشري اجتماع: الضعف والقوة، الكراهية والحب، الفسوة والرحمة، وغير ذلك. لكننا لا تنبه إلى أنه لولا الفشل لم يكن هناك نجاح، ولولا الضعف لم تكن هناك قوة، ولولا الكراهية لم تكن هناك محبة، ولولا الفسوة لم تكن هناك رحمة. كلها يمكن أن نعثر عليها في منجم الذات البشرية.

وهكذا نرى التضاد في العالم أيضاً، كي يكون مسرحاً للحيورة والتكامل، لأن تلك الصيرورة لا تتحقق بلا وجود الشر مقابل الخير، والنقص مقابل الكمال، فلولا الجهل لما اكتسب الانسان العلم، ولولا الحرب لم يصنع الانسان السلام، ولولا المرض لما ابتكر الانسان الدواء وكل وسائل الاحتفاظ بصحته، وهكذا. يقول شيخ الاشراق السهروردي: «لولا التضاد ما صح دوام الفيض عن المبدأ الجواد»⁽¹⁾. العالم مخلوق ناقص ينشد الكمال، الخير المحض غاية الكمال، ولولا ذلك لتعطلت حركة التاريخ ومكث الانسان يكرر كل شيء في حياته. حركة التاريخ صيرورة موجعة؛ تبيد الأزهار اليانعة الجميلة العطرة مثلما تبيد الأشواك الخشنة العنيفة القبيحة.

في شخصية كل كائن بشري بؤرة مضيئة أو أكثر، في الجسد أو العقل أو العاطفة أو السلوك، حتى أسوأ البشر يمكن أن تكون لديه على الأقل بؤرة مخبئة مضيئة.

مشكلات الشخص البشري تعود للفشل في اكتشافه لذاته وسبر أغوار كينونته. كل

(1) الشيرازي، صدر المتألهين. الأسفار الأربعة. بيروت: دار احياء التراث العربي، ج 3: ص 117. نُسبت هذه العبارة إلى الشيرازي وغيره.

من يفشل في ابتكار صورته، وتفريد لحنه الخاص، ورسم بصمته الفريدة، يخطف بصره كل ضوء، فتشكّل شخصيته ظلّاً لغيره، ويقتبس على الدوام كل صوت يُكرّ سمعه.

يتوّم الشخص البشري حين يعتقد أنّه يجد ذاته خارج ذاته، وهو لا يدري أنّه لن يجد ذاته إلّا في ذاته. وما أجمل تصوير أبي اليزيد البطامي لنيان الذات، وكيف غفل أبو يزيد عن نفسه أربعين عامًا، كما يصرح هو بذلك، حين سأله شخص عمّن يكون هو، فأجاب: «ومن أبو يزيد؟ ومن يعرف أبو يزيد؟ أبو يزيد يطلب أبا يزيد منذ أربعين سنةً فما يجده!»⁽¹⁾.

إنّ اكتشاف العالم يبدأ باكتشاف الذات. وعي العالم يبدأ بوعي الذات. استبصار العالم يبدأ باستبصار الذات. الإحساس بظلام العالم يبدأ بالإحساس بظلام الذات. نقد العالم يبدأ بنقد الذات. الشجاعة في معرفة أسرار العالم تبدأ بالشجاعة في معرفة أسرار الذات. تنوير العالم يبدأ بتنوير الذات. قبول العالم يبدأ بقبول الذات. الاعتراف بالعالم يبدأ بالاعتراف بالذات. التسامح مع العالم يبدأ بالتسامح مع الذات. احترام العالم يبدأ باحترام الذات. السلام مع العالم يبدأ بالسلام مع الذات.

من يفشل في اخماد حرائق ذاته يتعذر عليه اخماد حرائق العالم. تخليص العالم من أغلاله يبدأ بتخليص الذات من أغلالها. تحرير العالم من عبودياته يبدأ بتحرير الذات من عبودياتها. تغيير العالم يبدأ بتغيير الذات. تقدير العالم يبدأ بتقدير الذات. فهم تدبير العالم يبدأ بفهم تدبير الذات. الشعور بالأم العالم يبدأ بالشعور بالأم الذات. التضامن مع العالم يبدأ بالتضامن مع الذات.

حبّ الله والإنسان والعالم يبدأ بحبّ الذات. نيان الله في الذات نيانٌ لله في العالم. غياب الله في الذات غيابٌ لله في العالم. حضور الله في الذات حضورٌ لله في العالم. من لا يلتقي الله في ذاته لا يلتقي في العالم. من لا يرى الله في ذاته لا يراه في العالم. معرفة الله في الذات معرفة لله في العالم. «من عرف نفسه فقد عرف ربه»⁽²⁾، كما هو مروى عن النبيّ (ص). وذلك ما يصوره قول النفرى: «من سألك عني

(1) بدوي، د. عبدالرحمن. شطحات الصوفية. الكويت: وكالة المطبوعات، 1978، ص 84 - 85.

(2) السيوطي، جلال الدين. الحاوي للفتاوي، «القول الأشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه». بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 2004، ص 288.

فله عن نفسه، فإن عرفها فعرفني إليه، وإن لم يعرفها فلا تعرفني إليه، فقد غلقت بابي دونه»⁽¹⁾.

هناك صوتٌ دفينٌ في عالم الذات الجوّاني، هو حوار الذات مع ذاتها، إنّه مونولوجٌ باطنيٌّ. يستفيق لهذا الصوت بعض الناس، فيجده يكرّر في باطنه: أنا لست أنا، صورتي مرآة هويتي، فائض هويتي يصادر ذاتي، مثلما يصادر حرّيتي. لا أسمع صوتي أبداً، صوتي صدّي قبليّ وطائفتي. يفرض عليّ انتمائي لهويتي ألا أكون أنا، كي تتطابق صورتي مع ما نشده هويّة جماعتي، لكنّي لو خلوت ونفسي فرعان ما تابعتني ذاتي، فتمزّق الأفعى وكلّ ما طمس ذاتي، فأخفي شخصيتي، التي لا أكاد أراها إلّا حيث تكون ذاتي في مواجهة ذاتي.

الأب والأم والعائلة والجماعة، بل الكلّ، يريدون منك أن تكون شخصاً آخر، أن تكون نسخةً مكرّرةً عنهم. ستلبث على الدوام تصارع طبيعتك البشرية؛ بغية التنازل عن ذاتك، والاستجابة لهم. لكنّ ذاتك تظّل تلحّ على فرديتك، ولا تكفّ عن التطلّع للاستقلال، والخلاص ممّا تفرضه عليك العائلة والطائفة والجماعة من سجونٍ.

ربما يتوهّم الإنسان أنّه سيجد ذاته في كلّ ما هو خارجُ ذاته، وهو لا يدري أنّه لن يجد ذاته إلّا في ذاته. بل يفقد المرء ذاته لو حاول أن يعرف نفسه بغيره؛ ذلك أنّ نهايته غداً نهايته، وموته غداً موته. لا تتجلّى إرادتك وتفكّك بنفك وشجاعتك وحرّيتك وهويتك الشخصية، إلّا في أن تكون أنت.

الإيمان خيار شخصي:

الإيمان شخصيٌّ، وهو خيارٌ فرديٌّ، كذلك الإلحاد شخصيٌّ، وهو أيضًا خيارٌ فرديٌّ، وهكذا هو الموت ومصير الإنسان بعد الموت. يفرّ الإيمان مع التلقين، ويهرب بالقر والاكراه، ولا يكرسه الكلام الكثير عن الدين، أو التبشير به، وتحشيد كتائب عديدة من البشر، من أجل تلقينهم الإيمان. كل ذلك سيفضي إلى نتائج منافية لروح الإيمان والضمير الديني العميق، فإنّ «الانهيار الديني ناجم عن كثرة الكلام في الدين»⁽²⁾، كما يشير إلى ذلك كيركغورد.

(1) التفري. المواقف والمخاطبات. بيروت: دار الجمل، ص 75.

(2) مبخائيل، فوزية أسعد. سورين كيركغورد: أبو الوجودية. تقديم: أنور مغيث. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ط 2، 2009، ص 16.

الإيمان حالةٌ روحيةٌ متساميةٌ ليست حسيّةً، الإيمان جوهرَةٌ كميّةٌ، لا تخضع لقياساتٍ كميّةٍ مادّيةٍ، إنّه حالةٌ فرديةٌ لا جماعية، تتحقّق في الذات، عبر الشروع في رحلةٍ كدحٍ ذاتيٍّ للمعراج نحو الحقّ.

حينما لا يحيا الإيمان بوصفه صلةً حيّةً متوتّبةً باللّه، وإنّما يقَدّم بوصفه معتقداتٍ ومقولاتٍ ومفاهيمٍ وأفكارًا وشعاراتٍ، يجب أن يعتقها الكلّ، ويمضنها الكلّ، ويحفظها الكلّ، ويتطابق فيها الكلّ، فلن يرتوي القلب عندئذٍ بلذّةٍ وصالِ الحقّ؛ ذلك أنّ العقل هنا يحتفظ بمجموعة مفاهيم، هي بمثابة مومياءاتٍ محنّطةٍ خاويةٍ، مفرّغةٍ من أيّة حيويةٍ متدفّقةٍ.

الإيمان خلافًا للفهم والمعرفة لا يتحقّق بالنيابة؛ ففي عملية الفهم يمكن أن يتلقّى الإنسان معارفه من شخصيٍّ آخر، أو يقلّد غيره في آرائه، لكنّ الإيمان تجربةٌ ذاتيةٌ تنبعث في داخل الإنسان، إنّه صيرورةٌ تتحقّق بها الروح وتتكامل، ونمط وجودٍ يرتوي به الظمأ الأنطولوجي للكائن البشري، إنّه مما تضيق به العبارة، ولا تشير إليه إلاّ الإشارة. أعمق المعاني هي تلك التي تذوقها، لكن تضيق كلماتنا عن استيعابها، ويتعذّر على قوالب ألفاظنا البوح بها. الإيمان من جنس الحالات، و«قوالب الألفاظ والكلمات لا تتسع لمعاني الحالات»⁽¹⁾، كما يقول الشيخ محيي الدين بن عربيّ.

ولا يعني ذلك الدعوة لتصوّف مُقنّع، ذلك أنّي لست مع تصوّف الخلاص الفردي، الذي يُخرج الفرد من العالم. فإن العزلة والانفصال عن المجتمع منجم الأوهام. الآخر مرآة الذات، بل الذات عينها لا تنجلي صورتها إلاّ في الآخر.

الحق في الاختلاف:

متاعب حياتنا وحساسياتنا تنشأ غالبًا من نمط رؤيتنا للعالم والحياة والإنسان، فنحن عادةً لا نرى إلاّ لونين في العالم، فقط: «الأسود والأبيض». نصف الناس والسلوك البشري والمواقف والأشياء طبقًا لها، إمّا خيرٌ أو شرٌّ، إمّا قبيحٌ أو حسنٌ، إمّا صديقٌ أو عدوٌّ، إمّا معنا أو علينا. بينما يتسع العالم لما لا حصر له من ألوانٍ ومواقف، لا معنى لسجن كلّ شيءٍ في ثنائياتٍ مانويةٍ، هذا منطِقُ قاد المجتمعات إلى حروبٍ مرعبةٍ، شيّدت مسيرة البشرية بالجماع.

(1) ابن عربي، نزل الاملاك من عالم الارواح الى عالم الافلاك، تحقيق: طه عبد الباقي وزكي عطية، دار الفكر العربي، بيروت، ط 1، 1961، ص 116.

لا سبيل للعيش المشترك إلا أن نشبه الجميع، دون أن نكون أحدهم، أو نسعى للتطابق معهم. نقبس من كل جميل جماله، من كل مضيء ضوؤه، من كل طاهر طهره، من كل نبيل نبله، من كل حيوي حيوته، من كل إيجابي إيجابيته، من كل متفوق تفوقه.

الحق في الاختلاف ضرورة تفرضها طبيعة الكائن البشري، وحاجته العميقة للإنجاز والفرادة والتميز. لا إبداع بلا موهبة. لا تميز بلا فرادة. لا تنمو وترسخ الموهبة والفرادة إلا في مجتمع يكفل حق الاختلاف للشخص البشري.

إن الجماعات الدينية والعرقية كافة تناضل من أجل الاعتراف، فن العيش مآ يتطلب وعيًا وسعيًا وجهدًا حقيقيًا، من أجل الاعتراف المتبادل بالتنوع والاختلاف.

منطق الفكر الوثوقي على الضد من حق الاختلاف، بوصفه ينشد التوحيد القسري لأنماط التفكير والتعبير كافة، ومناهضة التعددية بمختلف تجلياتها وتعبيراتها.

منطق الفكر الوثوقي ينشأ من شعور المرء بوجود وجه واحد للحقيقة، وطريق خاص به دون سواه لاكتشافها، وهو ما يسوقه للاعتقاد بامتلاك الحقيقة المطلقة، واستباحة كل فعل عدواني ينتهك الإيمان والقيم والأخلاق. من هنا يصبح تأويل النصوص الدينية - في سياق رهانات العصر - ضرورة تفرضها الحاجة للإلغاء المسافة الثقافية بين الماضي والحاضر، وتحرير النصوص من الاغتراب التاريخي، ومن كل التأويلات والتفسيرات والشروح التي تطمس ما تكتنزه هذه النصوص من بؤر مضيئة، ورؤى ومفاهيم سامية، نتج ألفة وانسجامًا وتناغمًا بين هذه النصوص وعصرنا.

ينبغي أن نحمل مصباحًا، يضيء للناس ما نراه صراطًا مستقيمًا، لا أن نتحول إلى قضاة، فنصب محاكم لتفتيش ضمائرهم، والتحرى عن معتقداتهم.

كما ينبغي أن نتبه إلى أن ما نراه اليوم حقًا، لعل غيرنا يراه ضلالًا، وربما نتخلى عنه نحن غدًا، لو انكشف لنا زيفه؛ لذلك ينبغي ألا نكره أحدًا على الانخراط فيه، ولا نركب انتهاكًا لحرية أي كائن بشري، لنسوقه إلى ما نراه بالباطل، أو نحصر على إدخاله الجنة مصفدًا بالأغلال.

لقد علمتنا الحياة أن شيئًا مما كان بدعة أمس أضحي سنة اليوم. وهكذا علمتنا الحياة أن شيئًا مما كان هرطقة أمس أضحي دينًا اليوم، وأن شيئًا مما كان كفرًا أمس



أصبح إيماناً اليوم. طالما تحمستُ لأفكار ومقولات ومواقف ثم اكتشفتُ خطأها في
محطة لاحقة من حياتي. الموقف الأخلاقي يفرض علينا مراجعة أفكارنا ومقولاتنا
ومواقفنا المأهية وغربلتها باستمرار.

- 2 -

نسيان الإنسان

(1) محاولة أولية لكتابة سيرة ذاتية. كانت النواة الجينية لهذه السيرة شهادة موجزة، قدّمتها في حفل تكريم «الحركة الثقافية» - أنطلياس « لبنان، 3-3-2013.

صعوبة الاعتراف:

أن يقدم شخص شهادة عن نفسه فإنها بالضرورة تكون متحيزة، فما من كائن إلا وهو عاشق لنفسه، لذلك ينزع كل منا لتزيه الذات، ويعمل على رسم صورة زاهية مشرقة لها، من أجل أن ترمقه العيون بكثافة، ويُحدث اهتماماً وضجيجاً من حوله، يشبع غروره ونرجسيته.

أحاول أن أتحدث بشيء من الحياد، ربما المتعذر، إذ لا إنسان متحرر بشكل تام من ترسبات بيته في أعماق ذاته، وتحيزاته، وأحكامه المبقة، وآفاق انتظاره. أسمى لأن أكون أشد جراً في الاعتراف والبوح أمامكم، بالرغم من أنني جتكم من محيط يتغلب فيه التكنم، والإضراب عن الاعتراف، والكشف عن الحياة والتفكير الشخصي. فقلما كتب شخص في عالمي الذي عشت وتعلمت فيه سيرة ذاتية تبوح باعترافات وأسرار خاصة، أو تتحرر من التجليل والتمجيد والثناء على الذات.

تقلت في محطات متنوعة، وعشت في مدن متعددة، وعاشرت مختلف البشر، وأمضيت قرابة أربعة عقود من حياتي في الحوزة العلمية، وانخرطت في عمر مبكر في الجماعات الإسلامية، وحرصت في كافة المحطات على الجدية والمثابرة، وبذل أقصى جهودي بغية النجاح والإنجاز والتميز.

منذ بداية دراستي الثانوية حاولت تدوين مذكرات وحوادث يومية، غير أنني فلتت في المواظبة والاستمرار لأكثر من ستة أشهر، ذلك أنني أنقر من الانصياع والخضوع لواجبات نمطية تتكرر كل يوم، وإن كنت أنا الذي أفرضها على نفسي، إذ سرعان ما تنضب طاقتي النفسية، فأهرب من رتابتها المملة. لا أعرف مصير تلك اليوميات، بعد

مضي أكثر من خمسة وأربعين عاماً على تدوينها، وترحالي المتواصل بين الوطن والمنفى.

إفتقاري للأرشيف المدون لمسيرتي وتجاربي الشخصية، يمنعني من الحديث التفصيلي عن جميع الظروف والملابسات والمواقف التي عشتها، كما تخذلني ذاكرتي. كذلك تحزّم عليّ اليوغ ثقاليذ التكتم والرية، وغياب النقد والمراجعة في تقاليد الجماعات الإسلامية والحوزة. مضافاً إلى عدم شيوع ثقافة الاعتراف في مجتمعاتنا، ومزاجي الشخصي الذي يحرص بطبيعته على أن أعيش بهدوء، بعيداً عن ضجيج الحياة الاجتماعية وصخبها، والهروب من البشر الذين يحترفون تشويه الغير وانتهاك خصوصياتهم، وتشديدي على سلوكي الذي ينزع إلى الحياد ما أمكنتي ذلك، والابتعاد عن التحيز لأي شخص أو جماعة أو حزب، ويسعى للاحتفاظ بعلاقات على مسافة واحدة منهم، مع اعترازي برؤيتي وتفكيري واجتهادي المستقل، فأنا أتفق مع الجميع وأختلف مع الجميع، بنحو يجعلني «أسير مع الجميع وخطوتي وحدي».

لا يهمني فضح شخصيات زاملتها في محطات حياتي، وبلدان مختلفة عشت فيها، مع تشخيصي المبكر لعاهاتهم، وأرواحهم المسمومة، وقلوبهم المريضة، وترسخ عقدهم وأمراضهم النفسية، وأساليبهم القذرة الملتوية.

فمثلاً: اكتشفت في وقت مبكر أشخاصاً من زملائي الاسلاميين «مات الإنسان في داخلهم»، ثم هتكت تجربة السلطة في العراق عورات بعضهم، ف«مات الله في داخلهم». «إنهم ممن: «نُشُوا اللّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ»⁽¹⁾. فوظفوا كل ما وهبهم الله من ذكاء ومهارات في الكيد والغدر، واستهداف البشر، والنيل منهم، والتأمر عليهم.

كذلك لا أزعم أنني أمتلك ما يكفي من روح المجازفة والمغامرة والشجاعة، لتدوين ما يخذش الحياء، أو يتهك الثابوات المتجذرة في عالمتنا، خاصة وأني مازلت متمياً للحوزة، ومتساكناً مع الإسلاميين بألوانهم واتجاهاتهم كافة، وحريصاً على حماية ذاكرتي المشتركة معهم، وعدم التضحية بعلاقاتي التاريخية، بل أعمل على تعزيزها، وعجزي عن الانفصال والخروج والانشقاق على المحيط الاجتماعي، ذلك أن من يعترف بحضته في مجتمعاتنا يغامر بفقدان هويته، ويكون الطرد والنفي واللعن مصير كل من ينتقد قبيلته وطائفته وحزبه.

(1) الحشر، 59.

كل ذلك وغيره بمعنى من البوح والكتابة المكشوفة عن أي شيء لا يدعو للتمجيد والمديح في حياتي. مع كل هذه الممنوعات والاحترافات والخشية، هل اختصر حياتي بما هو مضي، فأكتب النجاحات والمعجزات والمكاسب والانتصارات.. فيما أهمل الإخفاقات والفشل والخاسر والهزائم؟

ليست مثل هذه الكتابة تقدم صورة مخالطة مراوغة مأكرة، تخفي أكثر مما تظهر، وتتكتم أكثر مما تعلن، وتحجب أكثر مما تظهر، وتطمس أكثر مما تكشف، كما أراه في مذكرات بعض المشاهير، الذين رسموا لأنفسهم وعائلاتهم وماضيهم، صورة مشرقة ساطعة، كأنها لوحة قية بريشة دافنشي، وقصيدة غزل قالها امرؤ القيس؟

هل يستطيع شخص التغلب على تمرّكه حول ذاته، ويحكى إخفاقاته قبل نجاحاته، ويجرؤ على إعلان أخطائه، بالرغم من أن أهم حافز بشري في حركة التاريخ هو طلب اعتراف الآخرين وثنائهم؟

لا أشك في أن كتاباتي المنشورة، بل ما أقوله هنا أيضاً، محكوم أيضاً بهذا الحافز، ولولا ذلك لما واصلت التأليف والكتابة. مع كل ذلك هل تبقى قيمة لمثل هذه الكتابة؟

نعم، ليست هناك كتابة منحررة من كافة القيود والممنوعات في عالمنا الشرقي، تربيته في الطفولة، وتعلّمنا بدءاً بالمراحل الابتدائية حتى الدراسات العليا، وتقاليدينا وقيمنا وأعرافنا، تدجّنا على تمويه وإخفاء وتغيب ما نحسب أنه يشوّه صورتنا، أو يحطّ من مكانتنا، وتحظر علينا البوح بما ينجم عنه الإساءة للعشيرة والجماعة والطائفة.

الاعتراف ثقافة غربية على مجتمعاتنا، بينما ألف القديس أوغستينوس «الاعترافات»، في القرن الرابع الميلادي «354-430»، مدشّناً باعترافاته هذا النمط من التأليف. لم يعرف تراثنا شيئاً من ذلك، إلا محاولات شاذة منبوذة، لمن اعتبروا مارقين مبتدعين ضالين، ولما نزل حتى اليوم نخضع لمفاهيم الموروث وأحكامه.

هذا يعني أنني حيارين لا ثالث لهما. إما أن أؤمنك بعض الشجاعة فأحدث عن شيء من فصول حياتي، بمهارة وحذر، بالحدود التي لا أتجاهل فيها ما مضى من عواتق وممنوعات، أو أصمت كما صمت كثيرون من قلبي، وغادروا الحياة، فدفت معهم حقائق وأحداث ومواقف وتجارب هامة. أنا فضلتُ الخيار الأول،

وحاولت أن أكتب، متحضرًا بعض جروح طفولتي وفتوتي وشبابي وكهولتي،
ووشم ذاكرتي، بالمدن والمجتمعات والمهام والمشاكل والوقائع والكتب والأفكار
والمفاهيم والشعارات... وغير ذلك.

الأقدام الحاهية لا يرهقها تراب الأزقة:

أمضيت أكثر من نصف حياتي في الحوزة في النجف ثم قم. مكثت في الحوزة منذ
1978 حتى اليوم، تلميذاً ثم مدرساً ومؤلفاً. مسيرة حياتي تحركت عبر محطات ثلاث
حتى اليوم: القرية، الجماعات الإسلامية، الحوزة. كل واحدة من هذه المحطات
أنفقت فيها سنوات عديدة.

في 1-7-1954 ولدت في قرية «آل حواس»، التي ترتبط إدارياً بقضاء الرفاعي،
في محافظة ذي قار من العراق، حسبما يفيد سجل النفوس المدون عام 1957، وهو
تاريخ لا يمكنني التحقق منه وتوكيده، ذلك أن أهل الريف يومذاك لم يدر كوا الكتابة،
ولعلمهم مازالوا في وطني يعيشون المرحلة الشفاهية، وعادة ما يعتمدون على تقويم
محلي وعائلي وشخصي، تحدد السنوات فيه طبقاً لما يحدث فيها من: فيضانات، أو
أمراض وبائية، أو مجاعات، أو نكبات عائلية، أو زراعة وحصاد محاصيل، أو إنتاج
حيواني غير متعارف، أو حوادث شخصية، وفي مثل هذا التقويم يتركز الاهتمام على
السنوات ومواسم الزراعة، فيما يتقلص رصد الأشهر فضلاً عن الأيام، إلا في حالات
استثنائية.

والدتي تقول إن سنة ولادتي هي: «موحان الثاني»، وموحان تسمية شائعة
لفيضان نهر دجلة، وتبعاً له «الغراف» المتفرع عن النهر، الذي يقضي سهول الحضارة
السومرية. الفيضان الأول حدث عام 1948، والثاني 1954 كما تشير إلى ذلك تواريخ
فيضانات دجلة. أما يوم ولادتي فهو 1 يوليو «تموز».

اليوم الأول من يوليو «تموز» أشرك فيه مع العراقيين كافة، من جيلي والأجيال
الماضية، ممن يجهل أبائهم تواريخ ولاداتهم، ويبدو أن الجهات المسؤولة عن
تنظيم الاحصاء السكاني اقترحت اليوم الأول لمتصف السنة، كمعد شامل للمواليد
المجهولة كافة. وهذا ما حرمني معرفة برجعي الخاص، وتفاؤلي أو تشاؤمي، مما
يتوقعه قراء الطالع من المنجمين.

«آل حواس» قرية صغيرة، لا يتجاوز عدد العوائل القاطنة فيها العشرين عائلة،

على بعد 2 كم تقريباً، جنوب تل أنثري سومري قديم، يسمى محلياً «أم الطحيم»، و1.5 كم تقريباً، شمال شرقي دولة المدينة السومرية المعروفة «جوخة أو أو ما». و10 كم عن الضفة الغربية للغراف، و1.5 كم عن الرفاعي وقلعة سكر، في محافظة «ذي قار».

يمتحن أهل القرية الزراعة والرعي، وينحدرون من قبيلة بني «ركاب»، ما خلا عائلتنا، فقد توطن جد أبي البدوي «ناصر» في الريف، وهجر حياة الترحال في البادية للمرة الأولى، بعد مصاهرته أحد شيوخ اليوحزمة، وواصل جدي «تميم» العيش في القرية، وفيما بعد والدي.

الرواية الشفاهية لنسب العائلة تقول: إن جدي ناصر كان بدوياً، ينحدر من قبيلة معروفة في الجزيرة العربية، هي «قحطان»، هذه القبلة تمتحن الرعي وتربية الجمال والمواشي.

كانت الأسر الأقدم في القرية قد امتلكت حق زراعة الأرض، بالتعاقد مع «آل سعدون»، الذين منحهم العثمانيون حق استغلال واستثمار مقاطعات شاسعة من الأراضي «الأميرية» المملوكة للدولة في سهل الغراف. فاضطر والدي لفلاحة أرض أحد الأشخاص، وفق تعاقد يحصل بموجبه والدي على نصف الربيع فقط، مقابل توفير البذور واستصلاح التربة والحراثة والري والحصاد، وكافة المهام المرتبطة بفلاحة الأرض. فيما يحصل ذلك الشخص على النصف الآخر، من دون أي جهد أو نفقات على الأرض أو المحاصيل، لأنه سبقه للحصول على حق استثمارها من «آل سعدون».

في طفولتي كنت أعيش مرارات التعف والاستغلال الذي يتعرض له أبي، وأتساءل: لماذا تقدم نصف الربيع لذلك الرجل الذي يمضي أيامه متكعاً في القرية، فيما يكدح أبي ليلاً ونهاراً للنهوض بأعباء فلاحة الأرض. ما زلت أتذكر استيقاظه منتصف ليل الشتاء الشديد البرودة، وذهابه لمسافة 3 كم في الظلام حافياً، بغية الظفر بساعتين أو ثلاث لسقي محاصيله، وصراعه المرهق مع انهيار السدود الترابية على «الرحماني»، أو «لهوب»، وهما جدولان يرويان أراضي «آل حواس»، يتفرعان عن «كريسة». الجدول الرئيسي الذي ينهل من الغراف.

كنا نشعر بتمييز وغربة في القرية، لأننا لانتمي إلى العشيرة نفسها، إذ إنه على الرغم من عذوبة سلوكيات النساء والرجال وبساطة عيشتهم، وفطرية أخلاقياتهم في الأرياف، غير أن رابطة القرابة هي المعيار الحاكم على منظومة القيم والأفعال في حياتهم.

كان أبي معروفًا بشجاعته وخشونته وشراسته، ينلح على الدوام ببندقية، مضافاً إلى انتطاقه خنجراً، وحمله لعصا في طرفها العلوي كرة صلبة جداً من القير تسمى «مقار»، وكأنه في حالة إنذار أبدي استعداداً لقتال، باعتبارنا نفع خارج إطار القرابة السائد في القرية، وشعورنا المزمن بالغبرة.

طفقت أفتش عن إطار يحميني خارج العشيرة، فوجدت في فتوتي شعارات ووعود أدبيات الإسلاميين كهفياً وملاذاً، خلعت أنها تحررتني من الغربة، وتلقي كافة ألوان التمييز بين بني البشر، لكنني أدركت متأخراً أنها أضفت غربة أخرى إلى غربتي، تمثلت في اغترابي عن ذاتي، ونياني لحياتي الخاصة.

ربما تشكلت النواة الجينية لتحيزي الأبدي لهموم وآلام المضطهدين والمهمشين والسيوذين والضحايا من هاتين المحطتين القاسيتين في بداية حياتي، أي غربة الطفولة الاجتماعية، واغترابي عن ذاتي في الجماعات الإسلامية.

الاحتماء بأسماء ليست جميلة للأبناء:

عائلتنا تألف من أم وأب، مع ابنتين، وثلاثة أولاد. تسليبي هو الأخير بين اخواتي وإخوتي، فقدتُ أمي ستة أطفال، بعد ولادتهم مباشرة، أو بعد عدة أشهر من طفولتهم، إثر نفثي أوبئة الطفولة، وعدم توفر تلقيح ضد تلك الأوبئة المتوطنة، وغياب الوعي الصحي.

كانت أختي التي تكبرني بعامين «بُنهين» آخر من دفنتهم أمي بعد ولادتي. وهي كما يشي أسمها تدلل على تعب والدتي من الحمل والولادة، فحاولت أن تلوذ بالاسم لتقول: «بس»، بمعنى كافي، خلاص، تعبت، أرهقني الحمل والولادة والرضاعة وحضانة الأطفال. مثلما توسلت أمي وأبي بأسماء خاصة لأخوي من قبل، إثر اختطاف الموت لمجموعة من مواليدهم. وكأنهم أدركوا بحاستهم الفطرية، قيمة الكلمات، والعلاقة الذاتية بين الاسم والمسمى، حسبما يذهب بعض علماء اللغة. أخي الأكبر أسموه: «حظلل»، ولاحقاً تبدل إلى «علي»، وأخي الأوسط: «شري»، ولاحقاً تبدل إلى «شريف».

الناس في القرية يحتمون بأسماء ليست جميلة للأبناء، كي ينقذوهم من الوفيات المبكرة. إذ يعلنون شيئاً في الاسم، لكنهم يتكتمون على ما يصاده، ذلك أن ما يخفونه في التسميات تحكيه حيلة مفضوحة، كأنهم يعلنون زهدهم في هؤلاء الأولاد، عبر

تسميتهم بأسماء منفرة، وإن كانوا يضررون في وجدانهم التلهف لولادتهم، والشغف بمجيتهم، ونجاتهم فيما بعد من وفيات الأطفال الوبائية المتفشية في الأرياف يومذاك. وتعود هذه الظاهرة اللغوية إلى تقاليد العرب القديمة في إطلاق الاسماء. ويبدو أنها في أغلب تجلياتها شديدة الارتباط بنمط الحياة الاجتماعية للقبائل العربية القديمة، وخصائص البيئة المحيطة، وكلها تجعلهم في مواجهة دائمة مع الحياة، وهي تحمل طابع الصراع الدائم ومواجهة الأعداء، ممثلاً بأحداث الفزو والإغارة المتكررة، والبيئة الصحراوية الخشنة. لذلك ارتبطت تسمية الأبناء بعبادات تترجم أحلام الانسان العربي ومخاوفه ومعتقداته ورغباته، فربما حمله التفاؤل على اختيار اسم «مُذْرِك» أو «دَرَاك» أو «عامر» أو «سعد»، وربما كان تفاؤلاً بالنصر والظفر على أعدائه، فاختار اسم «غالب» و«غلاب»، وربما حملته الرغبة في ترهيب عدوه على اختيار اسم حيوان مفترس كـ«أسد» و«ليث» و«ضرغام» و«عقاب» و«صقر»، أو باسم نبتة قاسية كـ«حنظلة» و«طلحة» و«قتادة»، أو باسم لجزء قاس من الارض كـ«صخر» و«حجر» و«جرول».

وتشير المصادر العربية القديمة، أنه قيل لأبي الدقيش الأعرابي: (لَمْ تُسْمَوْنَ أَبْنَاءَكُمْ بِسَمِّ الْأَسْمَاءِ نَحْوِ كَلْبٍ وَذَيْبٍ، وَعَبِيدِكُمْ بِأَخْسَنِ الْأَسْمَاءِ نَحْوِ مَرْزُوقٍ وَرَبَّاحٍ؟ فَقَالَ إِنَّمَا تُسَمِّي أَبْنَاءَنَا لِأَعْدَائِنَا، وَعَبِيدِنَا لِأَنْفُسِنَا)⁽¹⁾.

تدين امي محرس الايمان في روجي:

في ستينات القرن الماضي كان بيتنا يتشكل من صريفتين مشيدة من القصب وحصرانه «البواري»، وهي نمط شائع لبناء المساكن في الأهوار والمناطق المتاخمة لها، يبدو أنها متوارثة من العصور السومرية، كما نرى رسوماتها على ألواحهم ومنحوتاتهم.

الصريفة هي محل المعيشة والجلوس والنوم، وعادة ما تستخدمها امي مطبخاً في الشتاء، ففي كل صباح أختنق بدخان «المطال» - وهو وقود مكون من فضلات الحيوانات المحففة - حين تشعله امي تحت «الطائوق»، وهو قرص طيني مسطح

(1) - الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام. تحقيق: عمر عبد السلام السلامي. بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط 7، ج 1: ص 28. وينظر أيضاً: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب. تحقيق: ابراهيم الاياري. بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط 2، ج 1: ص 22.

جيداً، لغرض إعداد رغيف دائري، قطره لا يقل عن نصف متر، وسمكه لا يقل عن 1 سم، يتطلب إعداده جهداً كبيراً. كآني أئذوق نكهته ورائحته وطعمه حينما يكون ساخناً، أترعته أمي للتمن من «الطابق».

متصف القرن الماضي كان العيش في قريتنا بالغ القوة، كل شيء في حياتنا بدائي، الإملاق مناعنا، يتكرر طعامنا، الذي يفتقر إلى أي شيء سوى خبز القمح وأحياناً الشعير، تتكر أمي كزميلاتها من نساء القرية بعض الأكلات في فترات متباعدة، لو توفرت لديها بعض مكوناتها، مثل «الحميض»، وهو قليل من الرز الردي مطبوخ باللبن، المشتقة تسميه من حموضته، يصيني الغثيان حين أضطر لتناوله، مع عدم توفر أي غذاء سواه، أو «البحث»، وهو الرز المطبوخ بالحليب، الذي كنت أترقه فترات الربيع، حينما تلد الأغنام والأبقار، فيتوفر الحليب. كذلك في فصل الربيع تضاف إلى طعامنا «التولة» وهي نبات بري مسلوفاً، غالباً ما يكون من نبتة «الخباز».

نبدأ يومنا باستيقاظ أمي فجراً، وهي تلو ترنيمتها اليومية «اللهم صلي على محمد وآل محمد، أصبحنا وأصبح الملك لله، سبحان الله، لا اله الا الله، الحمد لله رب العالمين...»، أرضعتي أمي بتلك الترنيمة الصباحية إيمانها الجميل اللذيذ، مثلما أرضعتي حليبها. كنت منذ طفولتي أغفو بجوارها، وأستفيق على نغم تهليلها وتبجحها وتمجيدها. استلهمت دروسي الروحية منها، لم تكن أنشودتها كلمات، وإنما هي حالات تسقيني ما يسكر روحي. إنها ضوء وصور وحقائق، تحسسها مشاعري، تشع على فؤادي، نهيمن على وجداني، وتشرق في روحي. أحياناً يتباني شيء من الدهشة، أمام المشهد الذي ترسمه كلماتها. إنها ليست كلمات يابسة متخشبة، وإنما هي شموع تخلع على قلبي انشراحاً وإبشامة.

ظلت التجربة الدينية لأمي منبعاً لا ينضب يستقي منه تديني. هي من غرست المنحى الميتافيزيقي الروحي الأخلاقي في حياتي، وإلى نمط تدينها، الفطري العفوي البرئ الشفيف، يعود الفضل في رسوخ إيماني وتجذره، ومقاومته لأية مجادلات، أو مناقشات، أو إشكالات، أو مشاكسات، أو قراءات تشككية. وإلى تدرج أمي أيضاً يعود الفضل في تجذر الأخلاق في ضميري.

إيماني مطمئن في فؤادي، في فضاء محصن منبع، بعيداً عن شطحات عقلي، ومشاكساته الفلسفية، واستفهاماته اللاهوتية القلقة والحائرة. فسل عقلي في أن يطيح

بإيماني، أو يقوّضه، أو يزلزله. مازالت أطياف كلمات أمي حاضرة لحظة استيقاظي، بالرغم من مضي أكثر من خمسين عاماً عليها.

لا ذاكرة مكان في وجداني:

بعد أن تزوّجاً وتصلّي الفجر، تمارس أمي مهمات عديدة، تبدأ بحلب الأغنام والأبقار، بمساعدة أختي «أم ناصر»، وبعد زواج أختي، نهضتُ أنا بوظيفة مسك النعجة لها لحظة حلبها، وهي عملية مزعجة، خاصة حينما تكون ليالي الشتاء ممطرة، والنعاج تفرق أصوافها بالمطر، وتخوض في بركة بالبيت، تختلط فيها مياه المطر بفضلات الأغنام والأبقار والحمير. بعد الحلب نفتح أبواب حضائر الموالب الصغيرة للأغنام «الطليان»، لترتضع ما تبقى لها من أمهاتها. وهكذا تفعل أمي عندما تحلب الأبقار، فتطلق العجول من حضائرها. بعد ذلك تسرع إلى إيقاد التور، وخبز العجين المعد في الليل.

يستقظ أبي أثناء الحلب، وبعد أن يصلّي، نشترك في الإفطار، وهو يتكرر كل يوم: «خبز وشاي» لا غير. عادةً ما ينام والدي بعد صلاة الفجر، ذلك أنه يمضي معظم الليل، إما في الري، واستغلال حصة محاصيلنا من مياه الجدول، وهو المسمى بـ«الرشن»، ومتابعة سقي الأرض، وإما ناطوراً على ما لدينا من حيوانات، خشية السرقة. فالـ«حرامية» وقتل كثيرون، والسرقة مهنة يحترفها رجال معروفون في مختلف القرى والأرياف، ويؤمن لهم بعض الناس ملاذاً.

لا أتذكر أنني نمت ليلة من دون ضجيج نباح كلاب الحراسة المتواصل، الكلاب تزعج «الحرامية» حين تحسّسهم، وتنبأ أصحابها إلى الكمائن التي يختبئون فيها. لكنهم يخاتلون كلاب الحراسة، بصنّهم وسكونهم لساعات، يترقبون غفوة بعض الرجال، بعد إنهاك السهر، واستلامهم للنوم، لينقضوا على حيواناتهم أو بنادقهم، وربما حلّي فضية أو ذهبية متواضعة القيمة لسانهم، وليس مذكراتهم، إذ لا يمتلك هؤلاء الفقراء مذكرات أو أموالاً سائلة.

كنت أنا وغيري من أطفال القرية نخاف جداً من «الحرامية»، لذلك نرضع لأمم الأمهات في تنويمنا أول الليل مبكراً، تحت طائلة التهديد بـ«الحرامي»، إذ تكرر الأمهات على الدوام مع أطفالهن: «نام لا يجيك الحرامي».

بعد شروق الشمس مباشرة في الصيف، أو بعد مضي ساعة في الشتاء، تخرج

الغنم للرعي، تليها الأبقار، والحمير. يتولى الرعي אחי، وفيما بعد إحدى زوجتي אחوي، أو رعاة فتیان، اضطرت أهليهم قسوة العيش والفاقة على زجهم بهذه الحرفة القاسية، بغية تأمين طعامهم وثيابهم.

تتفرغ أمي لمهمات أخرى، بعد خروج الحيوانات للرعي، تنكس فضاء البيت المكشوف «الحوش» من فضلات الحيوانات، وتمزجها معاً لعمل «المطال»، ومن أجل إنجاز ذلك تلبث لساعتين أو أكثر، وتعود لتحضير عجین خبز الغداء، ثم تحضير اللبن والزبد من الحليب الرائب، يخض جلد شاة مدبوغ يسمى: «شكوة»، لمدة لا تقل عن نصف ساعة. تتيح لنا اللبن للشرب، فيما تحتفظ بالزبدة، كيما تراكمها كل يوم، وتعمل منها الدهن الحيواني «الحر»، الذي يباع نهاية الموسم في المدينة، بأثمان زهيدة، تساعد في تسوق الثياب والتبغ والشاي والسكر.

قلماً يجتمع أفراد الأسرة في الظهيرة معاً في المنزل، لانشغالهم في المزارع والرعي، لا تُستثنى من ذلك أيام الجمعة أو غيرها من العطل، ذلك أن لا عطلة للزراعة أو الرعي.

قيل الغروب تعود الحيوانات إلى حضائرها في باحة البيت، وبالتدريج يجتمع أفراد الأسرة، بعد نهارات مضية بالكدح. تبدأ الفترة المائتة بمشاغل تدبير الحيوانات، يتكرر الحلب مثلما نفعله صباحاً، وفصل الأغنام عن الأبقار والحمير، فالأولى في باحة البيت «الحوش»، والثانية والثالثة عادة ماتربط في زوايا «الحوش»، وهكذا تجلس الحملان والعجول الرضيعة في حضائرها المكظفة.

لا جديد يضاف إلى طعام العشاء، سوى «التولة» أحياناً، وهي نبات الخباز البري ملوقاً مع الخبز. يليه الشاي، الذي كانت تهتم به أمي في كل الأوقات، أغتم لحظة تقديم الشاي لأعترف كمية أكبر من السكر، يستحيل مذاقه معها إلى شديد الحلاوة، في غفلة من أهلي، فالأطفال لا يحصلون على أية حلويات في القرية، ما خلا شيء من التمر في بعض الفصول.

ليست هناك إنارة في ليالي الصيف، حتى في الليالي الحالكة الظلمة، حين يُفتقد القمر، ذلك أن أي مصدر للنور في العراء تهافت عليه الحشرات من فراشات وغيرها مسرعة، فضطرت للاختباء في الظلام للتخلص منها. أما في الشتاء فهناك وسيلة محلية للإنارة، هي عبارة عن قارورة زجاجية «بطل»، مملوءة باللفظ الأبيض، تمتد من فتحته إلى أسفله عمودياً في داخله برديّة مقشرة، تثبت من الأعلى في فتحته بمجّين أو قطعة

من التمر. عندما تشعل الطرف الأعلى الظاهر للبردية، تنبعث إضاءة، مصحوبة بخيط غليظ من دخان يتواصل مادامت تشتعل، مما يفضي إلى تغليف الجدران الداخلية للصريفة بطبقات كثيفة من الكربون الفاحم. سرعان ما ينضب النفط، مع أن البردية لا تمكث مضيئة أكثر من ثلاث ساعات، حتى نطفئها وننام.

عند النوم، الفراش والغطاء والوسادة، كل شيء من الصوف، الذي لم يُعالج ويُنظف جيداً، أو يُسج بماكانات الحياكة الحديثة. وإنما يؤخذ وهو خام، ويفزل وينسج بالآلات حياكة بدائية يدوية. لا تنسج الصريفة لفراشٍ مستقل لكل واحد من العائلة، كما لا يتوافر ما يكفي من الأفرشة والأغطية، مما يضطر الأم والأبناء لاستعمال الفراش والغطاء معاً.

في الليالي الممطرة يخترق المطر الصريفة، تساقط قطراته باستمرار طيلة الليل، مترجة بما يقلفها من كربون الدخان، ولا يقينا الغطاء - «الإزار الصوفي» المحاك بطريقة رخوة - من القطرات المتساقطة من سقف الصريفة. لا أنسى فزعي واستفاقتي فجأة من النوم، وأنا ارتعش وتصطك أسناني، إثر تبلل الغطاء، فأشعر بالبرد ينهش عظامي.

كنت أشعر في مرحلة طفولتي بجزع وسأم وقرق، وبصراحة حياتي كانت أفسى، لكنني تكتمت على جروحها الأعمق، لعلّي أتسلح بشجاعة أكثر يوماً ما، لأبوح بشيء من أنماط عنف الاضطهاد في العائلة الريفية، وازدواجية المعايير ونضاد الأحكام في الاجتماع القروي.

لا ذاكرة مكان في وجداني، ذلك أنّ حياتي نشردُ مزمن منذ عمر 12 عاماً، حتى الأماكن التي عشت فيها المحطة الأطول والأثرى في تكويني، ولعلها الأجدى والأهم في حياتي، لا أجد وشيجة عضوية تربطني بها، وليس في مشاعري انشداد إليها.

يبدو أن جروح ذاكرة الطفولة لا تقفأ تنهش أي نمط من تراكم ذاكرة المكان في المحطات اللاحقة من حياتي

المكان ليس شيئاً ميتاً صامتاً، إنه بصمة الهوية، إنه صوت الكائن اللامسوع، إنه صورته اللامرئية. المكان الجميل، هو الوطن في صورته البهية، إنه نداء الكينونة، لحن تجارب الكائن البشري الموحية، إنه الاحتفاء بالإنسان، إنه صوت أنشودة الحياة.

المكان الشقي، هو الوطن اللاوطن، إنه التعبير البشع لفتح العالم، إنه شكل من سجن الروح والقلب والعقل والضمير، إنه المحل المسكون بضجيج العنف والموت بأشنع تعبيراته، إنه المكان اللامكان، الذي لا يعرف الأمن، ويهرب منه على الدوام السلام.

لعل ذلك هو ما يملئ عليّ ويقودني لأن أكون في الحاضر لا الماضي، أفتش عن كل ما يحزرنني من سطوة الماضي، ويضعني دائماً على أعتاب المستقبل من دروب الخلاص.

طفولة مُحيت فيها صورة الطفل:

في حالة تعرّض شخص منا لمرض، تلجأ أمي لأساليب تلقنتها من الموروث الشعبي والفلكلور المحلي، واهتمت بتطويرها في ضوء معلوماتها المحدودة ووعيتها المبسط عن الكون والانسان والطبيعة، خاصة أمراض الأطفال شبه المتوطنة. كثيراً ما يقع الصغار ضحية لهذه الطرق البدائية في المعالجة، فمثلاً حينما يُصاب بالحمى، أو الإسهال، أو الرمد أخذ الأطفال، تأتي به والدته إلى أمي، لتتولى تطييبه.

عيني اليمنى تمزقت فيها الشبكية في صغري، إثر أصابتي بالرمد، فعملت أمي على تمريرها بطريقتها الخاصة، إذ قامت بحكها، بوسائل غير معقمة، وحاولت أن تزيل التقرحات والاحتقان من الجفون بدلحكها، حتى نزلت. انها تخال الدم المسفوح من العين فاسداً، ومالم يستخرج هذا الدم تبقى العين مريضة. الشفاء في المفهوم الشعبي يعني طرد ما هو فاسد من البدن.

التفسير شائع في حياة الناس في قريننا، يتعاطاه عادة البعض، ممن يمثلون مرجعيات لسواهم. يعتمد مثل هذا التفسير على ملاحم وقصص خيالية، تتحدث عن عصور تبدو كأنها عصور ما قبل التاريخ، وكيف كانت البدايات والنهايات فيها، وكيف تتكرر المآلات والنتائج، وما تُفضي إليه الحوادث الطبيعية، والظواهر والمواقف الاجتماعية.

كأن هذا النمط من تفسير التاريخ يحاكي «العود الأبدي»، ذلك ان كل شيء، ينتهي إلى قدره الحتمي، ليعود فيتكرر مجدداً، بغض النظر عن الصياغات المعروفة لمفهوم العود الأبدي. علماً أن أهل القرية لا يعرفون شيئاً عن ذلك التفسير.

. تمتلك أمي خبرة جيدة في رواية الملاحم، ومحاولات تطبيقها على ما يسود

حياة مجتمع قريتنا المحدود. كنت أستمع إليها أحياناً، وهي تتحدث بإسهاب مع صديقاتها: «لوية، بلعوطة، رمانة، عذبية، نجبية...». وهن يصغين بإمعان لما تتحدث به من حكايات خرافية عتيقة، وقصص ميثولوجية غابرة، وتهتم بمقارنتها بما يسود حياة اجتماعنا الصغير.

حين أعود إلى بعض الحكايات التي لم تسقط من ذاكرتي، أجدها غنية بالرموز والعلامات والإشارات، ذات الكثافة الدلالية. تأويل تلك الرموز يتيح لنا التعرف على الأنساق الرمزية، ويكشف لنا عن طبقات المعنى المحورية الرابضة في البنى التحتية العميقة للمجتمع الريفي. البنية الرمزية تضيء بمغزى ومعنى أفعال وسلوك المجتمع الريفي، وهي التي تتيح لنا فهم وتحليل ما نحبه ما وراء الفهم، في تلك الحكايات.

أمضيت طفولتي في القرية، لكنها طفولة مفرغة من كل طفولة، طفولة محيت فيها صورة الطفل، ونفي من مرحلته العمرية، كأن الطفل في هذه الطفولة ميت، طفولة لم تعرف لعباً وعبثاً، إذ لم تتوافر لي فيها حتى الأشياء البسيطة التي يلعب الأطفال بها ويعبثون في مثل هذا العمر. بل كان أهلي يحسبون أنني أكثر رشداً وأنضج عقلاً من أن أنخرط في لعب وعبث الصبيان. وتلك واحدة من الأخطاء التربوية الخطيرة، التي يرتكبها الآباء والأمهات والمربون، وعادة ما يدفع الأطفال فاتورها مع تقدم عمرهم مستقبلاً، ذلك أنها ترسخ قناعات زائفة عند الناشئة، عبر خداعهم بأنهم أكبر دائماً من مرحلتهم العمرية، والعمل على ترويضهم باستمرار على فكرة أن سلوك جيلهم هو عبث وطيش صبية صغار، لا يليق بعقلهم ومكانتهم وشخصيتهم الرشيدة. ويجد ذلك تعبيره بوضوح في: حرمانهم من اللعب، ومنعهم من العبث البريء في طفولتهم مع أقرانهم، وإنهاكهم بحملهم على التلبس بدور أجيال أخرى تفوق أعمارهم.

ربما يعود موقف الأيوين هذا إلى شغفهم في رؤية صورتهم الكاملة في الابن، هكذا كنت لاحظ ما ينشده أبوي لي. لا أعرف كيف، ومن أي منبع ينبعث كل ذلك. تساءلت لماذا كل هذا الحب والشغف اللامفهوم بالأبناء، وأبناء الأبناء؟

حب الأبناء والشغف بهم هو حب نرجسي لأنفسنا لعله يعود إلى أن الكائن البشري لا يكف عن التوق للخلود، وفي الأبناء ما يبنى بديمومة حياته، عبر امتداده هو في حياتهم، ومن يليهم، وهكذا.

الأطفال حلم جميل، إنهم مرآة لصورة الكائن البشري يوم كان صغيراً، كأنهم

يستأنفون للكبار مرحلة طفولتهم، وكل ما تحفل به ذاكرة الطفولة من تدفق الحيوية والجمال. كل إنسان في شوق مزمن لتأييد الطفولة، كلما تقدم عمر الإنسان هاج هذا الشوق، الكل يعشقون أن تتكرر طفولتهم، ليعيشوها مرة أخرى.

مضافاً إلى أن الأبناء يُشبعون حاجة الكائن البشري العميقة للكمال، فكُل ما فشل الآباء في إنجازه أمس، يحلمون بأن يُحقِّقه الأبناء غداً.

وهكذا يمكن أن يُشبعوا ولع الكائن البشري الذي لا يذبل بالاعتراف، بوصفه الحافز الأعمق للإنجاز، وعادة ما يحلم الآباء بأن ما خسروه من اعتراف الغير بمواهبهم ومنجزهم، يمكنهم أن يتوفوه باعتراف الغير بمنجز الأبناء. وما أدق تصوير القرآن الكريم لذلك: «الْعَالُ وَالْبُؤُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»⁽¹⁾.

لكن لا يعرف الكثير من الآباء أنه لن يتكرر الآباء في الأبناء. حيث يختلف سياق التكوين والزمان والمحيط يختلف الإنسان. نعم الابن ربما لديه شئ من أبيه، لكنهما مختلفان في كينونتهما الوجودية، وسياقات صيرورتها.

مدرسة المتنبى الأفق الجديد:

في قرية مجاورة أكملت الابتدائية، كنت وأبناء جيلي من الفتيان محظوظين، بتأسيس مدرسة ابتدائية في العام الدراسي 1959/1960 في قرية تقع على بعد 5 كم تقريباً، شمال شرق قريتنا، سجلني أهلي في الصف الأول الابتدائي، انخرطت مع الدفعة الجديدة، مطلع العام الدراسي الثاني لافتتاح المدرسة.

«المتنبى» إسم مدرستي، هذا الاسم محفور في أعماق ذاكرتي، لولا «المتنبى» لمكثت راعياً، ثم فلاحاً أماً، وجندياً في حروب صدام العبية العزمنة لاحقاً. «المتنبى» أول اسم للمشاهير أسمع به، بعد أسماء الشخصيات المقدسة للأنبياء والائمة والأولياء ومراجع الدين، لا سيما السيد أبو الحسن الاصفهاني «المرجع الشيعي الأعلى في النجف»، توفي عام 1946، الذي ظل أبي يتحدث عنه حتى آخر يوم من حياته، باعتباره مرجعاً عظيماً «اهتزت الأرض لحظة وفاته»، حب اعتقاد الناس في قريتنا.

(1) الكهف، 46.

مالث «المتبي» يعني لي أكثر من كونه «حكيم الشعراء وشاعر الحكماء». إنه صديق فتوتي، ما زالت لاسمه نكهة وحسية بالغة في مشاعري، فحين يرد اسمه في كتاب، أو يذكره أحد، أشعر بقرابة وعلاقة حميمة خاصة تربطني به، إنها بمثابة علاقتي بأهلي.

مدرسة المتبي صريفتان، داخل فناء جدار طيني مغلق، ندخله من باب صغير، تشمل على صفين دراسيين، في الثاني الابتدائي مجموعة من الأولاد من محور قرى «البحمزة»، الذي تقع في محيطه قرينتا «أل حواس». في الأول الابتدائي كنا مجموعة فتيان في مرحلة عمرية واحدة، أصغرنا لا يقل عمره عنا سوى سنة واحدة. من قرينتا: كاطع نجمان، عبدالحسن جباد، عطشان حيدور، عبدالخضر ذياب، قاسم شمخي، مجيد رسن، كاظم هدهود، قاسم خليف، فضالة مطير.. وغيرهم.

«كاظم نجمان» ابن أختي وصديق العمر، ولدنا في الصريفة ذاتها، كما تحدثني أمي، يكبرني بأربعين يوماً. كنا معاً حتى السنة الأخيرة في الابتدائية. نستيقظ في الصباح الباكر، يتجمع الفتيان في محلّ محدّد من القرية، وبنادر للذهاب يوماً في رحلة جماعية تستغرق ما يقارب الساعة. نمشي حفاة، لا نرتدي سوى ثوب، يعث فيه الهواء البارد، وربما كوّرت العواصف أذياله على أكتافنا، في مشهد يتعرّى فيه الجزء الأسفل من أجسادنا.

يضاعف معاناتنا اليومية عدم وجود قنطرة على جدول «كريمة»، الذي نضطر لعبوره في الذهاب والمجيء، فمدرستنا تقع في ضفة المقابلة. ومع أن متطلبات القنطرة لا تتجاوز عمودين من الخشب، إلا أن فاقة الأهالي، وضعف روح المبادرة والمسؤولية لدى بعضهم، أقعدتهم عن الإسراع بالتعاون في إنجازها، وحتى بعد إنشائها ربما تعرضت للانهيأ أكثر من مرة، فنلبث عدة شهور نكابد الخوض بالماء القارص البرودة حال العبور. تتطوع بعض الأمهات لحملنا من هذه الضفة لجدول «كريمة» إلى ضفة المدرسة. أختي «أم كاطع» توب عن أمي بمرافقة الامهات في تنفيذ المهمة، لتخوض في مياه النهر، وقاية لنا «أنا وابنها».

لا يقتصر دور المرأة في الريف على إدارة المنزل، وتدريب الحيوانات بعد العودة من المراعي، بل تناط بها المهام الصعبة كافة، ويزجّ بها في الأعمال البالغة القساوة. لم تتوافر في السنة الأولى رحلات أو كراسي في صريفة الصف المدرسي، كنا

نجلس على أرض مفروشة بالبواري «حصران القصب». في أيام المطر تتحول أرضية الصف إلى بركة، تفرق البواري في الماء، فنحتشد بتوجه المعلم لتفريغها وتجفيفها.

للمرة الأولى أرى زياً مختلفاً عن نمط الزي المألوف في الأرياف - الدشداشة والسترة واليشماغ أو الغترة والعقال والعباءة - الذي يرتديه الرجال. في المدرسة معلمان يرتديان الزي الأفرنجي «البطلون والقميص والسترة»، شكله مختلف، ألوانه زاهية جذابة، لا ينفشع للأعلى أو يلتف وينطوي على الأجساد، بالرياح العاتية والعواصف، مثلما أتوا بنا. لهجتهم لا تتطابق مع لهجتنا، كلانا يتحدث العربية باللهجة العراقية، غير أن أهل المدن - قبل تريف المدينة العراقية - توارثوا لهجة مشتقة من ثقافتهم واجتماعهم المدني، بأصواتها ونطقها ومخارج حروفها، وبعض ألفاظها.

في لهجتنا نلفظ أحياناً «الياه» بدلاً عن «الجيم»، فنقول: «دياية، ريال، يابر، ييار، بيبر، يوعان...»، بدلاً من «دجاجة، رجال، جابر، جبّار، يجبر، جوعان...».

إن نطقنا هذا يعود إلى لهجة عربية لبعض القبائل، في عصر تشكّل اللغة. ومن الطريف أن «فرحان جازع»، وهو أحد زملائنا من أبناء القرية، لفرط دهشته مما سمعه من لهجة المعلم، قاس على ذلك، فاستنبط قاعدة يقبل فيها كل «ياه» إلى «جيم»، فخطب والده: «بوجه جازع جوعان»، بدلاً من: «بويه يازع يوعان».

لهذه الظاهرة اللهجية التي تسم لهجة بعض أرياف فاطني المنطقة الجنوبية في العراق جذور تعود بها إلى لهجات القبائل العربية القديمة التي استوطنت شبه الجزيرة العربية، وتنسبها المصادر العربية القديمة إلى قبيلة بني تميم، وهي جزء من ظاهرة لهجية أوسع، ربما يميل بها البدوي إلى التشديد والتفخيم والغلظة الصوتية، بإبدال الأصوات الشديدة الغليظة تلك الرخوة التي تقاربها في المخرج أو العكس، أي إبدال الأصوات الرخوة بدل تلك الشديدة، إذ يبدل التيمي الجيم ياء، ورغم أن الصوتين شجريان، ومخرجهما من وسط الحنك مع وسط اللسان، إلا أن الجيم أشد من الياء. يروي القالي في أماليه عن أم الهيثم المنقرية التيمية.

إذا لم يكن فيكَنَ ظِلٌّ ولا جَنَى... فأَبْعَدُكُنَّ اللهُ مِنْ شِيَرَاتِ⁽¹⁾

(1) - حكاة القالي في أماليه، ج2، ص214، اعتنى بوضعه وترتيبه: محمد عبد الجواد الاصمعي، دار الكتب المصرية، ط2، سنة 1926.

أي: شجرات، يقول أبو الهيثم: ليس بين الأزيم الأزجم إلا تحويلة الجيم ياء، وهي لغة في تميم.

أما العكس وهي طرفة «فرحان جازع» في إبدال الياء جيماً، فهي لهجة عربية قديمة أيضاً، تُنسب إلى قبيلة قضاة، ويصطلح عليها في الدرس اللغوي بـ«المعججة»، فيقولون: تميمج بدل تميمي، وأبو عالج بدل أبو علي، والعشج بدل العشي⁽¹⁾.

تعرفت في المدرسة على مخلوقات أخرى: «السورة، الطباشير، القلم الذي يكتب بالأزرق والأحمر معاً، دفاتر للكتابة أو الرسم، كتب مطبوعة بصور وحروف ملونة، دراجة هوائية». كم هي ضيقة آفاق عالمي الخاص في قريتي، وأية معرفة بالحياة يتحها لي ذلك الأفق الصغير جداً بأشيائه، المخلق بمكوناته، بنحو تغدو «لوحة الكتابة.. الخ»، البسيطة المتواضعة أشياء جديدة، أكتشفها لأول مرة في المدرسة.

أفكار كل بيئة تشبهها. في البيئة الفقيرة عقلياً، تنفث الأفكار البسيطة الهشة. في البيئة الغنية عقلياً، تزدهر الأفكار العميقة المركبة.

مجتمع قريتي فقير بأشيائه، نعم، يمتلك رؤيته الخاصة للعالم، ومفهوماته ومقولاته المشتقة من حياته، لآ أنها تبدو مسطحة، لا تعرف العمق والتركيب غالباً، إلا حين نتوغل في التنقيب فيما يحتجب في طبقاتها التحتية، ونحلل الطاقة الدلالية لرموزها، وهو ما لا يدركه أهلها.

لا أستطيع المقارنة بين عالمي وعالم ولدي علي مثلاً اليوم، ومهاراته المبكرة، وإطلاعه على الكثير من مبتكرات العصر، المكتنظ بكل ما وهبه تكنولوجيا المعلومات ووسائل الاتصال الراهنة، ودورها في نشر وتعميم المعرفة بكافة ألوان العلوم والفنون والآداب، وما راكمته الاكتشافات والتجارب البشرية.

«مدرسة المتني» نقلتني إلى أفق آخر في الحياة، حين أتاحت لي نافذة صغيرة، وإن كانت ضيقة، لكنها مذهشة مضيئة، إنها ساحة الاكتشاف الأولى في حياتي، التي انتقلت بي فأرتني أفقاً أوسع وأشمل وأغنى من أفق مجتمعي الريفي، ومفهوماته عن الكون والحياة.

(1) - السويطي، جلال الدين. المزهري في علوم اللغة وأنواعها. شرح وضبط وتعليق وعنونة: محمد أحمد جاد المولى وآخرين. القاهرة: دار أحياء الكتب العربية (د.ت)، ج 1/ ص 222. وأيضاً: ابن جنبي، أبو الفتح عثمان. سر صناعة الإعراب. دراسة وتحقيق: حسن الهنداوي. دمشق: دار القلم، ط 1 (1450هـ/1985م)، ج 1/ ص 175 وح 2/ ص 764.

المعلم المُعْتَفَ يَمْسِي مُعْتَفَاً:

يتبه المعلم للمتميزين في اللقاء الأول غالباً، ويحظى التلامذة الأذكياء باهتمام المعلم وثنائه وتمجيده، أمام زملائه، وأهله وأولياء أمره، وبقدر ما يؤكد التلامذة ذاتهم بهذا التبريل والتفوق، فإن ذلك يفتح عليهم بوابات متاعب وإزعاجات في دراستهم، لأنه يشير حتى زملائهم، بل إن بعض هؤلاء يحترفون حسداً وغيره، ويفتدو المتميز الموهوب عرضة للسهام الطائشة.

ليست الغيرة والحنق والحزن من تفوق الشريك ونجاحه في المهنة والحرفة والعمل والدراسة ظاهرة استثنائية أو شاذة، بل تلك طبائع البشر، وهو يحدث لاشعورياً عادة، ذلك أنه ينبعث مما هو غاطس في شخصياتهم، ويلتزم الكائن البشري منذ فترة مبكرة في حياته. وأحب أن ذلك ضرورة لنشأة وتوالد التدافع والصراع، الذي لولاه لصمت الحياة وتمطلت. الأديان والثقافات تسعى لخفض وتيرة هذا التدافع، وإدارة الصراعات بلا حروب، وفقّ النزاعات سلمياً.

في الصف الأول الابتدائي كان تسلسلي الأول على الطلاب الناجحين، وهكذا في الصف الثاني، وما يليه، إلى الصف السادس والنهائي. مما خلق لي مجموعة من الساخطين والأعداء المتطوعين، إذ كان تفوقي المتلاحق يضايقهم ويستفزهم ويشير أحقادهم.

أتذكر في الامتحانات النهائية للابتدائية «الكلوريا»، أخذتنا إدارة المدرسة إلى مدينة قلعة سكر لإجراء الامتحان الوزاري هناك، وأسكنونا مدة الامتحانات في مدرسة. ولفرط تراكم الحقد في صدور بعض زملائي، كنت كلما خرجت وجدت فراشي وكتبي مبعثرة، وفي اليوم الأخير تعرضت كل كتبي ودفاتري إلى مجزرة أتلغتها جميعاً، والفاعل مجهول حتى هذه اللحظة.

لا أريد هنا أن أتحدث عن السخرية والازدراء، والحجارة وبقايا الطماطم والبيض الفاسد، الذي كان يمحطنا به أبناء المدينة، ونحن نتكئ في مجموعات مذعورة، خشية أن يتعرض أحدنا للمطاردة والضرب لو تجول مفرداً. حين كنا نسير، بشر فضولنا، وربما دهشتنا، كل شيء نراه أثناء تجوالنا في أزقة قلعة سكر وشوارعها وسوقها.

تكوين معلمينا هش، غير اننا كنا نحتمي بهم، وننظر اليهم بهيبة، ونشعر بهالة تحيطهم، ترحي لنا بتفوقهم ومعرفتهم بكل شيء. رغم أن معلمينا كانوا بسطاء، لم

يدركوا أن التعليم الناجح هو التعليم الذي يوظف عقل التلميذ، ويدبره على التفكير المستقل، كما أن هذا التعليم ينبغي أن يكشف للتلميذ المساحات الشاسعة لجهله، ويحرره باستمرار من جهله بجهله. وليست مهمة التعليم هي حشو الرأس بأكداس من المعلومات الممتدة.

تربيتنا تبدأ وتنتهي بالتلقين. تعلينا يبدأ وينتهي بالتلقين. لا ينشد التلقين إلا تعطيل العقل، والكف عن التفكير، والانقياد الأعمى.

كذلك لا يدري معلمونا أن التربية والتعليم الحديث تهتم بحماية الناشئة من الاصابة بداء الكلام والثروة، المبلى بها زعمائنا، والمتفشية في مجتمعنا، وإعادة الاعتبار للصمت والتأمل والتفكير.

مضافاً إلى أن بعضهم كان جافاً خشناً قاسياً، مثل معلمنا في المرحلة الثانية «عبدالرحيم» الذي اعتمد أسلوباً متوحشاً لتمكين مشاعر العداوة من افتراسنا، وترسيخ الكراهية، وتغذية النزعة العنيفة لدينا، فعندما كان يدعو تلميذاً لحل مسألة أو تمرين أو كتابة على اللوحة «السبورة»، ويفشل، يقيه واقفاً، ويطلب من تلميذ آخر التصدي لحل ذلك، فإذا نجح الثاني في الاختبار، يدعو لضرب زميله الواقف بجواره الذي أخفق في الجواب. وكثيراً ما وقعت ضحية هذا الامتحان، بل الامتحان اللاأخلاقي المتوحش تجاه زملائي، وحين امتنع عن ضربهم يوبخني بشدة «استاد عبدالرحيم»، وربما يضربني، فأضطر أحياناً للتتمثيل وإبهامه بأنني نفذت ما يريد. رغم أنني أمقت العنف واستعداد البشر على بعضهم منذ صغري.

لا أدري لماذا كان معلمنا يتلذذ بهذا النوع من الإهانة والتنكيل بنا؟ لماذا يحرض بعضنا ضد بعض؟ لماذا يتلذذ بهذه الشناعات الوحشية التي تجرح أرواحنا؟ لماذا يحرض على اغتيال براءة طفولتنا بتكريس عدوانية سوداء؟ لماذا يهجم تلويت عواطفنا بهذا اللون من العنف السادي؟ لماذا يمعن في تسميم أرواحنا؟ لماذا لم يحرض على غرس قيم المحبة والتضامن الإنساني بيننا؟

لعل معلمنا يتوفي ديوناً مترابكة، من انطهاد تعرض له في طفولته من الأبيوس وغيرهما في العائلة، أو في بيته الأولى، أو في مدرسته، أو في كل ذلك، فيقطع علينا كل ما يخترنه لاوعيه من تعذيب وتنكيل وقمع فاشي تلقاه في حياته، سواء من أبويه وعائلته، أو من السلطة والمجتمع.

المقصود يسمي قامعاً، والمُعْتَف يصر مُعْتَفاً. هكذا هم المعلمون المقموعون، ممن يتعرضون لثرية عنيفة، وتضطهدهم سلطة فاشية، ويعيشون في مجتمعات مغلقة. مشكلة مجتمعاتنا أن منظومة الثقافة المغلقة لدينا تعيد إنتاج نفسها، فيتحول المقموع قامعاً، والمظلوم ظالماً، والسجين سجّاناً، والضحية جلاذاً، والمناضل بعد ظفره بالسلطة يصبح دكتاتوراً، ولصاً محترفاً، وخائناً يخون الله والإنسان والأوطان.

أحسب أن هذه الوحشية المتفشية في مدارسنا هي أحد المنابع الأساسية، التي شكّلت النسيج الرابض للعنف والزعات العدوانية في مجتمعنا. وهي ما ساقنا لحروب مجنونة منذ أربعين عاماً، قطعّت أوصال وطننا، وقتلت كل حلم جميل لمستقبلنا.

نعم، لا يولد المرء عدوانياً، لكن المجتمع يصيره عدوانياً، إذ يغذيه من: تعصباته القبلية، فاشياته الأثنية، مفاهيمه السلبية، معتقداته التعصية، وحاسياته الطائفية.

الانسان أنمن رأسمال، مازق أوطاننا هو فشل الاستثمار في الانسان، والذي هو أثرى أنماط الاستثمار، ذلك أن رأس المال البشري لا يضاهيه أي رأسمال، ولا رأسمال يتفوق عليه أبداً، مالم يصبح هذا النمط من الاستثمار مقدمة ومادة لكل استثمار، لن تنجز أية تنمية ما تشده من وعود في بناء الأوطان.

لا يمكن أنجاز هذا الاستثمار إلاّ ببناء تربوي وتكويني تعليمي يواكب ما يستجد من علوم وخبرات وتطورات تربوية تعليمية في آفاق العصر ورهاناته، ومن دون ذلك لن نخرج أبداً من تخلفنا ومأزقنا المزمّن.

لم نته حتى اليوم إلى أنه سيلبث الأبناء في مناهات ما دامت التريّة الروحية والأخلاقية والجمالية والذوقية غائبة عن المقررات الدراسية. هناك ضرورة عاجلة لتبني مقرر دراسي حديث في كافة مراحل التعليم الأساسي للناشئة في بلادنا، يستقي من الموروث الروحي والأخلاقي والجمالي لدينا وتراثنا، ومما هو إنساني في موروث الأديان والثقافات البشرية، وفلسفات الدين والأخلاق والجمال الحديثة والمعاصرة.

لم يلبث معلمونا أكثر من ستين في مدرستا النائية، ليتقلوا إلى مدارس في المدينة أو أقرب إليها، وقلما مكث في «المتني» معلمون سنوات عديدة. كان توافد معلمين جدد فرصة نعمة لنا، ذلك أنهم يصدرون عن مرجعيات أيديولوجية وثقافية

مختلفة، ولا يعتبرون عن تكوين مدرسي أو لون ثقافي واحد. يجيئون من البصرة وكربلاء والناصرية وقلعة سكر... وغيرها. بعضهم منخرطون في حركات يسارية، أو قومية، أو إسلامية. كل منهم يسعى لتوجيهنا بهدوء نحو معتقداته ورويته.

لأول مرة نواجه تنوعاً في الآراء، وإن كان ضحلاً، إلا أنه وضع عقولنا في أفق يختلف عن الأفق الأحادي في القرية. مضافاً إلى تعرّفنا على أسماء خلفاء وسلاطين وعلماء وأدباء وشعراء وكتاب.. وغيرهم.

أول كتاب ندرسه هو «القراءة الخلدونية». نتعرف على مؤلفه: أبو خلدون «ساطع الحصري». علمتُ فيما بعد أن «أبو خلدون» هو الذي صاغ ووجه استراتيجيات التربية والتعليم في بلدنا، بعد تشكيل الدولة العراقية، وهو الذي اختزل الوطن والاختلاف الإثني والتنوع الديني والمذهبي للمجتمع العراقي برؤية أيديولوجية قومية عروبية، لا تخلو من بصمة طائفية وعنصرية، يصبح فيها العربي هو المتمي للأقلية السنية، فيما تصف الأكثرية الشيعية على العجم. قومية تتمحور على نفى الوطن من أجل الأمة «العربية»، ونفي متطلبات وهموم وآمال المواطن في شعارات رومانية ومقولات زائفة، تستبعد مشكلاتنا وآلامنا الحقيقية.

أفضت البنية التربوية والتعليمية والثقافية التي أشادها الحصري في بلدنا إلى بناء الأرضيات اللازمة لهيئة أدبيات ميشيل عفلق وأفكار حزب البعث وصدام حسين، على السلطة والدولة والمجتمع.

في الصف الثاني الابتدائي، وفي طريق عودتنا من المدرسة، كنت بمعية زميلي «قاسم شمخي»، الذي تميز بطول قامته بين الطلاب، وعندما أردنا عبور جدول «كريمة» لم نجد القنطرة، لأنها سرعان ما تنهار لأي طارئ، لفرط هشاشة بنائها، فاضطررنا للخوض في الماء، كان الجدول يجري بتيار يتطلب التماسك والنبات أثناء العبور، فتقدم زميلي حاملاً كسبي وكتبه، وعبر إلى الضفة الثانية، ثم اقتفيت أثره، وبعد خطوات جرفني التيار، فغطت في الماء وغرقت. كان «قاسم شمخي» يراقبني بحذر، ولحظة غرقي وثب إلى النهر بشابه، وأسكنني بشدة من شعر رأسي وأنجاني. تلاشت قواي، ارتجف جسدي، سقطت على الأرض، من فط الاعاء، هه الغرق، لبث فترة مستلقياً مضطرباً، حتى استعدت طاقتي بالتدرج.

ما برحنا نكايد معاناة طريق الذهاب والإياب إلى المدرسة، ففي الخريف والشتاء والربيع، تُروى المزارع التي يخترقها طريق مشينا، مما يضطرنا للخوض في برك

الأماكن المنخفضة في الطريق حفاة في الطين والوحل. لكن في المدرسة ينبغي أن نغسل كل أثر للطين أو الوحل، ونظف ما تلطخت به ثيابنا.

نخضع في المدرسة لتفتيش صباحي، يفقد ثيابنا، وأيدينا وأظافرنا، وكتبتنا. وفي حالة اكتشاف المدير لما يعتقد أنه مخالفة لتقاليد الانضباط المدرسي لدينا، يسوقنا لعقاب قاس، بضرب العصي على أكفنا، وربما انهزم يضر بنا بحافة المطر الحادة على ظهر كفينا. الموزم أن أكثرنا يجف ظهر كفه ويتفلس، فيشقق ويتضخ دماً بسبب البرد. ومع ذلك يتعرض لهذا العقاب، من دون أن تأخذ المدير أو المعلم رافة أو رحمة، في وليمة عذاب الصبيان الصباحية، أو يشر شفقتهم بكاؤهم وهلعهم.

صورة المعلم في وجداننا تساوي الجلاد، ذلك أنها تعني الغلظة والفضاضة والرعب، نادراً ما يشد أحد منهم عن هذه القاعدة. المعلمون عادة شباب، في مطلع العقد الثالث من أعمارهم، تخرجوا حديثاً من «دار المعلمين الابتدائية»، ثقافتهم متواضعة، بلا خيرات، ينحدرون من مدن صغيرة، بعيدة عن العاصمة، يتصرفون بما يحلو لهم، بلا تفتيش أو محاسبة تلاحقهم في مدرستنا النائية، لذلك تنفجر كل عاهاتهم وتشوهاتهم وخشونتهم أثناء تعليمهم لنا. خبراء في الدم واللوم والتفريق والتوبيخ والهجاء. يلاحقوننا بالهجاء، نعتنا بـ«القرويين، المعدان، المتخلفين، الوسخين، الأغبياء... إلخ». يوصف كل قروي من منظورهم متوحشاً همجياً. لا يدركون قيمة الرعاية والدعم النفسي والتشجيع في تحفيز الناشئة وتنمية مواهبهم.

لم يدرك معلمونا أن الكلمات المريضة تمرض الروح، الكلمات الجارحة تجرح الروح، الكلمات الميتة تميث الروح، الكلمات الحية تحيي الروح، الكلمات المضيفة تضيء الروح، الكلمات المتسمة نكهة الروح، الكلمات الجميلة جمال الروح.

لا أدري لماذا يجهل معلمونا علم النفس التربوي، وعلم نفس الطفولة؟ ماذا درسوا في دور المعلمين؟ لماذا يتضامنون مع حكامنا الجلادين على ترويضنا منذ الصغر على الخضوع والخنوع والمكثة؟ لماذا يكرسون جهودهم لتربيتنا على ذهنية القطيع، وغرس نغية العبيد لدينا، ويحرصون على كسر شخصياتنا، وبالتالي تدريتنا على استمراء الذل والهوان في حياتنا؟ كيف ينهض مجتمع مهان مستلب متباح مدجج على الرضوخ والانتقيد؟ لماذا لا يدري معلمونا أن حو الخطأ ضرورة تربوية في المجتمعات الحية؟ كيف لنا أن نهض إذا كان المعلم يدجن طفولتنا وينمطها، بنحو نغدو كأننا نسخة واحدة يتشابه فيها كل شيء، فيما يتجاهل حق الاختلاف، الذي يفضي غيابه إلى سبات المجتمع، وتحول البشر إلى كائنات محنطة مكررة؟

أولد كل يوم عبر أخطائي:

يهرني الحماس والتدفق والمثابرة والتألق عند الشباب. لاشك أن الشباب أئمن رأسمال بشري في كافة المجتمعات، يحلمون بما لا تحلم به، يغامرون بما لا نغامر به، يكتشفون ما لا نعلم به، يقتحمون ما لا نفكر فيه، بل يجازفون في اقتحام ما هو محضور التفكير فيه. نموذجهم المستقبل لا الماضي، رؤيتهم تتحرر على الدوام من كوابح الموروث، وتجازف بمغادرة الراهن. ينشدون عالماً جميلاً، لا ترهقه أغلال المفاهيم الميتة، ولا تفنك به سموم المقولات القاتلة.

يلد الأبناء الآباء، كما يلد الآباء الأبناء. ما يتعلمه الآباء من الأبناء اليوم، أشمل وأغنى وأكثر مما تعلمه الأبناء من الآباء أمس. لقد تعلمتُ من أبنائي أكثر من آبائي، ومن تلامذتي أكثر من أساتذتي، ومن الشباب أكثر من الشيوخ، ومن اليوم أكثر من أمس، ومن الحاضر أكثر من الماضي، ومن أخطائي أكثر من صوابي، ومن البؤساء أكثر من السعداء، ومن الفقراء أكثر من الأغنياء، ومن المهتمين أكثر من الأسوياء.

تعرفتُ عبر تلامذتي وأبنائي على شيء من: آراء فلاسفة حطموا أصنام الذهن التي لم يتنبه لها المتفلسفون إلا بعد عشرات السنين، ومفاهيم مفكرين مغمورين لم يهتم بهم كثيرون، ومنجز أدباء مجهولين لم تداول نصوصهم شلل المهرجين، ورؤيا فنانين منيين مدهشين لم يدرك ابداعهم المعاصرون.

أوصلني أبنائي وتلامذتي معهم إلى قارات عميقة، كثيفة، متنوعة، خصبة، لم أكتشفها من قبل، بالرغم من أنني استنزفت عمري بالمطالعة، فمذ المرحلة الابتدائية لم أبرح الكتاب والورقة والقلم، في حضر أو سفر، في صحة أو مرض، في فراغ أو زحمة أعمال.

ولدتُ ولادات عديدة في حياتي، وما زلت أولد كل يوم من جديد. أولد كل يوم من جديد عبر أخطائي، أولد كل يوم من جديد عبر تجاربي، أولد كل يوم من جديد عبر مطالعاتي، أولد كل يوم من جديد عبر مجازفتي باستئناف النظر في أفكارتي، أولد كل يوم من جديد عبر تهوري في عبور ما هو قار ومغلق في هويتي، أولد كل يوم من جديد عبر مقدرتي على تجاوز ذاتي، أولد كل يوم من جديد عبر إدراتي لساقصاتي، أولد كل يوم من جديد عبر رؤيتي «القذى في عين غيري والخشبة التي في عيني»، أولد كل يوم من جديد عبر اكتشافي لعجزتي وجهلي وضعفي، أولد كل يوم من جديد عبر توطني التراث وتشبعي بمناخاته أكثر من خمسة وأربعين عاماً، أولد كل يوم من

جديد عبر قراءاتي وهرولتي المزمنة وراء كل فكرة ومفكر وكتاب ومقال جديد، أولد كل يوم من جديد عبر أسفاري الروحية القلبية العقلية، أولد كل يوم من جديد عبر تنوع وتعدد صداقاتي مع المختطفين عقائدياً وثقافياً وأيديولوجياً، أولد كل يوم من جديد عبر رحلاتي بين البلدان.

لكني أولد كل يوم من جديد عبر تلامذتي وأبنائي، بعد أن حررتهم من كافة أنماط التبعية والعبوديات، ومنها، العبودية لي؛ فحرروني هم فيما بعد من عبودياتي.

أصبحت أستفيق كل يوم، وأنا المبح أفقاً ييوح بالهموم الحارقة والرؤى المشتعلة، لحظة صارت عقولهم تقصني بأسئلة مشاغبة مثيرة على الدوام، وحين كنت أرى إلى ضمانتهم وهي تكتوي بالغيرة على الضحايا، وقلوبهم تتطلع إلى كل ما هو جميل في هذا العالم، وأرواحهم تشتعل بجذوة أبدية لا تنطفئ، تشد الخير والسلام في العالم. وهم يزعمون الأساسات، ويتهكون ما أدمتُ عليه؛ بوصفه أخلاقاً، فيثرون في الرعب والفرع، غير أنني أستفيق وأهدأ، لحظة استحضر الوصية التربوية الفاتحة الأهمية، المنسوبة للإمام علي بن أبي طالب «ع»: «لا تكثرهوا أولادكم على أخلاقكم، فإنهم خلقوا الزمان غير زمانكم»⁽¹⁾.

(1) «لا تكثرهوا أولادكم على أخلاقكم، فإنهم خلقوا الزمان غير زمانكم» منسوبة للإمام علي (ع). لم أشر عليها، بعد بحث في المصادر الروائية، يبدو أنها حكمة منسوبة لأكثر من واحد. فقد نسبها الشهرستاني في «الملل والنحل» إلى سقراط، وذكرها بالنص التالي: «لا تكثرهوا أولادكم على أثاركم، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم». الملل والنحل للشهرستاني. مؤسسة الحلبي، ج2: ص 87. لكن لاحظت أن أول من أوردها عن الإمام علي (ع) هو ابن أبي الحديد، بالنص التالي: «لا تقسروا أولادكم على آدابكم، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم». ابن أبي الحديد. شرح نهج البلاغة. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. قم: مكتبة آية الله المرعشي النجفي، ط 1، 1404هـ ج 20، الحكم المنسوبة، ص 267، رقم 102. وعنه كما يبدو نقلها جورج جرداق في كتابه: روائع نهج البلاغة، وأورد نسبها إلى نهج البلاغة (بدل أن نسبها إلى شرح نهج البلاغة)، واستبدل كلمة «آدابكم» بكلمة «أخلاقكم»، كما أن الشيخ محمد جواد مغنية يرويهما كما يلي، من دون ذكر سند: «لا تكثرهوا أولادكم على أخلاقكم، فإنهم خلقوا الزمان غير زمانكم». محمد جواد مغنية. في ظلال نهج البلاغة. بيروت، دار العلم للملايين، ط 3، ج 2، ص 481.

ينظر أيضاً: إغاثة اللهفان من مصاديق الشيطان لابن القيم. تحقيق: محمد حامد القمي. الرياض: مكتبة المعارف، ج 2، ص 265 ص 145. وأيضاً: الكشكول للبهائي. تحقيق: محمد عبد الكريم النمرى. بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، ج 2، ص 160.

التاريخ يصنع الانسان:

أدركت أن التاريخ يصنع الانسان أكثر مما يصنع الانسان التاريخ. أقدار كل واحد من البشر، والمحطات التي تمر فيها مسيرة حياة كل فرد، هي ما يلوّن شخصيته ويرسم صورته، بل إن ما يصنعه ويتجه الإنسان يظهر ليمتلك الإنسان، فمثلاً التقنية التي صنعها تعود لمتلكه، حتى مالم يكن مادياً أيضاً يعود ليمتلك الانسان بنحو ما.

عشت طفولتي وفتوتي في القرية، ثم تنقلت منذ شبابي في مدن وبلدان عديدة، انخرطت في التعليم الحديث، الابتدائية والمتوسطة والثانوية والجامعة، وانتقلت إلى الحوزة في النجف ثم قم.

انتميت لحزب الدعوة الإسلامية في النصف الثاني من سبعينات القرن الماضي، في ظروف هي الأشرس والأعنف في ملاحقة البعث الصدامي للدعاة، ونهضت بمسؤولية الحزب في مدينة الرفاعي وقتئذ، ثم أصبحت عضواً في اللجنة المركزية للحزب بالكويت لمدة إقامتي هناك، إلى مغادرتي الكويت نهاية سنة 1983، ثم أصبحت عضواً في لجنة الدعوة في سوريا حتى مغادرتها، للاتحاق بالحوزة مجدداً في قم، سنة 1984، وأخيراً ابتعدت نهائياً عن التنظيم في منتصف الثمانينات «1985»، بعد أن بدأت أدلجة الدين والتراث تضمحل في وعي، من دون الدخول في صراع أو معارك، أو انشقاق يفتش عن ما هو أصيل، ويندد بما هو دخيل، مثلما فعل بعض رفاقي، وبالتدرج نأيت عن العمل السياسي، وانصرفت للمشاغل الفكرية.

لكن كان يهمني الاحتفاظ بما هو انساني في علاقاتي الاجتماعية وصدقاتي التاريخية مع أولئك الناس الذين أمضيت معهم تجربة من أخصب تجارب حياتي.

لا يتسع الوقت للتحدث بإسهاب عن تجربتي في الجماعات الإسلامية، وهي تجربة بالغة الأهمية، أضفت لحياتي الكثير، وأغنتها بنمط آخر من العلاقات الاجتماعية، وتفكير وفهم مختلف لرسالة الدين ووظيفته في الحياة، لا يتطابق مع مضمون الدين الذي ارتضعته من أمي، وبيئتي الريفية الإيمانية الفطرية البسيطة. إنه فهم تعبوي أيديولوجي، يطغى فيه الخطاب النضالي المناهض للظلم والاستبداد السياسي، وصوت العاطفة والمشاعر على متطلبات الروح.

تدرت على العمل السياسي السري، والترويض على الطاعة والانقياد والولاء، والتعاطي مع الأدبيات الحزبية كنصوص جزمية يقينية، لا يمكن التفكير بنقدها فضلاً عن نقضها ورفضها.

وهي أدبيات في معظمها: وعظية، تبجيلية، تعاليم مبسطة، بمستوى لا يتفوق على مستوى تلامذة الإعدادية، لا تتضمن رؤية فيسحة للحياة، ولا تغور في عوالم الكائن البشري الجوانية العاطسة، ولا تنشي بفهم للحقوق والحريات والمواطنة والدولة الحديثة. الكثير منها كتابات ينهكها فائض لفظي، لا تخلو من طوباوية خيالية في تفسير الواقع، تستغرق في الحديث عن أحلام وربما أوهام، تغذي خيال الضحايا الممذيين، وأشواق أرواحهم للأمن والعدالة والسلام والعادة.

لا بد لي من الاعتراف، أنني في العمل الحزبي افتقدت ذاتي، بل كنت أرى إلى بعض رفاقي كما أنا، كلنا تائهون، لم يعبا أحد منا بذاته، وحياته الروحية الأخلاقية، وكاننا في سكرة يتعذر علينا الاستفاقة منها.

التربية في الأحزاب والجماعات تتمحور عادة على تنميط الذات، وتحويل كل الأعضاء إلى نسخ متماثلة، رؤيتهم للعالم واحدة، آراؤهم واحدة، مفاهيمهم واحدة، مواقفهم واحدة، أحلامهم واحدة، مشاعرهم واحدة، حساباتهم واحدة، مزاجهم واحد. بنحو تضع معه لديهم كافة الملامح والهوية الشخصية للذات.

الموهوبون الشجعان سرعان ما يحطمون الأغلال، فيتمردون على ضياع الذات. لكن الخائفين يلبثون داخل الأسوار، لذلك نجدهم يتهاقنون على كل جرح يتكلم نيابة عن جروحهم العميقة الدفينة، ويوحد بأنينهم الصامت.

لم أعر على ذاتي، وأرى ضوءاً يكشف لي الأشواك في دروب حياتي، وأعيش سلاماً يتهدج به روحي، إلا بعد مغادرة السياسة، والابتعاد عن العمل في هذه الجماعات، والخلاص من مسالكها الوعرة المتعرجة الموحشة.

ربما أعود لهذه المحطة في كتابات لاحقة، لتحليل خطاب أدبيات سرقته سنوات الحيوية والتوقد من حياتي، وأغرقتني بأوهام متخيلة، كنت أحبها حقائق جزئية، وكرست لدي نرجسية طاغية، غذتني والشباب مثلي بتزبه الذات والتفوق على الآخر. كما أتمنى الإشارة إلى شيء من خفايا الحياة الداخلية للحزب التي عشتها، وما ظل مترسحا فيها لدي من سرية وتكتم.

إمتدت صداقاتي مع مختلف الناس. كان وما زال هاجسي في بناء العلاقة التقارب في المشاعر، واحترام الخصوصية، من دون اشتراط وحدة الرؤية للعالم،

أو المعتقد، أو المفاهيم، فالعدالة «بمفهومها الفقهي» ليست شرطاً في صداقتي، كذلك التدين ليس شرطاً، وربما انجذبت بشدة لمن يختلف معي دون سواه، ذلك أنه طالما استفز عقلي، وحرّضني على التفكير، وإعادة النظر في بداياتي وجزمياتي ومسلماتي. أحاول ألا أعامل الناس كما هم أو مثلما يعاملونني، لأنني لو عاملتهم كذلك ستجتمع في شخصيتي كل صفاتهم المتضادة، لكنني أحرص أن أعاملهم بما أحب أن يعاملونني به.

احتجت إلى التضحية بسنوات طويلة من عمري وتجارب مريرة وتمارين موجعة ومراجعات نقدية متواصلة لسلوكي حتى شفيت من كثير من أخطائي وتشوهاتني وعاهاتي، لذلك أحاول على الدوام التماس الأعذار للغير، والبحث عن الدوافع الكامنة لمواقفه وسلوكه، لأنهم يواعث ما يصدر عنه من سلوك شرير، قبل إدانته والحكم عليه وتجريمه. وإن كنت لا أمنحه شهادة براءة على جرائمه، وانتهاكاته لحقوق البشر، وعدوانه عليهم. مهتدياً بما ورد في نهج البلاغة عن الامام علي بن أبي طالب «ع»: «لا تقتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه، كمن طلب الباطل فأدركه»⁽¹⁾.

أنا فارئ قبل أي شيء آخر، سرقنتي المطالعة من الحياة، حرمتني من ملاعب الطفولة والصبا، غيبتني عن الرياضة وانخراط الناشئة والشباب في ملاعب كرة القدم ومسابقاتها. لا أعرف حتى هذه اللحظة التعاطي مع أية لعبة رياضية، لم أنفق أي وقت للكرة، وحينما كان يلعب عليّ زملائي في المدرسة مشاركتهم للعب، كنت أفضل أكثر من مرة في مسك الكرة باحتراف واللعب بها، هكذا كنت مع كرة: السلة، الطائرة، المنضدة، فضلاً عن كرة القدم. أنا أمي في ثقافتني الرياضية، أجهل بدايات الرياضة وفنونها، وطالما كنت مورداً لتهكم من أبنائي، حين أستفهم عن تلك البدايات.

الكتب التي تغويني وأستمتع بمطالعتها من ذلك النوع الذي يحدث مفرقات وانفجارات في ذهني، أشد الكتب إغواءً أشد الكتب إثارة. هكذا كنت مع نيتشه الذي قرأته متأخراً، لا سيما كتابه الرويوي «هكذا تكلم زرادشت» الذي وصفه بـ«إنجيل خامس».

(1) نهج البلاغة. شرح: محمد عبده، الخطبة: 58.

ملكتني الحوزة مفاتيح التراث؛

الحوزة هي المحطة الثالثة، أعتز بهذه التجربة، التي بدأت عام 1978 ومازالت متواصلة، على مدى ثمانية وثلاثين عاماً. تلمذت على يد علماء وفقهاء معروفين، وتلمذ على يدي المئات من طلاب الحوزة. وبموازاة ذلك واصلت تعليمي الأكاديمي، حتى ناقشت الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية سنة 2005.

اكتشفت في الحوزة مسالك التراث ودروبه المتشعبة، وتذوقت فيها لذة النصوص الفلسفية والعرفانية، وغموض وتلغيز بعض مدونات أصول الفقه والفقه الاستدلالي... وغيرها.

نمتلك في الحوزة مفاتيح التعاطي مع المعارف التراثية، في مراحل ثلاث، هي: المقدمات، الطروح، والبحث الخارج. تستوعب هذه المراحل دراسة النحو والصرف والبلاغة، والفقه والأصول، وعلوم الحديث والتفسير، والمنطق والفلسفة، والعرفان، وعلم الكلام.

ندرس كلاسيكيات النصوص، وتتمرن سنوات طويلة على تفسيرها، وتفكيك الغاها، وإعادة ضماثرها إلى ما تشير إليه، ربما يعود الضمير فيها إلى صفحة أو أكثر تقدمت، ونغور في ما تحيل إليه من مضمرات ومعان حافة يتسع لها فضاؤها الدلالي. وعادة ما نعود إلى الحواشي والتعليقات والشروح، كيما نفهمها. ظلت الكثير من تلك الحواشي والتعليقات والشروح مرسومة بأشكال هندسية بارعة، على حافات صفحات الكتب المطبوعة على الحجر، منذ بداية ظهور الطباعة في بلادنا حتى منتصف القرن العشرين.

الحوزة بنية عميقة لاهوتياً وروحياً ومعرفياً وثقافياً واجتماعياً واقتصادياً، تشكل فيها سلطة ذاتية، تضبط إيقاع وانسجام مكوناتها، وتردع كل معنى يهدد هذه البنية أو يتحرش بها.

في الحوزة سلسلة من البيوتات والعوائل الدينية، تتشابك في نسج قرابات منذ عشرات السنين، وبعضها منذ مئات السنين، يضاف لها على الدوام روابط جديدة، عبر زواجات ومصاهرات بين الأجيال الجديدة لتلك العوائل.

أغنت الحوزة حياتي بتجارب ثرية متميزة، في مجتمع نسجه متشابك، تصنع فيه الألقاب الدينية، وتمنح فيه المراتب العلمية، وتخلع فيه السمات الروحية، في

سياق تقاليد ترتبط عضويًا برأسمال رمزي، ومخزون ثقافي روحي متراكم منذ مئات السنين.

لاحظت أن من كتبوا عن الحوزة - من خارجها - فشل الكثير منهم في التوغل في بنيتها التحتية الراسخة، ليكتشفوا نسيج العوامل الراقدة فيها، التي تساهم في توليد ما يحكمها من قيم وتقاليد متجذرة، ونوع الروافد التي تستفي وتغذي منها استمراريتها.

لم يكن سهلاً على ابن فلاح مثلي، جاء من العالم السفلي للمجتمع، ومن طبقة فقيرة مهمشة، أن يندمج في نسيج الحوزة، لينتزع اعترافاً، ويصبح عنصراً فاعلاً مؤثراً في هذا المحيط، خاصة وأن كل كائن بشري مسجون في بيئته الأولى، وهذا عالم لا يشبه في الكثير من تقاليده عوالم الأخرى في القرية، أو التعليم الحديث الذي تدرجت في مراحلها، أو العمل الحزبي السري الذي استنزف سنوات الحيوية في شبابه.

درستي في الحوزة أضاءت آفاق رؤيتي للماضي والحاضر والمستقبل. طالما اشتكى بعض تلامذتي، من أبناء عمال وفلاحين وفقراء مثلي، إثر صدمتهم ببعض ما يتفاجؤون به في الحوزة، ودهشتهم من غرابة ممارسات وسلوكيات بعض أساتذتهم، وبعض زملائهم من أبناء الأسر الدينية، التي تتوارث المقامات فيها، لكن كنت أشدد على ضرورة مكوئهم واستمرارهم في التعليم الديني، من أجل مستقبل أهلنا في العراق ومجتمعنا، الذي لا يصغي وينقاد إلا لرجل الدين أو شيخ العشيرة.

الوفاء للموروث والارتهان في مداراته، بكل ما يكتفه ويحتويه، هو السمة الطاغية في كل ما تهتم به الحوزة، وما يسود مشاغلها. إنها تحرص على صيانة وحراسة التراث، وتناهض المساعي للتفلت من شباكه، والتحرر من مداراته المغلقة.

من هنا تحذر من توظيف المعارف والعلوم الانسانية الحديثة في نقد وغرابة وتشريح الموروث، أو استخدام مناهجها ومفاهيمها في قراءة النصوص الدينية، ذلك أن هذا النمط من المناهج والمفاهيم ينتج مفاهيم ومقولات لاهوتية وآراء، لا تتطابق مع ما تنوّد اليه المناهج والمفاهيم العربية في: علوم القرآن والتفسير، والتحديث، وعلم الكلام، وأصول الفقه والفقه، والفلسفة.

نعم، الفكر لا يغيره الا فكر من الخميرة ذاتها، وتحديث الحوزة يتوكأ على استكشاف المنطق الذاتي للموروث واستيعابه، غير أن هذا الاستيعاب لا يعني الفرق

في أنفاقه، بل العمل على الالتحاق بالعصر، والسعي لعبور الموروث وتخطيه، وذلك لا يتحقق إلا باستيعاب الخبرات والمكاسب الراهنة للعقل البشري، وما أنجزته المعارف والعلوم الانسانية الحديثة، والإفادة منها في فهم وتفسير النصوص، وإعادة بناء المعرفة الدينية، في سياق متطلبات العصر ورهاناته.

المعرفة الدينية حقل من حقول المعرفة، تخضع لشروط الإنتاج العامة المؤلدة للمعرفة البشرية، وتحكمها القوانين والمشروطية التاريخية واللغوية نفسها، وليست هي الاستثناء الوحيد في عملية التفكير وإنتاج المعرفة. فلماذا لا يشملها البحث والدراسة في سياق المعارف البشرية كافة، ولماذا نعدها الاستثناء الوحيد الذي لا يخضع لأية مناهج ومفاهيم يكشفها ويطورها الانسان؟

مع العلم أن المعارف الدينية في الإسلام، من تفسير وعلوم قرآن، وعلوم حديث، وأصول فقه وفقه، وعلم كلام، وفلسفة وتصوف، ولدت في فضاء المعارف البشرية السائدة في عصرها، حتى أضحت قواعد المنطق الأرسطي قوالب يصاغ فيها التفكير الديني، وتحدد في سياق هذه القواعد وجهته، ويرتسم فيها اتجاه بوصلته، وما زالت المعارف الاسلامية مرتبهة لأساقفه ومقولاته حتى اليوم.

أتمنى أن أتحدث عن هذه المحطة بتفصيل أوسع، يشي بما أضافته لي الحوزة، مثلما يشي بمعاناتي وجيلي في سنوات مكوثنا فيها، تلامذة وأساتذة. أترك ذلك للمستقبل، عماني أنجزاً على تضمين مذكراتي اعترافات يوماً ما.

لو لم امضي كل هذه السنوات في فضاء تلك التجارب لا يمكن أن أتحرر - لا أدري إن تحررت بالفعل - من سطوة التراث وسلطته وقبوده، ومقاومته لأي فعل للتغيير.

حياتي الروحية الأخلاقية:

مشكلة عالمنا أن من يتشبهون بالماضي من أتباع الجماعات الإسلامية لم يجوبوا أنفاق التراث، ولم يكتشفوا مسالكه الوعرة. رؤيتهم صاغتها أدبيات الكثير منها: رومانسية، لا تقول معنى، بقدر ما تشد شعراً مبتذلاً، يطرب له الحاللون بعالم متخيل سعيد، و«جيل قرآني فريد»، حسب تعبير سيد قطب.

. خلاصي من سطوة التراث ليس بمعنى الخروج على الدين، أو الخروج من الدين،

أو التحلل من التدين، والتبجح الزائف بما يجرح الضمير الديني للناس، مثلما يفعل بعض المتطّعين المراهقين. تعلمت من التراث والواقع أن الدين أبدي في الحياة البشرية.

الإنسان كائن متدين، وإن اختلفت تجليات التدين، وتباينت التعبيرات الدينية في حياته، تبعاً للزمان والمكان والثقافة، وتنوع البشر واختلافهم. الحياة لا تطاق من دون إيمان وخبرات وتجارب دينية، ذلك أن نزعة التدين كما أعيشها تمثل لديّ ظلماً أنطولوجياً لا يُروى، الآمن خلال التواصل مع الحق تعالى.

حياتي الروحية الأخلاقية هي أئمن رصيد أمّلكه، يمكّني التفريط بكلّ شيء إلا بالإيمان، الأخلاق، والإنسانية، إنها ثوابت شخصيتي الأبدية. تفكيري بل كل شيء في حياتي يخضع للتحوّل والتغير، ذلك أن عقلي لا يكفّ عن التناوّل والمراجعة والنقد والتقويض والغرلة، لكن ضميري الديني يتمثل في هذه العناصر الثلاثة المتضامة: «الإيمان، الأخلاق، والإنسانية»، انطفاء أيّ منها يعني انطفاءها بتمامها.

في حياتي لا إيمان بلا أخلاق، ولا أخلاق بلا إنسانية. لا أزعم أن لا إنسانية وأخلاق خارج إطار الإيمان لدى البشر، فقد عشت مع أخلاقيين وإنسانيين مثاليين، خارج إطار الأديان، لكن في شخصيتي: الإيمان، الأخلاق، والإنسانية كل مترابط، الأخلاق والإنسانية في حياتي هما: الإيمان، والإيمان كذلك هو الأخلاق والإنسانية.

كلما اتسعت خبرتي بالنصوص الدينية أشرق إيماني، وتنامى حسي الأخلاقي، وتعمقت نزعتي الإنسانية. بالرغم من احترامي لأصحاب التجارب الدينية كافة، غير أنني لا أتذوق حلاوة الإيمان، ولا تضيء التجربة الدينية روحي، من دون أداء الصلاة والتمسك بالتقليد الطقوسي المستمد من الإسلام وشريعة نبيه الكريم «ص».

الصلاة والعبادات التي أؤديها هي معراج وصالي مع الحق، وهي جسر عبوري إليه في مدارج التسامي والصعود. وحسب تعبير المتصوفة والعرفاء: الشريعة توصلنا إلى الطريقة، والطريقة تقودنا إلى الحقيقة، فحين نتخلّى عن الشريعة لا ننال الطريقة، وبالتالي لا نتذوق الحقيقة.

الدين عبادة مشتقة من اعتقاد:

الدين مكون أنطولوجي للكائن البشري. يرثه المرء من أمه وأبيه، مثلما يرث لون بشرته، وصفاته الجسدية. حتى التحوّل من دين إلى آخر، يجعل الشخص يقبل الدين

الجديد في سياق دينه الأصلي، وكان المسيحي الذي يصبح مسلماً، يُعَلَّب الإسلام بأوعية مسيحية، وهكذا الهندوسي، والعكس صحيح.

هنا إشارة تضيء هذه القضية فيما يخص اللغة، فنحن عندما نتعلم لغة أخرى، ونقرأ نصاً يعود لها، فإن ذلك النص يمر عبر نظام العلامات والدلالات للفتنا الأم، المترسبة في ذاكرتنا، لذلك نحول مضمون النص إلى المفهوم المتعارف في لغتنا الأم. أي أننا نقرأ في النص باللغة الثانية التي تعلمناها، ما يحيل إلى لغتنا الأم، من رؤيتنا الخاصة للعالم، وشبكة المفهومات المترسخة في ثقافتنا.

من هنا نجد الفلسفة والفكر الغربي الحديث والمعاصر، تختلف وتباين تفسيراته وتمثلاته في الشرق تبعاً للغة المترجم لها، فمثلاً الفيلسوف الألماني مارتن هيدغر يتحقق بالفارسية عبر موروث العرفان والثقافة الإيرانية، أي أنه يتحدث للإيرانيين في إيران بالفارسية. وهكذا فوكو بترجمتنا العربية، يتحدث لنا بالعربية، وبترجماته التركية يتحدث للأتراك بالتركية.. إلخ. أي أن معظم الفكر الغربي في ثقافتنا، بدلاً من أن يصبح حلاً، تحول إلى أزمة، ذلك أننا ترجمناه وقرأناه وتمثّلناه في سياق أنساق مسلماتنا ورؤيتنا للعالم.

لكل دين عباداته وطقوسه وشعائره المشتقة منه، المتسقة مع الحياة الروحية الأخلاقية التي ينشدها. لا يتكرس الاعتقاد، ويتج الإيمان، من دون العبادة والطقس الخاص بهذا الدين. ليس هناك اعتقاد، وإيمان منبثق عنه، من دون تقليد محدد للعبادة. لا إيمان بلا حدود وعبادات وشعائر وسنن مرسومة. لا إيمان إسلامياً بلا صلاة إسلامية. لا إيمان مسيحياً بلا قدّاس، وهكذا لا إيمان يختص بكل دين بلا طقوسه المشابهة له.

كل الأديان تتشابه عباداتها وطقوسها وشعائرها مع عقائدها. محاولات الترقيع والاتقاط في العبادات والطقوس والشعائر تمحو صورة الدين، وتمحو الإيمان المتولد عنه. أما القول: «إن لكل شخص طقه الخاص»، فهذه واحدة من الخدع، ذلك أن تاريخ الأديان يتّوّن بأن ميزة الطقوس الثابتة إنما هي في اشتراكها بين أتباع الدين الواحد، ولم يصادف أن نجد ديناً أتاح لمعتقيه أن يختاروا طقوسهم كفضا يشاؤون.

نعم، هناك استثناءات في العبادات والطقوس العامة، ولكنها تعبر عن حالات خاصة، عن تشريعات لوضع خاص، كما في حالات السفر والمرض وغيرها. فإن

الطقوس تغيير هنا، ولكن لا بسبب أن هناك «طقساً خاصاً»، وإنما لأن هناك اختلافاً في أحد الشروط أو الظروف التي يجب أخذها في الطقس، فسححت بالانتقال إلى طقس من نوع آخر، من: قصر، أو ترك صيام، أو غيرهما.

كما أن لكل شخص تجربته الروحية الخاصة، التي تغذيها الطقوس المشتركة في الديانة التي ينتمي إليها، فصلاة الحلاج وابن عربي وجلال الدين الرومي، هي صلاة الإسلام ذاتها، غير أنهم تميزوا وتفوقوا بأنماط تجاربهم الدينية الخصبة الملهمة الفوارة.

الإيمان والتجربة الدينية الأصيلة يمكن أن تتحقق في سياق ديانة ذات إطار اعتقادي طقوسي محدد، ذلك أنها تتطلب أن تستقي على الدوام من التقليد الطقوسي الخاص بها، الذي هو من نسخها، ولو ركبنا عليها تقليداً طقوسياً بديلاً، كما لو أن مسلماً يمارس تقليداً طقوسياً هندوسياً أو العكس، سيفضي ذلك إلى التناثر بين التركيز الشعائري الطقوسي والمعتقد والتجربة الدينية المنبثقة عنه، ذلك أن لكل معتقد طقس خاص من جنسه، بمعنى أنه مشتق من طبيعة رؤيته للعالم ومقولاته الاعتقادية.

وهذا ما تُدلل عليه الحياة الدينية لمختلف المجتمعات، ففي المجتمعات الغربية، التي يمنح الأشخاص فيها حرية دينية واسعة، لا تسودها ظواهر، مثل: مسلم يصلي في معبد هندوسي، أو هندوسي يؤدي طقه في المسجد.

فلما نثر على أشخاص يتخطون في تجريب الأديان وطقوسها، بغية إرواء ظمئهم الأنطولوجي، وعادة يعيش مثل هؤلاء ضباعاً وتمزقاً وقلقاً واضطراباً، ذلك أنهم كشارب ماء البحر، كلما شرب منه اشتد ظمؤه.

وهو ما يشي به ما اشتهر بين العرفاء والمتصوفة، في تنصيبهم على: ان الشريعة توصلنا إلى الطريقة، والطريقة توصلنا إلى الحقيقة. أي لا طريقة بلا شريعة، لا حقيقة بلا طريقة. الشريعة غطاء الطريقة، الطريقة غطاء الحقيقة. ولعل ذلك يفصح عن ما هو منسوب للنبي الكريم (ص): «الشريعة أقوال، والطريقة أفعال، والحقيقة أحوال»⁽¹⁾.

(1) ورد الحديث المنسوب للنبي محمد «ص»: (الشريعة أقوال، والطريقة أفعال، والحقيقة أحوال) في مصادر عرفانية مختلفة. وفي المصادر الحديثية أوردته: ابن أبي جمهور الاحمدي =

حسب فهمي الذي استقيته من مطالعاتي المتنوعة، وتجربتي الدينية، وخبرة حياتي الروحية، انتهيت إلى ما يلي: لا يُعْتَكَ الإيمان ويتكرس بلا مواظبة وإدمان على العبادات والطقوس. تكرر العبادات والطقوس يسقي الإيمان بماء الحياة، ويُرسِّخه ويُجذِّره. الإيمان شعور حي يقظ فوّار، وهو من جنس الحالات، وكل ما هو من الحالات هو أمر تكويني، لا يتحقق من دون روافد يسقي بها وجوده، وتتجدد حياته. إنه جذوة مشتعلة، وهذه الجذوة بلا صلاة وطقوس تغلّ تذوي شيئاً فشيئاً حتى تنطفئ، ما لم تتكرر الطقوس والصلاة في سياق تقليد عباديٍّ مرسوم، يذبل الإيمان فيصير حطاماً. الإيمان بمشابة حديقة الأزهار، ما لم نواظب على سقيها تذبل وتموت. الصلاة والطقوس كأنها ينباع مياه عذبة صافية تسقي حديقة الإيمان، لولاها لاندرت وأصبح هشياً تذروه الرياح.

العبادات والطقوس هي: نحو تقليد عبادي، في إطار قيود وشروط وحدود، لو تمت شخصتها، بمعنى جعلها فردية تختلف باختلاف الأشخاص، ستكون نسيئة سائبة، بل فوضوية، مما يفضي إلى ذوبانها، وتلاشي مضمونها، إذ تنفث ماهيتها بانتفاء حدودها وشروطها.

التحلي بشيء من الغضبان:

تجربة حياتي تُختصر في أن السلام الروحي الذي أعيشه إنما نحقق لحظة أصبحت حياتي صوت غفران، يتحدث إلى ضوضاء عالمٍ يضحّ بكل هذا القبح والعداء والتعصب والدم المسفوح.

قلبي يمحو كلَّ غلٍّ وحقد، كي لا ينسم فيموت. أخلاقي يغذيها على الدوام العفو والعبور والتغافل، ويكرّسها مداواة الآساءة بالاحسان. أحرص باستمرار على تطهير ضميري مما يلوثه من تعصبات وعدوان.

أبادر للصفح على الدوام، وإن كان الصفح لدي غير النسيان، فأنا لا أنسى مواقف

= عوالي اللثالي. قم: سدالشهداء، 1403هـ، ج: 4، ص: 174 لكنه لم يذكر أي سند له. ونقله عنه: المحدث النوري. مستدرك الوسائل. قم: مؤسسة آل البيت، 1408هـ، ج: 11، ص: 173. وكذلك نقله: محمدي الري شهري، محمد. ميزان الحكمة. قم: دارالحدیث، 1375ش = 1996، ج: 2، ص: 1428. كذلك ذكره: السيزواري، ملا هادي. شرح الأسماء الحسنى. قم: مكتبة بصيرتي، ج: 1، ص: 233، وج: 2، ص: 32.

البشر، لذلك لا أضعهم كلهم في سلة واحدة، وإنما أحرص أن أراهم كما هم، المحسن محسن، والمسيء سيء، لكنني تمرّنت أن أرى ماهو مضيء قبل ماهو مظلم، ماهو جميل قبل ماهو قبيح، ماهو ايجابي قبل ماهو سلبي، ماهو مريح قبل ماهو مزعج في شخصياتهم، كي أحاول رسم صوري لنفسي عنهم، تسمح لي بقبولهم والتعامل معهم كما هم، بلا معاناة وألم من عاهاتهم، أو نفور وقطيعة من عقدهم.

الصفح غير النيان، النيان لا ارادي، الصفح قرار يتخذه الانسان. كل جرح عميق وشم للذاكرة لن ينسى. الصفح يعني امتلاك القدرة على تجاوز الأثر الذي تحدثه الاساءة، والتحرر من دائرة رد الفعل التي يبقئ الانسان في الغالب أسيرها فكراً وسلوكاً. إلا أن تحرراً كهذا لا يمحو ذاكرة الانسان، ولا يقوم على هذا المحو أصلاً. إن ذاكرة كهذه حين تنعدم تفقد الانسان القدرة على التمييز، وعلى بناء وعيه ومعرفته الاجتماعيين. أن أعرف الناس غير الأصفح عنهم.

لعل سبب الالتباس هنا في مساواة الصفح بالنيان او اقامة علاقة شرطية بينهما عند البعض، يعود إلى أنهم يساوون: بين الأنا العقلي والأنا العاطفي، بين ذاكرة العقل وذاكرة العاطفة، بين منطق العقل ومنطق العاطفة، إذ يحبون النيان يعني انحاء الأثر النفسي المترتب على الاساءة. النيان يعني فقدان الذاكرة، وفقدان الذاكرة يحول صاحبه الى جاهل.

مثلما تتأسس المعرفة العلمية على التمييز والتشخيص والتصنيف ومراعاة المعلومات، هكذا تتأسس المعرفة الاجتماعية اللازمة للحياة الاجتماعية. هكذا يقوم عقلنا بعمليات متكررة ودائمة من: التصنيف والتمييز، ومراعاة الخبرات الحياتية، لنكون قادرين على ان نحيا اجتماعيا حياة طبيعية وصحيحة.

الصفح ضرورة العيش المشترك، لأنه صوت غفران. لكن الصفح ليس سهلاً، الصفح أصعب من الانتقام، لأن ماليس من جنس الفعل أصعب مما هو من جنسه. الصفح فعل لا يشبه الفعل، بينما الانتقام رد فعل يشبه فعل العدوان.

أعشر سلاماً روحياً، لم أظفر به إلا بشقّة بالغة، ومراجعة نقدية فاسدة لتجاربي ومواقفي وأفكاري، أعاني عليه تدريبي لذاتي على: الاعتراف بعجزتي، والبوح بضعفي البشري، والجهر بفضح أخطائي، والاعلان عن تناقضات ومفارقات سلوكي.

علمتي تجارب الحياة أن الاعتراف بالفشل، والتحري عن أسبابه هو بوابة النجاح،

بل أدركت أن الفضل الحقيقي هو المعجز عن اكتشاف الفضل، أو التكرار له. الاعتراف بالفضل يخلصنا من تكرار الطرق الخاطئة بغية الوصول إلى أهدافنا، وبلوغ أحلامنا.

لقد جرّب المخترع توماس إديسون آلاف التجارب كي يضيء الأرض بالمصباح الكهربائي إلا أنه فشل. لكنه أصر وواصل تجاربه، لم يقتر، لم ينهزم أمام اليأس، لم يتكاسل، أو يفترق في الاحباط، فيشعر بعدم جدوى تكرار هذا العدد المذهل من التجارب. ظل على حماسة حتى أخرج البشرية من ظلام الليل، لينجز أحد أعظم أحلام الانسان. يقول إديسون: «أنا لم أفشل، أنا اكتشفت عشرة آلاف طريقة فاشلة، لا يمكن للمصباح العمل بها». عبر إرادته الفولاذية وكدهه الأبدي، أصبح «إديسون رابع مخترع أكثر إنتاجاً في التاريخ، يمتلك 243 براءة اختراع أمريكية تحمل اسمه، فضلاً عن العديد من براءات الاختراع في فرنسا وألمانيا. كان له الفضل في العديد من الاختراعات، التي ساهمت في وسائل الاتصال الجماهيري، وفي مجال الاتصالات على وجه الخصوص. شملت تلك الاختراعات مجل الاقتراع الآلي، والبطارية الكهربائية للسيارة، والطاقة الكهربائية، ومجل الموسيقى، والصور المتحركة»⁽¹⁾.

أدركت أن العلم والمعرفة والحكمة والخبرة لا تحتكرها جماعة أو جنس بشري، أو يمتلكها شخص واحد، بل هي ماثورة بين كل الناس، لكل منهم نصيب فيها، حسب معاه ومثابرتة، واستعداده وقدرته.

علمت أن التعلّم لا ينجز وعوده من دون الشغف بالتعلّم المستمر، والإصغاء لكل معلّم، مخص في مهته، متقن حرفته، مهتم بمراكمة مهاراته. لذلك كنت أنشد الحكمة، وأسعى ما أمكنتي كي ألقط الخبرة، ولو كانت ومضة تشرق بها أذهان أميين، أو حكمة تصدر من أفواه مجانيين.

احتجت إلى التضحية بسنوات طويلة من عمري وتجارب مريرة وتمازين موجعة حتى شفيت من كثير من تشوهاتني وتنزيه ذاتي وعاهاتي. قبل ربع قرن دخلت حياتي فضاءً جديداً، تحررت فيه من آخر بقايا ما ترسب في وجداني من السلبية والتعصب والعدوان حيال الآخر المختلف، لكن لم أمتلك ذلك إلا بعد مراجعات ومكابدات ومعاناة شاقة، عملت فيها، أولاً: على تحرير صورة الله في روحي من الكدر الذي شهها، والظلام الذي حجب نورها. وثانياً: تطهير حياتي من بقايا سموم الكراهية التي ظلت تتردد إلى قلبي لتفتك به.

(1) من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

إن ما سهّل عليّ هذا العبور الشاق، هو اكتشافني أن الحياة مليئة بالشر، وأن الإنسان كائن نمتلي: ذاته بالدوافع المتناقضة، والرغبات المتضادة، وأن الاجتماع البشري حلبة تدافع وصراع، لا يكف البشر فيها عن توظيف مختلف الوسائل بغية بلوغ أهدافهم، وغالباً ما يتلفع ذلك الصراع بغطاء يخفي كل قبح فيه، وتختين - بخت - تحته كل شاعات الممارسات المتوحشة.

أنفهم أن الاغتراب والعمدية والغثيان احتجاج باطني على قبح العالم، غير أن الدين بوسعه أن يحمي الكائن البشري من ذلك، ويؤمن له سلاماً لروحه، عبر إرواء الظمأ الأنطولوجي للمقدس. مثلما يمكن أن تؤمن له الفنون والآداب حاجته لتذوق الجمال، مضافاً إلى ما تهبه له العلوم والمعارف والتجارب من حلول لمشاكل حياته، وما يقدمه له من سعادة تفانيه في إسعاد الإنسان، وحرصه المزمّن على تبديد الظلام في العالم.

الحياة شبكة مصالح متبادلة. المصالح البشرية أعم من المعنوية والمادية. عاشرت أناساً نرجسين، لا يطبقون التعامل إلا مع من يدور في فلകهم، ولا يكف عن التصفيق لهم. يحترفون الذم والهجاء والشتم، ولو لم يعثروا على شخص مختبئ في ذاكرتهم يشتمون أنفسهم، لا يتفوقون على سواهم إلا في فقدان الأصدقاء، وصناعة الأعداء. يحبون الله خلق البشر عبداً لهم، يريدون من الناس كل شيء، من دون أن يقدموا لأحد أي شيء.

لقد علمتني الحياة إن للبخل طبائع شتى، فمنه: البخل اللسان، وهو ما واجهني به أقرب الخلان، إذ طالما ظل يتحدث بعضهم عن مناقبه ومثالب غيره، لكنه يخل على الدوام بكلمة ثناء على منجز جاد يتجزه صديق له، بل ربما يزدريه، مثلما رأيت بعضهم يفعل ذلك أكثر من مرة، وهو لا يتوقف عن اعلان تفوق منجزه على كل منجز. ومنه: البخل بالمعروف والبر بالإنسان، وهو ما رأيت من كثير ممن عشت معهم فصول حياتي. ومنه: البخل بمساعدة المحتاجين، وتجاهل حضور صورة الله في جراحتهم ولوعتهم.

من هنا أدركت أن امتلاك المال في حياة كل بخيل غاية لا تفوقها غاية. واكتازه لذة لا تفوقها لذة. خلافاً للكريم الذي لا يشعر بامتلاكه المال، وحضوره في حياته، واستمتاعه به، إلا لحظة العطاء، ذلك أن الكريم يشعر بقوة العطاء، وبه تتحقق سعاداته وتتكامل شخصيته.

لقد وفرت عليّ مواقف الغدر والكيد والتأمر - من بعض من كنت أحسبهم أقرب الأصدقاء - الكثير من الجهود في اكتشاف النزعات العدوانية الغاطسة في النفس البشرية، كما نبهني علم النفس الحديث إلى الدوافع المتضادة في النفس البشرية، وكيف تفضحها الهفوات والكلمات العابرة وفلتات اللسان والنيان.

كل ذلك وغيره هتك شيئاً من طبقات الأقنعة الزائفة التي كانت تحجب عني الصورة الحقيقية للانسان، ووفّر لي القدرة على التعامل مع كل شخص بما يشبهه وينشده، لا بما يشهني وأنشده، لا بمعنى النفاق في مواقفي أو تغييب شخصيتي، وإنما احتراماً لكرامته، وحذراً من انتهاك خصوصيته، لذلك لم أحرص على أن يكون صديقي أو تلميذي أو ولدي، نسخة محاكية لي، كما حرصت على الدوام ألا أكون نسخة لأبائي ولمعلمي وأصدقائي، دائماً تبقى مسافة لن تتلاشى بيني وبينهم، هم هم، وأنا أنا. كل ذلك في إطار حياتي الروحية الأخلاقية، ومعايير القيم الالهية الرحمانية الانسانية التي أدين بها.

المحبة والايمان:

أدركت أنه لا يلد العيش إلا بالخلاص من الفهم التبسطي للواقع. وأن رؤية الوجود بعين واحدة تحجب جماليات الوجود. وأن الحياة لا تطاق من دون تذوق هذه الجماليات.

علّمتني الحياة أن الكائن البشري تنضب طاقته الايجابية، وتذبل حياته، من دون تربية الروح على استكشاف بؤر الضوء، وان كانت شمعة في لبحج الظلام.

كذلك تعلّمت، أن لا جمال كجمال القلب. جمال القلب يختصر كل جمال. جمال القلب يخلع على كل شيء صورة جميلة. جمال القلب يكشف لنا ما هو مخّتي من جماليات الوجود.

لا تطاق الحياة بصحة من يفتقد القلب. القلب مرآة عاشق. من يظفر بقلب عاشق يظفر بذاته. ذات العاشق مضية، لغة العاشق مضية، تضي للحياة معناها وسرها، وتمنح الحياة نكهتها وجمالها. فاقدو القلب محتطون، تخيل انهم اُجباء لكنهم ميتون.

اكتشفت أن العلاج بالكلمات المضية الجميلة الصادقة، يشفي شيئاً من أمراض الروح والقلب والاخلاق، لأن هذا الجنس من الكلمات يختصر المسافات الشاسعة البُعد بين البشر، ويداوي الأرواح المعذبة.

أخصب دروس حياتي تلتخص في معرفة الأشياء بأضدادها، من حروب الأديان تعلمت أن الله ليس عدو الانسان، وأن الدين صوت صفح واحسان، وأن الإيمان صوت غفران.

نواميس الأخلاق الكونية علمتي: أن الكراهية لا تتج في علاقتي بالآخر إلا كراهية مضاعفة، تعرض القلب، وتسم الروح، وأن الحب لا يتج في علاقتي بالآخر إلا حباً مضاعفاً، يشفي الروح، ويهيج القلب.

وجدت أن كل شيء هو ما أحبب. كل شيء هو ما كُره. فمثلما المرض عدوى، الحب أيضاً عدوى، الكراهية أيضاً عدوى. أي دائماً يصير الكائن البشري صورة ما أحبب، وصورة ما كُره.

تعلمت أنه ليس بوسعي الاحتماء من الاغتراب - الذي يجتاح حياة كل انسان - والشعور بالأمان، إلا بالمحبة والإيمان. بل وجدت أن لا شيء يكفي بذاته كالمحبة، فإنها لا تحتاج إلى ما يثريها، إنها الوطن الذي يمنحني في اللحظات المرعبة الأمان.

لا أتمتلك المحبة، وتكرس في ذاتنا، إلا بالتدريب على حب المحبة. حب المحبة يغذيه العمل المزمع على منح المحبة للغير، ذلك أن ماهية المحبة هي العطاء. بالعطاء المتواصل يتحوّل جوهر الذات يوماً ما إلى محبة، وذلك مقام لا يصله إلا الأفذاذ من ذوي الحياة الروحية الأخلاقية الشريفة.

القلب / العقل، مساران:

الدين الذي اعتقه هو الإسلام الرحماني الإنساني، الدين فيه هو الحب والحب هو الدين. «المحبة أصل الموجودات»⁽¹⁾ كما يقول ابن عربي. يكتب أبو العلاء عفيفي شارحاً مفهوم المحبة لدى صاحب الفصوص: «الحب موجود على الدوام متبادل بين الحق والخلق. والشوق والحنين واللقاء موجود على الدوام أيضاً، لأن الحق دائم الظهور في صور الخلق، يدفعه إلى ذلك الحب الكامن فيه نحو ذلك الظهور. والخلق دائم الفناء، يدفعه إلى ذلك الحب الكامن فيه نحو التحلل من الصور والرجوع إلى الأصل»⁽²⁾.

(1) - فصوص الحكم 1: 214.

(2) - فصوص الحكم 2: 327.

إن الشفقة والعطف على الناس تقدم على الغيرة على الله، يكتب محيي الدين: «أعلم إن الشفقة على عباد الله أحق بالرعاية من الغيرة على الله. أراد داود بنيان بيت المقدس فبناه مراراً، فكلما فرغ منه تهدم، فشكا إلى الله، فأوحى الله إليه: إن بيتي هذا لا يقوم على يدي من سفك الدماء، فقال داود: يارب، ألم يكن ذلك في سبيلك؟ فقال: بلى، ولكنهم اليسوا عبادي؟ والغرض من هذه الحكاية مراعاة الشأة الإنسانية، وإن إقامتها أولى من هدمها»⁽¹⁾.

يتساءل بعض الزملاء: كيف تسنى لك المحافظة على تدينك، وتنمية إيمانك على الدوام، مع أنك تطرح أسئلة لاهوتية تصدع معها أسبجة المعتقدات، وتمارس نمطاً من التفكير الديني الحر، العابر للطوائف والتعصبات المذهبية؟

سار القلب لدي لا يتطابق مع مسار العقل، أي إن وجهته بموازاة العقل، إن كان للعقل وجهة أو مسار. فلق عقلي وأسئلته المتنوعة المتواصلة لم يزعزع إيماني، أو يطيح بتديني، أو يهزم أخلاقي، أو يبدد نزعتي الإنسانية.

إيماني حالة أنطولوجية وجودية لا أستطيع الإطاحة بها، حتى لو قررت التخلي عنها. إنها نحو من الإشراق الروحي الذي لا يمكنني توصيفه بوضوح، لأنه مما يوجد، لا مما يُدرك، وكما نصلح في المنطق هو نوع من الحضور الوجودي الذي يتوطن القلب، وليس نوعاً من العلم والتصور والفهم المرسم في الذهن. إنه نمط من المحبة أو العشق الذي يفرق فيه قلبي. هل يستطيع العاشق توصيف حالته بدقة لنا؟ وهل يوسعه التخلص من الوجد والهيام، لو قدم له عقله عشرات الحجج على خطأ عشقه وعيوب معشوقه؟ وحسب كيركغورد فإن: الإيمان لا يفوق العقل فقط، بل يختلف عنه، لأنه حقيقة أنفسية ليست آفاقية. يكتب كيركغورد في بيان كيف أن البراهين الآفاقية لا تنتج الإيمان: «إن الإيمان في غنى عن إقامة البرهان، أجل ينبغي للإيمان أن يعتبر البرهان خصمه اللدود»⁽²⁾.

لو كان الإيمان أمراً عقلياً تصدع وينهار بالتساؤلات الحائرة، والأفكار القلقة، لانهار إيمان أعلام كبار من المتصوفة والعرفاء والفلاسفة. ففي تراثهم نثر على

(1) - فصوص الحكم، الفص 18 فص الحكمة النفسية في الكلمة اليونانية. ص 167.
 (2) سورين كيركغورد، أنفسي بودن حقيقت است، ترجمة: مصطفى ملكيان، مجلة نقد ونظر، العدد: 3، و4، عام 1996، ص 68.

إعلاء لقيمة «الشك»، وبيان لأثره البناء في الوصول للبصيرة والايمان الراسخ. يقول الغزالي: «ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات إلا ما يشكك في اعتقادك الموروث، لتتدب للطلب، فناهيك به نفعاً، إذ الشكوك هي الموصلة إلى الحق، فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر، بقي في العمى والضلال»⁽¹⁾.

كما ورد في ميراث التصوف المعرفي ما يؤشر إلى تبجيل الحائزين وتمجيد «الحيرة»، وإن كان معناها لديهم يشي بعوالم الملكوت، ويحيل إلى الجمال والكمال في الأسماء الالهية، واغتراف السالك من ذلك الجمال والكمال غير المحدود. فقد أوردوا حديثاً منسوباً إلى رسول الله (ص) قال فيه: «اللهم زدني فيك تحيراً»⁽²⁾. حتى لو حاولنا أن نقارب مضمون الحديث من منظور لا يتطابق مع رؤية المتصوفة

(1) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. ميزان العمل. حققه وقدم له: د. سليمان دنيا. القاهرة: دار المعارف، ط 1، 1964، ص 409.

(2) تقسم الحيرة عند المتصوفة والعرفاء، ممن يكرون بالعشق الالهي، إلى:

1. حيرة مذمومة: هي الإزتيك، الألتباس، التردّد، التيه، الضياع، الغموض.
2. حيرة محمودة: هي ما يقع للسالك في السفر الثاني من الأسفار الأربعة، وهو «السفر من الحق إلى الحق بالحق». وهو عالم الأسماء الالهية، فلا يرى المسافر من الحق إليه وبه إلا هذه الأسماء، وهي كلها كمال وجمال، هنا يختار ما الذي يفترق، وما الذي يدع. التحير المحمود لديهم منشأ سعة دائرة الكمالات والأسماء الالهية. فهو بمثابة من تقدّم أمامه مائدة شهية، فيها كل ألوان الطعام، وهو جائع، فيتحير أيها يأكل، وأيها يدع. وكان الحيرة هنا تؤول إلى لون من الاهتداء والبصيرة. كتب محيي الدين ابن عربي: (فالسكر الطبيعي سكر المؤمنين، والسكر العقلي سكر العارفين، وبقي سكر الكمل من الرجال، وهو السكر الإلهي، الذي قال فيه رسول الله (ص): «اللهم زدني فيك تحيراً». والسكران حيران، فالسكر الإلهي ابتهاج وسرور بالكمال). الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية. طبعة الميمنية الأولى، ج 2: ص 545. كما كتب محيي الدين ابن عربي: «في الحيرة تاه الواقفون، وفيها تحقق الوارثون، وإليها عمل السالكون، وعليها اعتكف العابدون، وبها نطق الصديقون، وهي مبعث المرسلين، ومرتقى همم النبيين، ولقد أفلح من حار». مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الالهية. ص 64. وانظر أيضاً: شرح مشاهد الأسرار القدسية. وهو من تأليف: ست العجم البغدادية. وهي متصوفة من القرن الثامن (كانت حية عام 676هـ)، لم تكن تعرف القراءة والكتابة، ولم تدس عند أحد. ومع ذلك ألقت ثلاثة كتب أو أكثر من الكتب المتميزة في التصوف. وكانت تظلي على زوجها (وهو ابن خالتها أيضاً) ما «يرد» عليها في شرح الأفكار الصوفية. وورد نص محيي الدين بن عربي في كتابها هذا، الذي هو شرح لكتابه المشاهد. نجد شرح هذه الفقرات في المشهد العاشر من الكتاب.

والعرفاء للعالم، ولوحاتهم المرسومة بعناية لمشاهد الربوبية وعوالم الملكوت، نجد في الحديث ما يرشد إلى أن الحيرة ليست كما نفهمها فهماً أولياً مبسطاً، هي تيه وضلال وعمى، وانما هي شعلة عقلية روحية عاطفية ملتفة، تشد ايقاظ الذات من غفوتها الطويلة، ويتجلى فيها نزوعها المزمّن للكمال والبصيرة.

الإيمان كما أعيشه جذوة مشتعلة لا تنطفئ، بصيرة لا تخبو، نور جواني يضيء الروح. هو حقيقة باطنية لا تشع إلا من القلوب التي تكنها. من يفقدها لا يتذوق نكهتها.

أنفهم أن الاغتراب والسوداوية والغثيان احتجاج باطني على قبح العالم، لكن خيرة حياتي ومطالعاتي، تقول: إن الحب والايامن يحمي الكائن البشري من الغثيان والشعور بقبح العالم.

كذلك أنفهم أن الفنون والآداب تؤمن له حاجته لتذوق الجمال، مضافا الى ماتهبه له العلوم والمعارف والتجارب والخبرات من حلول لمشاكل حياته، وما تقدمه له جهوده في إسعاد الناس من غبطة، وما يهبه حرصه المزمّن على تبديد الظلام لحياته من ضوء.

لكنها كلها لن تكون بديلاً عن ما يؤمنه له الدين، الذي يحمي الكائن البشري من الشعور بالاغتراب والغثيان، ويشبع حاجته المتجذرة للتكامل، وتوقه الأبدي لتأييد وجوده وخلود حياته، وتمتلك به روحه السلام.

نعم، رغم ما يحتاج عالمان من حزن، ويتجرعه من مرارة، ويفرق فيه من ظلام، غير أن في الحياة بؤر ضوء يبحث عنها الناس، كي يستلهموا الحلم بغيد أجمل، ويتذوقوا ألوان صور خرائط الوجود المدهشة.

بؤر الضوء هذه قليلة جداً، لكنها موجودة، إنها شخصيات، روحية، أخلاقية، واثقة بالله، متفائلة، مفعمة بحب الله والإنسان والعالم، ملهمة. عبر هذه الشخصيات الروحية الأخلاقية الملهمة يتحس الإنسان وجود الله، كما يطمئن الانسان أن للعالم إلهاً لا تغيب رحمته، ولا يقطع لطفه، ولا ينضب معين عنايته. ويشعر أنه يمتلك معنى للحياة، وسبباً للبقاء، ولديه ما يوصله بالسماء، ويربطه بالأرض.

الثقة بالله وحب الله هما جسر العبور من الأرض إلى السماء، بهما يستطيع الإنسان مقاومة أوجاع الحياة. ويقوى على تحقيق ذاته، وأن يكون هو.

الثقة بالله تبدد اليأس، تشفي المرء من السوداوية، تضي ما هو مظلم في عالمه الجواني، تبعث لديه التفاؤل، وتمنحه القدرة على عبور ما تمتلئ به دروب الحياة من أشواك. ليس هناك من وجع إلا ويمنح الله المرء القدرة على احتوائه وتحمله.

من جنس أحلامنا تصاغ حياتنا، وتشكل رؤيتنا، وتتوالد مشاعرنا. الأحلام الجميلة نرسمها، لتعود ترسم لنا الألوان الجميلة لصورتنا. اليأس والنشأوم تمزق نتتجه نحن، ليعود فيحزقنا. فاقد الأمل يفقد كل شيء. المتشائم أعمى لا يرى من الحياة إلا الظلام، ولو تمكن من الإبصار يوماً ما فلا يرى إلا التشوهات والعاهات.

يرى المرء في الأشياء ما يريد أن يراه. المتشائمون مولعون بالظلام، يلتقطون كل شيء في العالم يوحد مواجهم، ويجرح أرواحهم. المتشائمون لا يغادر حياتهم نكد إلا إلى نكيد آخر، ينجذبون إلى من يتحدث عن الظلام واليأس والبكاء والحزن. لا يكفون عن هجاء قبح العالم، ولوم الكل، والتنديد بالغير، الذي لا يبكي مثلما يكون، ولا يمقت العالم كما يمقتونه. يضجرون من أي حديث عن الضوء والجمال والتفاؤل والضحك والغبطة. المتفائلون مولعون بالضوء، عيونهم ترى الألوان المرسومة بها خرائط العالم نوراً. يفضح ضوء عيونهم قبح العالم.

كن عقلاً ترى العالم عقلاً، كن روحاً ترى العالم روحاً، كن قلباً ترى العالم قلباً، كن جمالاً ترى العالم جمالاً، كن حياً ترى العالم حياً، كن عشقاً ترى العالم عشقاً، لو كنت عاشقاً يصبح العالم كله من المعشوق.

اكتشاف صورة الله في الانسان:

لاحظت أن انهيار الدين لدى بعض الشباب يرتد إلى غياب المثال المجسد للدين الإنساني الروحي الأخلاقي. ناقشت بعضهم ساعات طويلة، لماذا يمضي إلى مديات قسبة في مواقفه السلبية من الدين، لم يعلن أحد منهم أمامي إلحاده بالله، ولم يحاجني بنفي براهين المتكلمين على وجوده تعالى، وإنما اتفقوا جميعاً على أنهم يقرؤون عن حياة روحية، ويسمعون حديثاً مكرراً عن مفاهيم أخلاقية، ومواقف إنسانية، غير أنهم قلما يعثرون على أمثلة لها. إنهم يفتقدونها فمن ينادون بها، ولا يرون ملامح صورتها في سلوكهم، ويندر أن يعثروا على من يهتدون بسيرته العملية، في المحيط الذي يدرسون ويعيشون فيه.

نتهت إلى أن البواعث العميقة للدين ترتبط عضوياً بحاسيات ومشاعر

الانسان وعواطفه، وأن الإنسان بطبيعته لا يهتدي إيماناً إلا بالقدوة العملية الملهمة، تلك القدوة التي تسقيه الارتواء الروحي، وتمنحه السلام النفسي، وتغمره بالرأفة والشفقة، كي تخلصه من الاغتراب، وتشعره بالحماية والأمن في الحياة.

الناس كي يؤمنوا، يفتشون دائماً عن نموذج بشري مُجسّد للإيمان المتواشع عضوياً بالحب، والحب المتواشع بالإيمان. يحتاجون إلى من يُشعرهم بوجود الله وحضوره في حياتهم، لا من يثبت لهم وجوده كفكرة مجردة، لا صلة لها بحياتهم، مثلما يدلل عليه المتكلمون واللاهوتيون. يحتاجون إلى من يوقظ أرواحهم، ويوصلهم عضوياً بالله، بوصفه المنبع الحقيقي للطاقة الحيوية الايجابية، التي يتغلبون بها على ذلك الوجع الأسود المتفشي في العالم، والذي لا تطيقه قدرة عامة البشر.

يشكو بعض الأصدقاء من هروب بعض الموهوبين في المدارس الدينية إلى خارج الدين. الب حجباً اكتشفت، هو فقدانهم الإيمان الذي هو الإنسان، والإنسان الذي هو الإيمان، أي ندره عثورهم على إيمان مُجسّد بإنسان، والإنسان المُجسّد للإيمان.

يُرسل الله دائماً كتاباً مع رسول بشر. البشر هو الكتاب العملي مُجسّداً. النبي الكريم (ص): «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»⁽¹⁾. لا يؤمن الناس بكتاب من دون مثال حي يهديهم ويزكيهم ويربهم بسلوكه وأفعاله ومواقفه الحية. آمن الناس بالنبي الذي كانت أفعاله وسلوكه الحي «رحمةً للعالمين»، ثم بعد ذلك قبلوا الكتاب الذي جاء به.

تجديد الصلة بالله يبدأ بتجديد الصلة بالانسان. السبيل إلى الله يمر عبر رعاية عيال الله. «الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ، وَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيْهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ»⁽²⁾.

تجلى صورة الله لكل شخص من خلال جراحه. الفقير يرى الله في رغي خبزه، المريض يرى الله في دوائه، السجين يرى الله في حرته، المعذب يرى الله في نجاته، الغريق يرى الله في انقاذه.. وهكذا.

(1) مد الإمام أحمد بن حنبل. تحقيق: شيب الارنؤوط وعادل مرشد وآخرون، واشراف: د.

عبد الله بن عبد المحسن التركي. بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 1، ج 41، ص 148.

(2) هذا الحديث أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير»، وأبو يعلى الموصلي في «سنده»، كما جاء أيضاً في «سند الشهاب» للقضاي.

الناس لا يمكنهم الشعور بالله خارج إطار العلاقة بالبشر. ما يلهم الانسان الإيمان، هو اكتشافه صورة الله في الانسان. الناس يريدون إيماناً حياً، يمضي في الأرض، يعيش مثلما يعيشون، يتحسّس أوجاعهم، يسقيهم مطر الرحمة الإلهية من خلال ما تفيضه نفحات روحه عليهم. يتضامن معهم عملياً، في كل ما ينهك حياتهم، ويجتاحهم من عذابات، ويسود عالمهم من آلام. الناس لا يستطيعون العيش من دون عطف وشفقة وتراحم وحنان.

الأخلاقيون الروحانيون في كافة الأديان والفرق والطوائف دافنون جذابون، لأنهم يتدفقون شفقة وحناناً على الناس، ويمنحون حياتهم المعنى العملي الذي تفنقروا له. وذلك ما تجسده حياة نينا «ص» وأخلاقيات سيرته العملية، وسلوكه الكريم، الذي يطبعه الرفق بالناس والعطف عليهم، والرحمة بهم. كانت سيرته مرآة ترسم فيها القيم والأخلاق الربانية، التي تحدثت عنها الآيات القرآنية، فهو «ص» رحمة للعالمين: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ»⁽¹⁾. «فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِن حَوْلِكَ»⁽²⁾. وهو «ص» مثال أخلاقي مجسد: «وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ»⁽³⁾. وإن هدف رسالته يتلخص في بناء الحياة الأخلاقية «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»⁽⁴⁾.

إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين:

تتلخص اهتماماتي في هذه المرحلة من حياتي بـ«إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين»، لكن قد يقال: وهل هناك «إنسانية في الدين» كما ينبغي أن نبادر إلى «إنقاذها»؟ ولعل من يضيف إلى ذلك فيقول: إن وظيفتنا هي إنقاذ «النزعة الإنسانية» من «الدين»، لا إنقاذ الإنسانية المزعومة «في» الدين؟!

مهمتي تتمحور حول التدليل على: أن الدين ظل على الدوام أحد أهم منابع إلهام قيم المحبة والتراحم والتعاطف والشفقة واحترام كرامة الكائن البشري. مع أنني

(1) الأنساء: 107.

(2) آل عمران: 159.

(3) القلم: 4.

(4) رواه البيهقي، احمد بن الحسين. السنن الكبرى. ج 10: ص 323.

اعترف بما تنوء به مجتمعاتنا من خطابات عدوانية عاصفة، ومفاهيم مشوهة، تثير التعصب والكرهيات والدعوة لقتل الآخر والنزاعات الملحة، وما يتبعها من انفاسات وحروب مزمنة، تغذيها علي الدوام الجماعات الدينية السلفية وغيرها. وأن هناك نماذج متنوعة لذلك، مما نبته الفضائيات والمواقع والصحف الإلكترونية والمنابر، وأدبيات السلفية الجهادية وغيرها من الجماعات، وعدوانها الواسع على السلم الأهلي، ودعواتها التحريضية لتفتت مجتمعاتنا.

لا أريد التفاوضي عن ذلك، ولا التقليل من أهميته، ولا الدعوة إلى تجاهله. بل إنني أحتج على كل هذا الواقع العساوي للدين، وأنقد كل هذا الزيف المهول الذي يوضع من قبل أطراف من الإسلاميين على اسمه.

لا يمكن تجاهل أثر تلك الخطابات في تلويث المجال الاجتماعي العام، وتهشيم مرتكزات العيش المشترك في مجتمعاتنا، مثلما لا يصح إنكار الحضور الكثيف والفاعل والمؤثر لها، ودورها في تفشي أنماط همجية متوحشة من العنف الديني.

وقد تكرر أثر هذه الجماعات، وأتيحت لها فرصة تاريخية هامة في الاستيلاء على المجال العام، بعد هيمنة الإسلام السياسي على السلطة، الذي انتهت إليه ثورات ما سمي بـ"الربيع العربي" ابتداءً، في بعض البلدان، واحتكارهم لتمثيل المجتمعات، واختزالهم التنوع الإثني والديني والمذهبي بأيديولوجياتهم الخاصة، وتوظيفهم الديمقراطية والانتخابات كسَلْم يستخدم لمرة واحدة، حتى إذا تحقق الغرض منه طرح جانباً من دون وعي لفلسفة الديمقراطية، ومضمونها الحقيقي من الحريات والحقوق والتداول السلمي للسلطة.

مضافاً إلى تفجر براكين الطائفية، وكافة التعصب المتركمة الموروثة من عصور دول السلاطين والخلفاء، بصورة لم يسبق لها مثيل في شرق المتوسط، بنحو أضحى الاحتماء بأمراء الطوائف الوسيلة الوحيدة في بعض البلدان لضمان الحياة، في مجتمعات تقوضت فيها واضمحلت بُنى الدولة الحديثة.

الم نشرع بالقرف، ونحن نشاهد هذا العبث الغرائبي المتفشي على الفضائيات العربية الذي يفرق عالمنا بنماذج متذلة من: سياسيين بلا سياسة، اقتصاديين بلا اقتصاد، مفكرين بلا فكر، مثقفين بلا ثقافة، كُتّاب بلا كتابة، أدباء بلا أدب، شعراء بلا شعر، فنانيين بلا فن، أخلاقيين بلا أخلاق، متدينين بلا دين، مفسرين بلا تفسير، فقهاء بلا فقه، فلاسفة بلا فلسفة، متكلمين بلا علم كلام.. إلخ!

في مثل هذه المناخات يبدو أن من يتحدث عن «التزعة الإنسانية في الدين»، كمن يحكي لنا عن ماضي مضى ولن يستعاد، أو من يحلم بعالم رومانسي مثالي، لا صلة له بمجتمعنا اليوم.

لا أذاع عن فشل الإسلاميين في إدارة السلطة في بلدي، كما لا أتجاهل ما تتكشف عنه تجربة التطبيق والممارسة، من حقيقة أن السلطة تسمي مقبرتهم التي يُدفنون فيها، وأخشى أن يدفروا معهم أوطاننا، وكل أحلامنا ومستقبلنا، في مقبرتهم هذه.

إن فشل الإسلاميين في بناء الدولة يعود إلى عجز معظمهم وقصورهم عن إدراك الجذور العميقة للدولة الحديثة، وافتقار الكثير من المسؤولين إلى أي تكوين أكاديمي أو معرفي أو فكري، يؤهلهم لإعداد نظم وبرامج وخطط اقتصادية وإدارية وتربوية وعلمية وثقافية معاصرة، فضلاً عن عدم توفرهم على تدريب مهني وخبرة عملية في إدارة الدولة وبناء مؤسسات السلطة.

إنهم يفكرون في مرحلة ما قبل الدولة، لذلك يحرصون على استدعاء القبيلة وقيمها وتشكيلاتها العتيقة، ويفرقون في كهوف الماضي، ويفرطون في استهلاك التاريخ، وكأنهم لا يعيشون في عالمنا إلا بأبدانهم، في حين تلبث عقولهم وأرواحهم مع الموتى.

مضافاً إلى أن معظمهم لم يتشبع بتربية معنوية أخلاقية، تتسامى بهاروجه، وتحقق له امتلاء ذاتياً، يثري ضميره بالغيرة على الإنسان والأوطان، ويشفيه من عُقد الجوع، وجروح الحرمان.

لذلك لم يعرف بعض هؤلاء من الدين سوى الاستيلاء على السلطة، وليت السلطة في مفهومه إلا الظفر بالغميمة، واستيفاء ديون أوجاعه، المتمثلة بكافة ألوان الاضطهاد والتهميش في الوطن والمنفى.

لله الحمد، منذ غادرت الجماعات الإسلامية - قبل أكثر من ثلاثين عاماً - أنا سعيد في حياتي، أعيش سلاماً روحياً، وسكينة وطمأنينة، أمضي نهاري - بعد أن أصلي الفجر - في نشوة الإدمان على العمل. أنا م وأصحو بسلام، من دون خطانا انتهاكات لحقوق وحرريات الناس تلاحقني، أو كوابيس سرقة الأوطان تطاردني.

رسالتي في الحياة خارج كل هذا العث الوقع باسم الاسلام، وتكديس الفنائم الوسخة بوسائل قدرة للورثة غداً.

نعم، لا يقلقني إلا مصير وطني العراق، وأنين تراب عالم العرب والاسلام، الذي تفتسه وحوش باسم الاسلام، فتنتهك انسانية الانسان باسم الاسلام، وتسيح دمه باسم الله، وتصادرة حقوقه باسم الغيرة على الدين.

أنا قلق على مصير مجتمعاتنا الروحي الاخلاقي العقلي، مذعور مما قد نهوي اليه، لنسقط في قاع تلك الهاوية السوداء، فندفن ديانا وآخرتنا وديننا في مقبرة وطننا العراق، وتراب بلادنا الأخرى.

دعوتي إلى «إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين»، تعنى بناء فهم آخر للدين، وتأويل مختلف للنصوص الدينية، عبر قراءة شاملة لهذه النصوص، تستلهم نظامها الدلالي والرمزي، وما تختزنه من معانٍ ومداليل، لا تبوح بها إلا من خلال عبور المنظومة المغلفة للفهم التقليدي لها، وتوظيف منهجيات ومفاهيم وأدوات ومعطيات المعرفة البشرية والعلوم الإنسانية الراهنة، لتفسيرها في ضوء متطلبات العصر ورهاناته.

إنه تفسير لا يختزل الدين في المدونة الفقهية فقط، ولا يقوم بترجيله من حقله الروحي المعنوي القيمي الأخلاقي إلى حقل آخر، يتغلب فيه القانون على الروح، ويصبح الدين أيديولوجية سياسية صراعية، أيديولوجيا تهدر طاقاته الرمزية والجمالية والروحية والمعنوية.

يسعى هذا التفسير إلى اكتشاف وظيفة الدين الأصلية في إنتاج معنى لحياة الإنسان. وهي وظيفة عجزت معظم الجماعات الإسلامية اليوم عن إدراكها، وأغرقت نفسها ومجتمعاتها في نزاعات ومعارك، يتجلى فيها كل شيء، سوى الأخلاق وقيم التراحم والمحبة في الدين.

أعني بـ«الإنسانية في الدين»: تجديد الصلة بالله، وذلك يبدأ بتجديد الصلة بالإنسان، لكن الغائب الأكبر هو الإنسان، في خطاب معظم هذه الجماعات، وبعض المبشرين بالأديان.

أعني بـ«الإنسانية في الدين»: الخلاص والتحرر من «نسيان الإنسان» في أدبيات الجماعات الإسلامية والدعوة للاعتراف بشريته ومكانته في الأرض، وتصحيح نمط علاقته بربه، وتحويلها من صراع مكوّن بالخوف والرعب والقلق، إلى علاقة تتكلم لغة المحبة، وتتهجج بالوصال مع معشوق جميل.

إن العلاقة بالله لا تأخذ نصابها في تشييد حياة روحية أخلاقية أصيلة إلا إذا

كانت حرة، أي أنها ينبغي أن تكون علاقة مبنية على حرية واختيار، لا إكراه وامتهان واسترقاق. «وَتَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ»⁽¹⁾.

وأود الإشارة هنا إلى أن هناك فرقا بين عَيْدٍ وعِبَادٍ في لغة القرآن، فعَيْدٌ مشتقة من عُبُودِيَّةٍ. ومرادفاتها: إِسْتِعْبَاد، رِقٌّ. ومقابلها: حُرِّيَّةٌ، عِتْقٌ، إِغْتِاقٌ، تَحْرُّرٌ، تَسْرِيحٌ، حُرِّيَّةٌ.

بينما عِبَادٌ مشتقة من عِبَادَةٍ. ومرادفاتها: إِعْتِكَافٌ، تَعَبُدٌ، تُسْكٌ. ومقابلها: إِبَاحِيَّةٌ، تَهْنُكٌ، خَلَاعَةٌ، دَعَاوَةٌ، عُهُرٌ، فُجُورٌ، فِسْقٌ، مُجُونٌ.

القرآن الكريم يشير إلى «عِبَادٍ» أي أحرار، وليس بمعنى أفتان متلين مجبرين مكرهين. «فَتَسْرِعُ عِبَادِ الَّذِينَ يَنْتَعِمُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أُخْتَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ»⁽²⁾. الحُرُّ هو المقابل للعَبْدِ. عَيْدٌ جمع عَبْدٍ. الجاحد هو المقابل للعَابِدِ. عِبَادٌ جمع عَابِدٍ. القرآن يستعمل كلمة عِبَادٍ أكثر، فيما يستعمل أقل من ذلك بكثير كلمة عَيْدٍ⁽³⁾، وحسما وردت كلمة عَيْدٍ في بعض الآيات فهي تفتقر بنفي الله الظلم عن نفسه: «وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»⁽⁴⁾. «وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»⁽⁵⁾. «وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»⁽⁶⁾.

وكان القرآن يبه إلى ما تشي به السياقات الاجتماعية لمردول العبودية، ومن تشبهه تاريخياً بمعاني الاسترقاق، وكيف أنها تحط مكانته البشرية، وتسيح شخصيته، وتهين كرامته، بنحو يصير فيها الكائن البشري بمثابة متاع يمتلكه شخص آخر، لا حياة خاصة ولا كينونة مستقلة له، وليس له من أمره شيئاً. فأراد الله أن ينفي عن ذاته تعالى، هذا النمط من اهدار الكرامة البشرية واهانة الانسان.

لا أعني بـ«الإنسانية في الدين» الدعوة لتصوف مُقْتَنَعٌ، ذلك أنني لست مع تصوف يُخرج الفرد من العالم. نعم، أنضمام مع شيء من مقولات التصوف المعرفي، الذي

(1) الأعراف، 157.

(2) الزمر، 17 - 18.

(3) وردت كلمة «عباد» ومشتقاتها في القرآن الكريم 47 مرة. بينما لم ترد كلمة «عبد» ومشتقاتها سوى 29 مرة.

(4) انظر الآيات: آل عمران، 182. الأنفال، 51. الحج، 10.

(5) سورة ق، 29.

(6) فصلت، 46.

يثرى الروح، ويضئ القلب بجماليات الوجود، ويجعل الكائن البشري مشاركاً فاعلاً في بناء هذا العالم.

أعني بـ«الإنسانية في الدين»: عدم التكيل بالجدس، والتضحية بمتطلباته الضرورية وحاجاته الغريزية، حسب تصوف ورهبة عنيفة، يفهم التربية الروحية فهماً ساذجاً، يفضي إلى تجاهل طبيعة جسد الإنسان وقمعه وتعذيبه، بمحاربة الغرائز والعمل على اجتثاثها، والفرق في رهبة تعزل الحياة، وتبذها طبيعة الكائن البشري.

لست مع تسليح الجسد وهبوطه وابتذاله، وتوظيفه بضاعة رخيصة في عنف عبثي دونكيشوتي، كما فعل هتلر في بناء «الجسد النازي». أو توظيفه في المواخير وتجارة النخاسة الجنسية القذرة.

أعني بـ«الإنسانية في الدين»: الدعوة للسلام واحترام كرامة الكائن البشري، وإشاعة السلام بين المجتمعات البشرية، عبر دراسة الأديان ومقارنتها، والفوص في أعماقها، لاكتشاف جوهرها المشترك، ومنابع السلام الكامنة في نصوصها وتراثها الديني.

والحوار بين الخبراء والمختصين فيها، خارج إطار المجاملات وعبارات التجميل والعلاقات العامة. إذ «السلام بين الشعوب ما لم يكن هناك سلام بين الأديان. ليس هناك سلام بين الأديان بدون حوار بينها. ولن يكون هناك حوار بينها بدون نظام أخلاقي كوني، ولن يستمر الكون بدون نظام أخلاقي كوني يدعمه المتدينون وغير المتدينين على حد سواء». حسب تعبير اللاهوتي الألماني هانز كونغ.

إن حوار الذوات الحرة والعقول المنفتحة يكتشف القيم الكونية للعيش المشترك، أما حوار الهويات القارة والعقول المغلقة فليس سوى تذيير لمعنى العيش المشترك.

أعني بـ«الإنسانية في الدين»: استلهام الميراث المعنوي العميق، واستدعاء التجارب الروحية التطهيرية التنزيهية السامية في التاريخ، وبناء إلهيات عقلانية مستتيرة، تحررنا من التفسيرات التعفية القمعية للنصوص، وتصوغ رؤية المسلم المعاصر للعالم، في ضوء الايقاع المتسارع للعلوم والمعارف البشرية، ومشكلات عالم الإسلام المخيفة، ومصائر التفكير الديني في عالم يتغير فيه كل شيء.

إن تحديث الإلهيات والمعارف الدينية يتطلب الخروج من السياقات الكلاسيكية للتفكير الديني، وعدم التوقف عن طرح تساؤلات جسورة، والتوكؤ على منهجيات

ومفاهيم، مستوحاة من المكاسب الجديدة لفلسفة الدين وعلوم التأويل وفتوحات المعارف البشرية، تفضي إلى التحرر من الصورة النمطية للإله، التي تشكلت في سياق الصراعات الدامية، والفتن والحروب العديدة بين الفرق والمذاهب، والسعي لترسيخ صورة رحمانية للإله، تستلهم ما يتحلى به من صفاته الجمالية، وأسمائه الحسنى، ورحمته التي وسعت كل شيء.

مجتمعاتنا ضحية قراءة فاشية للنص الديني. إن تحرير الإنسان يبدأ بتحرير صورة الله، من الظلام والكراهية والقتل الغارقة بها. ما لم يغيّد هذا هو حلمنا الذي نشده جميعاً، سنلث مصفدين في ولائم الدم المسفوح، وزنانات الرقص على أشلاء الضحايا.

لقد وصلنا إلى درجة مخيفة، إذ توطن وحش الكراهية قلوب جماعات من الشباب في مجتمعاتنا، فأضحى مرضاً، يبلغ مرتبة تفوق قدرة الكائن البشري على التحكم به، وتفاقم هذا المرض بنحو تغلغل فيه العنف وتشبعت به الذات، فتبدى في لغتهم وأصواتهم وأجسادهم ومواقفهم، وفسلوا في إخفائه مهما حاولوا أن يفلتوه ويتكتموا عليه.

أعرف شباباً ممن يتفانون في تلوين سلوكهم بصورة مشرقة، ويحاولون تقليد ومحاكاة سلوك شخصيات مسالمة دافئة وديمة، لكنهم يفشلون في التغلب على عدوانيتهم المتجذرة، وكراهيتهم لكل شيء من حولهم، فصاروا كأنهم قبلة موقوتة تنفجر عنفاً، مع أول تماس بأي كائن بشري.

لا يمكننا تحرير الشباب من السقوط في شبكات الإرهاب، إلا بتحرير الخطاب الديني من احتقار الآخر، وإهانة الأغيار.

أعني بـ«الإنسانية في الدين»: إنجاز مصالحة بين المتدين ومحيطه والعصر الذي يعيش فيه، والإصغاء لإيقاع الحياة المتسارعة التغير، ووتيرة العلوم والتكنولوجيا التي لا تكف عن مفاجأتنا كل يوم بجديد، تبدل معه صورة العالم، وتختلف تبعاً لها أساليب تعاطينا مع الواقع، وتتيح لنا وسائل تكنولوجيا المعلومات والنانو والتقنيات الجينية مغامرات وعي، توظف عقولنا وتخرجها من الحالة السكونية، وتقدم لنا سلسلة معطيات ومعارف وأدوات، تصوغ لنا تصورات وإدراكات وأفكاراً، تبدل معها رؤيتنا للعالم والحياة.

لا تعد دعوتي لـ«انقاذ النزعة الإنسانية في الدين» بأجوبة، وإنما يهمني طرح الأسئلة، والحرص على تنمية روح التفكير النقدي، الذي يفضي بدوره، وبنحو متواصل، للتساؤل المستمر، وتدريب التفكير على عدم الكف عن التحري وفحص المسلمات. ولا يتجاوز ذلك إلا بمقترحات وافتراضات وآراء، يعرضها للنقاش والحوار والتفكير. إنه محاولة للتفكير خارج الأسيجة التقليدية، ودعوة للنظر في القطعيات واليقينيات والجزميات، والخلاص من: تكرار المكررات، وشروح الشروح، وهوامش الهوامش، وتعليقات التعليقات.. والتحرر من: الشغف بما هو كمي بدلاً من ما هو كفي، واستئناف النظر في كل ما عطل التفكير الديني في الإسلام، وأقعده عن إرواء الظلمة الأنطولوجي للمقدس في حياة المسلم اليوم، وأعاقه عن مهمته في تكريس الإيمان، وتجذير وتنمية الأخلاق في الحياة.

حياتي عبور متواصل:

أود أن أشير إلى أن شيئاً مما سطرته هنا يحكي جروح حياتي، كتبه بدم القلب، لا بالحبر، لأنني لحظة كتابتي استفاقت مواجع حياتي، وتفجرت المكبوتات المترتبة في ذاتي.

صُجّت حياتي بمُشاكسة الأيام، والمواقف المتنوعة، والظروف المتغيرة، لكنني كنت وما زلت أقاوم قسوة الأيام بالاصرار على الماضي حتى النهاية، مهما كانت أشواك دروب أحلامي.

لم أهزم أشباح الموت إلا بالتشبث بإرادة الحياة. لم أتغلب على كلمات اليأس إلا بأناشيد الأمل. لا أغادر العمل إلا لعمل آخر، لا أتوقف أو أتعطل مهما كانت الصعوبات.

أدركت مبكراً أنه مهما تخلّق الإنسان وتهذّب ينبغي أن تظل تربيته لذاته عملية يومية متواصلة، لأن الإنسان كائنٌ لا يستطيع الخلاص بسهولة من الشر القابع في داخله، أو يتغلب على هشاشته، أو يتحرر من ضعفه. مضافاً إلى أن سَلْم تكامل الإنسان لا نهاية له. تربية الذات وتهذيبها لن تلغ غاياتها القصوى أو تنتهي إلى مدياتها النهائية مهما امتد عمر الإنسان.

تعلمتُ أن الحياة عبورٌ متواصل. الشكُّ هو الذي أعبر منه إلى اليقين، الخطأ هو الذي أعبر منه إلى الصواب، الجهل هو الذي أعبر منه إلى العلم، الظلام هو الذي أعبر

منه إلى النور، الغموض هو الذي أعبر منه إلى الوُضوح، التردّد هو الذي أعبر منه إلى الإقدام، القُبْح هو الذي أعبر منه إلى الجمال، الطَيْش هو الذي أعبر منه إلى الوَقَار، الحُمُق هو الذي أعبر منه إلى الجلم، سوء الخُلُق هو الذي أعبر منه إلى حسن الخُلُق، البَغْضَاء هي التي أعبر منها إلى الألفَة، الخِصَام هو الذي أعبر منه إلى الإِنْسِجَام، الفَقْلَة هي التي أعبر منها إلى اليَقْظَة، الصَمْتُ هو الذي أعبر منه إلى الكلام، الفَسْل هو الذي أعبر منه إلى النَّجَاح، الصَّغْفُ هو الذي أعبر منه إلى القُوَّة، العَجْزُ هو الذي أعبر منه إلى القُدْرَة، الهَشَاةُ هي التي أعبر منها إلى الصَّلَاة، الوَهْنُ هو الذي أعبر منه إلى الحِمَاس، الكَسْلُ هو الذي أعبر منه إلى الكَدْح، الحُمُودُ هو الذي أعبر منه إلى التَّوَقُّد، السُّكُونُ هي التي أعبر منها إلى الوَثْبَة، الماضي هو الذي أعبر منه إلى الحَاضِر.

لا أتهبب المغامرة مهما كانت شاقّة، ولو افتقدت أية وسيلة أستعين بأظفاري للحفر بين الصخور، والعض بأسناني لتفتيتها، كما هي عادتي، منذ مغادرتي بيت أهلي بعمر اثني عشر عاماً، واستقلالي في إدارة شؤون حياتي، وتجرع مرارت أيامي. تنهتُ مبكراً إلى أن النجاح ليس ثمرة الموهبة وحدها، لأنه لا شيء يأتي بلا جهد إلا الفقر. الموهبة بلا مثابرة بمثابة الألباس الغاطس في طبقات قصية من الأرض، لا يتكشف إلا بالحفر العميق جداً. الحفر العميق الذي تتكشف به الموهبة هو الجدية والمثابرة. بلا مثابرة لا تسمح ذاكرة الأيام أن تحمل بصمتنا. التاريخ لا يسمح أن يُخلد أي اسم لا يحفر توقيعه على الصخر بأظفاره، ولا ينحت صورته على الحجر بأسنانه.

من مهنة أبي في فلاحه الأرض، التي لن يبرح صاحبها الحقل إلى الليل كل يوم، ليعود إليه في الصباح الباكر كل يوم، تدربت من فلاحه الأرض حين أكتب الأبرح الكتابة إلا للكتابة مجدداً، حين أقرأ إلا أنتهي من قراءة نصّ إلا وأبدأ من جديد قراءة نصّ آخر، حين أعمل إلا أنتهي من عمل إلا وأبدأ من جديد في العمل الذي يليه.

يسرفني عن التواصل مع الناس السكر المزمّن بالعمل. حاولت أن ألوذ بالكتابة، التي أجد فيها أحياناً دواءً لشيء من مواجع الروح وشاعرات العالم منذ شهرين كنت أعمل كل يوم 15 ساعة، مشغولاً بتحرير هذا الكتاب. وبعد فراغي منه أبدأ بتحرير نصّ آخر، وهكذا. لدي برنامج يغطي كل ما تبقى من أيامي.

كل معلومة ورؤية تضمنها هذا النص، نشي بما تحفل به ذاكرتي، وتبوح بشيء

من سيرتي الفكرية الروحية الأخلاقية. متمنياً أن تمنحني الأيام فرصة العودة إلى ما
كتبته هنا، كي أعززه بما نسجت دروب أحلامي، ورسمته خرائط أيامي، وتكلمت عنه
أقدامي المحافية التي لم يرهقها تراب الأزقة.

المثقف الرسوليّ عليّ شريعتي

ترحيل الدين من الأنطولوجيا إلى الأيديولوجيا

نود أن نشير بإيجازٍ إلى اتجاهات التفكير الديني المعاصرة في إيران، قبل المضي في الحديث عن علي شريعتي، المثقف الرسولي الذي اشتهر بخطاباته التعبوية، شديدة التأثير في الشباب قبيل الثورة الإسلامية، وتحريضه المجتمع على الانخراط في مناهضة نظام الشاه محمّد رضا.

وبغية التعرّف على موقع شريعتي في خارطة التفكير الديني الإيراني ووجهة تفكيره، نشير بإيجازٍ إلى تلك الاتجاهات العامة في هذا التفكير، وتدرّج في عرضها في سياق مرحلتها التاريخية. وهو تصنيفٌ يشي بمراحل صيرورة المثقف الديني الجديد في إيران، ونمط الرؤية إلى العالم التي يصدر عنها، في فهمه للدين والنصّ الديني والتراث، في كلّ محطةٍ من تاريخ إيران القريب. ومحاكاته للنموذج المعرفي المهيمن في كلّ فترة.

وبقدر ما يتضمّن هذا التصنيف من بيانٍ يوضّح أين يقع كلّ مفكّرٍ وطبيعة منجزه المعرفي، إلّا أنّه يلبس بهجرة غير واحدٍ من المفكرين من رؤيةٍ إلى أخرى، واختلاف رؤاهم، تبعاً لمراحل حياتهم، وطبيعة المتغيرات والتحوّلات التي تحرّك غيرها الاجتماع الإيراني، وتراكم خبرات ووعي المفكّر، وحساسياته الروحية والعاطفية، وجارته العقلية في المراجعة والنقد الذاتي، ومغامرته في العبور إلى فضاءاتٍ أرحب⁽¹⁾.

(1) - الرفاعي، عبد الجبار. «الفيلسوف المغمور داريوش شايفان». مجلة الكوفة ص 2: ع 1، 2013. نحدثنا في هذه المقالة عن ثلاث مراحل فكرية لشايفان. وهكذا عبر عبد الكريم سروش، ومحمد مجتهد شبستري، أكثر من محطة في رحلتها، في حين انتهى مصطفى ملكيان - أصغرهم سناً - حتى اليوم، إلى المرحلة الخامسة. وهذه ظاهرة في التفكير الديني في إيران =

اتجاهات التفكير الديني في إيران

تتلخّص اتجاهات التفكير الديني المعاصرة في إيران بما يلي:

أ - اتجاه موروثٍ «تقليدي»: هذا الاتجاه امتدادٌ للتقاليد العريقة في الدراسات الدينية في الحوزة¹. ما زال هذا الاتجاه مهيمًا في الحوزة القميّة وغيرها من الحوزات في إيران. ويعبر عن تراكم خبرة واسعة لقرونٍ عديدة في تعليم ودراسة الإلهيات والمعارف الإسلامية، والفقه وأصوله، والمنطق الأرسطي والفلسفة والعرفان. ويتسم بالتوغّل العميق في التراث ومسالكه المتنوّعة، خاصّة الفقه وأصول الفقه، واستيعابه لأسئلته ومقولاته ومفاهيمه، ومحاولات وصلها بالعصر، والحرص على تمثّلها.

ب - اتجاه إحيائي: يتمثّل هذا الاتجاه في تيارين:

1 - تيارٌ فلسفيٌ عرفاني: سعى هذا الاتجاه لمواكبة العصر، وحاول أن يقدم تفسيرًا يستلهم الميراث العقلي والعرفاني في التراث، ويتوكأ على آثار ملا صدرا الشيرازي ومدوّنته في الحكمة المتعالية، ومرجعياته في آثار محيي الدين بن عربي. وتمثّل هذا الاتجاه (حلقة قمّ الفلسفية) التي أسسها السيّد محمّد حسين الطباطبائي، بمعونة مجموعة من تلامذته، في الحوزة العلمية بقم. التأمّت هذه الحلقة عام 1951 بعقد ندوة نقاش فلسفيّ ليلتين كلّ أسبوع، اتّسعت لمجموعة متميّزة من تلامذته، مثل: مرتضى مطهرّي، حسين علي منتظري، محمد حسين بهشتي، مهدي حائري، جعفر سبحاني، موسى الصدر... وغيرهم. كان هدف الطباطبائي إنتاج نصّ فلسفيّ مكثّف، يستعيد مقولات الفلاسفة المسلمين، ويفتح على شيء من آفاق الفلسفة الغربية الحديثة، خاصّة فيما لم يبحثه مستقلًا الفلاسفة

= تؤثر إلى تصالح الاجتماع الإيراني مع المعارف ومعطيات العلوم الإنسانية واللاهوت الغربي وفلسفة الدين الجديدة، وشجاعته في الاستعارة والافتقار والتركيب والدمج من المفاهيم المتحمية إلى انساني معرفية وشكائت مفاهيمية متغايرة، خلافا لما هو سائد في المحيط العربي. وهذه الظاهرة تتطلب نظرًا مسألفًا.

(1) - أشارت بعض الصحف الإيرانية، الصادرة في 2014/9/2، إلى أن مجموع التلامذة والمدرسين في إيران في الحوزات في قم وغيرها يقارب المائة وخمسين ألفًا.

المسلمون، مثل نظرية المعرفة ومباحثها⁽¹⁾. لكن اطلاع هذه الحلقة على الفلسفة الغربية ظل يعتمد على ترجمات وكتابات مبكرة بالفارسية مطلع القرن الماضي، لا تخلو من تبسيط في التعريف بهذه الفلسفة وفهم آراء فلاسفتها، ومطالعتها في سياق موروث فلسفي عرفاني إيراني⁽²⁾.

2 - المدرسة التفكيكية: وهي حركة تتمحور حول إحياء التفكير النصوي الحديثي، وتاهض التفكير العقلاني في الإسلام، دسّنها جماعة من مدرّسي الحوزة في مشهد في النصف الأوّل من القرن العشرين، من أبرزهم مهدي الأصفاهاني، مجتبي القزويني، موسى الزرآبادي وغيرهم، وأعاد تكوينها محمد رضا حكيمي. تدعي التفكيكية أنّها تنشأ غربلة وتفكيك ميراث الوحي والنبوة الذي عبّرت عنه مدرسة أهل البيت، من العناصر الوافدة من أثينا والإسكندرية وفارس القديمة. وبعبارة موجزة: التفكيكية هي صياغة متطورة للحركة الإخبارية. وكأنّها تجترح المحال في ما تطمح إليه، إذ تحلم بنمط من التفكير الديني يتعالى على أيّ مشروطيات تاريخية أرضية بشرية، اجتماعية، اقتصادية، سياسية، أثنية، ثقافية، لغوية... الخ. وكأنّها تعمل على إلغاء صيرورة تاريخية يتعذر أن تُلغى، وتتشدّ نفي ما يتراكم على النصوص الدينية من شروح وتفسيرات وآراء يفرضها التغيير الاجتماعي، وتحولات المجتمعات الإسلامية عبر العصور، وما تؤول إليه حركة الواقع ورهاناته وتطورات، التي لا تتوقّف أو تتعطل.

ج - اتّجاه تجديدديّ: نشأ وتطوّر هذا الاتّجاه خارج الحوزة، وكان رواده مجموعة

(1) - تحدثت عن حلقة قمّ الفلسفية في كتابي (تحديث الدرس الكلامي والفلسفي في الحوزة العلمية)، بغداد: دار المدى، 2010، ص 226 - 228.

(2) كان كتاب «سير حكمت در اروپا» لمحمد علي فروغی هو أول كتاب بالفارسية يتناول الفلسفة الأوروبية، منذ عصر ما قبل سقراط في اليونان إلى العصر الحديث. وهو كتاب ينم عرضه لهذه الفلسفة بتلخيص وبسيط ساذج أحياناً. صدرت أجزاء هذا الكتاب في السنوات التالية، على التوالي: ج 1: 1931، ج 2: 1939، ج 3: 1941. فروغی مثقف وسياسي إيراني معروف، توفي 1942. ورغم أن هذا الكتاب ينظر لخبرة «التخصص الشاملة» المعتقد. لكن أنسحي مرجعاً أساسياً للكثير من دارسي الفلسفة في إيران، وهم كثير، خاصة أولئك الذين لم يتكفوا في سياق أكاديمي حديث في هذا المجال، ولم يتعلموا اللغات الغربية. إلى أن ظهرت فيما بعد ترجمات وكتابات جادة بالفارسية لمختصين، أصابوا تكويناً أكاديمياً جيداً، ودرس بعضهم تلك الفلسفة بلغاتها الأم.

من المفكرين، ممن ظفروا بتكوين أكاديمي حديث، وتكوين لغوي متعدي، كذلك كانوا على صلة عضوية بأساتذة كبار في حوزة قم، فأصاب معظمهم تكويناً موروثاً في الفلسفة والعرفان.

يعود تشكّل النواة الجينية لهذا الاتجاه إلى عصر «المشروطة»، ثم تنامي بمرور الزمن.

عبر مسيرة هذا الاتجاه ساد كل مرحلة تياراً فكرياً، قدّم تفسيراً محدداً للدين والتراث، نوجزها في الآتي:

1 - تيار التفسير العلمي: كان المهندس مهدي بازركان (أول رئيس وزراء للحكومة المؤقتة بعد الثورة الإسلامية) رائداً للتفسير العلمي للقرآن والنصوص الدينية، وهو توجه نشأ منذ القرن التاسع عشر، وشاع في النصف الأول من القرن العشرين بين الكثير من المثقفين المسلمين، خاصة في البلاد العربية. فكانت جهود بازركان نموذجاً لذلك، إذ تكثفت جهوده في تفسير القرآن على المقارنات والمقاربات مع معطيات العلوم والاكتشافات الحديثة. وهكذا نعر على هذه النزعة في آثار (شريعتي الأب) محمد تقى، وبصورة أقل (شريعتي الابن)، ويد الله سحابي، واليد محمود الطالقاني... إلخ. نشأ هذا التيار في الأربعينيات والخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، وازدهر بالتدرج في السبعينيات. ولم يعد له ممثلون معروفون اليوم⁽¹⁾.

2 - تيار الهوية «الذاتية»: أحمد فرديد، الفيلسوف الشفاهي، أو «الفيلسوف ضدّ الفلسفة»، كما عنونت مقالتي عنه، المنشورة في مجلة الكوفة الأكاديمية⁽²⁾، هو أبرز رائد للهوية والذاتية. يجترح فرديد مصطلح (غربزدگی) بمعنى (الإصابة بالغرب)، فالغرب بمثابة وباء أصاب اليونان القديمة، منذ سقراط وأفلاطون وأرسطو، ومنها نشأت، فتسم به العالم. (الإصابة بالغرب)

(1) - انتهى المرحوم مهدي بازركان في السنوات الأخيرة من حياته إلى أن هدف رسالة الأنبياء إنما هو معرفة الله والأخرة. إذ ألقى بازركان محاضرة في الاتحاد الإسلامي للمهندسين في طهران عام 1992، بعنوان «الأخرة والله فقط برنامج بعثة الأنبياء». بازركان، مهدي. مجموعته آثار. تهران: بنیاد فرهنگي مهندس مهدي بازركان، 1388 = 2009، آخرت وخدا، هدف بعثت انبياء، ص 265-480.

(2) - الرفاعي، عبد الجبار. «أحمد فرديد فيلسوف ضدّ الفلسفة». مجلة الكوفة، ص 2: ع 3، 2013.

عنده عبارة عن حقيقة (الإصابة باليونان). لا يتردد فرديد في نعت الغرب، منذ الحضارة اليونانية حتى اليوم بالوباء المتفشي في العالم زمانياً وجغرافياً. فيعمم هذا الوباء - كما يستبه - على تاريخ الإسلام، الذي يرى أنه «مشحونٌ بأراء وعقائد الإصابة بوباء الغرب». ويحلّو له أن يصنّف «الإصابة بالغرب» إلى: «مضاعفة وغير مضاعفة، بسيطة ومركبة، إيجابية وسلبية». يتخذ فرديد من «الإصابة بالغرب» معياراً يصدر من خلاله أحكامه القدحبة حيال الفلاسفة والمتصوفة والعرفاء وغيرهم.

يصوغ فرديد رؤيته استاذاً إلى علم الأسماء الإلهية عند ابن عربي، وفلسفة هايدغر، واللسانيات وعلم اللغة المقارن والفيلولوجيا، متقباً عن جذور الألفاظ والكلمات وأنسائها. ويلفّق أنظمة معرفية متباينة، ويخلط بينها بشكل لا يخلو من التباسٍ وغموضٍ واضطراب، بتركيب مقولاتٍ ومفاهيم متافرة، لا تنتمي إلى السياق ذاته، في إطار بناء مقولاته، فيوحد بين ابن عربي وهايدغر، والفيلولوجيا وفلسفة التاريخ، في مزيج غير متجانس، تختلط فيه عناصر مختلفة، ويعمل على صياغة مقولاتٍ يجترح لها تسميات خاصة⁽¹⁾.

ونعثر في آثار شريعتي على بصمات واضحة لمفاهيم هذا التيار، مثل دعواته الحماسية للعودة إلى: الأصالة، والهوية الحضارية، والذاتية، حتى أنه خصص للاحيرة كتاباً كاملاً، أسماء «العودة إلى الذات»، وعالجها في موارد مختلفة من أعماله.

طفت في هذه المرحلة مفاهيم الهوية، والذاتية، والخصوصية الحضارية، والسياقات الاجتماعية والثقافية والدينية المحلية للاجتماع الإيراني، في خطابات وآثار أبرز المثقفين الإيرانيين.

مضافاً إلى أن فرديد وشريعتي كان حين نصر من أبرز دعاة «الذاتية». وإن كان مفهوم الذاتية والهوية لديه أنطولوجياً ملتبساً غامضاً، يحيل إلى «الحكمة الخالدة»⁽²⁾. ورغم أن هذا المفهوم أنطولوجيٌ وملتبسٌ أيضاً لدى فرديد، لكن تفسيره يختلف عن تفسير نصرٍ للهوية

(1) الرفاعي، عبد الجبار. «أحمد فرديد فيلسوفٌ ضد الفلسفة». مجلة الكوفة، س 2: ع 3، 2013.
(2) الرفاعي، عبد الجبار. «حين نصر: الجسد للغرب - الروح للشرق». مجلة الكوفة، س 3: ع 1، 2014.

يمتلك حسين نصر خبرة جيّدة بالحدائث الغربية ومناهجها وأدواتها النقدية، ومعرفة بجرأتها في تفكيك وغرابة مقولاتها ومواقفها. حتى إنّ المراجعات النقدية الجادة التي كتبها هو وجماعة «السنة»، للمفاهيم المفتاحية للحدائث والتنوير، كالعقل والتقدّم والعلم والتكنولوجيا والحرية الفردية، تأثرت بالنزعة النقدية للحدائث، ووظف فيها ما تعلّمه من تلك المراجعات النقدية. لكنّ المعروف عن حسين نصر عدم اكرثائه بالنقد، ووثوقته ووفائه لأرائه، وإصراره عليها، وتكرارها منذ كتاباته الأولى إلى اليوم. فلم أعثر في آثاره بمختلف سنوات تدوينها على مراجعة، أو تقويم، أو نقد، أو اعتراف بخطأ، أو تصويب رأي غير صحيح كان يتبناه. كان مفاهيمه كافة ولدت ناجزةً مكتملةً.

لا يكفّ حسين نصر عن تجليل الماضي، والثناء على التاريخ، وتنزيه مسيرة الأديان في المجتمعات البشرية، من دون أية إشارة لما يضحّ به التاريخ من حروبٍ دينية، تواصلت عشرات أو مئات السنين، كالحروب الصليبية التي استمرّت لقرنين. كما لا يتحدث عن اضطهاد وقمع وتعذيب وإعدام محاكم التفتيش الدينية في العصور الوسطى لأعدادٍ كبيرة من العلماء والأحرار. كذلك لا يذكر نصر صلب الحلاج، وإعدام شيخ الإشراق السهروردي، وشمس الدين محمد بن مكيّ العاملي (الشهيد الأول)، وزين الدين بن عليّ (الشهيد الثاني) وغيرهم. ويتجاهل فتاوى تكفير محيي الدين بن عربيّ، وجلال الدين الرومي، وعمر الخيام، وما يتضمنه كلام الفرق وفقه المذاهب من تكفير لغير المسلم وأحياناً للمسلم.

إنّ حسين نصر وجماعته يتنكّرون للأطر الاجتماعية للمعرفة، ويتعاطون مع معارف ووقائع وأفكار الماضي، باعتبارها متعاليةً على الواقع، عابرةً للزمان والمكان⁽¹⁾.

أمّا عليّ شريعتي فإنّه لا يقارب مفهوم الذاتية والهوية من منظور أنطولوجي، وإنما يقدّم تفسيراً اجتماعياً ثقافياً ثورياً لـ (العودة إلى الذات). وبذلك لا يتطابق مفهوم الذات والهوية في تفسير كل واحد من هؤلاء المفكرين الثلاثة.

3 - تبار الماركسية الإسلامية: تنوع التأثير الماركسية والحركات الاشتراكية في

(1) الرفاعي، عبد الجبار. «حسين نصر: الجسد للغرب - الروح للشرق». مجلة الكوفة، ص 3: ع 1، 2014.

عالم الإسلام، فظهرت مؤلفاتٌ عديدةٌ تخلع على بعض صحابة النبي (ص) رداءً اشتراكياً، وحاولت كتاباتٌ أخرى أن تقدم تفسيراً ماركسياً لحركات الخوارج والقرامطة والزنج في العصرين الأموي والعباسي⁽¹⁾. واتّمت موضة تلوين الإسلام بالماركية وتلوين الماركسية بالإسلام في الخمسينات والستينات من القرن الماضي، لحظة غرام النخب بوعود الاشتراكية وأحلام الشيوعية.

وتفشّت عدوى التفسير الماركسي والاشتراكي إلى التفكير الديني الإيراني أيضاً، وتخطّت العدوى في إيران التفكير النظري، عندما تحوّلت إلى بناء أحزابٍ ومنظماتٍ تبني أيديولوجيتها على تلفيق مشوّهٍ يخلط الإسلام بالماركية. وتمثّل منظمة مجاهدي الشعب (سازمان مجاهدين خلق ایران) أبرز نموذجٍ لهذا الخلط والتركيب للمقولات المتضادة في إيران. تأسست هذه المنظمة عام 1965، أسّسها: محمد حنيف نجاد، وسعيد محسن، وعبد الرضا عبدي. كان اسمها في بداية نشأتها منظمة المجاهدين (سازمان مجاهدين)، ثمّ أضحت لاحقاً باسم (منظمة مجاهدي الشعب). وهي حزبٌ سياسيٌّ معارضٌ لنظام الشاه محمد رضا، ولاحقاً للجمهورية الإسلامية الإيرانية، يعتمد أيديولوجيا ثوريةً تلفيةً، بصياغةٍ مبتدلةٍ لماركيةٍ إسلاميةٍ⁽²⁾.

كان المثقف والسياسي الإيراني محمد نخشب (1923 - 1976)، أوّل من صاغ رؤيةً أيديولوجيةً تخلط الاشتراكية بالدين والتراث. أسّس محمد نخشب جمعية حسين راضي (نهضة التوحيديين الاشتراكيين)⁽³⁾، وهم جماعةٌ من الشباب المتديّنين ذوي نزعةٍ اشتراكيةٍ. انصبّ اهتمام نخشب وجماعته على الأبعاد الأخلاقية والإنسانية في الدين، وعمل على إنتاج قراءةٍ إسقاطيةٍ على النصّ الديني والماضي والتراث، فخلع عليه صورةً اشتراكيةً، وكان يحسب أنّ الاشتراكية الإنسانية العملية تجسدت في صدر الإسلام، أمّا الاشتراكية الأوربية فهي اشتراكيةٌ خياليةٌ. تأثر بأفكاره ومنحاه الاشتراكي في تأويل الإسلام علي شريعتي في بداية حياته، فترجم كتاب (أبو ذرّ الغفاري) لعبد الحميد جودة السحار، تحت عنوان (أبو ذرّ التوحيدي الاشتراكي).

(1) يمكن العثور على نماذج لهذا التفسير في آثار: مصغى الباسمي، أحمد عباس صانع، حسين مروة، هادي العلوي... وغيرهم.

(2) - جعفریان، رسول: جریانها و سازمانهای مذهبی سیاسی ایران 1320 - 1357. تهران: نشر علم، 1391 = 2013، ص 543 - 549.

(3) - نهضت خدابرستان سوسیالیست.

4 تيار معرفي عابر للأيدولوجيا: يتوكل هذا التيار في تفسير الدين وتجلياته في حياة الفرد والمجتمع على فلسفة العلم والألسيات وعلوم التأويل والهمنوطيقا وفلسفة الدين والإلهيات الجديدة في الغرب. كما يوظف علم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم النفس والعلوم الإنسانية في دراسة وتحليل الظواهر الدينية.

يهتم هذا التيار بنصوص الأديان الآسيوية الشرقية وتجاربها الروحية. كما يشد اهتمامه بالموروث الصوفي المتأخر في الإسلام، أعني آثار محيي الدين بن عربي ومولانا جلال الدين الرومي، وغيرهما. وعادة ما يحيل إلى تلك النصوص، سواء كانت نثرًا أو شعرًا.

وكان هذا النمط من التفكير الديني يريد أن ينتقل، من الأيدولوجيا إلى الأنطولوجيا. ويتعبر المتصوفة، نشد الارتقاء والصعود، من الشريعة إلى الطريقة ثم الحقيقة.

يشدد هذا التيار على التمييز بين الوحي والتجربة النبوية والقراءة النبوية للعالم، الدين والمعرفة الدينية، الدين والتدين، الدين والأيدولوجيا، إسلام الحقيقة وإسلام الهوية، إسلام التحقيق وإسلام التقليد، إسلام التأسيس وإسلام التثبيت، إسلام التاريخ وإسلام الرسالة.. الخ.

وأبرز رواد هذا التيار اليوم هم، داريوش شايفان، عبد الكريم سروش، محمد مجتهد شبستري، ومصطفى ملكيان.

بدأت هذه الأفكار بالظهور الأولي، في مجلة الفكر الإسلامي (انديشي اسلامي)، وهي دورية شهرية أصدرها محمد مجتهد شبستري في العام الثاني للثورة الإسلامية، واختفت قبل أن تكمل عامها الأول. ومنذ ذلك الحين بدأت مفاهيم هذا التيار بالتدق، فبعد مضي أربع سنوات من عمر الثورة الإسلامية كتب عبد الكريم

(1) لا ينسج المقام في هذه التوطئة للحديث عن أحزاب ومنظمات هذا التيار، وهي منظمات نورط بعضها بأعمال عنف واغتيالات. مثل منظمة «فرقان»، وهي منظمة أسسها أحد رجال الدين الشباب «أكبر كودرزي»، وتوزعت باغتيال المرحوم الشيخ مرتضى مطهري وغيره من الشخصيات المعروفة. انظر: جعفریان، رسول. المصدر السابق: ص 774 - 790.

سروش سلسلة مقالاتٍ نشرتها مجلة العالم الثقافي (كيهان فرهنگی)، تناولت الاختلاف بين الدين بوصفه ثابتًا، والمعرفة الدينية - أي فهم الدين - بوصفه متغيرًا. ثم صدرت في كتاب (قبض و بسط نظرية الشريعة)⁽¹⁾.

وكان نشر تلك المقالات وجمعها لاحقًا في كتاب إيدانًا بتدشين مسارٍ مختلفٍ للتفكير الديني في إيران، إذ كان صدور كتاب (قبض و بسط نظرية الشريعة) بمثابة المنعطف، بل الجرح الرجسي للتفكير الديني التقليدي.

وتواترت فيما بعد كتاباتٌ للمؤلف نفسه ولمفكرين آخرين في السياق ذاته، تعلن رؤى مغايرةً للساند، وتبوح بانثاق سؤالٍ ميتافيزيقيٍّ جديد، وتفتح حقولاً لم يغامر التفكير الديني في إيران بالتوغّل فيها من قبل، وتفتح مقولاتٍ لاهوتيةً بديلةً.

علي شريعتي

في 23-11-1933 وُلد علي شريعتي، في قرية علي تخوم الصحراء تدعى (مزبان)، وهي تابعة لمدينة (سبزوار) في إقليم (خراسان) في إيران، وتوفي في لندن بتاريخ 21-7-1977. نشأ في عائلةٍ متديّنة، ينحدر فيها الأبوان من سلسلة آباء هم رجال دينٍ ودعاةٌ ومدرسون للمعارف الإسلامية. تلقى والده محمد تقي شريعتي تعليمه الديني في الحوزة العلمية في مشهد، ومارس وظيفته فيما بعد معلمًا في المدارس الابتدائية، ثم أسس في فترة لاحقةً متديّ ثقافيًا إسلاميًا دعاه (مركز ترويج الحقائق الإسلامية)⁽²⁾، لتربية وإعداد الشباب وتوجيههم إسلاميًا.

كان شريعتي الأب معلّمه الأوّل، وواصل الابن تعليمه، حتّى حصل على ليسانس (الأدب الفارسي) من كليّة الآداب والعلوم الإنسانية بمشهد سنة 1958، ثم التحق بجامعة السوربون في باريس سنة 1960 لدراسة الدكتوراه، وفي عام 1964 ناقش أطروحته في التاريخ، التي تناولت ترجمة وتحقيق كتاب (فضائل بلخ)، لصفّي الدين البلخي، بإشراف: جيلبرت لازارد⁽³⁾.

(1) - قبض و بسط تنويرك شريعت.

(2) - كتابون شرعائيق اسلامي.

(3) - الشائع أنّ المرحوم د. علي شريعتي متخصصٌ في علم الاجتماع والأديان، بينما راجعت كلّ الكتابات التي دوّنها باحثون إيرانيون متخصصون عنه، واعتمدوا على شهادات معاصرين له في الجامعة، وعلى وثائقه الشخصية، كذلك أطلعت أنا على مصوّرات ووثائقٍ خاصّةٍ به، فلم أعر فيها على ما يشير إلى أنّه متخصصٌ في علم الاجتماع والأديان.

لم يقتصر شريعتي على الدراسة في الجامعة، بل - كما يقول هو - انخرط في تلمذة خارج إطار الدكتوراه، على يد مجموعة من الأساتذة الكبار في باريس وقتئذٍ، مثل: لويس ماسينيون، وجورج غورفيج، وجاك بيرك، وجان بول سارتر⁽¹⁾، فواظب على الإصغاء لهم، والتواصل معهم، ولفرط تعلقه بهم وشغفه برؤيتهم، وصفهم في بعض كتاباته المتأخرة بـ (معبوداتي)⁽²⁾. كما تحمّس للهموم النضالية لحركات التحرير، خاصةً (جبهة التحرير الجزائرية)، وتوثقت صداقته مع المناضل المعروف فرانز فانون، واهتم شريعتي مع أحد زملائه بترجمة كتاب فانون (معدّبو الأرض) إلى الفارسية، ونشره لاحقاً في إيران.

وصف شريعتي نفسه بأنّه، (معلّم جيل الشباب)⁽³⁾، فيما وصفه مریدوه بـ (المعلّم الشهيد)⁽⁴⁾،

لكنّ الغريب أنّ آثار شريعتي وردت فيها عباراتٌ تُؤسّر إلى تخصصاتٍ متعدّدة له، مثلاً يقول: «دراسي في علم الاجتماع»، مجموعته آثار ج 31: ص 316. «دراسي وتخصّصي في تاريخ علم الاجتماع»، مجموعته آثار ج 28: ج 57. «دراسي في علم اجتماع الدين»، مجموعته آثار ج 28: ص 71. «دراسي وتدرّيسي في تاريخ الأديان»، مجموعته آثار ج 26: ص 15. «بوصف تخصصي العلمي هو في علم الاجتماع الديني، وهذا التخصص منجمّ مع عملي، فأني أسعى لتدوين نوع من علم الاجتماع، المرتكز على الإسلام والمصطلحات المستوحاة من القرآن والحديث». إسلامشاسي، ص 23.

انظر: متيني، جلال. إيرانشاسي ص 5: ج 4، ص 835 - 894. ص 6: ج 2، ص 377 - 441. رهنما، علي. مسلمانان در جستجوی تاكجا آباد، ص 235 - 238. هاشمي، محمّد منصور. دين اندیشان متجدد: روشفكري ديني از سروش تا ملكيان. 115. جعفریان، رسول. مصدر سابق. ص 712.

(1) كتب الصحفي الإيراني مصطفى خلّاجي في مفاك، بمناسبة وفاة عالم الاجتماع الإيراني إحسان نراقی، في صحيفة الشرق الأوسط، الصادرة في لندن، يوم الأحد 16-12-2012، قائلاً: «لم يكتف نراقی بعدم الاعتراف بشريعتي كعالم اجتماع فحسب، بل أخذ أيضاً أنّه مجرد شخصي ضحلّ التلميح، يكتب ويلقي خطباً لتضليل الشباب». كما وصف أيضاً ادّعاء شريعتي بمعرفة الشخصية لجان بول سارتر ولويس ماسينيون، بأنّها خدعةٌ، مشيراً إلى أنّه قد تحقّق من كلّ هذه الادّعاءات في باريس، وتبيّن أنّها مجرد هراء».

(2) - شريعتي، علي. كوير. طهران: انتشارات جايخش، ط 2، 1379 = 2000، ص 52.

(3) - شريعتي، علي. مجموعته آثار. طهران: انتشارات جايخش، ط 2، 1379 = 2000، ج 31: ص 256.

(4) - اضطرّ المرحوم علي شريعتي للهجرة الى لندن، وتوفي هناك في السادس من حزيران 1977، بعد فترة وجيزة من وصوله، وأحاطت بموته ظروف مبهمّة غامضة، تنوعت تفسيراتها، ودفعت أنصاره ومريديه للقول بتدبير السافاك (المخابرات الإيرانية وقتئذٍ) مؤامرة لقتله. عشية وفاته =

و(المعلم الكبير)، و(الدكتور)⁽¹⁾. وعرفوه بـ (منظر أيديولوجيا الثورة)، ذلك أنه حرص على صياغة تفسيرٍ ثوريٍّ للدين، وسعى إلى وصل العقيدة بالثورة، وبناء رؤية ثورية للنصّ الديني والتراث والتاريخ، فالمجتمع الإسلامي كما يرى يحتاج (نازراً فكريةً ثوريةً)⁽²⁾. شريعتي يعتقد بأنه هو من قام بإضرام شعلة هذه النار، التي ينبغي أن تبدأ بـ«بسم الله المالك القاهر المتقمم»⁽³⁾. كما ذهب إلى أن بعثة النبيّ (ص) ودعوته إنما هي حركةٌ ثورية⁽⁴⁾، وقرأ ظهور الإسلام بوصفه (ثورةً إسلاميةً)⁽⁵⁾، وراى أنّ (الإسلام الثوري) انطلق مع الإمام عليّ بن أبي طالب (ع)⁽⁶⁾.

يشدّد شريعتي في موارد عديدة من آثاره على المضمون الثوري للإسلام، ويعدّ الإسلام الثوري مناهضاً للإسلام الإصلاحي، بنحوٍ ينبغي أن يكون جمال الدين الأفغانّي ومحمد إقبال ممثلين للإسلام الإصلاحي، فهو يجب بالنفي عن تساؤل فيما إذا كانا يمثلان (التطوّر التدريجي والإصلاح الظاهري للمجتمع)، فيقول: كلاً، بتعبير آخر إنهما يدعوان إلى ثورةٍ جذرية عميقة، ثورة في التفكير والنظر والشعور، ثورةٍ أيديولوجية، ثورة ثقافية⁽⁷⁾.

= كان عبد الكريم سروش مقيمًا في لندن، وتربطهما علاقة ودية، حضر سروش مباشرةً صبيحة وفاته إلى مستشفى جامعة ساوث هيمبتن، الذي كانت فيه جثة شريعتي. فكتب يقول: «المرحوم شريعتي كان يتحنن بصحة جيدة، غير أنه كان مدحناً. لم يكن يأكل تقريباً، بل كان يدخل ويشرب الشاي فقط. حين غادر إيران كان تحت ضغط عصبي ونفسي شديد جداً. بعد وصوله بريطانيا، كان يترقب التحاق ابنته به، تلقى اتصالاً هاتفياً يشير إلى مغادرتها المطار في طريقهما إلى لندن. لبث في المطار فترة طويلة، من دون أن يصل. إثر ذلك انتابته موجة قلق وحزن شديد، حتى وصلنا. مثل هذه التوترات النفسية، وكذلك مكوناته في الحبس الانفرادي عشرين شهراً. وقبل السجن عاش متخفياً أو شبه متخفياً عن المجتمع. كل ذلك جعل قلبه ضحية ضغوط وتوترات حادة، فكان من الممكن إصابته بالسكتة القلبية. وقتئذٍ حدث وفاته المؤسفة. وكما ورد في تقرير مستشفى جامعة ساوث هيمبتن: لأنه لم يُعثر على دليل يشير إلى قتله. وعليه يمكن اعتبار وفاته طبيعية». سروش، عبد الكريم. از شريعتي. تهران: مؤسسه فرهنگی صراط، 1384 = 1995، ص 29 - 30.

(1) - مجموعته آثار. ج 31: ص ب.

(2) - مجموعته آثار. ج 21: ص 118.

(3) - مجموعته آثار. ج 19: ص 109.

(4) - مجموعته آثار. ج 26: ص 188.

(5) - مجموعته آثار. ج 3: ص 25.

(6) - مجموعته آثار. ج 23: ص 105.

(7) - مجموعته آثار. ج 5: ص 42.

حاول شريعتي أن يصوغ تفسيراً للثورة الدينية، يتلخّص في أن: «الثورة عبارة عن قيام أشخاص من قبيلة الله في كلّ جيل بغية الانتقام الثأري من قبيلة الطاغوت»⁽¹⁾. أمّا كيف يتحوّل الدين إلى ثورة أبدية، فيصرح: «في العقيدة الإسلامية بالتوكّؤ على ثلاثة مرتكبات، يمكن إنجاز ثورة دائمية: 1- الاجتهاد... 2- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... 3- الهجرة...»⁽²⁾. لذلك تصبح «مسؤولية رجل الدين إيجاد ثورة شيعية في نمط فهم الدين في عصرنا»⁽³⁾.

ادلجة الدين

أدرك شريعتي أن تفسيره الثوري للدين يتطلب قراءة أيديولوجية للدين، أو (ادلجة الموروث الديني). والموروث كما يرى يفترق إلى مثل هذه القراءة، فعكف على إنجازها، إذ يقول: «سألني أحد رفاق الدرب: ما هو برأيك أهمّ حدث وأسمى إنجاز استطننا تحقيقه خلال السنوات الماضية؟ فأجبت: بكلمة واحدة، هو تحويل الإسلام من ثقافة إلى أيديولوجيا»⁽⁴⁾. شريعتي يعتقد بعدم إمكان الاستغناء عنها في إعادة بناء المجتمع، فإنه «لا بدّ من أيديولوجيا»⁽⁵⁾.

نتوعب الأيديولوجيا في رأيه أهمّ أسباب النهضة والتطوّر والتنمية، لأنّ «الأيديولوجيا هي نحوّ من الإيمان المرتكز على مفاهيم: الوعي، الهداية، السعادة، الكمال، القيم، المحلم، المسؤولية... الفلسفة والعلم تفسّران القيم، الأيديولوجيا تمحوّ قيمًا وتنتج قيمًا بديلة. الفلسفة والعلم يتولّيان الكشف والتشريح، الأيديولوجيا تخلق من جديد. الفلسفة والعلم تصنع الفيلسوف والعالم، الأيديولوجيا تصنع المستير المجاهد»⁽⁶⁾. الادلجة غاية لإنسانية الإنسان لدى شريعتي، فمن لم يكن مستيرًا مسلمًا فلا بدّ أن يكون ماركسيًا من أجل أن يحتفظ بأدميته، ف«الأدمي إن لم يكن مسلمًا مستيرًا، لكي يكون آدميًا فيجب أن يكون ماركسيًا»⁽⁷⁾.

(1) - مجموعتي آثار. ج 19: ص 10.

(2) - مجموعتي آثار. ج 17: ص 65 - 67.

(3) - مجموعتي آثار. ج 7: ص 264.

(4) - مجموعتي آثار. ج 1: ص 209.

(5) - مجموعتي آثار. ج 28: ص 229.

(6) - مجموعتي آثار. ج 7: ص 93 - 94.

(7) - مجموعتي آثار. ج 23: ص 291 - 292.

يغالي شريعتي بوظيفة الأيديولوجيا، فترتقي لديه إلى مرتبة أن تصير وصفاً تعالج كل تشوهات وأمراض المجتمع، وتمنحه مجموعة أحلامه صفة واحدة، فهو لا يني بشدّد على أخلاقية الأيديولوجيا، وابتكارها لقيم جديدة، وأثرها السحري في المحو والإثبات، وصياغة مجتمع مثالي.

لكنه لا يتبه إلى أنّ تفتي الأيديولوجيات البارية والقومية والسلفية في مجتمعاتنا، أنتج عقلاً ديماغوجياً مغلقاً متحجراً، يفسر كل شيء بشيء واحد، ويث وعوداً وأحلاماً رومانسية خلاصية، منقطعة الصلة بالواقع، ويعمل على إنشاء فضاء أيديولوجي مسيح بأسوار مغلقة، وكأنها سجون يولد وترعرع في داخلها أتباع لا يطبقون العيش خارج أسوارها، حين تسمي الأيديولوجيا مادة لأذهانهم ومشاعرهم، ويمسكون هم مادة لها.

الأيديولوجيا نسق مغلق، يغذي الرأس بمصفوفة معتقدات ومفاهيم ومقولات نهائية، تملن الحرب على أية فكرة لا تشبهها، حتى تقضي إلى إنتاج نسخ متشابهة من البشر، وتجييش الجمهور على رأي واحد، وموقف واحد، وكأنها تمثل قول فرعون: «قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّسَادِ» غافر: 29.

ينبئ الأيديولوجي نموذجاً تفسيريًا مسطحاً أحاديًا، يمنحه شعورًا مزورًا بأنه قادر على الفهم الدقيق والتحليل العميق لكل شيء، وأن أفكاره مبتكرة فريدة، ويوحى له ذلك التفسير بنزعة رسولية خلاصية، وشخصية نبوية إنقاذية. ويلبث غارقًا لا يستفيق من عبوديته للأيديولوجيا، حتى كأن سعادته في عبوديته هذه.

إن الأيديولوجيا تعطل التفكير التأسولي الحر المغامر، الذي يتخطى ترسيماتها وحدودها. إذ تعمل الأيديولوجيا على إشاعة تقاليد تقدم فيها الأفكار كحقائق جزمية نهائية، وترتاب وتقلق من إثارة الأسئلة. بل تشدد على القول: ليس من الصحيح أن نثير أسئلة، أو أن نتحدث بإشكالات تزعزع ثقة الناس بقضية معينة. الأيديولوجيا تنتكر لحق الاختلاف والتنوع، وتشدد على ضرورة تبني المجتمع لمعتقد واحد، ورؤية مشتركة، وتفسير موحد تنجزه هي، وترفض أية محاولة لتفسير لا يتطابق معه، وتحدّر من الأسئلة التي ترعرع مرتكراتها وتفسيراتها، مع أن بناء وتطوير المجتمعات يبدأ بانساق الأسئلة الحائرة، الأسئلة الجريئة، الأسئلة العميقة، الأسئلة الصعبة، الأسئلة الكبرى. فإنه يتجلى العقل بالسؤال أكثر مما يتجلى بالجواب، الأسئلة الهشة تفضح العقول الهشة، الأسئلة العميقة صوت العقول العميقة.

لكي يتطور المجتمع ينبغي أن يكون تفكيره تساؤلياً على الدوام، لأنّ التفكير التساؤلي هو الذي يمكننا من الوصول إلى ما هو ممنوعُ التفكير فيه، والمناطق اللامفكر فيها أصلاً. التفكير لا يكون محايداً، فأما أن يكون تفكيراً تساؤلياً بحرية، وهو التفكير الذي ينطلق بالعقل بمغامرةٍ جسورةٍ فيحطم أغلاله كلّها، أو يكون مقيداً مشلولاً يقودنا إلى العبودية. النقد والتساؤل عمليتان مهمتان، وهما شرط كلّ تطوّر، ومرتكزٌ لكلّ عمليةٍ تحديث من شأنها تحقيق تنميةٍ شاملةٍ في أيّ بلدٍ من البلدان.

الأيديولوجيا جزئية، همّها تضييق وتدجين ونمذجة الشخص البشري، لذلك تقدّم جواباً واضحاً لكلّ سؤال، وكأنّها لا تدري أنّ أسئلةً ثقيلةً - كاستئلة المبدأ والمصير ما لبثت منذ جلعامش مفتوحة.

السؤال الميتافيزيقي عميقٌ جداً، إنّه سؤال الأسئلة، منه وإليه وبه تتحقق بنحوٍ مباشر أو غير مباشر الأسئلة، طبقاته تمتدّ عمودياً بامتداد وعي وتجربة الكائن البشري زمانياً وانطولوجياً. من هنا مكث السؤال الميتافيزيقي منذ فجر الوعي البشري حتى اللحظة، محوراً وأفقاً للعقل والروح والقلب، إثباتاً أو نفيّاً.

من المعلوم أنه يتعطل التفكير حين تغلق الأسئلة المفتوحة، الأيديولوجيا تقوّضها الأسئلة المفتوحة، لذلك لا تبقي في فضاءها أيّ سؤالٍ مفتوح، وتحرص أن تقدّم إجابات جاهزة لكلّ سؤالٍ مهما كان.

لا توجد خطورةٌ أو مشكلةٌ من إثارة الأسئلة. هناك منطلقٌ تبسّطيٌّ يسود التفكير الأيديولوجي، يذهب إلى أنّ السؤال الذي يثار ينبغي أن يكون جوابه جاهزاً، من أجل ألاّ نشير حالة من الارتباك والشك، وكأنّه يفترض أنّ لكلّ سؤالٍ جواباً مسبقاً، ولا بدّ من أن يكون هذا الجواب نهائياً، وهو لا يدري أنّ هناك أسئلةً ظهرت في الحياة البشرية منذ فجر الوعي البشري، وما زالت هذه الأسئلة تتكرّر، وإجاباتها أيضاً يعاد تكوينها، كما تبتثق لها إجاباتٌ جديدةٌ على الدوام، من دون أن يكفّ العقل فيها عن التفكير، وتبلغ كما لها.

من هنا يمكننا تفسير اتّسع دائرة التيارات والمدارس الفلسفية واللاهوتية، وتوّع الآراء والمفكرات والاجتهادات لديها على مرّ التاريخ. فمثلاً موضوع منح معنى للحياة، وكيف أنّ الإنسان مكوّنٌ بمنح معنى لوجوده، هذا أحد الأسئلة الكبرى في الوعي البشري. لقد أفاضت الفلاسفة وأيضاً اللاهوت بتقديم أجوبةٍ متنوّعةٍ عن هذا

السؤال، غير أن هذا السؤال لن يكف عن الجوع لتفسيرات فلسفية ولاهوتية جديدة، تحلل وتشرح معنى الحياة والوجود.

وظيفة الأسئلة وظيفة أساسية، هي التي تسمح لنا أن نقدر ونراجع، وأن يدحض العقل ويكذب الأخطاء، تلك الأخطاء التي كانت لزم من طويل تعد من الحقائق الأزلية واليقينيات. يقول باشلار: «ليست هناك حقائق أولى، بل أخطاء أولى. بادئ الرأي يكون مبنياً دوماً على خطأ، إنه يفكر تفكيراً سيئاً، أو لنقل بالأحرى إنه لا يفكر، وإنما يترجم حاجيات وينقلها إلى معارف».

تاريخ العلوم ينطوي على سلسلة من التأكيدات، وهو بمثابة مقبرة للنظريات العلمية. النوازل والشكك يسمحان لنا باستئناف النظر في طائفة من الجزمات والقطعيات والمسلمات والبداهات. قيمة الفكر الحديث والمعاصر أنه يتأنف النظر بالمسلمات، وعلى حد تعبير إدغار موران: «اللابقيين يقتل المعرفة البسيطة، لكنه يحيي المعرفة المركبة».

وحين نعود إلى اللحظات الحاسمة في نشوء وتطور الحضارات العظمى، نجد أنها انبثقت عن أسئلة مصيرية عميقة. إن تاريخ الحضارات الكبرى هو تاريخ الأسئلة الكبرى. وهكذا الحال في إنتاج النظريات والرؤى والمقولات والاجتهادات، وابتكار الآراء الجديدة في التفكير الديني، ذلك أن هذه الآراء نجدتها تنوالت باستمرار في فضاء التساؤلات، وتنبثق من خلال المواقف العقلية الارتبابية. وما أدق ما قاله هيدغر: «السؤال رحمة الفكر».

ما زلت أدرك أن الدين يهدف لتحقيق العدالة، لكن الطريق إلى العدالة لا يمر من خلال (أدلجة الدين)، لأن (الأدلجة) تفسد الدين. الدين يتمحور هدفه العميق حول تأمين ما يفشل العقل والخبرة البشرية في تأمينه للحياة. الإنسان كائن لا يشبه إلا الإنسان، وهو الكائن الذي يفتقر إلى ما هو خارج عالمه المادي الحسي، خلافاً للحيوان الذي لا تتجاوز احتياجاته عالمه المادي الحسي. الإنسان في توقي ووجد أبديين إلى ما يفتقده في هذا العالم، وذلك ما تدلل عليه مسيرة هذا الكائن منذ فجر تاريخه إلى الآن، بل أزعج أن هذه الحاجة مزمنة، وستستمر حتى آخر شخصي يعيش في هذا العالم. وهو ما أصطلح عليه (الظما الأنطولوجي للمقدس) في حياة الكائن البشري. إلا أن تبدل طبيعة هذا الكائن.

تشهد القراءة الأيديولوجية للدين من منظور شريعتي ما ترونو إليه سواها من القراءات

الأيديولوجية، وتشترك معها في المفاهيم والمصطلحات والتطلعات، فتحدث عن: (الطبقة، الوعي الطبقي، الرأسمالية، المحرومين، المستضعفين، الجماهير، الصراع، المجتمع اللابقي). القراءات الأيديولوجية تحلم بـ (العدالة الاجتماعية)، فيما تنهتس فيها (الحرية)، ولا تقبل (الحدأة الغربية)، وما يرتبط بها، من: (ديمقراطية وليبرالية، وحرية، وحقوق بشر)، بوصفها ملتبسة بالرأسمالية والاستعمار⁽¹⁾.

مع أن قراءة شريعتي الأيديولوجية تلتقي أحياناً بالماركسية، غير أنه عمل على تلوينها دينياً، فعمد إلى تفسير وتأويل النصوص، والرموز، والمواقف، والأحداث، وسلوك الشخصيات الكبيرة في الإسلام، في ضوء ما يتناغم مع مطعمه في (أدلجة الدين)، فشخصيات مثل: علي بن أبي طالب، والحسين، وزينب، وأبي ذر، هي نماذج: (ثورية، نقدية، ثورية، تغيرية). ومفاهيم: (الجهاد، الشهادة، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، هي إطار (المجتمع اللابقي التوحدي) الذي يقوم بـ (القسط، العدل، الناس)⁽²⁾.

كما يحيل شريعتي فهم الإسلام إلى استيعاب وتحليل طبيعة دعوة النبي إبراهيم (ع)، فيعتقد أن مدلول تحطيم إبراهيم للأوثان لا يقتصر على نبذ الشرك وعبادة الأوثان، بل يتجاوز ذلك إلى أنها أزل نهضة ضد مجتمع طبقي قومي مشرك، فالشرك علامة على المجتمع الطبقي الذي كان يضح بالتمييز، وكل وثن يرمز إلى طبقة أو قومية أو مرحلة اجتماعية خاصة. وإن رجال الدين المرائين عبر التاريخ لا يعينهم انعدام العدالة والوضع الطبقي للمجتمع، بل إن هؤلاء - حسب شريعتي - هم المشركون الحقيقيون. الشرك كما يرى هو بمثابة «نظام اجتماعي - اقتصادي يبتني على الاستغلال الطبقي، والتوحيد هو نظام اجتماعي - اقتصادي يبتني على مجتمع لابقي»⁽³⁾. وعلى هذا فإن «الإنسان الاشتراكي قبل أن يكون إنساناً إلهياً يرتقي إلى مرتبة الإيثارة»⁽⁴⁾.

في هذا السياق يعمد شريعتي إلى نسيج تفسير للنصوص يستند إلى منح الاقتصاد

(1) - مجموعتي آثار. ج 10: ص 108-109، ج 26: ص 466، 476.

(2) - عباس كاظمي. جامعه شناسي روشفكري ديني در ايران. نهران: طرح نو، 1383 = 1994، ص 128 - 129.

(3) - مجموعتي آثار. ج 29: ص 8، 16، 19، 27.

(4) - مجموعتي آثار. ج 2: ص 148.

دورًا محوريًا في الاجتماع البشري، فهالدين الإسلامى بنىة التحتى ترنكر على الاقتصاد والدينوية... الدنيا في الإسلام متقدمة على الأخرة في كل مورد، الأخرة لا شيء سوى آتها عبارة عن الاستمرار المنطقي والعلني والمعلولي للدنيا⁽¹⁾. ويصرح في موضع آخر بأن «الاقتصاد هو الأصل»⁽²⁾. ويرى في أبي ذر نموذجًا للاشراكي التوحيدي، فهأبو ذر يشد نمبة الاشراكية الاقتصادية الياسبة للإسلام⁽³⁾.

الحساسية السياسية والحساسية الفلسفية:

أفضت هذه الرؤية بشريعتي إلى النامي بأبي ذر، وجعل سلوكه معيارًا يُختبر على أساسه نمط التدين والأثر الإيجابي له في حياة الإنسان في المجتمع، فأبو ذر يمتلك «حساسية سياسية»، ورؤية طبقية منحازة إلى المجتمع، فيما يمتلك ابن سينا وأمثاله «حساسية فلسفية»، ويفتخرون إلى رؤية أبي ذر.

يُقلق شريعتي والبروتتانية الإسلامية العقل الفلسفي، ذلك أن الفلسفة تهتم أسوار العقل المغلق، فتأنف النظر في البدايات، وتفكك اليقيات، وتعيد صياغة الإشكاليات. الفلسفة لا تكف عن توليد الأسئلة، لأنها في جوع أيدئي للأسئلة. يعمل العقل الفلسفي على حذف الأخطاء المتراكمة في تفسير الحقيقة، وتصويب فهم الوجود، وابتكار رؤية عقلية للعالم، وصياغة معنى للكينونة يكتشف حقيقة الكائن البشري، وربته الوجودية. إنها معنى لإشباع شغف العقل بالمعنى، حيث يفنقد المعنى.

حين يصمت العقل الفلسفي تدخل عملية التفكير في سبات، ويتعطل توليد المعارف والعلوم. بل إن صمت العقل الفلسفي يفضي إلى غرق المجتمع في الجهل والأمية، وشيوع العقلية الشفاهية، وتفشي أحكام الغرائز والمشاعر والعواطف والانفعالات والمواقف والانطباعات والتصورات اللا عقلانية، واتساع البلاءة. حين تنسى الفلسفة تنساك أعياد التاريخ.

كما يُقلق البروتتانية الإسلامية التفكير الفلسفي في الدين، ذلك أنه يقوض دعواتها الأيديولوجية، ويفتح فيه الوعي على آفاق رحبة لوظيفة الدين، وعوده في

(1) - مجموعتي آثار. ج 31: ص 29، 114.

(2) - مجموعتي آثار. ج 5: ص 99.

(3) - مجموعتي آثار. ج 3: ص 18.

حياة الإنسان، لذلك تشترك في موقفها المناهض للتفكير الفلسفي في الإسلام، منذ سيد قطب وعلي شريعتي، ومن اقتضى أثرهم.

ويمكن ملاحظة ذلك بوضوح في أدبيات الجماعات الإسلامية السنية والشيعية. وهو ما أفصح عنه شريعتي في المقارنة التخييلية بين (الحساسية السياسية، والحساسية الفلسفية)، إذ لم يتردد في هجاء الفلسفة والفلاسفة⁽¹⁾، بنحو يصح

(1) - من الطريف أن الدولة الإسلامية في العراق والشام «داعش»، حرمت تدريس الفلسفة في مدارس المناطق الخاضعة لها. صحيفة الخليج الإماراتية، 14 سبتمبر 2014. صحيفة القدس العربي «لندن»، 16 سبتمبر 2014.

وسيد قطب قبل علي شريعتي يدي رأيه المناهض بشدة للفلسفة والفلاسفة. ويصف محاولاتهم بأطفال يخطون ويخوضون. ويحكم على منجزاتهم بأنها: عبثٌ. وخطأٌ. وخوضٌ.. حين يكتب: «إن سائر التصورات - حتى لكبار الفلاسفة الذين يعتز بهم تاريخ الفكر الإنساني - تبدو محاولات أطفال يخطون ويخوضون في سبيل الوصول إلى الحقيقة.. وطالما عجبت وأنا أطالع تصورات كبار الفلاسفة، وألاحظ العناء القائل الذي يزاولونه، وهم يحاولون تفسير هذا الوجود وارتباطاته، كما يحاول الطفل الضئيل حل معادلة رياضية هائلة.. أما تصورات الفلاسفة فهي محاولات أجزاء صغيرة من هذا الوجود لتفسير الوجود كله. والعاقبة معروفة لمثل هذه المحاولات البائسة إنه عبث وخطأٌ وخوضٌ.. حين يقاس إلى الصورة المكتملة الناضجة المطابقة، التي يعرضها القرآن على الناس، فيدعها بعضهم إلى تلك المحاولات المتخيلة الناقصة، المنحيلة الاكتمال والنضوج وإن الأمور لتظل مضطربة في حس الإنسان وتصوره، متأثرة بالتصورات المنحرفة، وبالمحاولات البشرية الناقصة». سيد قطب. في ظلال القرآن. دار الشروق - بيروت - القاهرة. ط 17 - 1412 هـ (6 / 3394 - 3395).

وفي محل آخر يكتب سيد قطب: «هناك جفوة أصيلة بين منهج الفلسفة ومنهج العقيدة، وبين أسلوب الفلسفة وأسلوب العقيدة، وبين الحقائق الإيمانية الإسلامية وتلك المحاولات الصغيرة المضطربة المتعلقة التي تنضتها الفلسفات والمباحث اللاهوتية البشرية.. فقد بدت «الفلسفة الإسلامية» - كما سببت - نشأراً كاملاً في لحن العقيدة المتناسقاً ونشأ من هذه المحاولات تخلط كثيراً شاب صفاء التصور الإسلامي، وصفر مساحته، وأصابه بالسطحية.. إن عملية التوفيق بين شروح الفلسفة الإغريقية والتصور الإسلامي كانت تنم عن سذاجة كبيرة، وجهلي بطبيعة الفلسفة الإغريقية، وعناصرها الوثنية العميقة، وعدم استقامتها على نظام فكري واحد، وأساس منهجي واحد. مما يخالف النظرة الإسلامية ومتابعها الأصلية.. فالفلسفة الإغريقية نشأت في وسط وثني مشحون بالأساطير، واستمدت جذورها من هذه الوثنية ومن هذه الأساطير. ولم تخل من عناصر الوثنية الأسطورية فقط. فمن السذاجة والعبث - كان - محاولة التوفيق بينها وبين التصور الإسلامي القائم على أساس (التوحيد) المطلق العميق التجريد.. ولكن المشتغلين بالفلسفة والجدل من المسلمين، فهموا - خطأً - تحت تأثير ما نقل إليهم من الشروح المتأخرة المتأثرة بالمسيحية أن «الحكماء» - وهم فلاسفة الإغريق - لا يمكن أن =

حب قوله: «خمسمة [رجل من أمثال] ابن سينا لا تأثير لهم في المجتمع، ما خلا تشكيل حلقات من حولهم لتعلم الفلسفة. وهكذا لو اجتمع آلاف من نموذج الحلاج، فيتحول المجتمع إلى دار مجانين، لكنّ واحداً من نمط أبي ذرّ يكفي لإحداث تحوّل في قرنٍ كاملٍ»¹¹.

يرفض شريعتي سلوك الحلاج وغيره من المتصوّفة المعروفين، من ذوي التجارب الروحية العميقة في الإسلام، ويحلّو له أن يتهمّ على الذروة الروحية المشتعلة بالإيمان التي تسامت إليها روح الحلاج.

ومع أنّ موقف شريعتي هذا ليس غريباً على أديبات البروتستانتية الإسلامية، غير أنه يختلف عن الكثير منهم، ذلك أنّ بعض نصوصه تبوح برؤيا محلّقة لشاعرٍ مرهف الحسّية، يتحوّل كلّ شيءٍ بلامسه شعراً، كذلك لا تخلو نصوص شريعتي من ومضاتٍ روحيةٍ معنويةٍ مشتعلة، ويمكننا تصنيفها بوصفها نثراً فارسياً فاتناً، كأنها من حيث جنسها، قصيدة نثرٍ حديثة، تلمّح إلى رؤيا صوفيةٍ مشرّقة. بل كانت بعض كتاباته

= يكونوا وثيقين، ولا يمكن أن يجحدوا عن التوحيد! ومن ثمّ التزموا عملية توفيقٍ متعقّبة بين كلام (الحكماء) وبين العقيدة الإسلامية. ومن هذه المحاولة كان ما يسمى «الفلسفة الإسلامية»¹. سيد قطب. خصائص التصور الإسلامي ومفوماته - سيد قطب، ص 8 - 9.

وبعد سيد قطب وعلي شريعتي نشر راشد الغنوشي مقالاً بعنوان: «برامج الفلسفة وجيل الضياع»، في تونس سنة 1973، شنّ فيه حملة على الفلسفة، إذ قال: إن (درس الفلسفة ليفدو إذا لم نُحدّد اهتمامنا الثقافي ليس عديم الفائدة في علاج ما نعانىه من مشكلات فحسب، بل عنصر تخريب وتدمير وتشيت في ميدان النفس والمجتمع). الغنوشي، راشد. مقالات. منشورات حركة الانجاء الإسلامي، 1984، ص 12.

كما يقول الغنوشي: (وكتبت قد كتبت مقالاً اشتهر في حينه نشرته أهم صحيفة يومية في تونس، ثم نشر بعد ذلك في أكثر من كتاب. وكان المقال بعنوان «برامج الفلسفة وجيل الضياع». اعتبرت فيه منهاج الفلسفة مسئولاً عن جيل الضياع الموجود في تونس، ووجهت انتقادات عميقة للمنهاج، وطرحته بديلاً له. شعرت أنه لا بد للفكرة الإسلامية لكي تجد طريقها إلى الشباب من نقد عميق لبرنامج الفلسفة، فكتبت أقوم بذلك سواء في دروسي، أو في الندوات التي كنت أنظّمها خارج المدرسة أو في داخلها، وفي مقالاتي ومحاضراتي التي غطت خلال عشرية السبعينات معظم المعاهد الثانوية والكليات، فضلاً عن المساجد والنوادي. كان هذا هو العمل الرئيسي الذي ركزت عليه وأخواني مشروعنا الإصلاحي للبلاد). ورد النص في: من تجربة الحركة الإسلامية في تونس. نسخة منشورة على موقع: المركز المغاربي للبحوث والترجمة.

(1) - مجموعتي آثار. ج 27: ص 21 - 22.

نعمًا ثريًا، مكثفًا، فنيًا، رمزيًا، مضيئًا، تتسع فيه رؤيا شريعتي وحسايته الجمالية، بنحوٍ طليح بشريعتي الأيديولوجي، إذ نجده يبجل الفن والجمال، ويشي على رسالته العظمى في الحياة⁽¹⁾. ولا يخاف أو يخجل من أن يدلي باعترافاتٍ عن عالمه الجواني وهواجه الشخصية، مما يستهجنها العرف والثقافة المحليّة. فهو يعترف بطيشه، بل يعترف بترمه من الناس، وضعفه، وحزنه، وحيرته، وقلقه، ويأسه، وهزيمته، وسوداويته⁽²⁾. وهو ما يسود كتابه (حوارات الذات)⁽³⁾، أو منولوج الأنا، الذي هو نحو منولوج داخل النفس، أو حوار للمرحوم شريعتي مع الأنا.

ويمكن ملاحظة جرأته بالبوح الصريح والاعتراف، في سيرته الذاتية الفكرية الروحية القلبية، التي دونها بشرٍ فارسيٍّ رؤيويٍّ، لا يفتر إلى بوح الذات، ووجدها وفقداءها، وأملها وألمها، وأحلامها وكوابيسها، ونجاحاتها وخيانتها. ونشرها بعنوان (كوير)، أي (الصحراء). بعض النصوص تتعذر أو تصعب جداً ترجمتها. كتاب (كوير) من أوضح الأمثلة لهذه النصوص، ذلك أنه من أثرى نصوص النثر الفارسي، المشبعة بأشواق المتصوفة ووجدهم، وشطحات عشقهم، واعترافات المثقفين، وجسارة المتمردين.

نعثر في بعض آثار شريعتي على شخصية عاشق، تسامى أشواق روحه، وتشتعل لوعة قلبه، ويكتوي بآلام الفراق، ولا يخبو صوته عن مواجيد وصال معشوقه⁽⁴⁾.

تجلى في شخصية علي شريعتي أبعادٌ عديدة، تمثل في: المثقف الرسولي، الداعية النبوي، الأخلاقي، المؤمن، الإنسان، النبيل، الغيور، الشهم، الشاعر، الفنان، الرؤيوي، الأديب، الناقد، العاطفي، العاشق، المتمرد، القلق، المتبرم، الحالِم، الثائر، الفدائي.. تتداخل في تفكير ومشاعر وأحاسيس شريعتي: عقلية الناقد، مخيلة الفنان، حساسيات الشاعر، مشاعر العاشق، غيرة المؤمن، ذوق المتصوف، أشواق العارف، بوح الشجاع، جسارة المتمرد، تهور المغامر. وهي أبعادٌ تبدو متنافرة متضادة، ذلك

(1) - شريعتي، علي. هنر برای موعود. ص 6 - 10.

(2) - شريعتي، علي. كفكوهاي تنهائي. ص 149، 193، 225 - 260، 325 - 332، 621، 714، 1080، 1175. وصفحات أخرى في هذا الكتاب. الترجمة الحرفية للعنوان هي: «حوارات التوحد».

(3) - كفكوهاي تنهائي.

(4) - المصدر السابق: ص 111، 574، 866.

أنها عادةً لا تجمع كلها وتترخّد في شخصيّة واحدة، بإيقاع كأنه متناسق، إلا في حالات نادرة.

بروتستانتية إسلامية:

انتهى تشديدُ شريعتي على الأبعاد الدنيوية للدين إلى تمركز مفهومه للدين على العناصر المتغيرة، التي وصلها عضويًا بأدلجة الدين، وأهمّل التوغل في جوهر الدين، ولم يتبه لاكتشاف مضمونه الأصلي ومهمته في إرواء الظمأ للمقدس.

نلتقي في فهمه للدين، بمختلف الأبعاد: الحضارية، الثقافية، الزمانية، المكانية، الاجتماعية، الاقتصادية، السياسة. كما نلاحظ اهتمامه بنزع الأسطورة عن رموز الدين ومقدساته، وإفقاره ميتافيزيقيًا، مثلما فعلت البروتستانتية في المسيحية.

قدّم شريعتي تفسيرًا تاريخيًا للبعثة والدعوة وسيرة النبي (ص) وأهل بيته وصحابته، يهتم بدراسة العناصر والعوامل والظروف الشريفة المتنوعة، ويخفّض فيه ما هو غيبي، وحاول أن يفكّك بين ما هو تاريخي وما هو ميتافيزيقي، وقد تمحور اهتمامه بما هو تاريخي، وأهمّل ما هو ميتافيزيقي.

إنه سعى لبناء رؤية دنيوية للدين، اصطلاح عليها (البروتستانتية الإسلامية)، محاكيًا البروتستانتية المسيحية، عبر تحويل كلّ ما هو دنيوي إلى ديني، وكلّ ما هو ديني إلى دنيوي. يقول شريعتي: «منطلق مهمّة المستير ومسؤوليته في إحياء وخلص مجتمعه تتمثل في تأسيس بروتستانتية إسلامية»⁽¹⁾. وظيفة المستير الديني في نظره تلتخص في: انتخاب وغريلة الكنوز الثقافية الهامة، وبتّ الوعي الاجتماعي والطبقي، وأن يتحوّل إلى جسر بين النخبة والشعب، وانتزاع سلاح الدين من الكذابين والمخادعين.. وأخيرًا إيجاد نهضة بروتستانتية إسلامية، خاصة لدى الشيعة، تسبدل روح الاجتهاد والافتحام والاحتجاج والنقد بروح التخدير والتقليد والخمول⁽²⁾. يرى شريعتي أنّ «ما هو متداول من الدين باسم الإسلام منذ الغزو المغولي، ليس سوى نمط من الدين الكاثوليكي»⁽³⁾. ولا يتوقف شريعتي عند تصنيف الإسلام إلى: كاثوليكي وبروتستانتية، بل يمضي إلى مدى أبعد من ذلك عندما يصنف التشيع إلى:

(1) - مجموعتي آثار. ج 20: ص 294 - 295.

(2) - مجموعتي آثار. ج 20: ص 295 - 296.

(3) - مجموعتي آثار. ج 31: ص 110.

علويّ وصفويّ، ويمثله التسنّ في انقسامه عند شريعتي إلى: محمدّي وأمويّ. التسنّ الأمويّ يعادل التشيع الصفويّ، والتسنّ المحمديّ يعادل التشيع العلويّ⁽¹⁾.

البروتستانتية هي (حركة الإصلاح الديني في الكاثوليكية)، التي قادها مارتن لوثر (1483 - 1546). (البروتستانتية الإسلامية) هي (حركة أدلجة الدين والتراث في الإسلام الحديث والمعاصر)، التي يمكن أن نؤرّخ لها بولادة الإخوان المسلمين. البروتستانتية المسيحية والإسلامية كلتاهما تشركان بإنهاك الدين، وإفقاره ميثافيزيقياً، وخفض طاقته الروحية، وإهمال قيمه المعنوية والأخلاقية، والتشديد على مضمونه الدنيوي الأرضي، لكن البروتستانتية الإسلامية مختلفة عن المسيحية، فالبروتستانتية المسيحية حرّرت الدولة من الدين، والبروتستانتية الإسلامية أفضلت الدولة بالدين، وسّمت الدين بالدولة.

ما تشده البروتستانتية في المسيحية هو التشديد على الدنيا، كذلك ينشد شريعتي في بروتستانتية الدنيا أيضاً، لكن في المسيحية أنجزت البروتستانتية تحرير الدنيا والمعارف والعلوم من سطوة الكنيسة، والإطاحة بالبابوية والكهنوت، بوصفها المؤسسة المسؤولة عن التفسير الرسمي للدين. إلا أن ما أفضت إليه الجماعات الإسلامية التي تمثل أديباتها البروتستانتية الإسلامية هو توسيع حدود الدين، وتمديدتها لتستوعب الدنيا بتمامها، فقد أزاحت هذه البروتستانتية الدين خارج مجاله، واغتصبت به كلّ ما هو دنيوي، كما عملت على ترحيل الدين من حقله الطبيعي ووظيفته الأنطولوجية العميقة في إشباع الحاجة للمقدس، وتحويله إلى أيديولوجيا، تغدو هذه الأيديولوجيا وقوداً لعجلة السلطة، وإقحامه في مواجهة شاملة مع: الدولة، والمجتمع، والعلوم والمعارف، والفنون والآداب. وهو ما تمثله المساعي الحثيثة المتواصلة للجماعات الإسلامية، وجهودها المضنية في محاولات بناء دولة دينية، وعلوم ومعارف وفنون وآداب دينية. والذي تبلور في لافتات: بتوك الإسلامية، أسلمة المعرفة، أسلمة الفن، وأسلمة الأدب. وكان أسلمة المعرفة وغيرها تمثل عملية تعويض نفسي لنا في العالم المعاصر، الذي لم يساهم المسلم في مكتشفاته واختراعاته ومكاسبه العلمية والمعرفية، فيتوقّم عبر ذلك أنه ممن أنجزوا العلم وتحديث، وساهموا في إنتاج المعارف والتكنولوجيا اليوم⁽²⁾.

(1) - مجموعتي آثار. ج 7: ص 145 - 146.

(2) - الرفاعي، عبد الجبار. لاحظ فصل: «إسلامية المعرفة: قضية أيديولوجية من دون مضمون» =

لقد تأثر شريعتي بمناخات المقاومة والهوية والخصوصية الحضارية، المتفشية وسط المثقفين والطلاب المبتعثين في باريس من العالم الثالث، وأعجب بخطاب (المعذبون في الأرض) لفرانز فانون، وسعى لمحاكاته في بعض كتاباته. لكنه تجاوز خطاب فانون الذي تمحور حول الخصوصيات العرقية والسياقات التاريخية والثقافية للعالم الثالث، عبر تشديده على إحياء الجذور الإسلامية. فهو يعلن ما يعنيه بدعوته للذات واكتشاف الخصوصية، قائلاً: «حينما نتحدث عن العودة لجذورنا، نتحدث في الواقع عن العودة إلى جذورنا الثقافية.. إن العودة لا تعني إعادة اكتشاف إيران ما قبل الإسلام، وإنما تعني العودة إلى جذورنا الإسلامية»⁽¹⁾.

تكرر في آثار شريعتي - كما تقدمت الإشارة لذلك - مفاهيم الأصالة، والخصوصية، والهوية الحضارية، والذاتية، حتى أنه خصص لـ (العودة إلى الذات) أحد كتبه، وعالجها في موارد مختلفة من آثاره. وطفقت في هذه المرحلة لدى المثقفين الإيرانيين فكرة (الذاتية)، والعمل على اكتشاف السياقات الاجتماعية والثقافية والدينية للخصوصية والهوية الإيرانية.

التنافر الأنطولوجي بين الرؤى المتنوعة للعالم:

يخلط شريعتي بين أنساق غربية وشرقية - إيرانية خاصة - تنتمي إلى رؤى حضارية متنوعة للعالم، وشبكات مفاهيمية مختلفة، بل متضادة أحياناً، فيعمل على تركيب شكلي لها، من دون أن يتنبه إلى التنافر الأنطولوجي بين الرؤى المتنوعة للعالم في كل حضارة. لذلك استغرق في تحليلات شتى، نفضي إلى نتائج متناقضة أحياناً، قد لا يلتفت إليها القارئ في نظرة سريعة خاطفة، أو ملاحظة عامة ساذجة⁽²⁾.

تعاطى شريعتي بحريّة واسعة مع انتقاء المناهج والمقولات والأفكار، ووظفها في بناء رؤيته الكونية ومفاهيمه وآرائه، حيال الله، والميتافيزيقا، والطبيعة والعالم، والإنسان والمجتمع، والتراث والواقع. تفسيره وتحليله لفلسفة التاريخ، والتقدم

= معرفي، في كتابنا: انقاذ النزعة الانسانية في الدين - بيروت: مركز دراسات فلسفة الدين، ودار التنوير، 2013، ص 159-172.

(1) - مهرداد يروجردي روشنفكران ايرانيان و غرب. تهران: فرزبان، 1377 = 1998، ص 170.

(2) - الرفاعي، عبد الجبار. مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد. بيروت: مركز دراسات فلسفة الدين ودار الهادي، 2005، ص 307.

والتخلف، والمنعطفات والحوادث الهامة في مسيرة المجتمعات عبر الزمان، تحيل إلى: هيجل، ماركس، سارتر... وغيرهم. يقترب من هيجل في رؤيته للعالم، ومن ماركس في تفسيره للتاريخ والتغيير الاجتماعي، ويبتلهم وجودية سارتر في تفسيره الفلسفي للإنسان.

ترد في أعماله إشارات وإحالات متعددة لطائفة من الفلاسفة والمفكرين والأدباء الغربيين، لكن تلك الإحالات والتطبيقات لأراء أولئك المفكرين، لا تخلو من تبسيط وتعسف أحياناً.

إنه يحرص على توظيف كل ما يعرفه من معطيات العلوم الإنسانية الحديثة، من أجل تكريس قراءته الأيديولوجية، فهو متحيزٌ سلفاً لمواقفه وآرائه الجاهزة، يحشد كل ما يتوافر لديه من عدة معرفية للتدليل عليها، ومحاججة الآخرين الذين يرفضونها.

يكتفي شريعتي بقراءة سريعة وانطباعات عاجلة لمعطيات المعرفة الحديثة، يتوقف فيها عند السطح في دراساته ومطالعاته للفكر الغربي، ولم يشأ اكتشاف البنية العميقة لهذا الفكر، وأسسه الفلسفية، وآفاقه ومدياته الواسعة، ومجالاته المتنوعة، والتباساته وتناقضاته وثغراته، وربما يكتفي بانطباع أولي، وتعاطٍ شعائري، مع نسج المقولات والمفاهيم والأنساق المتشابهة للفكر الحديث.

وفضلاً عن ذلك نلاحظ ضعف تكوينه في المعارف الدينية والعلوم العقلية والنقلية في الإسلام، وهو ما تحكي آثاره العديدة، عندما يطالعها الخبير المتخصص، التي هي في معظمها محاضراته نفسها مع تحرير سريع، من دون أن يتحول فيها الشفاهي إلى مكتوب⁽¹⁾.

وحسب رأي داريوش شايفان، فإن «شريعتي يكتب لنا وصفات طيبة، ويعطينا إياها قبل تشخيص المرض»⁽²⁾. ويكتب مرتضى مطهري هامشاً على حاشية كتاب شريعتي «معرفة الإسلام»: «في رأيي، هذه الملزمة ليست معرفة بالإسلام، غاية ما نستطيع قوله أنها تغنى بالإسلام، أو كحدٍ أقصى هي إسلام شاعري، أو أنها نشيد

(1) - الرفاعي، عبد الجبار. «اختزال الدين في الأيديولوجيا: لاهوت التحرير عند شريعتي وحسن حنفي». مجلة قضايا إسلامية معاصرة، ع 49 - 50، (شباط وربيع 2012).

(2) - شايفان، داريوش. «هنوز اسطوره اي فکر ميکنيم». حوار مع صحيفة: «شرق». الصادرة في طهران 2012/5/5.

الإسلام (يصح الإسلام نشيدًا فيها). نعني أن الإسلام أصبح موضوعًا لنوع من الشعر أو التخيّل، تمّت صياغته نثرًا، والحق أنّه أصبح نشيدًا جيدًا وجميلًا، ولكن هذا النشيد تلقى من مصادر تتألف من: الاشتراكية والشوعية والمادية التاريخية والوجودية، أكثر مما تلقى من الإسلام¹¹.

أجوبة جاهزة:

استلهم شريعتي القواعد الأساسية للماركسية، وأقام عليها بناءً إسلاميًا. أولياته ومبادئه ماركسية، ولا يمكن العثور لديه على رؤية إسلامية عميقة. فهو يؤكد ما هو تحتَيّ وعلويّ، لكن متى وأين كان للإسلام بناء تحتَيّ وبناء علويّ؟ بل أين نجد في الإسلام مفهومًا للتاريخ بالنحو الذي تكلم عنه؟ إن من العسير مزج كلّ هذه المفاهيم مع بعضها في مركب متجانس¹².

شريعتي يمتلك أجوبة جاهزة لكل الأسئلة. إنه يضرب لنا المثل الصارخ عن رؤية ضيقة. وكلّ شيء يفتر عنده بنى تحتية وفوقية، برؤية ثنائية للتاريخ، وبشلال من التماهيات المسلسلة. إن فكر شريعتي خليطٌ من الجذرين اللذين يتقيا أحدهما الآخر. إن شريعتي: «لكن خلط هيجل المجرّد من كلّ الجهاز المفهومي لمنظومة العقل وظهورية الروح، مع ماركس مجردًا من النظرية، من الفعل على إطلاقه (Praxis)، مع إسلام مبتور من قطبيه، المبدأ (Origine) والمعاد (Retour)، فإننا نحصل على حساء دسم، تبدو فيه جميع العناصر المجمعّة، متزوّجة ومجرّدة من كلّ مضمونها الوجودي، نظرًا لأنها فصلت عن القاعدة التي تكونها وتوسّع علة وجودها، إن فكّرًا كهذا لا يمكنه أن يكون سوى فكر بلا موضوع، وبالتالي، فكر بلا مكان¹³».

إن شريعتي لم يستوعب المضمون الفلسفي لـ«ديالكتيك» هيجل، وهكذا لم يتوغّل في اكتشاف البنية المفهومية لفكر ماركس، ولم تستعفه رؤيته أن يتخطى مقولاته الاقتصادية والاجتماعية. كان شريعتي يستعيدُ معظم المقولات الماركسية،

(1) - حاشيهاى استاد مطهرى بر آثار شريعتى. تهران: انتشارات صدرا، 1393 ش = 2014 م، ج 1: ص 99.

(2) - شايفان، داريوش. «دين ودينيزوهى در روزگار ما در گفتوگو با دكتور داريوش شايفان». مجله‌ى هفت آسمان، ع 5 (ربيع 2000).

(3) - شايفان، داريوش. النفس المبتورة: هاجس الغرب في مجتمعاتنا. بيروت: دار الساقي، 1991، ص 71.

ويعطيها معاني جديدة، يقولها على وفق البنى التي ينكرها. «الفكرة القائلة إن الرؤية التوحيدية (الإسلامية) للعالم تتحقق عبر الإنسان والتاريخ والمجتمع في الأيديولوجيا الإسلامية، لتفضي إلى المجتمع المثالي، هي نوع من هيغلية مشوّهة، مفصولة عن نظام العقل، وعن كلّ الجهاز المفهومي للجدل. ومثلما اختزل شريعتي (الروح المطلق) إلى مفهوم توحيد غائم، فقد ردّ أيضًا كلّ الماركسية إلى المقولات الاجتماعية والاقتصادية، من دون أيّ اعتبار للمعنى الفلسفي للبراكسيس. إن هذه الماركسية الغائمة المتفشية في فكره تتكشّف في استعماله، كيفما اتفق، مصطلحات البنية التحتية والبنية الفوقية والحتمية التاريخية (المسماة أيضًا «علمية»)، والعلاقات الجدلية والمشاعية البدائية... إلخ. وباختصار كلّ الرطانة توجد هنا... إن إسلام شريعتي المؤدّج - مهما تكن دوافعه الدينية والعاطفية - يشفّ عن مقولات اجتماعية - اقتصادية مسطحة. إنه وهو يخفض البعد المقدس للإسلام إلى مستوى التاريخ، يعلمنه وينهكه من الدفق المتواصل للضرورة التاريخية»⁽¹⁾.

يشدّد شريعتي على تأويل مسار التشيع وميراثه بطريقة معيارية، لا تميز بين الأسطورة والتاريخ، مثلما لا تميز بين ما ينتمي إلى العالم الأرضي، وما ينتمي إلى عوالم غيبية علوية.

يهدف شريعتي إلى وصل مآلات التشيع ومصائرهم ومستقبله وراهنه باللحظة التدشينية العلوية، وإعادتها باستمرار إلى تلك اللحظة، من دون رؤية للبنية العميقة للاجتماع الشيعي، أو حسّ تاريخي يتوسع بصيرورة التاريخ وتحولاته الأبدية. وكأن العقائد والرؤى والقيم والأحكام الدينية متعالية على الواقع، عابرة للزمان والمكان، وكأنها لا تلامس بنية المجتمعات وتكوينها، وطبيعة التمثلات الاجتماعية وعلاقتها بالمحيط والمعطيات المتغيرة في التاريخ⁽²⁾.

تتهي الأدلجة التي أنجزها شريعتي إلى: «دنيوية الدين»، بمعنى إهدار الطاقة الروحية في الشعائر والعبادات والطقوس والممارسات الدينية، ومن ثمّ إنهاك الدين وتفريغ من محتواه الأنطولوجي ومضمونه المعنوي. إن «المفاهيم الدينية في غاية

(1) - شايغان، داربوش. ما الثورة الدينية: الحضارات التقليدية في مواجهة الحداثة. ترجمة وتقديم: د. محمد الرحموني. مراجعة: د. مروان الدايب. بيروت: المؤسسة العربية للتحديث الفكري ودار الساقى، ط 1، 2004، ص 272 - 273.

(2) - الرفاعي، عبد الجبار. «الفيلسوف المغمور داربوش شايغان». مجلة الكوفة.

الدقة، وإذا ما خرجت عن حدودها الخاصة، فقدت قابليتها وإمكاناتها. مثال ذلك أن نعتبر الوضوء ممارسة تهدف إلى النظافة والصحة قد يكون للوضوء أثرٌ صحيّ، ولكنه أولاً أثر ضئيل الماحة جداً لدى المسلمين. وثانياً الوضوء ممارسة دينية صرفة. إنه ليس فعلاً صحياً، وإنما هو فعل رمزي. وبمجرد أن نجعله صحياً، نكون قد أسقطنا عنه طابعه الرمزي الديني⁽¹⁾.

يوتوبيا شريعتي:

تميّز شريعتي ببراعة في مخاطبة الوجدان الشعبي، من خلال محاضراته الجريئة في حسينية (إرشاد) في طهران، بنحو كان يهيمن على مشاعر المستمعين، ويفرقهم في أحلام رومانسية، إذ يصوغ لهم يوتوبيا دينوية فاتنة، ينسجها من عناصر ومفردات وأفكار موروثه وحديثه، تخفق لها الأفتدة، وتشغف بها الأذهان. يعزز قبولها صدقه وجراته، والإيقاع الخاص لنبات كلامه، وطبقاته الصوتية الحزينة، المشبعة بمداليل لا تخلو من استغاثة ولوعة وشجى وتراجيديا، ولا تتردد في اقتحام الممنوع، والمجازفة في عبور محرمات السلطة والمجتمع والمؤسسة الدينية. يتذوق فيها المتلقي إيمان المرحوم شريعتي، وغيرته، وإخلاصه، ومشاعره وعواطفه المتقدمة، وقلبه الفوّار بعشق الناس، والتضامن مع المهمشين والمحرومين والضحايا.

عادة ما تكتظ حسينية (إرشاد) والأماكن التي يحاضر فيها بالمستمعين من الشباب. طالما خرج في حديثه على المتعارف والمألوف، يتحدث ببرة غاضبية، ويستعمل مصطلحات وشعارات مشيرة مستفزة.

تمرد في مقولاته وأفكاره على القراءات الرسمية للدين والتراث والواقع، مما أثار حنق الكثير من رجال الدين في الحوزة عليه، فدخلوا معه في سجالات ومناظرات مفتوحة، من دون أن يفضي ذلك إلى توافق وانسجام، حتى بلغت المنازعات بينه وبينهم نقطة اللاعودة، فصدرت فتاوى عدة من مجموعة من الفقهاء في إيران تصفه بالمروق والابتداع، وتصف آثاره بأنها (كتبٌ ضالّةٌ) تحرم مطالعتها وبيعها وشراؤها⁽²⁾.

(1) - شايغان، داريوش. «دين ودينپژوهی در روزگار ما در گفت و گو با دکتر داریوش شایغان».

مجله‌ی هفت آسمان ع 5 «ربیع 2000».

(2) - مجموعه‌ی آثار. ج 9: ص 73، ج 18: ص 177 - 178؛ ج 14: ص 309 - 310. اسناد انقلاب =

بالرغم من الحملة الواسعة المنظمة، التي قام بها جماعة من رجال الدين، لتعبئة وتحشيد الرأي العام في إيران ضد شريعتي، إلا أن ذلك لم يفقده الكثير من المرئيين والأتباع والمؤيدين في المجتمع، لا سيما وسط النخبة والمثقفين والثوار وقتل، ممن تداولوا كتاباته، وطبعوها ووزعوها على نطاق واسع، وتبناها كأدبيات للنهضة والمقاومة والثورة. وأضحى فكر شريعتي وآراؤه وأقواله وشعاراته من أبرز عناوين الضجة في إيران قبل الثورة، غير أن الاهتمام به تراجع، بعد مرور عقد على قيام الجمهورية الإسلامية، وانشغال التفكير الديني في إيران بجديات بديلة متنوعة، توالدت في فضاء تجربة أسلمة الدولة والمجتمع وتطبيق الشريعة.

أضحى فكر المرحوم شريعتي اليوم في ذاكرة التاريخ في التفكير الديني في إيران، بعد أن اضمحل حضور كتبه، ولم يعد إلا رمزاً للمثقف الداعية الرسولي في ذاكرة الثورة الإسلامية، بعد أن تخطت النخبة الإيرانية الإشكاليات والمفاهيم والشعارات المتداولة في آثاره، وانشغلت بما لم يفكر به ويتحدث عنه شريعتي.

لكن شريعتي ما زال يتامى حضوره بالعربية، وتفرق مكتباته بمؤلفاته باستمرار¹¹، ويتشر تأثيره في ثقافة الشباب الدينية، ويترنم بشعاراته الناشئة في ديارنا، وترسم له صورة ميشولوجية في مخيلة الجيل.

غربل المثقفون الإيرانيون فكر شريعتي، وكتبوا في نقده آلاف الصفحات، من كتب ورسائل جامعية ومقالات، فضلاً عن الندوات والحلقات النقاشية، حتى استطاعوا عبوره، ووضعوه خلف ظهورهم منذ سنوات طويلة.

لكننا بالعربية مكونون بمضغ الكتابات التعبوية التحريضية، ومغممون بما يغذي غضب الشباب بالفضلات الثقافية، وما يؤجج لوعنتهم بالحكايات التعبوية، وما يملأ رؤوسهم بالمفاهيم التبسيطية، وما يشعل مشاعرهم بالأناشيد التحريضية، وما يجرح ضمائرهم بالتراجيديا الدموية، وما يفرق مخيلاتهم بالأحلام الرومانسية. تلك الكتابات التي تفتت في لغتنا، عبر كراسات الجماعات القومية واليسارية

1 - الإسلامى ج 1: ص 458، 480، 481. ج 2: ص 211، 214، 215، 250. دعائي. ج 2: ص 45، 1991 = 1370. رهنما، علي. زندگي نامه‌ى سياسى على شريعتي. ترجمه: كيومرث فرقلو. تهران: گام نو، 1381 = 2002، ص 381 - 396.

(11) - معظم الترجمات العربية لأثار شريعتي ملتبسة، لا تشمل لغته وبيانه الساحر، ولا تحاكي نثره المهني.

والإسلامية، والتلذذ بالوصفات العاجلة الساذجة لتفسير المشكلات وعلاجها. أما المؤلفات العميقة للفلاسفة، والكتابات الجادة للمفكرين، فهي غريبة عنا، ونحن غرباء عنها.

حين ينحط العقل يفشل في بلوغ عتبة التفكير الفلسفي العميق. كسل أذهاننا، وهشاشة تفكيرنا، وحنينا للماضي، وشغفنا بالثرثرة، ساقنا إلى أن: نحتمي بكونين ولن ونسى إيمانويل كانط. نحتمي بالغزالي ونسى ابن رشد. نحتمي بابين تيمية ونسى ابن عربي. نحتمي بالمودودي ونسى محمد إقبال. نحتمي بعلي شريعتي ونسى داريوش شايفان.. إلخ. العقول الصغيرة لا تنوع إلا الأفكار المبسطة الصغيرة. العقول الكبيرة تنوع للأفكار العميقة الكبيرة.

تحرير الذات من عبودياتها:

خطيئة البروتستانتية الإسلامية الكبرى، الحرص على إحياء إسلام التاريخ ونيان إسلام الرسالة. وبكلمة أخرى هي السعي لإحياء التدين، والتمثلات الاجتماعية الاقتصادية الياسية الثقافية للدين والموروث الديني. لكنها تجاهلت وأهملت إحياء الإيمان، والحياة الروحية، والحياة الأخلاقية. لحظة تنهار الحياة الروحية ينطفئ الإيمان، وتزلزل الحياة الأخلاقية، وأخيراً يتلاشى الدين ويندثر، وإن كانت تنفسي بدلاً عن ذلك صوراً خادعة للدين، وتود مظاهر زائفة في المجتمعات، تنفخ بأقنعة دينية، غير أنها يمكن أن تصف على أي شيء، ما خلا أن نصفها إيماناً وتديناً روحياً أخلاقياً أصيلاً.

مشكلة شريعتي وغيره أنهم لا يبصرون سوى ما يطفو على السطح من تمثيلات الدين في الاجتماع البشري. إنهم لا يتعدون عن قشرة الدين، لا يتوغلون إلى طبقاته العميقة. هذه القشرة تحجب عنهم استبصار جوهر الدين، وأبعاده القصية.

وعى جوهر الدين، وإدراك بعده الأنطولوجي، من شأنه أن يضع الدين في حقله الخاص. لكن استبصار البعد الأنطولوجي ومهمة الدين في تلبية الحاجة للمقدس، تتطلب تأملًا، وتغلًا في أعماق الذات، بمعنى أن وعى التجربة الروحية، تحقق تذوق سمو الروح وخبراتها، وانجذاباتها والتعاضات والتبصراتها وإشراقاتها ومكاشفاتها. وهو ما تبوح به أمثلة لا حصر لها في الماضي والحاضر.

لم تعمق كتابات وخطابات المرحوم شريعتي باكتشاف طبقات الدين الجيولوجية،

ولم تناول ما هو قصيٌّ منها، بل توقفت غالبًا نقاشاته وحواراته وهمومه في الطبقات السطحية، ولم تدرك تلك الطبقة الأعمق بوصفها لب الدين وحقيقته. ولا يتحقق ادراكها إلّا من خلال العبور إلى البعد الأنطولوجي للمدين.

لا أدعو لمدينٍ خاصٍّ بالفلاسفة والمفكرين، بل أذهب إلى أن تلك الطبقة العميقة للمدين تذوقها العجوز الفلاحة الأتية، مثلما يتذوقها الراعي الأتمي، الذي استهجن النبي موسى دعوته الساذجة لرتبه ووبخه، لحظة رآه موسى يتحدث مع الله بلهجة غير المحترمة، وكأنّ الله صديقٌ قريبٌ جدًا للراعي، يمتن معه الرعي أيضًا. بنحوٍ كان الراعي يلبّح على الله أن يقدم له تعالي احتياجاته حسب فهمه الساذج، مثل: (ذبح شاة وشيها، وتقديمها له مع الأرز، غسل قدميه، تنظيف أذنيه، تخليصه من القمل...) . غير أن الله عاتب موسى على موقفه المستهجن لحديث الراعي، ونبّهه إلى غبطته بصدقه وعفوئته وبراهته⁽¹⁾.

(1) أورد هذه الحكاية بالتفصيل مولانا جلال الدين الرومي في المشوي. ونقتبس فيما يلي مستخلصا لهذه الحكاية من: «مشوي» مولانا جلال الدين الرومي. الكتاب الثاني بعنوان: «كيف أنكر موسى - عليه السلام - مناجاة الراعي». ترجمة: محمد عبد السلام كفاقي. صيدا بيروت: المكتبة العصرية، 1967، ص 178 - 185.

(رأى موسى راعيًا على الطريق، وكان هذا يردد: «إلهي يا من تصطفي (من تشاء)؛ أين أنت حتى أصبح خادمًا لك، فأصلح نعليك، وأمسط رأسك! وأغسل ثيابك، وأقبل ما بها من القمل! وأحمل الحليب إليك أيها العظيم! وأقبل يدك اللطيفة، وأمسح قدمك الرقيق، وأنظف مخدعك حين يجيء. وقت المنام. يا من فداؤك كل أغنامي! ويا من لذرك حنيني وهيامي!».

وأخذ الراعي يردد هذا النوع من هراء القول، ورأه موسى فتأده قائلاً: مع من تحدّثت أيها الرجل؟ فقال الراعي: مع ذلك الشخص الذي خلقنا. مع من ظهرت بقدرته هذه الأرض وتلك السماوات. فقال موسى: حذار! أنك قد أوغلت في إديارك. وما غدوت بقولك هذا مسلماً، بل صرت من الكافرين. ما هذا العث، وما هذا الكفر والهذيان؟ ألا فتلحّش فمك بقطعة من القطن. إن تن كفرك قد جعل العالم كله منتناً! بل إن كفرك قد مرّق ديباجة الدين! فمع من تحدثت؟ أمع العم أو الخال؟ وهل الجسم والحاجة من صفات ذي الجلال؟ إن الحليب يشربه من يكون قابلاً للنشأة والنماء. والنعل يليه من هو بحاجة إلى القدم... إن التحدّث بدون أدب مع خواص الحق، يمت القلب، ويجعل الصحائف سوداء...

فقال الراعي: يا موسى لقد ختمت عليّ فمي، هه أنت ذا قد أحرقته بالنار... حي ووزق يا به. وتأوه، ثم انطلق مسرعاً إلى الصحراء، ومضى.

فجاء موسى الوحي من الله (قائلاً): لقد أبعدت عني واحداً من عبادي! فهل أتيت لعقد أو اصر الوصل، أو أنك جئت لإيقاع الفراق؟ فما استطعت لا تخط خطوة نحو إيقاع الفراق، فأبغض الحلال عندي هو الطلاق!

للتوضيح أشير إلى أننا حين نعود إلى تاريخ الإسلام كديانة، نجد الإسلام الذي كان متعارفاً عليه بين المسلمين هو ما يمكن أن نطلق عليه إسلام الأغلبية، وأعني بإسلام الأغلبية: الإسلام العام مقابل الإسلام الخاص، أو إسلام الجماهير، الإسلام الشعبي، إسلام الناس، كل هؤلاء الناس في المجتمعات المسلمة - الذين هم مسلمون - محكوم بإسلامهم، يولدون مسلمين، يموتون مسلمين، ويدفنون في مقابر المسلمين.

هذا الإسلام كان غنياً بالأبعاد الروحية والمعنوية والرمزية والجمالية. ما حصل

= لقد وضعت لكل إنسان سيرة، ووهبت كل رجل مصطلحاً للتعبير، يكون في اعتباره مدحاً، على حين أنه في اعتباره ذمّاً. ويكون في مذاقه شهداً، وهو في مذاقه سماً. إنني منزّه عن كل طهر وتلوث، وعن كل روح ثقلت (في عبادتي)، أو خفت. والتكليف من جانبي، لم يكن لربح أشده، لكن ذلك كان كي أنعم على عبادي. فأهل الهند لهم أسلوبهم في المديح، ولأهل الهند كذلك أسلوبهم. ولست أغدوا طاهراً بتييحهم، بل هم المتطهرون بذلك، الناثرون الدر. ولنا نظر إلى اللسان والقول، بل نحن ننظر إلى الباطن والحال. فظننا إنما هو لخشوع القلب، حتى لو جاء اللسان مجرداً من الخشوع. فالقلب يكون هو الجوهر، أما الكلام فعرض، والعرض يأتي كالطيفلي، أما الجوهر فهو المقصد والغرض. فإلى متى هذه الألفاظ، وذلك الإضمار والمجاز؟ إنني أطلب لهيب (الحب)، فاحترق وتقرب بهذا الاحتراق! أشعل في روحك نارا من العشق، ثم أحرق بها كل فكر، وكل عبارة يا موسى، إن العارفين بالأدب نوع من الناس، والذين تحترق أنفسهم وأرواحهم (بالمحبة) نوع آخر. إن للعشاق احتراقاً في كل لحظة... فلو أنه أخطأ في القول، فلا تسمه خاطئاً، وإن كان مجللاً بالدماء فلا تغسل الشهداء. فالدم أولى بالشهداء من الماء! وخطأ المحب خير من مئة صواب...

إن ملة العشق قد انفصلت عن كل الأديان، فذهب العشاق وملتهم هو الله. ولو لم يكن للباقونة خانم فلا ضير في ذلك، والعشق في خضم الأسي ليس مشيراً للأسي... فحين سمع موسى هذا العتاب من الحق، هرع وراء الراعي موعلاً في البيداء... وفي النهاية أدرك موسى الراعي ورآه. وقال (البشير) للراعي: إن الأذن قد جاء! فلا تنتمس أذناً ولا ترنيباً، وانطق بكل ما يتبني قلبك الشجي! إن كفرك دين، ودينك نور للروح! وإنك لأمن، والعالم بك في أمان! أيها المعاني! إن الله يفعل ما يشاء، فإذهب، وأطلق لسانك بدون محاباة. فقال الراعي: يا موسى! إنني قد تجاوزت ذلك. إنني الآن مجلجل بدماء قلبي! لقد تجاوزت سدة المتهم، وخطوت مئة ألف عام في ذلك الحانب! إنك قد أعطت سيطك، فدا، حصاني، فلغ قبة السماء، ثم تجاوز الأفاق! فعسى الله أن يجعل جوهرنا الإنساني نجي سر لاهوته... فالآن قد تجاوز حالي نطاق القول. فهذا الذي أقوله ليس حقيقة حالي.

إنك تبصر النقش الذي يكون في المرأة، وهذا النقش صورتك أنت، وليس صورة المرأة. والأفانس التي يتفشها لاعب الناي في الناي، هل تنتمي للناي؟ لا، بل هي متممة للرجل).

في المرحلة الحديثة من تاريخنا، إنما هو ترحيل لوظيفة الدين، فأصبحت وظيفته سياسية نضالية كفاحية، وبذلك جرى نقله من مجاله الأنطولوجي الرمزي المعنوي الروحي الجمالي، الذي هو مجاله الطبيعي إلى مجال آخر، وهنا تغلب فيه القانون على الروح، وأصبح الدين أيديولوجيا سياسية صراعية، أيديولوجيا أهدرت قيمته الأنطولوجية الرمزية والجمالية والروحية والمعنوية⁽¹⁾.

رهنت تفكير شريعتي هموم تغيير المجتمع، كان مسكوناً بإصلاح المجتمع، والتنمية الشاملة، ثقافية وعلمية واقتصادية وسياسية، وكان يرى أن ذلك كفيلاً بتبديل نمط حياة المجتمع والارتقاء به، وتبعاً لذلك يتحول نمط التدبّر وفهم النص الديني. غير أنه لم يهتم بضرورة التحوّل في أصول ومبادئ ومناهج وقواعد فهم الدين والنص الديني. مع أنه ما لم يحدث منعطف في مناهج فهمنا للدين وتفسير النصّ الديني، فلن تحدث تنمية وإصلاحاً وتحوّلاً في المجتمع، ذلك أن أنماط التدبّر السلفي المتفشي، إنما هي نتاج فهم حرفي تبسّطي للنص الديني، صاغه الشافعي منذ القرن الثاني للهجرة، في مدوّنة أصول الفقه (الرسالة)، ومن نسج على منواله لاحقاً، ووضع له الأشعري وغيره أراضيه اللاهوتية، وترسخ بمرور الأيام وتكلس. وما برح يتكرّس طبقاً لعلاقة جدلية بين أصول الفقه وعلم الكلام، كل منهما يعيد إنتاج الآخر، في قوالب تنمط العقل المسلم، يتحدد فيها فهم النص، وترتهن حلقة تكرارية، تبدأ حيث تنتهي، وتنتهي حيث تبدأ.

لا يكفّ شريعتي عن ترديد الشعارات التعبوية التجيشية، التي تثير مشاعر الشباب وتشعل ضمائرهم، ويشدد دائماً على توير كل شيء في المجتمع. حتى الفكر مالم يكن ثورياً وحلوله ثورية لا قيمة له في نظره. لم يتبه شريعتي إلى أنه ليست هناك حلول ثورية في الفكر، وأن مسيرة الفكر تراكمية بطيئة، لا تتحول إلى موج اجتماعي إلا بعد توافر أراضيات لها. ومن دون أن يقارن بين واقعنا وكيفية تشكيل العقل الحديث، فإن أراضيات بناء العقل الحديث تخلّقت وتشكّلت في الغرب منذ عصر النهضة قبل أكثر من أربعة قرون، وبشروطها وسياقاتها الخاصة، لكنها لم تشكل لدينا حتى اليوم.

يرى شريعتي إلى مهمة المثقف بوصفها مهمة نبوية رسولية إنقاذية. ويتعاطى

(1) - الرفاعي، عبد الجبار. إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين. ص 22-23.

مع المفكر بوصفه منقذاً، وشخصية خلاصية منجية، بلا تدبير في عملية التغيير الاجتماعي، وعواملها المختلفة، وتركيباتها المتنوعة، وكيف أنها ترتد إلى نسج معقد لموامل متنوعة، ظاهرة ومستترة، وليس المفكر وفكره إلا واحداً من عناصرها.

يبني فهم شريعتي للوظيفة النبوية الرسولية الإنقاذية للمثقف، على التعاطي مع الفرد وكأنه بمثابة مجتمع، وللمجتمع وكأنه بمثابة فرد، فيطلب من الفرد ما ينبغي أن ينجزه المجتمع، ويطلب من المجتمع ما ينبغي أن ينجزه الفرد.

يروى لنا شريعتي مأساة عشرات الآلاف من العمال، الذين تهشمت ضلوعهم تحت حجارة الأهرامات⁽¹⁾، بينما لم ينهنا إلى ضلوعنا المهشمة، والى ما يجتاحنا نحن البشر، من: القلق، اليأس، الاغتراب، الضجر، السأم، الألم، الحزن، الغيابة، فقدان المعنى، ذبول الروح، انطفاء القلب، الجنون... إنه كمن يضع بأيدينا مصابيح شديدة الإنارة، ليكشف لنا بؤس العالم. لكن عالماً الجواني الباطن يظل مجهولاً مهملاً. لم ينه شريعتي إلى آتة لا ينبغي لنا أن نطارد ظلام العالم، فيما نحن نجعل ظلام أنفسنا، ونضور لجوع العالم، ونحن لا نشعر بجوع أنفسنا، ونحترق لظلم العالم، ونحن لا نحس الظلم الأنطولوجي للمقدس في ذاتنا.

شريعتي غالباً ما ينسى الذات، فيقفز للتفكير في المجتمع، يفتش مباشرة عن رسالة الدين في المجتمع، بل يريد أن يرى أثراً إيجابياً للدين هناك، يرخل الدين مباشرة إلى المجتمع، من دون أن يمر بصناعة الذات.

الدين لا تحقق مهمته في المجتمع، إلا من خلال إعادة بناء الذات، بالمعنى الأنطولوجي. بمعنى أن افقار الذات افقار للمجتمع، إعادة بناء المجتمع تبدأ بإعادة بناء الذات.

تتكزّر في آثاره الدعوة إلى آتة ينشد تصحيح الخطأ في فهم رسالة الدين، كي يصبح الدين من أجل الإنسان، وليس الإنسان من أجل الدين، وأن الآخرة لا بد من أن تكون موصولةً بالدنيا، بمعنى أن شقاء الدنيا يُسمى شقاءً للآخرة⁽²⁾.

غير أن وعود شريعتي والروتينية الإسلامية هذه لم تنجز، بل انتهت إلى

(1) - في محاضرة للمرحوم شريعتي تناول فيها بناء الأهرامات بأسلوب تراجمي، معربة بعنوان: «هكذا كان يا أخي».

(2) - مجموعته آثار، ج 16: ص 108.

نتائج عكسية. إذ إن ما أفضت إليه أدلجة الدين هي عبودية الإنسان للايديولوجيا، واستلاب الايديولوجيا لروحه وقلبه وعقله، وإقحامه في أحلام رومانسية ووعود خلاصية موهومة.

الشخص البشري ينس في غمرة الايديولوجيا ذاته، وتنطمس كينونته، وتغيب متطلبات روحه وقلبه وعقله، فيمسي شبحاً يتلاشى وسط الجموع، ويذوب في ضجيج القطيع. بعد أن تدبل أشواق روحه، وتنطفئ جذوة قلبه، ويتبلد عقله، وفي نهاية المطاف تختفي ذاته.

لا شك في أن الشخص البشري هو المادة الأساسية للتنمية الشاملة بكل أشكالها، به تحقق وتجز، إن كان إيجابياً سويًا، وبه تخفق وتنحط، إن كان سلبياً ليس سويًا. مضافاً إلى أن نمط العلاقات الاجتماعية في العائلة والمجتمع ينمو ويزدهر فيه التضامن، وتسود النزعة الخيرية، إن كان الفاعل الاجتماعي صاحب تجربة دينية حقاً، ذلك أن سعادته لا تكتمل في علاقاته بالناس، إلا إذا كانت سعادته هي أن يسعد الآخرين.

إن هذه الرؤية الأنطولوجية لمهمة الدين ووظيفته العميقة في بناء الذات، لا تدعي أن الدين ليس مؤثراً في الفاعل الاجتماعي، وإنما هي تؤثر بوضوح لأفق الانتظار من الدين، ونمط المهام الكبرى التي يعد بها. فإذا عمل الدين في حقله الحقيقي، وأنجز وعوده التي يقدمها للبشر، آنذاك يشجع الشخص البشري حاجته لخلق المعنى على ما لا معنى له، ويرتوي تعطشه للوجود، وجوعه الأنطولوجي للمقدس، فيصبح ممثلًا متوازنًا، إيجابياً سويًا، لا ينهكه القلق، وفقدان معنى الحياة.

أي حين يرتوي ظمأ الذات للمقدس نخمد نزعات الشر والعدوان في شخصية الكائن البشري، وتصبح شخصيته أكثر قدرة على المساهمة الفاعلة في البناء الاجتماعي، والعمل الايجابي المؤثر في انجاز التنمية بمختلف حقولها.

التجربة الدينية والظماً الأنطولوجي للمقدس

تُبْحَثُ في فلسفة الدين القضايا المشتركة بين الأديان، مثل: ماهية الدين، وجود الله، مشكلة الشر، أنماط الوحي والإيمان، المعجزات والكرامات والخوارق، الخلود والبعث والقيامة، الدين والعلم، المعرفة الدينية، الدين والأخلاق، التعددية الدينية، لغة الدين، الهرميوطيقا، والتجربة الدينية، تدرس فلسفة الدين بياناً ماهية التجربة الدينية، أنماط التجربة الدينية، امكانية معرفة صاحب التجربة الدينية بتفسيرها، هل هي عاطفة وشعور بالتبعية للحقيقة الغائية، أو شوقٌ ووجد للحقيقة الغائية، أو هي كشفٌ وإشراق وانخراط للروح؟ ما الفرق بين تجربة المقدس وغيره؟ كيف يمكن التمييز بين التجربة الدينية والشعوذة، والهلوسة، والأوهام، والأمراض النفسية؟ هل هي تجربة حسية وإدراكية؟ هل تمثل التجربة الدينية لب وجوهر الدين؟⁽¹⁾

التجربة الدينية:

التجربة الدينية تعني مواجهة الله وتذوق حضوره، والمثول في حضرته، وتحسّر هذا الحضور روحياً. هي نحو تجلٍ وجودي للاله في البشري. وبتعبير المتصوف الهندوسي رادهكرشان: «أقوى برهان على وجود الله هو إمكان تجربته وإدراك حضوره. فالله معطى تجريبي، ومضمون محسوس للتجربة، وحالة روحانية»⁽²⁾.

التجارب الدينية متنوعة، كتجربة الانجذاب والهيبة، تجربة الاعتماد، تجربة

(1) راجع للتوسع في ذلك: الرفاعي، د. عبدالجبار. تمهيد لدراسة فلسفة الدين. الجزء الأول من «موسوعة فلسفة الدين». بيروت: مركز دراسات فلسفة الدين، ودار التنوير، 2014، ص 5 - 24.

(2) C. F. Taliaferro, Charles, Contemporary philosophy of Religion (Oxford, Blackwell, 1998), P.246.

الأمل، تجربة الحب، وغيرها. الايمان الديني يرتكز على هذه التجارب، والنوع الأعمق والأشد لهذه التجارب ما عاشه الأنبياء والأولياء والمتصوفة والقديسون، إذ كانت لهم تجارب متسامية، يسافرون عبرها للحق. التجارب الدينية أعمق مستويات الأديان، ذلك انها النواة المركزية للأديان.

معارف الدين تهتم بتفسير هذه التجارب وتصنيفها، والكشف عن الحقيقي والزائف منها، وكيفية تمييزها عن: الحيل، والشعوذات، والهلوسات، والاضطرابات، والشوّهات، والعقد، والجروح النفسية، والأمراض العقلية، والانهايات العسية. ففي ميراث التصوف المعرفي والعرفان النظري نثر على شروح وتفسيرات، تضى لنا: حقيقة التجارب الدينية، وطبيعتها، وحدودها، وأنماطها، ووسائل تحقيقها، وآثارها في بناء الحياة الروحية. ويبان العلاقة العضوية للتجارب الدينية بإرواء الظماً للمقدس.

الظماً الانطولوجي للمقدس:

«الظماً الانطولوجي للمقدس» يعني افتقار الكائن البشري الى ما يُثري وجوده، ويكرّس كينونته، ويمنحه وقوداً لحياته، إذ تفتقر حياة هذا الكائن إلى وقود يحركها، ويشبع حاجته لما تفتقر له كينونته، ويكشف له سر الحياة، ويعزز قدراته، بالمستوى الذي يجعله قادراً على التغلب على مشكلة الوجود البشري في هذا العالم.

«الظماً الانطولوجي للمقدس» يجتاح حياة كل كائن بشري، بوصف هذا الكائن يتعطش للامتلاء بالوجود، كي يتخلص من الهشاشة، ويجعل حياته ممكنة في هذا العالم الغارق بالآلام والأحزان، وتكون له القدرة على العيش بأقل ما يمكن من المرارات والآلام، ويخرج من حالة القلق إلى السكينة، ومن اللامعنى إلى المعنى، ومن الظلام إلى النور.

التجارب الدينية بمختلف مستوياتها وأنماطها هي منهل ارتواء الظماً للمقدس. ومع أنها تختلف باختلاف البشر، وتمثلهم للاله في البشري، لكن كلّ شخص يتروي منها حسب استيعاب ظرف وعائه، وقدرته على المشول في حضرة الله.

التجربة الدينية تمثل البعد الأنطولوجي في الدين، وجوهره وذاته وروحه وباطنه. التجربة الدينية جوانية، غاطسة في الذات، بل متماهية معها، لا يمكن بلوغها بأدوات ووسائل حسية، وربما لا تشير إليها ظواهرُ التدين الخارجية، أو قد تشي بعكسها

أحياناً، كما لدى بعض رجال الدين، الذين ربما يؤشر خطأ ما يمارسونه من قداسات وطقوس وشعائر في المعابد، إلى عمق تجاربهم الدينية، رغم أن عالمهم الباطن بعيد عن الله.

يستمد كل شخص فهمه من ذاته ووجوده الخاص، وأفق انتظاره وأحكامه المبقة. يتلون الفهم على الدوام بفضاء الذات وخيرتها. لذلك لا يفهم الايمان إلا في فضاء الايمان، ولا تفهم التجربة الدينية إلا في فضاء التجربة الدينية، فما لم تحقق بهذه التجربة ليس بوسعنا تقديم فهم واضح لها. مثلما لا يفهم طبيعة الحب إلا من يتذوق الحب. ولا يفهم الهجة إلا من تشرق نفه ابتهاجاً، ولا يفهم القلق إلا من يمزقه القلق.

تفشل الكلمة في الإخبار عن ذاتها، فكيف تخبر عن أشواق الروح. يستمد العاشق أشواق الروح من الحق، تضيء قلوبهم أنوار الحق، تمتلئ أرواحهم بوجود الحق. يغيثون في حضرته، يحضرون في غيبته. تصير غيبته عن رؤيته رؤية، ورؤيتهم غيبته غيبته. كل محبوب سواه هو، وكل ما تحسه العين ليس هو، ببصيرة أنواره يراه القلب هو، وإن تمثّل بوجود سواه. يرتوي ظمأ العاشق الأنطولوجي، فيفيضون على سواهم، حيث يخط الحق على قلوبهم الأسرار، تتحول عناصر وجودهم إلى صفات الحق كما هي، لتكون بها هي. يفتقر سواهم لكل ذلك، فيفرون في الوهم، ويتهافتون على كل ما هو زائف، بغية إرواء ظمئهم الأنطولوجي، الذي لن يرويه سوى أبداً.

من يعيش هذه الحالات يجد العبارات تختنق وتضيق في توصيف الحالات. ذلك أن الكلمة لا تبوح بمضمونها، فكيف تضي بحالات الروح وتساميها. يصل أحياناً بعض أصحاب التجارب الدينية إلى حالات نور بهيج في باطنهم، بنحو يتلمسون فيه، أنه كلما أمعن يقينهم في أن يكون يقيناً، رأوا ببصيرتهم أن ما يحدث لهم بمثابة معجزة. وكأنهم قد اغتسلوا بالنور، وعشقوا النور، وأبصروا بالنور، بل صاروا نوراً. تلك هي رحلة الكيونة إلى الحق. هكذا يتذوقون مراحل نمو صيرورتهم وتخليقهم. تبسم لهم حنايا الكون كلما تأملوها. يشعروهم الوجود بفرحة قدومهم للارتواء. ندنهم بصيرتهم دائماً على النقاط المضيئة في الناس والأشياء.. قبل ما هو مظلم. مع أنهم يبصرون الظلام، لكنهم يشيحون عنه النظر. هكذا يحاولون أن يروا العالم، كي يترسخ حُبهم له باستمرار، خاصة في الأزمات والصراعات والحروب والفتن. ذلك هو منبع الكينة والأمن والسلام الذي يعيشونه مع أنفسهم والعالم.

نمطان للتصوف:

ليس كل متصوف صاحب تجربة دينية، كما أن ليس كل صاحب تجربة دينية متصوفاً. فقد يكون المتصوف خاوياً روحياً، هساً أخلاقياً، جانعاً للمال والجاه، غارقاً بكل ماهو شكلي زائف، لا يمتلك أي ثراء معنوي، ويفتقر للشمول الحقيقي في حضرة الله، مثلما هو شأن طيف عريض ممن يمتنون ذلك، وهم أقرب للمشعوذين منهم الى ذوي التجارب الروحية، بغية نيل مكانة اجتماعية، أو مصالح حياتية، خاصة في مجتمعات تمنح مثل هؤلاء القاباً دينية، وصفات قدسية، وتهبهم مكاسب مادية، وفرص عيش مجانية.

أود الإشارة إلى أنه ينبغي التمييز بين نمطين من التصوف:

1. تصوف الخروج من العالم:

وهو التصوف الطرقي السلوكي «الاجتماعي»، الذي هو تصوف الدراويش والخانقاهات والتكايا والزوايا، وهو لدى معظم من ينخرطون فيه ضرب من الرهبة المبتذلة. هذا النمط من التصوف مرآة لشوّهات المسلمين في عصور الانحطاط، إذ ترسم فيه صورة تخلف المسلمين وجهلهم، وأمراض التجربة التاريخية لزمان تراجع المسلمين، وتفتش فيه أمراض وعاهات تقاليد الاسترقاق ومسالك الاستعباد، مثل، التربية على نفسية العبيد، وذهنية القطيع، والرضوخ والطاعة العمياء لمشايخ الطرق الصوفية، والهيام الذي يصل لمستوى العبادة للشيوخ والأقطاب والمشاهير منهم، وتقليدهم في كل شئ، الى درجة السعي للذوبان بهم. والعزلة، والخروج من العالم، والهروب من الحياة، والتنكيل بمتطلبات الجسد، والتضحية بالفرائز والحاجات الطبيعية للبشر.. وغيرها.

من الواضح أنه لحظة يتعامل التلامذة مع الفيلسوف بوصفه صنماً، يدخل العقل مرحلة سبات. لحظة يتعامل التلامذة مع المفكر الديني بوصفه صنماً، يدخل التفكير الديني مرحلة سبات. هكذا أيضاً لحظة يتعامل المُريدون مع شيخ الطريقة بوصفه صنماً، تنطفئ الشعلة في أرواحهم، ويمسكون رقيقاً لا يمتلكون شيئاً من ذاتهم، في حين يمتلك مشايخهم كل شئ في حياتهم.

هنا تنقلب وظيفة التصوف، بوصفها امتلاكاً للذات عبر وصلها بالحق تعالى، والاستغناء عن كل شئ سواه، إلى انسحاق مُهين للكرامة أمام مشايخ الطرق الصوفية.

معظم المتصوفة من الدراويش المولوية يكر عقلهم فينام، حين يتماهون مع سيرة وسلوك وتجربة جلال الدين الرومي، ومتى ينام العقل تتيقظ الأصنام.

المشكلة العميقة في تصوف الدراويش أنه بيرع في نحت الأصنام البشرية. فقد تحوّل جلال الدين الرومي في وجدان الكثير من أتباعه إلى صنم، وهنا انقلبت وظيفة التربة في التصوف، فأضحت تنتج عبّاداً لأصنام بشرية. الله يدعونا إلى التوحيد، وأن لا نتخذ أحداً من دون الله إلهاً، ولن نعبد سواه أبداً.

لا يمكن قبول دروشة أتباعه، وتحوّل الرومي إلى معبود في حياتهم، وانصياعهم لسلسلة المولوية من أحفاده وذريته، ممن أضحي بعضهم لا يتمي لجلال الدين الرومي إلا بالدم. إن ذلك مرض نفسى لديهم، وربما يتعذر الشفاء منه، ذلك ان من أشق الأشياء تحرير العبيد من: الشعور بالحاجة للعبودية، وشغفهم بتجيل أغلالها، وخوفهم من الحرية، وعجزهم عن قبول الحياة بمسؤولية شخصية.

لا تنسى أن تسمي مجتمعاتنا دراويش تتكع في الأسواق بين الناس، بهيئة ولباس غريب، من أسمال بالية، أو قطع مزركشة بألوان متناشرة.

لا نطمح أن يقتبس الناس صورة جلال الدين الرومي، فيلبسون كما يلبس، ويمشون كما يمشي، ويرقصون كما يرقص، كما يُثقل عنه أنه كان يفعل ذلك. إذ يُقال إن الرومي كان ينشد الـ«مثنوي» متجولاً في أسواق «قونية». يكتب شمس الدين الأفلاكي: «أصبح مولانا ينشد المثنوي في كل حال، في: السماع، الاستحمام، جالساً، واقفاً، وأحياناً من أول الليل حتى طلوع الفجر، بشكل متواصل. وحسام الدين الشلبي يحرر ما ينشده. وكان يعيد قراءة كل ما كتبه على الرومي بصوت مرتفع وجميل⁽¹⁾. كان يرقص في الطرقات، ويخلع كل ما يرتديه على الحكواتيين، حتى

(1) الأفلاكي، شمس الدين. مناقب العارفين. باهتمام: نحين يازيجي. طهران: دنيای كتاب، ج2: ص742. «شمس الدين احمد الأفلاكي كان تلميذاً لجلال الدين الشلبي حفيد مولانا الرومي. وكتابه مناقب العارفين يعتبر أقدم مصدر عن الرومي» إبراهيم دسوقي شتا، بشير في مج 1 ص25 في ترجمته للمثنوي الى قصة رقصة الرومي الأولى في سوق صاغة الذهب. ويؤكد في ص360 انه كان يصدر حتى فتاواه أثناء الرقص. ينبغي دراسة كتاب الأفلاكي في سياق منطلق التفكير وطبيعة الحياة الدينية والظروف السائدة في عصره، ذلك أنه يتضمن أخباراً غريبة تتطلب المزيد من الغرلة والتحميص قبل قبولها.

أضحى يرقص عارياً¹¹». نستبعد أن تصل الحال بجلال الدين الرومي إلى العري التام، حسبما ذكر الأفلاكي.

الرومي الميثولوجي / الرومي التاريخي:

جلال الدين الرومي كأي شخصية روحية أخلاقية استثنائية ظهرت في التاريخ، الرومي من هذه الشخصيات المتوهجة، التي تخترق عصرها، وتختطف الأضواء، وتدهش مجتمعاتها، فيجذب الناس إليها، ويشعرون حيالها بمدىونية المعنى.

لا يكفي عشاق مثل هذه الشخصيات الروحية ومريدوها بالاهتداء بملكانها الاستثنائية، وتوقّد تجربتها الدينية، ومواهبها الروحية، ولا يتوقفون عند صفاتها البشرية، بل عادة ما يبالغون فيها، فيصوغون لها صورة متخيلة تُعطي من مكائنها كثيراً، حتى تخرجها من طبيعتها البشرية. تسج هذه الصورة أحلامهم الرومانسية، وتغذيها رغباتهم المثالية، وتمزجها آفاق انتظارهم غير الواقعية، وتضخمها نزعتهم المتجدرة لطلب الكمال لأنفسهم.

من هنا نراهم يبالغون في إضفاء السمو والكمال على شخصية ملهمهم ومثالهم ونموذجهم الروحي. وتظل تلك الصورة المتخيلة لنموذجهم تتسع وتمدد باستمرار، اثر مراكمة المناقب والكرامات عليها عبر الأزمنة، وما يخلعه عليها هؤلاء الأتباع، جيلاً بعد جيل، من مختلف أشكال الكمالات والصفات إلخاارقة، الى أن تتحول الى شخصية «ميثولوجية»، عابرة للزمان والمكان، لا تشبه تجربتها البشرية، وتعالى على مشروطيات وظروف حياتها الأرضية.

هذه ظاهرة متفشية لدى أتباع الأديان والأيديولوجيات والثقافات، لا تختص بثقافة أو أيديولوجية أو ديانة، لكنها تبلغ مدياتها القصوى في غرام أتباع الأديان وذهولهم حيال شخصياتهم، إذ يبلغ غرامهم حداً يجعلهم أحياناً لا يقبلون لها أن تنتمي لطرائق العيش المتعارفة في الحياة ومشروطيات الاجتماع والزمان والمكان البشري، فيصنعون لها تاريخاً مقدساً تنتمي اليه يقع خارج التاريخ، ولا تنتمي لتاريخها الانسان في الأرض.

وذلك ما حدث لشخصية جلال الدين الرومي، فإن ما يسكن اليوم مخيال المتصوفة المولوية والمريدين هو مولانا الرومي «الميثولوجي»، وهو غير جلال

(1) المصدر السابق. ج: 1 ص 489.

الدين الرومي التاريخي، الذي عاش حياته الروحية وتجربته الدينية الخاصة في القرن الثامن الهجري في قونية، وتنقل بين محطات عدة من حياته، توّجها كما يقال، لقاءه شمس التبريزي⁽¹⁾، الذي سقاه كأس العشق الإلهي، فكان منعطفاً، أحدث تحوُّلاً في كيمياء روحه، انتقل معه إلى دين العشق الإلهي.

ما يمكننا الاستفادة من ميراثه هو جلال الدين الرومي التاريخي، وليس مولانا الرومي «الميثولوجي». نحن بأمس الحاجة اليوم إلى رؤية الرومي المضئ لله والانسان والعالم، وإشراقاته الروحية الأخلاقية، وتأملاته ومفاهيمه الإنسانية الكونية، وأثرها في هتك أستار كل تلك الحجب والأقنعة المظلمة المترابطة على النصوص الدينية، والتي أهدرت المضامين القيمة السامية للدين، بما استبدّ بها من تعصبات ومظالم وانتهاكات باسم الله للكرامة البشرية.

تفصح لنا مفاهيم الرومي الإنسانية الكونية كيف جرى طمس الصورة الجميلة لله، وكيف تم تشويه هذه الصورة، بنحو أفضت إلى ما يضح به عالمنا من حروب الأديان ومذابحها، فذبحت خليفة الله بذريعة الدفاع عن الله.

كذلك ينبغي أن نستقي من الرومي تدفق قلبه بالعشق الإلهي، وما يصوره بيانه من لوحات متألّقة بالمحبة والتراحم والسلام، وكل معنى إنساني دافئ. كي يستفيق إيماننا كما دينامية إيمانه اليقظة المتوثبة المضئ، وتتسامى أرواحنا بتسامي رؤياه الفسيحة وكونيتها.

ترك لنا الرومي منظومة غنية، تفتح على حقول متنوعة في المعارف الدينية، نحن بأمس الحاجة لها، في عصر تغلّب فيه فهم مغلق للنصوص، أفضى إلى صياغة لاهوت يضح بالعدوانية والتعصب.

ميراث جلال الدين الرومي يلهمنا مفاهيم ومقولات ورؤى، تشد احترام كرامة الكائن البشري، ترسخ الزعة الإنسانية في الدين، تشع حياتنا بالمعنى، تخلع على دينانا صورتها الأجل، نهبا أفقاً بديلاً للتواصل مع مختلف أتباع الأديان والفرق والمذاهب، فلا تضيق مجتمعاتنا وتنفجر بمكوناتها التاريخية المعقّدة والأثنية.

(1) يكتنف وجود ودور شمس التبريزي وما نسب إليه من كيمياء روحية مشتتة الكثير من الغموض. كذلك لا يمكن الجزم بطبيعة وفاته أو مقتله ومحل دفنه. فهل هو شخصية نجت من مخيلة جلال الدين الرومي الشعرية، ورسمتها في التاريخ مخيلة أتباعه المولوية، ممن يسكرون في رقصاتهم، ويفتخرون للتفكير والناوّل العقلي؟!

بغرس الرومي بذوراً لما يمكن نسبته: لاهوت الشفقة، لاهوت السلام، لاهوت الإنسانية، لاهوت الرحمة، لاهوت المحبة، لاهوت العشق، لاهوت الجمال، لاهوت الفرح، لاهوت الحياة، لاهوت الأمل، لاهوت الاختلاف، لاهوت التنوع، لاهوت التعددية. وبموازاة ذلك يحذّر من: لاهوت الكراهية، لاهوت إهانة الآخر، لاهوت الحرب، لاهوت الموت، لاهوت الحزن، لاهوت البكاء، لاهوت اليأس، لاهوت التشاؤم، لاهوت الفرقة الناجية⁽¹⁾.

2. التصوف المعرفي:

هو تصوف عقلي خرج على الأنساق المغلقة الحرفية لقراءة النصوص الدينية، وأنتج قراءة لها خارج إطار مناهج وأدوات القراءة والفهم والنظر الموروثة، التي اخترع قواعدها ومقولاتها الشافعي والأشعري وغيرهما، ثم نُسجت داخل أسبغتها قواعد ومقولات مختلف أعلام الفرق والمذاهب، وترسخت بمرور الزمن، حتى ارتقت الى مرتبة المقدس، واحتلت مكانة النصوص المقدسة التي تقرؤها هذه الأدوات.

لقد منح هذا النمط من التصوف المسلم أفقاً رحباً في التأويل، وإنتاج قراءات تتوالد منها على الدوام قراءات حية، في فضاء يُلهم الحياة الروحية الأخلاقية للمسلم. كذلك استطاع هذا النمط من التصوف إخلاص من توثين الحروف وإهدار المقاصد، والتمسك بالأشكال ونيان المضامين، والغفلة عن الحالات والفرق في الصفات.

كما أعاد التصوف المعرفي الاعتبار للذات المتلبة، والعالم الجواني المظلموس للشخص البشري، وعبّد دروب القلب في رحلته الأبدية نحو الحق، وانشغل بإرواء ظمأ الروح للمقدس.

رؤيتان للعالم:

الرؤية للعالم في لاهوت العرفاء والمتصوفة أفقية، والصلة بالله من منظورهم ليست سوى وصال حيين. بينما الرؤية الكونية في لاهوت المتكلمين عمودية، والصلة بالله في رؤيتهم ليست سوى استرقاق وعبودية. يجد التصور الرأسي

(1) الرفاعي، د. عبدالجبار. إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين. بيروت: مركز دراسات فلسفة الدين ودار التنوير، 2013، ص 35.

العمودي في لاهوت المتكلمين تعبيره الاجتماعي بتأسيس شبكة من مقولات التركيع، وبناء نسج يكرّس التسلط في المجتمع، تكون فيه العلاقات مبنية على الانسحاق والاذلال، حين يتخذ تصور العلاقة بين الله والإنسان نمطاً عمودياً، يكون فيه الإنسان خانعاً مهاناً ذليلاً، فيما يبدو الإله متسلطاً متقماً، لا يصدر عنه سوى البطش والاهانة والامتهان والتكيل.

تغيب في هذا النوع من العلاقة صورة الله الرحمن الرحيم، وتختفي فيه صورة من «كَتَبَ عَلَيَّ نَفِيهِ الرَّحْمَةَ»⁽¹⁾، ووصف رحمته بقوله: «وَرَحْمَتِي وَيَسَّتْ كُلَّ شَيْءٍ»⁽²⁾، والذي لخص مهمة النبي محمد «ص»، بقوله: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ»⁽³⁾، فهو رحمة مهداة لكل العالمين، وليس لفئة أو جماعة أو طبقة أو طائفة أو فرقة أو مذهب أو شعب مختار.

تمثّلات الدين الأرضية

الكثير من الالتباسات في التفكير الديني، تنشأ من خلط المفاهيم وإبهامها، ومن غموض التسميات. الدين ظاهرة بشرية هي الأعمق، والأشدُّ غموضاً في حياة الإنسان، وإن كانت تبدو فيه الأشدُّ وضوحاً. لولا غموضها لما لبث منذ فجر التاريخ حتى اليوم، لا تكفُّ عن الحضور في الجدالات والنقاشات والكتابات والزاعات والصراعات والحروب. ولن يتراجع الدين عن أن يواصل حضوره المزمّن المتنوع في الاجتماع البشري، مهما قيل فيه من كلام، ومهما استنزفت الروح فيه من اشتغال، والمشاعر من أشواق، والضمير من تطلع وانتظار، والعقل من تأمل وتفكير واستبصار، وأقلام الكتاب من آراء، والوأن وريشات الفنانين من لوحات وصور، وقرائح المبدعين والشعراء من رؤى وكلمات.

معظم ما نكتبه ونقوله يطال التمثّلات، التي تجلّي في صورة وشكل وظاهر الدين وأنماط الدين، وهي بمجموعها ليست سوى تعبيرات بشرية سياسية اجتماعية اقتصادية ثقافية للدين، تتواشج وتتشابك عضويّاً بالثروة والسلطة. وترسم فيها مجموع ملابسات وبشاعات وشاعات الصراع على المال والقوة والسلطة.

(1) الأنعام، 12.

(2) الأعراف، 156.

(3) الأنبياء، 107.

لا أنكر أن تمثلات الدين الأرضية طالما كانت منبعاً للتصويه والخذاع والتزوير والاستغلال والظلم والتعسف والتزويم، لكنني أشير هنا إلى ما هو أبعد وأعمق من تلك التمثلات، وهي ما تشي بالمحتوى العميق للدين، وهذا المحتوى هو الذي يتزع الكائن البشري للتشبث به، وما يمنح حياته معناها، ذلك أن الحياة لا تطاق من دون معنى، اللامعنى يفضي إلى الغثيان والضياع، ولا أحب أن هناك منبعاً تستقي منه الروح البشرية المعنى أخصب من الدين. الدين هو المنهل لإرواء الظمأ للمقدس، وهو المنبع لإثراء الحياة الروحية.

طابع الإنسان، وميراث البشرية منذ عصر الكهوف، تبرهن على أن الدين، الفن، الميثولوجيا، ثوابتٌ أبدية في الاجتماع البشري، لا تختفي أبداً، وإن كانت تتنوع وتتحول وتتجلى بصور مختلفة، تبعاً لاختلاف: الزمان والمكان، ونمط الثقافة والتمدن والحضارة، ما يعني أنها حاجاتٌ بشرية ثابتة. وحسب تعبير شلاير ماخر: «الدين رهبة وقداسة، حقل لانتهائي للعقل، ينشأ بالضرورة من داخل كل روح طاهرة، ويتمي إلى منطقة غامضة غريبة من مناطق النفس البشرية، يسود فيها بشكل مطلق، وأنه يجدر به عبر ما له من قوة موعلة في العمق، أن يرمي لتحريك الأنبل والأكثر تفوقاً من القيم»⁽¹⁾.

الإيمان والتدين:

ينبغي أن نميز بين، الدين والتدين، الإيمان والتدين، الدين والحياة الروحية، تمثلات الدين الفردية والاجتماعية وجوهر الدين. حين أتحدث عن الدين أعني هنا: البعد الأنطولوجي، الذي يتمثل في، الإيمان، الحياة الروحية، الحياة الأخلاقية، جوهر الدين.

وكما أن للدين تمثلاته الأفقية الاجتماعية الواسعة، فهو أيضاً يتوغل ويمتد عمودياً، كأنه طبقاتٌ جيولوجية تغور في مديات قصية. واكتشاف تلك الطبقات العمودية يتطلب حفرياتٍ أركولوجية، يقوم بها آثارى ماهر محترف.

(1) تحدث شلاير ماخر بتحليل معمق عن مفهومه للدين، في سياق نقاشه مع من يحترف الدين من المثقفين، في مقاله المنشورة في: الرفاعي، د. عبد الجبار. تمهيد لدراسة فلسفة الدين. الجزء الأول من «موسوعة فلسفة الدين». بيروت: مركز دراسات فلسفة الدين، ودار التنوير، 2014، ص 63 - 110.

يطفى الدين لأول وهلة في الاجتماع البشري كأنه منسحق، ينفي العقل، يثير الرعب، يهدر الكرامة، يستلب الروح، يقتل الضمير، يخرب المدن، يحطم الحضارات، يصادر الحريات، يهدر الحقوق، يمزق المجتمعات. كما هي مألوفة اليوم في ولائم الدم المسفوح، وحفلات الرقص على أشلاء الضحايا.

ومما يشوه صورة الدين في مجتمعاتنا هو اختلاط الدين بكل شيء. إذ يختلط الدين بالعلم والعلم بالدين، يختلط الدين بالفلسفة والفلسفة بالدين، يختلط الدين بالأدب والأدب بالدين، يختلط الدين بالشعر والشعر بالدين، يختلط الدين بالفن والفن بالدين، يختلط الدين بالدولة والدولة بالدين، يختلط الدين بالقبيلة والقبيلة بالدين، يختلط الدين بالعادات والأعراف والتقاليد وهي تختلط بالدين.. وهكذا. إن كانت هذه حالة الدين في أي مجتمع، فلن يعود الدين ديناً، ولا العلم علماً، ولا الفلسفة فلسفة، ولا الأدب أدباً، ولا الشعر شعراً، ولا الفن فناً.

لكن ما السبيل إلى تحويل الدين، من موت إلى حياة، من داء إلى دواء، من سم إلى ترياق، من هيروثين إلى فيتامين، من ظلام إلى نور، من حزن إلى فرح، من شقاء إلى سعادة، من ضعف إلى قوة، من هدم إلى بناء؟

لا خلاص إلا بالخلاص من «تدين الدنيوي»، وإعادة الدين إلى حقله الطبيعي. ومن دون ذلك نهنك ما هو ديني، ونبدد ما هو دنيوي. أي أن تمام الدين وكمال ليس بمعنى استيعابه وشموله لكل شيء في الدنيا، وإنما هو بمعنى أن الدين لا يعوزه ولا ينقصه شيء فيما يرتبط بأهدافه وغاياته في الهداية وبناء الذات، ورفدها بما تقتقر إليه الخبرة البشرية، في فضاء عالمها الحسي المادي. أما ما يؤتمه العقل، وما تنجزه الخبرة البشرية، فلا ضرورة لإقامه في الدين، أو إقحام الدين فيه.

مضافاً إلى أن وعي جوهر الدين، وإدراك بعده الأنطولوجي، من شأنه أن يضع الدين في حقله الذي يكفل بناء الحياة الروحية الأخلاقية للذات البشرية. لكن استبصار البعد الأنطولوجي للدين يتطلب تأملاً وتوغلاً في كينونة الذات الباطنية. وأن وعي الحياة الروحية يتحقق بتذوق سمو الروح وخبراتها، وسماعاتها، وتبصراتها، وإشراقاتها، ومكاشفاتها.

إن كثرة الكلام في الدين، وثرثرة معظم الجماعات الإسلامية وبعض رجال الدين، تنورط في «نيان الإيمان»، الإيمان الذي تنكسر به الكينونة، الإيمان بمضمونه الأنطولوجي، الذي هو مما يتذوق، لا مما يُعلم ويُتصور ويُدرك ذهنياً.

الإيمان والعقل:

ربما يحب بعضهم أن الإيمان بوصفه حالة للقلب، لا ضرورة للتوكؤ على العقل في تفسيره، وبيانه، وتحليله، وفهم بواعثه، وأنماطه، وصورته، وتجلياته. كما لعله يُظن الأ ضرورة للعقل في تفسير وتوصيف الدين وتموضعه في بنية المجتمعات.

لا ريب في أنني لا أريد ذلك، فمن البدايات أن كل ما نحكيه هنا يصدر عن العقل، العقل وحده بوسعه أن يمنحنا فهماً صحيحاً لما يتصل بالعقل والروح والقلب والجسد. لحظة تعطل العقل يتعذر بلوغ أية معرفة بالعالم والإنسان والحياة.

وهنا أود الإشارة إلى أن المنهج الذي يتبعه محيي الدين بن عربي والعرفاء لا يرفض العقل في المستويات كافة، بل يقوم على التمييز بين مقامين، وهما: «الثبوت» و«الإثبات»، إذ كثيراً ما يقع إخلط في مناهج المعرفة عند الإسلاميين، بين مرحلة مصدر المعرفة وإدراك الحقائق، وهو ما يصطلح عليه بـ«مقام الثبوت»، ومرحلة بيان ذلك الإدراك، والتعبير عنه، وإبصاله إلى الغير، وهو ما يصطلح عليه بـ«مقام الإثبات». ففي المقام الأول لا يختلف المحدثون عن المتكلمين، كلاهما يعتمد النقل، ويستدل به مصدراً لرؤيته للعالم ومعارفه الدينية، غير أن المتكلم في المقام الثاني «الإثبات» يتمسك بالعقل، ويستدل على مسلماته ومعتقداته بمختلف الحجج العقلية، في حين يقتصر المحدث في هذا المقام على النقل أيضاً، فيتمسك بالروايات والأخبار عند بيانه لمعتقداته والتعريف بها.

أما الفلاسفة المشاؤون، فيتطابق لديهم المقامان، فهم يعتمدون العقل ثبوتاً وإثباتاً، وإن كان شيخ الإشراق السهروردي والإشراقيون، وملا صدرا الشيرازي في الحكمة المتعالية يحاولون أن يستندوا إلى العقل والشهود، وربما النقل في مقام الثبوت، غير أنهم يعودون إلى العقل في مقام الإثبات.

أما تمركز المعرفة لدى العرفاء حول القلب والذوق والشهود، فإن ذلك يختص بمقام الثبوت، واكتشاف الحقيقة، بينما في مقام الإثبات وإبصال الحقيقة والتعريف بمشاهداتهم وأحوالهم ومقاماتهم وبيانهما للغير، فيوظفون العقل، ويسعون لخلع لون فلسفي منطقي على أفكارهم، منذ عصر محيي الدين بن عربي، ومن جاء من بعده.

نعم، لا يتطابق مفهوم العقل وحدوده لدى الجميع، فهو في مفهوم العرفاء يتميز عنه في مفهوم الفلاسفة، وهكذا يتميز المتكلمون عنهما في حدود العقل، إلا أنهم

يشاركون في الملمات والبداهات والمقولات والحجج المعروفة في المنطق الأرسطي.

إرواء الظلمة للمقدس:

إن روح الدين، باطن الدين، جوهر الدين، يتمحور في، إرواء ظلمة الكائن البشري للمقدس، وذلك ما يمنح حياته ووجوده معنى.

حين يرتوي الظلمة الأنطولوجي لهذا الكائن، يكف الدين عن أن يكون أداة للصراع على الثروة والقوة والسلطة. وتكسر وقتئذ الحياة الروحية الأخلاقية له، فيضبط إيقاع سلوكه الحياتي في إطار الجماعة، في سياق حقوقها وحرّياتها وقوانينها ومنظوماتها القيمة، من دون أن يتمدد الدين، فيهدر الدنيا، عبر الاستيلاء على ما هو دنيوي، خارج عوالم الروح والذات، مثلما تفعل معظم الجماعات الإسلامية اليوم، التي سرقت الدنيا باسم الآخرة، والأرض باسم السماء، والإنسان باسم الله.

إن عدم إدراك الوظيفة العظمى للدين، ينشأ من غموض وإبهام تلك الطبقة الثاوية في مديات ممتدة في طبقات بعضها فوق بعض. الطبقات المترامية فوق تلك الطبقة الغاطسة عادة، كلها تشوهات وكراهيات وتعصبات، تلون وتقعج بالدين، وإن كانت تصطبغ بأنهار من دماء مسفوحة، تحتق البشرية بدخان وحرارة براكينها التي لا تهدأ، منذ عصور الفترحات وموجات الغزاة باسم الدين، مروراً بالحروب الصليبية، وحروب الأديان المتواصلة، حتى حروب الأديان والطوائف اليوم، بغية الهيمنة والاستلحاق والالتهام، وهدر الكرامة البشرية، وإكراه الإنسان على معتقدات وطقوس وشعائر وأوامر، تنفر منها طبيعته وجسده وروحه وضميره وقلبه وعقله.

الدين الذي أتحدث عنه، هو ذلك الإيمان الغاطس المتوحد بالذات، بل هو كينونة المؤمن الوجودية. سواء أسميت ذلك ديناً أو إيماناً. أفضل التعبير عنه بـ«الإيمان»، حذراً من الالتباس بمفهوم ومصطلح «الدين» بمضمونه المؤسساتي المجتمعي.

عندما يتحول الدين إلى مؤسسة، أي يتأسس، فيصير أحد المؤسسات الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية، فإن هذه المؤسسات ترتبط عضواً بكل ما يعيشه المجتمع من مصالح وتناقضات. ذلك أن المؤسسات في المجتمع مشتقة منه، ومعبرة عن كل ما يضح فيه من اختلافات، وصدامات، وصراعات، ومصالح، وتأويلات، وسلطات. الجمعيات والأحزاب والمؤسسات محكومة

بذلك، وهكذا، القبائل والعشائر، والتجمعات والنقابات المهنية. الدين عندما يتحول إلى إحدى المؤسسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فإنه يخرط في هذه التناقضات والصراعات، ويتلوث بكل فضلاتها⁽¹⁾.

إن التمثلات الأرضية لكلِّ ديانة تشبه بيتها، كلُّ بيئة تشبه ديانتها. كلُّ مجتمع يشبه ديانته. كلُّ ديانة تتكلم لغةً أتباعها، كل جماعة تتكلم لغةً ديانتها. حدود عالم كل جماعة تعني حدود ديانتها.

الدين يمنح الحياة معنى:

أريد هنا مقارنة الموضوع بنحو لا يدرس الدين بوصفه مؤسسة، أو متوضعاً في مؤسسة اجتماعية، وإنما من حيث هو ظاهرة حياتية تعبّر عن أعمق متطلبات الوجود والكيونة الذاتية للشخص البشري، وهي رؤية تبصر النظام الوجودي ومراتبه، ومرتبة الحق تعالى في سلم الوجود، وكيف أن وصله والسفر إليه، إنما هو المنبع للحياة الروحية، والعلاقة به هي مصدرُ الالتزام في الحياة الأخلاقية.

ينفي الفيلسوف إيمانويل كانط الاعتقادَ النظري بالله، لكنه رأى الاعتقادَ الأخلاقي به راسخاً لا يتزعزع. فإن: «مفهوم الله لا ينتمي أصلاً إلى الفيزياء، أو إلى العقل النظري، بل إلى الأخلاق»⁽²⁾. الإيمان عند كانط يتأسس على الأخلاق، التي يحكم بها العقلُ العملي. بمعنى «أن الأخلاق إنما تقود على نحو لا يذمّه إلى الدين.. الأخلاق مؤسسة على مفهوم الإنسان، الأخلاق لا تحتاج أبداً فيما يتعلق بذاتها إلى الدين.. بل، بفضل العقل المحض العملي، هي مكتفية بذاتها»⁽³⁾. الإنسان لا يتحلّى بالأخلاق لأنه متدين، وإنما يتدين لأنه أخلاقي.

لقد انتهى النقد الكانطي إلى تفنيد حجج الرافضين لوجود الله، وأيضاً تفنيد حجج المشيئين لوجوده، من خلال العقل النظري. لكن النتيجة التي يخلص إليها في «نقد العقل العملي»، هي التسليم بوجود الله، ذلك «أن قانون الواجب، وهو ضروري

(1) الرفاعي، د. عبدالجبار إنفاذ النزعة الانسانية في الدين بيروت: مركز دراسات فلسفة الدين ودار التنوير، 2013، ص 30.

(2) جيمس كوليز. الله في الفلسفة الحديثة. ترجمة: فؤاد كامل. القاهرة: مكتبة غريب، 1973، ص 276.

(3) إيمانويل كانط. الدين في حدود مجرد العقل. بيروت: جداول، 2012، ص 11، 12، 45.

مطلقاً في ميدان العمل، يقتضي بالضرورة القول بهذا الفرض المؤكّد لموجود أعلى. وأمام ما يقتضيه العقل العملي يجب على العقل النظري أن يمثل ويخضع⁽¹⁾.

لا يعني ذلك أن الدين خاص بالفلاسفة والمفكرين، بل إن تلك الطبقة العميقة للدين، تذوقها المعجوزُ الفلاحة الأمية، مثلما يتذوقها الراعي الأمي، الذي استهجن النبي موسى دعوته العفوية لربه، لحظة رآه يتحدث مع الله بلهجته وتفكيره الساذج، وكأنه صديق قريب جداً، يتهن معه الرعي أيضاً. بنحو كان فيه الراعي يتكلم مع الله بلغة تبدو غير مهذبة، وتتجاوز حدود الأدب، إذ كان يلخّ على الله أن يقدم له ما يحتاجه من خدمات، مثل: «ذبح شاة وشيها وتقديما لها مع الأرز، غسل قدميه، تنظيف أذنيه، تخليصه من القمل...»⁽²⁾. لكن الله عاتب موسى على موقفه المستهجن لحديث الراعي، ونبهه إلى غبطته بصدق الراعي وعفويته وبراهته. وذلك يدعونا ألا نخشى تنوع وتعدد الطرق إلى الله، فكما جاء في المأثور أن «الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق»⁽³⁾.

تمننا معظم الجماعات الإسلامية، ووعاظ السلاطين، وبعض من يزعمون أنهم موقعون نيابة عن رب العالمين، ومن يتخذون الدين وسيلة للارتزاق، فيتكلمون باسم الدين، من رؤية الكثير من النساء المغمورات، اللاتي يحملن المصباح، الذي لا ينضّب زيته ولا ينطفئ أبداً، من العاملات والفلاحات والأمهات والقديسات. ومن رؤية الكثير من الرجال المغمورين، ممن ظلت حياتهم الروحية الأخلاقية مهلاً يثري حياة الإنسان على الدوام، بالأمل والحلم والتفاؤل والطموح، ويراكم الإبداع والمكاسب والخبرات المتنوعة.

(1) بدوي، د. عبدالرحمن. موسوعة الفلحة. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1984، ج 2: ص 281.

(2) أورد هذه الحكاية بالتفصيل جلال الدين الرومي في: «مشوي». الكتاب الثاني بعنوان: «كيف أنكر موسى عليه السلام مناجاة الراعي». ترجمة: محمد عبدالسلام كفاي. صيدا - بيروت: المكتبة العصرية، 1967، ص 178 - 185. أوردتها في هامش 65 من الفصل الثالث في هذا الكتاب.

(3) هذه العبارة وإن كانت غير موجودة في المادونات الحاشية، إلا أنها شهيرة على السنة الكثير من المتصوفة. راجع: الأمل، حيدر. المقدمات من كتاب نص النصوص. طهران: قسم الدراسات الإيرانية انستيو ايران وفرنسا للبحوث والدراسات العلمية في إيران، ط 1، 1994، ص 23. جامع الأسرار ومنبع الأنوار. طهران: مركز الشريات العلمية والثقافية التابعة لوزارة الثقافة والتعليم العالي، ط 1، 1988، ص 8.

«دين الأنطولوجيا» و«دين الأيديولوجيا»:

ترحيل البروتستانتية الإسلامية للدين من الأنطولوجيا إلى الأيديولوجيا، جعل الإنسان ضحية فهم للدين، يُخرج الدين من حقله الخاص، ويقحمه في مخاضات ومغامرات، تصاد ذات الشخص البشري، وتوهمه بعود دنيوية خلاصية، لا صلة للدين بها. ذلك ما تجلّى بوضوح في أديباتها، فهذه الأديبات أديبات جاتزية تقود الى القبر. لا نعثر في تلك الأديبات على ما يؤشر الى أن مهمة الدين في حياة الإنسان هي إرواء ما لم يرتو من سواه، ونعني حاجات الكينونة البشرية الذاتية الباطنية، المتمثلة بالحاجة لما يمنح معنى وهدفاً لحياته، وتلهف كينونة الكائن البشري للارتواء من الوجود، وقدرة الدين على إشباعها، بنحو لا سبيل معه الى إشباعها من منبع آخر.

عملية تغير الذات جدلية بين الباطن والخارج «الروح والجسد»، ما لم يتغير الخارج لن يتغير الباطن، ما لم يتغير الباطن لن يتغير الخارج. لكن ثقافتنا تهمل الجسد ومتطلباته وحاجاته المتنوعة في عملية التحول والتكامل الروحي الأخلاقي، والتطور الحضاري، مثلما تهمل ثقافتنا البعد الأنطولوجي للكائن البشري ومتطلباته العميقة، فيضج ذلك الكائن ويتخبط في متاهات.

يجهل معظم البشر منابع إرواء الظمأ للمقدس في حياتهم، فيتهافون على أوهام، تضاعف ظمأهم، ويمسرون معها كشارب ماء البحر، كلما اغترف منه ذبلت روحه، وتخشب جسده. إنه زيغ البصيرة، الذي يسببه عدم احترام كينونة الذات البشرية، وتجاهل التربية لاحترامه جسداً وروحاً. تبقى مواطن الرغبات المكبوتة مراجل تغلي، تعمي عيون البصر والبصيرة. تحرق وجود الذات، وتدفع باتجاه البرك الأمتة، التي تتبدد فيها الطاقات يوماً بعد آخر، حتى يُمسي الإنسان هشياً تذروه الرياح.

إن هذه الرؤية لوظيفة الدين، لا تدعي أن الدين ليس مؤثراً في الفاعل الاجتماعي، وإنما هي تؤشر بوضوح لأفق الانتظار من الدين، ونمط المهام التي يعد بها. فإذا عمل الدين في حقله الحقيقي، وأنجز وعوده التي يقدمها للبشر، آنذاك يسبح الانسان حاجته لخلع المعنى على ما لا معنى له، ويرتوي تعطشه للوجود، وتلهف الأنطولوجي، فيصبح ممثلاً متوازناً، إيجابياً سويًا، لا ينهكه القلق، وفقدان معنى الحياة.

لقد أشرنا غير مرة إلى أن معنى كون الدين يشتغل على إرواء الظمأ الأنطولوجي، هو أنه يسبح حاجات لا يمكن أن يسبغها العقل والخبرة البشرية، انه يهتم بأزمة المعنى وسبل معالجتها، انه يعالج فقدان معنى الحياة في عالم اليوم، وكيفية إنتاج

هذا المعنى. وأية محاولة لسيان مهمته في بناء الذات، وإقحامه في مجالات أخرى، يتحول معها إلى وحش مفترس، وسَم زعاف يُفسد كل شيء.

بغية تحليل نمط المعرفة الدينية التي أنجزها المتكلمون، وطبيعة المعرفة الدينية التي يتضمنها التراث الكلامي، وطبيعة المعرفة الدينية التي تتضمنها الفلسفة والتصوف والعرفان، ينبغي بيان ما نريده من «دين الأنطولوجيا»، والفرق بينه وبين «دين الأيديولوجيا»، وماهية المعرفة الدينية لكل واحد منهما، والفرق بين ما يتجه المتكلم وما يتجه العارف والمتصوف من معرفة ورؤية للعالم.

إن المتكلمَ فيلسوفُ دينِ الأيديولوجيا، بمعنى أنه يصوغ رؤيةً لله والإنسان والعالم، وفهماً للدين، يُبنى وتُشاد عليه مرتكزاتُ الأيديولوجيا. الجماعات الإسلامية كافة تسج شباكها في سياق رؤية المتكلم لله والإنسان والعالم، وشي من فتاوى الفقيه، ولا تقترب من ميراث سواهم، كالفيلسوف والعارف والمتصوف، لأن الفيلسوفَ والعارفَ والمتصوفَ فيلسوفُ دينِ الأنطولوجيا، وأن فهمه للدين يلامس العالمَ الجواني للكائن البشري، وينشغل بتفسير نمط وجوده، والكشف عن مسالك تواصل كينونته وأسفارِ روحه في عوالمَ خارجِ حدود العالم المحسوس المادي.

دين الأيديولوجيا يستخدمك، فيختر حياتك وطاقاتك ومواهبك لتخدمه، ويفرض عليك حدوده وإطاره وأسيجته، التي إن تخطيتها يصادرُ عليك دنياك وأخرتك. بينما دينُ الأنطولوجيا يخدمك، إذ يمنح عقلك حرية التفكير، ولا يفرض عليك اقتباس صورة لا تمتلك، أو أن تعيش حياتك نياحةً عن غيرك، أو تكررَ نماذجَ بشريةً تطمس ذاتك. إنه دينٌ يمحو الكراهيات من قلبك، ويظهر روحك من الخطايا، ويقدم لك مصابحا يضيء دروبَ وصالك مع الله، وتواصلك مع الإنسان والعالم، ويروي روحك بما تعطش إليه من ظمأ للامتلاء بنور الحق.

دين الأنطولوجيا هدف نشده، تنبعث وتتجدد به حياتنا، بوصفه تفاعلا وانعقادا وانفتاحا للعقل والقلب والروح، على الله والإنسان والعالم.

دين الأيديولوجيا يستهدفنا، يستنزف أرواحنا، يعطل حياتنا، يستحوذ علينا، بوصفه انغلاقا وانصياعا ورضوخا واستعبادا للعقل والقلب والروح.

دين الأيديولوجيا يفشل في بناء حياةً روحيةً أخلاقيةً أصيلة، ويطمس الأبعاد الإنسانية في الدين، ويميت الروح والقلب والعقل والضمير. إذ لا إنسانية بلا ضمير،

ولا ضمير بلا مصدر إلزام ذاتي، ولا مصدر إلزام ذاتي بلا أخلاق، ولا أخلاق بلا روح، ولا روح بلا حياة روحية، ولا حياة روحية من دون وصال بالحق.

من كان بلا حياة روحية أخلاقية يُفقد قبل أن يُصلح. من كانت روحه ممتلئة أنطولوجيا، فإن حياته الروحية الأخلاقية مشبعة بالمعنى، لذلك يستطيع أن يمنح العالم أفقاً معنوياً مضيئاً، وتفتي حياةً من حوله أنطولوجيا، بالهدوء والأمن والسكينة والسلام.

الفقير أنطولوجيا يفشل في منح من يتعاطى معه زاداً لروحه وقلبه، بل يُفقره وينهكه، فيقدمه ملوماً مدحوراً، ويحبله إلى رماد تذرؤه الرياح.

من كان جانعا للمعنى، يمزج اللامعنى يحبه معنى، فيمسي كمن يهرول وراء السراب، يتهافت عليه يحبه ماء، ليفقد في خاتمة المطاف طاقته ويزوي، فيصير ريمماً.

تفضي أدلجة الدين إلى تخريب المعنى الذي يقدمه الدين للكائن البشري، وتبديد وعوده ببناء الحياة الروحية الأخلاقية، وما يشده من ترسيخ مرتكزات التضامن الاجتماعي، وتعزيز أراضيات السلام والعيش المشترك في حياة البشر.

الايمان يروي الظما للمقدس:

لحظة يمتلك الايمان القلب، يصير هو الأمن وهو السكينة. الأمن هو الايمان. الايمان هو الأمن. تجربتي الروحية ان الايمان هو الامان. بل يمكنني القول في سياق تجربتي الشخصية، اني لم أعر على أمان في حياتي خارج فضاء الايمان.

ايماني مثلما أتذوقه هو ايمان انطولوجي متوحد بكيئوني. العلاقة بالله فيه أفقية لا عمودية. انها علاقة جوهرها الحب والحرية، لا تتضمن: استرقاقاً وقهراً وانتهاكاً لكرامتي واضطهاداً.

حقيقة الحب في ضميري هي الصلة بالحق، أو من يوصلني بالحق. الحبيب هو من يذكرك بالله. لا يضيء ذاتي إلا ذكر الله، لا يطمئن قلبي إلا بذكر الله. لا تسكن الذات إلا حين تصبح هي سناً لله القلب المتيم بالله هو سكن الله وما أرق ما يصوره لنا جلال الدين الرومي: «هو الذي توطن مدينة القلب، فأين أسافر. هو الذي سكن حدقة العين فإلام أنظر».

حيث يكون القلبُ وطناً للحق، فلا اغتراب. حيث تمتلئ الروح بالمعنى، فلا

حزن أو وجع. حيث يرتوي القلب بالحب الإلهي، فلا خوف ولا قلق ولا وجل، ليس ثمة إلا المحبة والأمن والسكينة والسلام. «الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا يذكركم الله تطمئن القلوب» (الرعد - 28). يقول القديس أغوستينوس: «خلقنا لأجلك، وقلوبنا لا سكينة لها حتى تسكن إليك»⁽¹⁾.

حين يكون القلب مضيئاً بنور الحق تعالى، يرى العالم مكتوباً بحروف من نور. وما أروع بيان جلال الدين الرومي لهذه الحقيقة، إذ يقول: «النور الخارجي (يجيء) من الشمس، وأما النور الباطني فهو من انعكاس الأنوار العُلَى.. النور الذي في العيون ليس إلا نور القلب، فأنوار العيون حاصلة من أنوار القلوب.. وأما النور الذي في القلب فهو نور الله. إنه نورٌ خالص من نور العقل والحس، منفصل عنهما»⁽²⁾. وحده عشق الحق يريك اللامرئي. فقط عبر القلب يمكننا العبور إلى السماء.

معرفة الله غير حب الله:

معرفة الله غير حب الله. حبُّ الله سمي القلب وسفره إلى الله، وهو في الختام ليس سوى أن يكون القلب وطناً لله. معرفة الله هي تدبر العقل وتأمله وتفكيره في خلق الله وآياته، واعتقاده بوجوده.

المتكلمون واللاهوتيون يعرفوننا على أدلة وجود الله وصفاته، لكن لا يوصلنا إلى الله إلا ذوو الحياة الروحية الأصيلة. ولا تتكسر الحياة الروحية الأصيلة من دون حب الله ووصاله.

لا يرتوي الظمأ الأنطولوجي للمقدس بمعرفة الله، وإنما يرتوي هذا الظمأ بحب الله ووصاله. مثلما لا يتكسر الايمان بمعرفة الله، وإنما يتكسر بحب الله. ولا يتحقق السفر إلى الله إلا بحب الله، وليس بمعرفة الله. كذلك لا يكون الدين دواءً وشفاءً إلا بحب الله، ولا تكفي لذلك معرفة الله. القلب الذي حُطت عليه أسرار الحب هو القلب الذي لا يكف عن إنشاد ترانيم حب الله والانسان والعالم.

(1) اعترافات القديس أغوستينوس 101. في ترجمة: الخوارزمي، أسقف موحنا الحلبي. بيروت: دار المشرق، ط 8، 2007، ص 7. أورد تعريباً آخر للنص بهذه الصيغة: «خلقنا لأجلك، ولن يهدأ قلبٌ لنا حتى يستقر فيك».

(2) «مشوي» مولانا جلال الدين الرومي. ترجمة: محمد عبدالسلام كفافى. بيروت: المكتبة العصرية، ط 1، 1966م، الكتاب الأول، ص 180.

«الدين هو الحب، والحب هو الدين»:

ما تخترنه الحياة من شرور وآلام، وما هو مترسخ فيها من كراهيات، وما يتفشى فيها من تعصبات، وما تضح به من عنف واحتراب، لا تتسع لها، بل تضيق بها طاقة الكائن البشري المتناهية المحدودة. وليس هناك من وسيلة للخلاص، سوى أن نتلمس الجبل المختلفة التي تقودنا الى حب الله والانسان والعالم. بالسعي وراء الحب يشرق القلب، وتسمو الروح الى مرتبة تغدو فيها لا وطن لها الا الحب. حيثما يكون الحب يكون الوطن.

عبر الحب الالهي يرتوي المرء أنطولوجيا، وحين يرتوي المرء أنطولوجيا يصبح قلبه منبعاً للحب، أي يكون الحب هو وهو الحب. يصير الحب في حياته: مرآة كل مرآة، مادة كل مادة، صورة كل صورة، لون كل لون، موضوع كل موضوع. ويكون «الدين هو الحب، والحب هو الدين»، كما هو مروى عن الإمام محمد الباقر «ع»⁽¹⁾.

الحب هو من يوجّه بوصلة الدين، وليس الدين هو من يوجّه بوصلة الحب. ويتجلى للمرء أنه حيثما يوجد الحب يتحقق الدين. كما يكشف أن من لا يحب الانسان لا يحب الله. ويتذوق كيف أن «الحب» هو وقود الحياة، حين تفتقر الحياة لو قود يحركها. وأن العجز عن الحب إنما هو عجز عن الحياة.

بـ«قوة الحب» يمكن الخلاص من «حب القوة». بـ«الحب» تكف «الكرهية» عن الفتك بمجتمعاتنا. بـ«الحب» تنجو مجتمعاتنا من العنف الذي يفرسها. بـ«الحب» تتخلص مجتمعاتنا من الخوف الذي يسكنها. حياة الحب تفقدنا من عدم حب الحياة.

«الحب» هو قيّارة الحياة. «الحب» هو انشودة الحياة. «الحب» هو سرّ الحياة. «الحب» هو اكسير الحياة. «الحب» هو معنى الحياة. الحب هو الحل لمشكلة الوجود الانساني. «الروح التي ليس شعارها الحب الحقيقي من الخير ألا توجد، فليس وجودها سوى عاراً كن ثملاً بالحب، فإن الوجود كله محبة». كما هو مذهب جلال الدين الرومي⁽²⁾. تبعاً لما يعتقد الشيخ محيي الدين بن عربي من أن «المحبة أصل الموجودات»⁽³⁾.

(1) البرقي، أحمد بن محمد بن خالد المحاسن طهران: دار الكتب الإسلامية، 1370 ش -

1951م، «باب الحب والبغض في الله، حديث 327»، ص 262.

(2) «مشنوي» مولانا جلال الدين الرومي. ترجمة: محمد عبدالسلام كفاقي. الكتاب الأول: ص 31.

(3) الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي. فصوص الحكم. تعليقات: د. أبو العلا عفيفي. طهران:

انتشارات الزهراء، 1366=1987، ج 1: ص 214.

الإيمان ليس علفاً:

مجتمعاتنا غارقة بضجيج الحديث والمتحدثين في الدين والايمان، بالرغم من أن الإيمان ليس علفاً يأكله القطيع. الإيمان كما يقول كيركجورد: «ليس في مجمله علفاً يقدم للسذج من الناس، لأنه لا يمكن أن يكون فكراً¹¹». وإن كثرة كلام من يحسون أنهم الموقعون نياية عن رب العالمين، لا يكرس الحياة الروحية، ولا يشري الحياة الأخلاقية. وكان أولئك لا يعرفون أن التجربة الروحية من الحالات. وكل ما هو من جنس الحالات، تفشل في الإخبار عنه الكلمات، فما تذوقه الروح تخون اللغة نفسها في التعبير عنه، ذلك أنها لا تتسع لاستيعابه، ولا تطيق حمله، وتفشل في استبصار مدياته، وتعجز عن توصيله.

مثلاً تُفسد الدين كثرةً الناطقين باسم الدين، كذلك تنطفئ جذوة الإيمان بالإكراه على الايمان، وتموت الحياة الأخلاقية لحظة تكون حياة معلمي الأخلاق خارج الأخلاق. لا مُعلِّم للأخلاق كالإصغاء لصوت الضمير. الصمت لغة حيث تتعطل اللغة. الصمت مُعلِّم الأخلاق. الصمت لا يخذل أو يورط صاحبه.

تدين مفرغ من الحياة الروحية:

نلاحظ معظم الشباب المنخرطين في الجماعات الاسلامية، أرواحهم منطفئة، لم يضها الإيمان، وأفئدتهم جائعة لم تُشبع بالمعنى، وقلوبهم ظامئة لم ترتو بحب الله والإنسان والعالم. وسلوكهم لا يخلو من مفارقات وازدواجية، تنتهك الأخلاق في السر، وإن كانت تنظاهر بها في العلن، ذلك أنهم يفتقرون لمثال بشري روحي أخلاقي مجتد في محيطهم، سلوكه مرآة للمخلوق النبيل، وروحه تفيض بالإيمان، ويضئ قلبه سبل الأسفار إلى الحق.

لا نعثر في هذه الجماعات على نموذج مشبعة حياته بالمعنى، يمتلك كيمياء روحية، تمنح هؤلاء الشباب القدرة على استعادة هويتهم الشخصية المفقدة، وتشبع حاجتهم للاختلاف والتمييز، وتساهم في تعزيز قدرتهم على إثراء حياتهم أنطولوجياً، وتساعدهم على أن تكون حياتهم أجمل، في عالم نشأ فيه كل شيء، وتنمط فيه كل شيء، ويكاد يشابه فيه كل شيء، ويتكرر فيه كل شيء، مكانياً وزمانياً.

(1) محمد، د. علي عبدالمعطي. سورين كيركجارد: مؤسس الوجودية المسيحية. الاسكندرية: منشأة المعارف، 2000، ص 46.

مضافاً إلى أن أدبياتهم تفتقر إلى ما يقودهم للسماء، ولا تكفّ عن وضعهم في مواجهة كل الناس، وزجهم للخوض في صراعات السلطة والهيمنة والمال في المجتمع. وبدلاً من أن يكون النص الديني في أدبياتهم: منتجاً للإيمان، ومنبعاً لتكريس الحياة الروحية، ومنهلاً لإثراء الحياة الأخلاقية، يجري توظيفه كغطاء للاستحواذ على الهيمنة والسلطة والقوة والمال.

وعادة ما تتلفح هذه الأدبيات بغطاء، يُصاغ عبر شعارات استهزاء واستغاثة، تثير المشاعر، وتوقد العواطف، وتحترّض على الانخراط في حروب باسم الله، ومواجهة العالم كله، بذريعة الغيرة على الله! من دون أن يعلموا، أن الشفقة على الإنسان، والرحمة بخلق الله، هي المضمون العميق للغيرة على الله.

التدين المفرغ من المعنوية أنهك أرواحنا، واستنزف قلوبنا. أتمنى أن يتخلص دعاة الأديان والمبشرون من الوله برسم صورة مفزعة لله، كي يحرروا حياتنا من الفرق في القنوط والقلق والخوف، وكأننا في معركة مزمنة مع الله. وأن يشغلوا في التبشير بالمهمة العميقة للأديان، والتي أشرنا إلى أنها تتلخص في: خلع معنى على حياتنا، وعلى كل ما لا معنى له في عالمنا، وتشيد مرتكزات الأمل، وإيقاظ منابع التفاؤل، ومنح أحلامنا صورها الأجمل، وإذابة المرارات، وإطفاء حرائق الروح، وتسكين موجع القلب.

وليست المهمة الأصلية للأديان رسم صورة مرعبة لرب العالمين، وتحويل صورة العالمين - الدنيا والآخرة - إلى سجون أبدية، ووضع الكائن البشري في قلق متواصل، وزرع الخوف في قلب الإنسان، مما سيفضي إليه مصيره، في القبر وعذابه، وجحيم العالم الآخر.

الإنسان الخائف يتمزق، ويصاب بالشلل، ويعجز عن مقاومة أية قوة تسعى لاستعباده. ففي كل مجتمع خائف ينبت ويتوالد الاستبداد على الدوام. إله الخوف منبع الاستبداد، هناك علاقة جدلية مزمنة بين إله الخوف والاستبداد. حيثما يوجد إله الخوف يولد الاستبداد، حيثما يوجد الاستبداد يولد إله الخوف. حين تختنق الحياة بالخوف، ينسحق الكائن البشري. ويمسى مستعداً للرضوخ والانصياع لأي شخص يمتلك أداة سطوة وعنف.

الشخص الخائف لا يمتلك القدرة على إبداء أي رأي لا يتطابق مع ما يفرضه خطاب العنف، بل لا يستطيع الذهن الخائف أن يفكر بما هو خارج ما تفرضه أداة

العنف. المحيط المشبع بمختلف أنماط العنف الجسدي والرمزي ينتج شخصية مستلبة. المجتمع الذي يكثره الخوف يكثره الاستبداد.

لا خلاص إلا بتسمية الحياة الروحية والأخلاقية والعقلية، وذلك لا يتحقق إلا بالانتقال، من «دين الأيديولوجيا» إلى «دين الأنطولوجيا»، ومن لاهوت الاسترقاق إلى لاهوت الانعتاق، ومن لاهوت الكراهية إلى لاهوت المحبة، ومن لاهوت الحرب إلى لاهوت السلام، ومن لاهوت الموت إلى لاهوت الحياة، ومن لاهوت التحرير إلى لاهوت الحرية، ومن لاهوت الثورة إلى لاهوت الحياة الروحية الأخلاقية، ومن لاهوت توثيق الحروف وإهدار المقاصد إلى لاهوت المقاصد والأهداف الكلية للدين، ومن لاهوت اليأس إلى لاهوت الرجاء، ومن لاهوت التشاؤم إلى لاهوت الأمل، ومن لاهوت الحزن إلى لاهوت الفرح، ومن لاهوت الهلاك إلى لاهوت النجاة، ومن لاهوت الفرقة الناجية إلى لاهوت التعددية.

أيةُ دولة بلا حياة روحية وقيم أخلاقية؟⁽¹⁾

(1) تحرير موسع لورقة مقدمة في «المؤتمر الدولي حول الأديان والقيم السياسية»، الذي نظّمته «مؤسسة أديان، بالشراكة مع مؤسسة الأديان للسلام، ومؤسسة كونراد أدناور للدراسات»، في جبيل - لبنان. بتاريخ 26-28 تشرين الثاني 2014.

بعد إحصار «إسلام داعش»، وتهديده للسلم العالمي، ودعوته وممارسته لإحياء ما نسخه التاريخ من الأحكام، مثل ممارسته «إحياء الرق قبل قيام الساعة»، حسبما أعلن عنه على غلاف عدد أكتوبر 2014، من نشرته «دابق»، وما فعله داعش من سبي واسترقاق لشاء الإيزيديين في سنجار، مروراً بذلك في أنه يحرص على تطبيق أحكام الفقهاء الخاصة بالمشركين، كما جاء في بيانه: (بعد الاستيلاء على سنجار، كُلف طلبة العلم الشرعي في الدولة الإسلامية بالقيام بالبحث في أمر الإيزيديين ليم تحديد هل يجب معاملتهم كطائفة شركية في الأصل أم أنها جماعة من المسلمين الذين ارتدوا، فتبين أن الأصل الواضح لهذا الدين وُجد في المحورية في بلاد فارس القديمة، لكن دخلت فيه معتقدات من الصابئة، واليهودية، والمسيحية. ووفقاً لذلك، تعاملت الدولة الإسلامية مع هذه الطائفة، كما بين أغلب الفقهاء، كتعاملها مع المشركين)⁽¹¹⁾

أصدر تنظيم داعش كراساً بعنوان: «سؤال وجواب في السبي والرقاب»، ووزعه على مقاتليه. من اعداد ديوان البحوث والإفتاء التابع للتنظيم، يتضمن إجابات عن 32 سؤالاً تشرع السبي والاسترقاق لغير المسلمين، والتسري بنسائهم المسيات ونكاحهن، بوصفهن إماء⁽¹²⁾.

لم يعد هذا السلوك شيئاً مستوراً، بعد تكرار مشاهد ولائم الذبح، وحفلات الرقص

(11) عبدالله، د حميد. السبي في العراق من بابل الى سنجار جريدة المشرق «بغداد» الصادرة في 19-11-2014. لاحظ تشديد داعش في تزيير الاسترقاق على أنهم يستندون في مواقفهم إلى المدونة الفقهية، فإن التعامل كما يقولون: «مع هذه الطائفة، كما بين أغلب الفقهاء، كتعاملها مع المشركين».

(2) لاحظ عرضاً للكراس في صحيفة الشرق الأوسط، الصادرة في لندن، يوم 15-12-2014.

على أشلاء الضحايا، في الفضائيات كل يوم. والسابق على الانخراط في وحشية عبثية تلذذ بالدم المسفوح، وتهافت على مغامرات مهووسة في العمليات الانتحارية.

تكفير الآخر المختلف:

إننا جميعاً نهرب من تسمية الأشياء بأسمائها، ونلجأ لحيل مفضوحة، نتكتم على ما تتضمنه المدونة الكلامية والفقهية، من أحكام: الكفار، المشركين، أهل الذمة، الرق، الجزية، الردة، وغيرها. وتكفير الفلاسفة وذوي التفكير الحر، وأتباع الفرق والمذاهب. فقد كفر ابن تيمية مثلاً من المسلمين: الفلاسفة، والمتصوفة، والجهمية، والباطنية، والإسماعيلية، والنصيرية، والإمامية الإثني عشرية، والقدرية⁽¹⁾.

لم ينفرد ابن تيمية بذلك، بل نعر على غير واحد من الفقهاء ممن يفتي بكفر هؤلاء، وربما غيرهم، خاصة تلامذة مدرسته، ومن ترسموا منهجه في التفكير. ولا تخلو من التكفير مدونة علم الكلام والاعتقادات لدى مختلف الفرق، كما أن المدونة الفقهية لكل المذاهب لا تخلو من مثل هذه الأحكام والفتاوى.

لم يزل تراث ابن تيمية وسواه حاضراً فاعلاً مؤثراً، عبر دراسته وتدرسه، وتبني آثاره في البحث والكتابة والمناظرة، واتخاذ مرجعية للتقليد في التدين والسلوك والتعامل مع الآخر.

لا تغيب آثاره عن الكثير من المدارس والمعاهد والكلية المتخصصة بالشريعة والدراسات الإسلامية، سواء كانت تقليدية أو حديثة. كما تخصصت عشرات القنوات الفضائية بتقديم فتاواه ومقولاته، مضافاً إلى حضوره المكثف في خطب الجمعة التي تذاق من عشرات الآلاف من المنابر في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وتمحور جهود مراكز بحوث ودوريات ودور نشر عديدة على نشر مفاهيمه والتبشير بفتاواه والدعوة إلى معتقداته.

(1) المشعبي، د. عبدالمجيد بن سالم بن عبدالله. منهج ابن تيمية في مسألة التكفير. الرياض: مكتبة أصول الفقه، 1997، ص 349 - 365. كرر ابن تيمية ذكر هذه الجملة (فإن تاب وإلا قتل) في آثاره كثيراً؛ ففي البحث ظهرت 267 نتيجة في كل مؤلفاته. ووردت في كتابه (مجموع الفتاوى) فقط 67 نتيجة. لكنني لم أعثر على فتوى بالقتل في تراث القارابي وابن سينا وابن رشد وملا صدرا وغيرهم من فلاسفة الإسلام. كذلك لم أعثر على فتوى بالقتل في تراث ابن سبعين وأبو يزيد البسطامي وابن عربي وجلال الدين الرومي وغيرهم من المتصوفة والعرفاء.

ولم يجرؤ معظم الباحثين في الإسلام المعاصر على الإشارة إلى ما ينبعث من آثاره من تكفير المختلف عقائدياً وفكرياً، والتنبيه إلى أن تراثه هو منجم معظم ما تشعبت به أدبيات الجماعات الإسلامية من السموم. بل تحمس بعض المفكرين في بلادنا العربية بالإعلان عن ضرورة العودة إليه، بوصفه أهم مفكر وفقه ظهر في تاريخ الإسلام، وأية محاولة تغفز عليه أو تتخطاه، إنما تغامر بفقدانها أصالتها وافتقارها لتمثيل الأمة والإسلام وحضارته.

كما نجد مؤسسات ومراكز أبحاث، خلعت على نفسها شعار التجديد، و«أسلمة المعرفة»⁽¹⁾، تهتم بنشر مؤلفات ورسائل جامعية وأبحاث تعمل على إنشاء مفاهيم لتجديد التفكير الديني في الإسلام تتوكل على مقولاته، بينما تنكتم ولا تملن عن تلك المرتكزات والمقولات التي تصدر عنها وتنبثق منها الكثير من فتاوى الذبح والاسترقاق والسبي لداعش وشقيقاتها المعلقات والمضمرات.

أتحدث عن ابن تيمية ليس بوصفه منفرداً في ذلك، فإن مدونة علم الكلام والفقه في الإسلام لدى كافة الفرق والمذاهب لا تخلو من تلك المعتقدات والفتاوى - كما أشرت قبل قليل - غير أن ابن تيمية تميز بغزارة منجزه، وسعة وتنوع آثاره، وصرامة كتاباته، وتفكيره السجالي الخصب، والكثافة الدلالية للغة. كذلك تميز بحضوره اللافت، وتبني آثاره بجزمية وثقة نهائية في أدبيات الجماعات السلفية المقاتلة، وشيوع ميراثه المتنوع الغني الشامل في عالم الإسلام اليوم، وتمسك المؤسسة الدينية السلفية بفقهه وفتاواه، وحذر السلطات في هذه البلدان وخشيتها من أي استفزاز للشبكات الواسعة المعقدة لهذه المؤسسة، واحتمال تورطها في تجييش شبكاتها لمناهضة السلطة والتحريض عليها.

(1) أشكر تلميذي الأستاذ علي المدن الذي نبهني إلى أن أول من أشار إلى: «أسلمة المعارف»، هو الشيخ أبو عبدالله محمد بن قوام البالي (650 - 718 هـ)، الذي وصف بها جهود ابن تيمية العلمية. نقل الحكاية عنه: ابن رجب البغدادي الحنبلي (ت 795 هـ)، في كتابه (ذيل طبقات الحنابلة)، حيث قال في (ج 4/ ص 504): (ويحكى عنه أنه كان يقول: ما أسلمت معارفنا إلا على يد ابن تيمية). محمد بن قوام البالي معاصر لابن تيمية. انظر: ذيل طبقات الحنابلة، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: 795 هـ). تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، نشر: مكتبة العبيكان - الرياض، ط الأولى، 1425 هـ - 2005 م. ج 4: ص 504.

وكان هناك ميثاقاً غير معلن، تتواطأ فيه السلطة السياسية مع المؤسسة الدينية السلفية، فمن جهة لا تشجع السلطة أية محاولة لتقدمه، أو تبيته الناس لتأثير فكره العقائدي وفقهه الشديد الفاعلية في تعبئة الانتحاريين الشباب، والقائهم كوقود في محرقة العمليات الانتحارية، ومن جهة أخرى تهادن المؤسسة السلفية السلطة، وتغض النظر عنها.

وسيدرك الجميع متأخرين أن هذه المقولات الاعتقادية والفتاوى الفقهية، التي تشبعت بها عقول عدة أجيال في هذه البلاد، وتفتشت في المقررات الدراسية في كافة المراحل، وطفقت في دعوة وسلوك الدعاة السلفيين، أنها سلتهم الجميع، لتجعلهم رماداً في محرقتها في خاتمة المطاف، لولم يبادر لمراجعتها نقدياً، وتفكيكها وغربلتها.

من المؤسف أن تلك السلطات تدعم مراكز دراسات ومؤتمرات وحلقات نقاشية ودوريات وصحفاً تعتمد سياسة ذرائعية انتقائية، تدعو للدولة الوطنية الحديثة، والحوار والتسامح والعيش المشترك، ومكافحة الإرهاب، لكنها لا تريد أن تفتح الجراح العميقة، وتكشف عن مخزون العنف والكراهية، وكل ما هو ضد للحوار والتعايش والتسامح في آثار ابن تيمية وتلامذة مدرسته في الماضي والحاضر، وغيرهم.

لم أعر على كتاب أو بحث أو مقال، كتبه شخص ينتمي للمؤسسة الدينية السلفية، أو باحث أكاديمي متخصص في الشريعة والدراسات الإسلامية، أو اعلامي، أو مثقف، تناول فيه شيئاً من آثار ابن تيمية ومدرسته، بالمراجعة والتحليل والنقد، بل كل ما عثرت عليه من كتابات على وفرتها، تتمحور حول التبجيل والثناء، والشرح والتلخيص والتنظيم لأفكاره. ولو وجدنا بعض الكتابات النقدية، فإنها تنطلق من مواقف دفاعية مذهبية، تقتصر على بيان ونقد مواقفه حيال ذلك المذهب أو تلك الطائفة، من دون أن تهتم بالكشف عن أصول التكفير في تفكيره، وأثر ذلك في تشييد مدرسة عقائدية فقهية راسخة، شديدة التأثير في الإسلام المعاصر، استطاعت أن تتمدد ويتكرس حضورها، وتهيمن على التفكير الديني، وحياة مجتمعات عديدة في عالم الإسلام اليوم.

مادام تراث ابن تيمية ومدرسته يشكل مرجعية في مقررات التربية والتعليم، ترضية للمؤسسة الدينية السلفية، فإن الانتحاريين في مناهج التربية والتعليم يرقدون، ومن آثاره وتلامذته يولدون.

ليس دفاعاً عن التراث الآخر، لكن تراث ابن تيمية ومدرسته هو ما يحتل المرجعية

المحورية الأساسية لكافة الجماعات التي تمتهن زيادة الحرث والنسل، ويمكنكم العودة إلى أدبياتهم التي لا تشير إلى أي فقيه، كأبي حنيفة وغيره، أو متكلم كالنظام أو الماتريدي أو القاضي عبد الجبار وغيرهم، أو مفسر كمحيي الدين بن عربي وغيره. ابن تيمية ومدرسته فقط هو المرجعية.

أخشى أن يتم تفسير ما أقول تفسيراً طائفيّاً، أود التوضيح أنني عندما تحدثت عن ابن تيمية، لا أريد سوى الإشارة إلى الأثر الفتاك لميرائه، ومحورية مرجعيته وسلطته الدينية وسلطونه على الإسلام السلفي، الذي هو الأوسع حضوراً، والأشد تأثيراً، والأخطر اجتياحاً لعالم الإسلام اليوم.

لقد اختزلت السلفية التراث الإسلامي بإبن تيمية ومدرسته وتلامذته، بنحو أمسى فقه ابن تيمية فوق كل فقه وفيه، وتفسيره فوق كل تفسير ومفسر، وشرحه للحديث فوق كل شرح ومحدث، ورأيه في الفلسفة فوق كل فلسفة وفيلسوف، وموقفه المناهض للتصوف والحياة الروحية فوق كل تصوف وحياة روحية.. وهكذا. فلم يعد لفقيه، أو مفسر، أو محدث، أو متكلم، أو فيلسوف، أو متصوف، أي حضور مع تراث ابن تيمية وتلامذته.

لم أشر على أية مراجعة تقويمية، أو رسالة نقدية، أو بحث يتخطى آثار ابن تيمية، في الجامعات السلفية، رغم أنه لم يوفر أحداً من الفلاسفة والمتصوفة والمتكلمين والفقهاء في دنيا الإسلام، في تقويضه وهجومه العاصف وهجانه.

التدين السلفي يُفقر الحياة الروحية والأخلاقية:

التدين السلفي يُفقر الحياة الروحية، ويستنزف الحياة الأخلاقية، ويميت الحياة العقلية. المشكلة أن مؤسسات التربية والتعليم في بعض البلدان الإسلامية هي التي تساهم في انتاج هذا النمط من التدين، ذلك أن مناهجها في الدين والتاريخ تستقي من الموروث السلفي، ويجري التبشير به في وسائل التواصل الاجتماعي، ووسائل الإعلام، ومنابر المساجد، بنحو يفتش في حياة الناس، ويتحول الى ثقافة، تسود العلاقات الاجتماعية. والمفقة. والأزياء. وطريقة حلاقة الذقن والشارب والرأس. حتى تغطي كل حياة المجتمع، وتفضي إلى ذبول الحياة الروحية والأخلاقية، وهشاشة الحياة العقلية، فكلما اتسعت مساحة التدين السلفي ضاق فضاء الروح، واختنق القلب، وتعطل العقل.

مضافاً إلى أن سيادة هذا النمط من التدين يقوّض مفهوم دولة المواطنة الحديثة، وينفي مشروعية أصولها الدستورية، ويهشم برامجها التنموية، بوصف وظيفة دولة الخلافة في المنطق السلفي هي خدمة الله وليس خدمة الإنسان، ورعاية حقوق الله لا حقوق الإنسان، علماً أن حقوق الله في مفهومهم تترتب على التضحية بحقوق الإنسان وحرياته. مفهوم الدولة الحديثة يتأسس على أن وظيفتها تتمحور على خدمة الإنسان، وتأمين حقوقه وحرياته، وتوفير كافة متطلبات حياته المادية وغيرها.

مع نشي ثقافة التكفير في حياتنا، وتشيع وعي الناشئة بها، وترسبها في طبقات اللاوعي العميقة في شخصية أبنائنا، لا يمكننا أبداً صياغة ميثاق للمواطنة، يكون النصاب فيه هو الانتماء للوطن، والمساواة في الحقوق والواجبات. لا ميثاق للمواطنة بلا اعتماد سياسة الاعتراف المتبادل بين مختلف المكونات والأثنيات والأديان والفرق والمذاهب في الوطن الواحد.

كيف ينسجم مفهوم المواطنة، مع مقولات وفتاوى مترسبة في تكويننا منذ الطفولة، تنص على أن الشركاء في الوطن، ليسوا سوى مشركين ونجسين وأهل ذمة، أو كفاراً، مثل الإيزيديين في العراق، ممن لا خيار لهم إلا الإسلام أو السبي أو القتل.

السلفية تخلط الدين بالتدين، الدين بالتاريخ، الدين بفتاوى وأحكام استنبطها الفقهاء، وتدبيرات زمانية تعود إلى عصر انقضى وواقع مضى. ويتعبّر الأصوليين: ان الحكم يدور مدار موضوعه، فحيث لا موضوع لا حكم. والزمان بوصفه ماضياً، أي وقت صياغة هذه الفتاوى كان قديماً أو قل عنصراً في وجود موضوع الحكم، وكل عنصر في الموضوع هو جزء منه، وحيث ينتفي جزء الموضوع ينتفي كله. مضي زمان الفتوى والحكم، يعني انتفاء أحد عناصر الموضوع، وبذلك ينتفي الموضوع، وتبعاً لانتفائه فلا حكم.

من هنا لا يمكننا إنصاف الإسلام مالم نقرأ أحكام: الكفار والمشركين والرق والإماء وأهل الذمة والجزية والردة، في سياقاتها التاريخية الزمانية المكاني.

أزمة روحية أخلاقية عقلية مضاعفة:

أزمتنا الروحية الأخلاقية العقلية مضاعفة، لأنها أزمة ذات أقتعة دينية زائفة، وانها ممتدة أفقياً وعمودياً، فهي أفقياً تغطي كافة مجالات حياتنا الدينية والثقافية والتربوية والسياسية والاقتصادية. وهي عمودياً تتجذر في معارفنا الدينية المتوارثة، التي نلغي

التجربة التاريخية في تعاطينا معها، ولا نتحرى تشكلها في سياقات زمانية مكانية ثقافية مغايرة لما هو عليه حالنا اليوم.

نجد بعض تعبيرات هذه الأزمة بإنهاك الدين، وإفقاره ميثافيزيقيا، وخفض طاقته الروحية، وإهمال قيمه الأخلاقية. والتشديد على القراءة القرشبية الحرفية لنصوصه، وإهدار حقله الرمزي. وتعطيله في حدود الأبعاد السياسية الدنيوية.

كل ذلك أفضى إلى ذبول الحياة الروحية، وانطفاء الحياة الأخلاقية، إذ كيف تُسببت الحياة الروحية وتنمو وتزدهر في سياق الكراهية والتعصب ونفي الآخر؟ وكيف تشكل منظومات القيم الأخلاقية في هذه المناخات الملمونة؟ وهل نستطيع بناء دولة مواطنة حديثة من دون حياة روحية وأخلاقية أصيلة، لا تفتك بها السموم؟

لا ندعو لإقصاء الدين، أو نزع أن تشكيل دولة المواطنة الحديثة يساوق وضع الدين في حدود المسجد في مجتمعاتنا، لأن ذلك فضلا عن أنه متعذر عمليا، يشي بعدم الوعي الحقيقي برسالة الدين الأساسية في بناء الحياة الروحية، وتطهير الحياة الأخلاقية للإنسان، وحماية الكائن البشري من الاغتراب الكوني، والقلق الوجودي، والعبثية والسوداوية واللامعنى. وقوة الدين في التغلب على هشاشة الكائن البشري، عبر تعزيز روح التفاؤل والأمل والإخلاص والرجاء.

ما يهنا هو الكشف عن جذور مآزق التفكير الديني. وإن مآزقنا لا يكمن في هذه الفتوى أو ذلك المعتقد، كي نبادر للخلاص من ذلك عبر انتقاء مجموعة آيات كريمة وأحاديث شريفة، نتحدث عن: الرحمة، والعفو، والسلام، ونفي الإكراه في الدين.

لا أريد اختزال المآزق الراهن لمجتمعاتنا في إبن تيمية وآثاره العقائدية وفقهه، أو في آثاره سواء من السلف خاصة، لأن المآزق أعمق وأبعد مدى من ذلك. وإن كانت آثاره - كما أشرت - تشكل المرجعية الأهم والأغنى والأشمل للسلفية بكل ألوانها وأشكالها.

البنية التحتية المنتجة للتفكير الديني:

المآزق يكمن في البنية التحتية لهذه الآثار العقائدية والفقهاء. إنه يتمثل في الأسس ومناهج التفكير والنظر والأدوات المتوارثة المنتجة للتفكير الديني في الإسلام، من: المنطق الأرسطي، وعلم الكلام، وأصول الفقه، وقواعد الفقه، وعلوم

القرآن، واصل التفسير، وقواعد الحديث وعلم الرجال، وعلوم اللغة. بوصفها المادة الأساس لتشكيل الرؤية للعالم، وبناء العقائد، وتفسير القرآن، والمدونة الفقهية، والمعارف الإسلامية، التي يكرّر العقل الإسلامي فيها ذاته باستمرار، ولا يني يتسخ ماقاله الأوائل من أئمة الفرق والمذاهب، ويتألف قواعدهم ويرسخ عباراتهم ومصطلحاتهم وآراءهم كما هي. ولم يخرج من نسج على متوالهم واقتفى آثارهم عن تلك الأصول والقواعد والمقولات في الغالب، إلا بحدود بيان القاعدة وشرح العبارة، وشرح شرحها، والحواشي والتعليق عليها، وتوضيح المراد واستخلاص المضمون. ذلك «أن الأول لم يترك للأخر شيئاً»، حسب القول الذي سمعناه وقرأناه كثيراً، وأضحى قديماً يقيد تفكيرنا، فلا يسمع لنا أن نفكر كما فكروا، وتأمل مثلما تأملوا، ونصوغ قواعد بديلة لتفكيرنا الديني في سياق عصرنا ورهاناته، والمعارف والعلوم والفنون المستجدة فيه، كما صاغ السلف قواعدهم، التي أمت مناهج مزمنة وجّهت نمط فهمهم، وتوجّه فهم من جاء بعدهم، وتهيمن على فهمنا اليوم للدين، دون أن نتأمل ونراجع لندرك أن تلك القواعد انبثقت في سياق الماضي الذي عاشوه، وانها مشتقة من طبيعة المعارف والعلوم والفنون المتعارفة لديهم. فلم يكن عقل الشافعي (ت 204 هـ) خارج عصره، حين قعد أصول الفقه، بعد قرنين من عصر البعثة تقريباً، ولم يتعرف عقل الأشعري (ت 324 هـ) على غير المنطق الأرسطي، عندما صاغ مقولاته الاعتقادية «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين»، وهكذا لم يخرج أي متكلم أو فقيه أو مفسر غيرهم عن عصره، فلم يكن الواحدي (ت 468 هـ) عابراً للزمان والمكان حين وضع «أسباب النزول»، أو الزركشي (ت 794 هـ) الذي حدّد في «البرهان» قواعد التفسير وعلوم القرآن، وكذلك السيوطي (911 هـ) الذي قنّن في «الإتقان» قوانين التفسير وعلوم القرآن، وغيرهم.

لقد شكّلت هذه المعارف بالتدرّج في مرحلة بعيدة زمانياً عن عصر البعثة الشريفة، واستقتت من المعطيات السائدة في عصرها، ولم يتخطأ أفق انتظارها من الدين المشروطية اللغوية والسياسية والاجتماعية والنظام المعرفي والرؤية للعالم المهينة فترةً انثاقها.

مضافاً إلى أن أصحابها لم يخشوا توظيف مخلف المقولات وأسس التفكير المترجمة، المستعارة من أثينا والإسكندرية وفارس والهند القديمة. ولم يشعروا بالابتغناء عن الغير، والاكتماء بما لديهم من أسس وأدوات للتفكير، ولم يحذروا

من الحكم عليهم بممالة الكفار والإفادة من علومهم وفنونهم المنحرفة الضالة، أو تبخيسها بوصفها: «حلولاً مستوردة جنت على أمتنا»⁽¹⁾.

ينبغي الآنفتقر للحسّ التاريخي في دراسة الموروث الديني، ولا نتردّد في اكتشاف مواطنٍ قصوره وثمراته المتنوعة، وعجزه عن الوفاء بمطلبات روح وقلب وعقل وجد المسلم اليوم. فضلاً عن ضرورة أن نعرف على آفاق الحاضر، ونبصر مديات المستقبل. كذلك لا بد من الخروج عن المناهج والأسس وأدوات النظر الموروثة للتفكير الديني، بوصفها «أنساقاً عميقة» وحدوداً نهائية، يعاد إنتاج الأسئلة والأجوبة ذاتها من خلالها كل مرة. انها تعطلّ العقل، وتسجن عملية التفكير الديني في مداراتها المغلقة، ولا تكف عن التكرار والاجترار، تبدأ من حيث تنتهي، وتنتهي من حيث تبدأ. تبدأ من أصول الشافعي ولاهوت الأشعري لتنتهي بهما، وتنتهي بهما لتبدأ منهما.. وهكذا.

يتلون النص تبعاً للأوعية التي يحل فيها:

تمنع الأنساق المضمرة والنماذج المعيارية الراسخة المتصلبة في تراثنا انشاق أسئلة عميقة، تستأنف النظر في مسلمات هذا التراث وبداهاته، كي تمنح العقل المسلم آفاقاً فسيحة للتفكير خارج مداراتها.

إن تلك الأنساق والنماذج المعيارية تمارس نوعاً من الاكراه، إذ تصر على تكرار

(1) أصدر الشيخ يوسف القرضاوي سلسلة كتب فيل أربعين عاما تقريبا، تحت عنوان: «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا». أضحت من أهم الأدبيات المتداولة في تربية وتنقيف الجماعات الإسلامية. وقد نسج القرضاوي على ما كتبه سيد قطب قبل ذلك، الذي ألهمته أفكاره معظم هذه الجماعات من بعده. يقول سيد قطب: «وإن المجتمعات القائمة كلها مجتمعات جاهلية وغير إسلامية، وإنه ينبغي التصريح بلا وجل أن الإسلام لا علاقة له بما يجري في الأرض كلها، لأن الحاكمية ليست له، والبديل هو أولاً قيام مجتمع إسلامي يتخذ الإسلام شريعة له، ولا تكون له شريعة سواه». «العالم كله يعيش جاهلية من ناحية الأصل الذي تنبثق منه مقومات الحياة وأنظمتها... هذه الجاهلية تقوم على الاعتداء على سفننا الله في الأرض على أحص حصانص الأنوية وهي انحائية. إنها بسند الحاكمية من البشر». ويكتب في موضع آخر: «كل ما حولنا جاهلية: تصورات الناس وعقائدهم، عاداتهم وتقاليدهم، مواد ثقافتهم، فنونهم وأدابهم، شرائعهم وقوانينهم، حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية، ومراجع إسلامية، وفلسفة إسلامية، وتفكيراً إسلامياً، هو كذلك من صنع الجاهلية».

الأجوبة ذاتها، حرصاً على المطابقة معها، ونبدأ لأي شكل من الاختلاف عنها، لذلك نفتش دائماً عن الأشباه والتظائر، كي نعيد مماثلتها ومساكلتها مع كل ما هو جديد.

وان تبدى لنا شيئاً من الاختلاف، فهو لا يعدو أن يكون سوى أسماء جديدة، وكلمات بديلة، للأنساق والنماذج الموروثة ذاتها. وكان مهمتنا التاريخية، ليست التناغم مع ايقاع التاريخ، والاصغاء لصيرورته، ومواكبة حركته الأبدية، وانما تمثل هذه المهمة في حماية تلك الأنساق والنماذج المعيارية، وحرصتها على الدوام من التصدع والانهار.

نطمح بمرافعة من نوع مغاير لمحاجاجات المتكلمين القدماء، لا تهدف هذه المرافعة إلى تدوين ميثاق اعتقادي جديد، وانما تشدازاحة أدوات النظر وآليات الفهم الراسخة، التي أمست بداهات لا يجروؤ أحد على استئناف النظر فيها، ومحاكمة أدايتها وقدرتها على الوفاء بوعود الدين اليوم، وتطلع لخلاصنا من شبك عقل الأسلاف، ومدارات تفكيرهم المحدودة بالقضاء المعرفي والمجال الدلالي لعصرهم.

من الضروري مساءلة المسلمات الموروثة الراسخة، في علم الكلام القديم وأصول الفقه وعلوم القرآن والتفسير، وغيرها، وكل تلك الأسس والمرتكزات الراقدة في الطبقة التحتية لبنية المعارف الإسلامية، والمولدة للتفكير الديني في الإسلام، عبر اشتغالها على توجيه دلالات النصوص، في سياق منطقتها الذي يقضي إلى معنى محدد، يقدو هو الشريعة وأحكامها، وإن رفضه يعني رفضاً للشريعة الإلهية. وهي لا تتي تكرر هذا المعنى، وتعيد صياغته بعبارات متنوعة، لكن المضمون يمثث على الدوام كما هو، مهما تقادم الزمان.

يتلون مدلول النص تبعاً للون الأوعية التي يحل فيها، وكأنها بمثابة فوالب ثابتة يشكل مدلول النص تبعاً لها، فكما يأخذ الماء عادة شكل ولون الوعاء الذي يكون فيه، ولا يختلف لون وشكل الماء عن لون وشكل الإناء، هكذا النصوص توجه دلالاتها على الدوام أدوات ومناهج النظر التي تستبطن منها الأحكام، أي اننا مهما كررنا استعمال تلك القوالب، سننتهي إلى نتائج متفقة مضموناً وكيفاً، وإن اختلفت في صياغاتها وتفصيلها وأسلوب التعبير عنها، والتي تبدو لنا أحياناً وكأنها مختلفة نوعياً عن النتائج السابقة.

وحتى أولئك الذين يشددون على أنهم مجددون، ويتحدثون لنا عن مواقف فقهية أو اعتقادية، لا تكرر الموروث أحياناً، فإنهم حين يفامرون أحياناً بتعطيل تلك

القواعد والأسس المتداولة في الاستنباط، ويتذرعون بما يصطلحون عليه أهداف ومقاصد ومصالح للشريعة، فانهم لا يتكرون أفاقاً جديدة للتفكير الديني. إنهم حتى وإن غلبوا تلك المقاصد في بعض الموارد المحدودة، لكن ليس بوسعهم التمسك بها كمنهج بديل لأصول الفقه، وقواعد النظر والاستنباط المعروفة.

مع العلم ان الاجتهاد في مقاصد الشريعة توقف عند الشاطبي قبل عدة قرون، بل حتى أخيراً، مع محمد الطاهر بن عاشور، لم يبلغ الاجتهاد في المقاصد مديات تسمح له وللفقهاء المعاصرين أن يتوكلوا عليها في الاجتهاد الفقهي، ويستغنوا بها عن أصول الفقه والقواعد الفقهية الموروثة.

وكل ما يُطبع من كتابات في هذا الموضوع، وما يتحدث عنه البعض، من أن تفعيل المقاصد سيفضي إلى إنتاج فقه مواكب للحياة، انما هو مجرد مزاعم، وشروح ومستخلصات لمقاصد الشاطبي ليس إلا، بلا أن يمارس فقيه اتاج فقه يستقي من تلك المقاصد خاصة، ويستند اليها كمؤشرات محورية في التعاطي مع النصوص.

وهنا أود التنبه إلى أن هناك مبالغة في التعميل على مقاصد الشاطبي، واعتبار البعض لها خشبة خلاص لمازق التفكير الديني، من دون وعي أن تلك المقاصد تحكي طبيعة الرؤية للعالم والمعرفة الدينية السائدة في عصر الشاطبي خاصة، كما تشي بأحكامه المبقة، وأفق انتظاره، وما يترقبه هو وعصره من الشريعة.

ومما لا شك فيه أن أفق انتظاره لا يتسع لأفق انتظارنا، وأحكامه المبقة لا تتطابق مع أحكامنا المبقة، ورؤيته للعالم مستوحاة من عصره لا عصرنا، لذلك فإن مقاصده يمكن أن توظف كمؤشرات ومعالم كلية في بناء رؤى جديدة للتعاطي مع النصوص الدينية، والتعرف على مشكلات المسلم المعاصر، وطبيعة ملاهيات الواقع هذا اليوم.

أشير هنا أيضاً إلى أن التجديد لا ينجز وعوده من دون إعادة النظر بالدرس اللغوي والأساليب والمناهج المتداولة فيه، بغية اعداد المختصين بالشريعة والدراسات الاسلامية. الكثير من هؤلاء المختصين يرى إلى اللغة بوصفها ثابتة قارة. لا تجري عليها نواميس التطور والتحول. بل يذهب بعضهم إلى اتهام أية محاولة لتحديث أساليب ومفردات اللغة، وهو لا يدري أن ذلك ضرب من توثين الحروف ونسيان المقاصد.

اللغة كائن حي. اللغة كائن تاريخي. اللغة لا تنتمي إلا للبشر. تنقرض اللغة إن لم تتكلم روح العصر. اللغة كائن راهن ومستقبلي. اللغة ليست ما وضعه البدوي خاصة فعقمت ولم تتوالد. اللغة ليست ما فرضته سياقات دينية سياسية ثقافية، فتسدت منذ تدوينها. اللغة كلمات تولد وأخرى نموت. كل عصر يضيف للغة كلماته ويحذف أخرى لا تشبهه. اللغة أساليب بيان منسوخة وأخرى ناسخة. تحرير اللغة من أغلالها تحرير للعقل من أغلاله.

نسخ آية «لا إكراه في الدين» في سياق منطلق علوم القرآن:

أود أن أشير هنا إلى مثال قرآني، طالما تحدثنا عنه واستندنا إليه كدليل لتبرير حرية الاعتقاد في الإسلام، ونفي إكراه أي إنسان على أي دين أو معتقد خاص. وهو الآية الكريمة: «لا إكراه في الدين»⁽¹⁾. لكتنا حين نعود لمدونة التفسير، نلاحظ إن معظم المفسرين لا يؤسسون لمبدأ حرية المعتقد استناداً لهذه الآية، كما نفعّل نحن اليوم، ذلك أن تمسك المفسرين بقواعد التفسير وعلوم القرآن المتوارثة، انتهى بالكثير منهم إلى القول بنسخها، وتعطيل دلالتها، لأن نسخ الآية يعني نسخ حكمها ونفيها، كما هو مبدأ النسخ والنسخ.

فقد جاء في تفسير الطبري «224 هـ - 310 هـ»: «ثم إنه نسخ: لا إكراه في الدين فأمر بقتال أهل الكتاب في سورة براءة»⁽²⁾.

وفي مجمع البيان للطبرسي «460 هـ - 548 هـ»: «أنه في جميع الكفار ثم نسخ كما تقدم ذكره عن السدي وغيره»⁽³⁾.

وقال الفخر الرازي «544 - 606 هـ»، في سياق حديث عن تفسير الآية: «وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا... وهو كقوله: لا إكراه في الدين، ثم نسخ هذا بعده بآية الجهاد»⁽⁴⁾.

(1) البقرة: 256.

(2) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. جامع البيان في تفسير القرآن. بيروت: دار المعرفة، 1412، ج: 3، ص 11.

(3) الطبرسي، فضل بن حسن. مجمع البيان في تفسير القرآن. طهران: انتشارات ناصر خسرو، 1373 = 1994، ج: 2، ص 631.

(4) الفخر الرازي، محمد بن عمر. مفاتيح الغيب. بيروت: دار احياء التراث العربي، 1420، ج 10: ص 150.

وذكر القرطبي «المتوفى: 671هـ»: «قيل هي منسوخة، لأن النبي قد أكره العرب على دين الإسلام وقائلهم، ولم يرض منهم إلا الإسلام، قاله سليمان بن موسى، قال: نسختها آية (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين)، وروى هذا عن ابن معود، وكثير من المفسرين»⁽¹⁾.

وفي الدر المنثور للسيوطي «849 - 911 هـ»: «ثم نسخ بعد ذلك لا إكراه في الدين وأمر بقتال أهل الكتاب في سورة براءة»⁽²⁾.

وقال الألوسي في روح المعاني في تفسير القرآن العظيم: «و أما قوله: لا إكراه في الدين [البقرة: 256] وقوله سبحانه: أفأنت تُكفره الناس حتى يكونوا مؤمنين [يونس: 99] فقد كان قبل الأمر بالقتال ثم نسخ به أخذوا ما آتيناكم بقوة هو على إضمار القول أي قلنا أو قائلين أخذوا»⁽³⁾.

هذه نماذج لمواقف أعلام المفسرين ممن عاشوا في عصور متعددة، ممن يذهبون إلى نسخ الآية، وهي تشير إلى آراء الكثير من المفسرين غيرهم، حسب قول القرطبي. وذلك يعني أننا نملك طريقاً خاطئاً، في محاولتنا الاستدلال بآية منسوخة على حرية الاعتقاد، ذلك أن الناسخ يعطل دلالة المنسوخ، ولا يتيح لنا توظيفه في بناء نظرية أو رؤية أو مبدأ أو مفهوم أو حكم شرعي.

هنا أو قعتنا قواعد التفسير المتوارثة في التباس دلالي، بعد أن أكرهنا على التخلي عن دلالة آية لا إكراه. مع انها نص قرآني هو الأكثر صراحة ووضوحاً في بيان حرية الاعتقاد، لأنها نصكنا بمعيارية المبادئ التي جرى تفقيدها بعد عصر النص القرآني، واعتمادها مرجعية في توجيه دلالة هذا النص في سياق بوصلتها. بنحو تحولت تلك المبادئ بمرور الزمن إلى سلطة مطلقة تتحكم بعقل المفسر وفهمه، بل ارتقت هي ذاتها لتصبح من الملمات التي قلما نعثر على أحد يتساءل بشأن امكانية الاستغناء عن شيء منها، أو التفتيش عن قواعد بديلة لبعضها.

(1) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرّج. الجامع لأحكام القرآن. تحقيق: عبد الله حيد المحسن التركي. 4 بيروت: مؤسسة الرسالة، 2006، ج 4: ص 280.

(2) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. الدر المنثور في تفسير المأثور. قم: مكتبة المرعشي النجفي، 1404، ج 1: ص 330.

(3) الألوسي، محمود. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم. بيروت: دار الكتب العلمية، 1994، ج 1: ص 270.

منطلق التجديد هو التفهيم في البنية التحتية المولدة للمقولات الاعتقادية في عقل المتكلم، وما يوجه عقل الفقيه في الفتوى واستنباط الأحكام، فإن نمط فهم النصوص يرتبط بالأحكام المبقة للإنسان، وأفق انتظاره، ورويته للعالم، ومفهومه للدين، فالإنسان الذي يتربص من النص استيعابه للنظم الاجتماعية والمعارف والعلوم الطبيعية والإنسانية، نراه يحاول خلع غطاء ذهني يتلقاه من الكتاب والسنة على كافة النظم والمعارف والعلوم، خلافاً لمن لا يتربص ذلك، ويفترض أن النص يستوعب ما يرتبط بهداية الإنسان وسعادته الأخروية، وبناء حياته الروحية والأخلاقية في الدنيا، وإن الدين ليس بديلاً عن العقل، أو التجربة البشرية، وإن العقل وما يترامك لدى الإنسان من خبرات عبر التاريخ، هو ما يتكفل بإدارة وتديير وتنمية الحياة البشرية.

فمثلاً نلاحظ أن الاستنباط الفقهي يستند إلى القواعد وأدوات النظر التي تمهد لهذه العملية، وتشكل المقدمات الممهدة لصياغة الفتاوى، فلا استنباط للأحكام الشرعية من دون الاعتماد على أصول الفقه، وقواعد أصول الفقه تصدر عن رؤية للعالم وآراء اعتقادية، تشكل في حقل التفكير الكلامي، فعقل الفقيه توجهه في العمق مجموعة مقولات كلامية. أي أن الاجتهاد الفقهي يعتمد على الاجتهاد الأصولي، ولا إجتهد في أصول الفقه ما لم يتجدد علم الكلام، أي إنه لا معنى لتحديث الفقه من دون تحديث مرجعياته الكلامية.

هكذا هي مشكلة التفسير أيضاً، فلا يمكن أن نقدم قراءة تواكب الحياة للنص القرآني، ما لم نشأف النظر في قواعد التفسير وعلوم القرآن الموروثة، التي تشكلت استناداً إلى مسلمات لاهوتية مستقاة من منطق التفكير والنظام المعرفي المهيمن في عصر الأسلاف. وهذا يعني أن عقل المفتر ما زال مرتبها لتلك المسلمات، ولا يمكنه استبصار المستقبل واكتشاف الواقع من دون عبور منطق التفكير والنظام المعرفي المهيمن في عصر الأسلاف.

تحرير صورة الله:

إن هذا النمط من قراءة النص الديني المرتب لمقولات المتكلمين وأصول الفقه والتفسير الموروثة، أفضى لدى بعض الجماعات المتطرفة اليوم، إلى إنتاج فهم للإسلام، مفرغ من الرحمة والمحبة، تحوّل فيه صورة الله إلى وحش يفترس كل حياة وجمال ورحمة ومحبة في هذا العالم. ويتمحور تكليف المسلم فيه على اهانة

الأغيار. هذا إسلام تنبأه وتبشر به وتحميه الكثير من المؤسسات الدينية السلفية، ومعظم الجماعات الإسلامية المتضامنة معها. وإن لجأ بعضها إلى مواقف تكتيكية تذرع بالديمقراطية، بوصفها تعبيراً عن الشورى كما تدعى.

تستعد هذه القراءة للنصوص الدينية ما يشي بالسلام والتراحم والمحبة، والأمل والحلم والتفاؤل، بعد أن تخلع على النصوص أفتحة تحجب مقاصدها الأخلاقية، ومضامينها الروحية، ومؤثراتها الانسانية.

هل يمكن بناء حياة روحية وأخلاقية في مجتمع تنفسي فيه هذه الثقافة الدينية؟ وهل يستطيع قلب يعتلى بكرهية الإنسان المختلف، وروح لا تشعر بالانتماء للعالم، وعقل مريض بنهكه الشاؤم والاغتراب، أن يؤسس لحياة روحية أخلاقية حقيقية أصيلة، تشفق على المعذبين، وتتضامن مع الضحايا، بغض النظر عن أديانهم ومعتقداتهم، وتتصالح مع العقل والفن والجمال في الحياة.

المؤسسات الدينية السلفية وما يرتبط بها من جماعات دينية تقود مجتمعاتنا إلى معارك مفتوحة مع العصر، لا نفرغ من معركة إلا ونفرق في أخرى، وهكذا، حتى سقطنا في ربع القرن الأخير في حفلات قتل عبني للأبرياء لا يتوقف.

إنها جميعاً تُحذّر وتحترم وتحظر التعاطي مع أي تأويل وفهم للنص الديني لا يكرر فهمها. فمثلاً فهم محيي الدين بن عربي للقرآن، وتأويله للحياة الروحية في الإسلام، من المحظورات جداً لديها، يُلعن من يتداول آثاره، ويُطرد من الملة من يعتق أفكاره. وهو موقف تلتقي فيه السلفية مع معظم الجماعات الإسلامية، باختلاف في درجة الرفض، فصرامة المؤسسة السلفية جازمة، بخلاف الجماعات الإسلامية الأقل تشدداً وصرامة، وإن كانت تُهمل ذلك الميراث الغني لابن عربي وغيره، بوصفه لا يقع في إطار المشروعية الدينية.

وكان هناك تحالفاً بين المؤسسات الدينية السلفية وهذه الجماعات، على إقصاء أي تفسير للنص الديني يستلهم منه: الرحمة والرفق والشفقة والسلام والمحبة، ويكشف عن صورة لله، يتجلى الله فيها: إلهاً للجمال، إلهاً للرحمة، إلهاً للمحبة، إلهاً للشفقة، إلهاً للسلام، إلهاً للسكينة، إلهاً للتراحم.. وهذه التجليات لصورة الله يغني بها ميراث محيي الدين ومن سبقه ولحقه من المتصوفة والعرفاء. ويمكن لهذه الصورة أن تشكل منبعاً لالهام سلسلة من المبادئ والمقولات المفيدة لبناء فهم بديل للدين ونصوصه وتنتج نموذجاً لتدين يقترن فيه الإيمان بالمحبة والتراحم والعطف

على البشر. يمكن أن يستقي التفكير الديني في الإسلام اليوم شيئاً من مادته للعبور نحو آفاق تتخطى بها الانسداد الذي بات مستحكماً في دنيا الاسلام، إذ نحرر الاسلام من مازق استحالة بناء حياة روحية وأخلاقية، وننقذه من السقوط المرعب في مستقع الدم المسفوح، ونخلصه من الصراع الأبدي مع الحاضر والمستقبل.

هنا أود أن أشير إلى مثال من ميراث محيي الدين، بغية اكتشاف ملامح صورة الله في تأويلاته، والمنجم الروحي الأخلاقي المعرفي في آثاره. يكتب ابن عربي في الفص الزكرياوي من «فصوص الحكيم»: «والرحمة على الحقيقة نسبة من الراحم، وهي الموجبة للحكم، وهي الراحمة. والذي أوجدها في المرحوم ما أوجدها ليرحمه بها، وإنما أوجدها ليرحم بها من قامت به». وهو بمعنى أن الحق سبحانه إذا رحم عبداً أوجد فيه الرحمة، أو جعل الرحمة تقوم به، بحيث يصبح قادراً على أن يرحم غيره من المخلوقات. وبذلك يصبح المرحوم راحماً. فالحق لا يوجد الرحمة في المرحوم ليرحمه بها، بل ليكسبه الصفة الإلهية التي بها يرحم غيره. وهذا لا يكون إلا للكاملين من العارفين. ومع ذلك فالحق هو الراحم على الإطلاق، أي هو مصدر كل رحمة، ولا تكون له هذه الصفة إلا على معنى أن رحمته عين ذاته.

وفي شرح القيصري لهذه المسألة اللطيفة، وهو من أوضح الشروح فيها، قال: «وإنما أوجدها ليرحم بها من قامت به، أي الحق الذي أوجد الرحمة في هذا المرحوم، الذي هو من أهل الكشف، ما أوجدها ليرحمه بها فيكون مرحوماً، وإنما أوجدها فيه ليكون راحماً، لأنه بمجرد ما وجد أولاً صار مرحوماً بالرحمة الرحمانية، وعند الوصول إلى كمال يليق بحاله صار مرحوماً بالرحمة الرحيمية. فإيجاد الرحمة فيه وإعطاء هذه الصفة له بعد الوجود والوصول إلى الكمال، إنما هو ليكون العبد موصوفاً بصفة ربه، فيكون راحماً بعد أن كان مرحوماً. وإنما كان كذلك لأن الصفات الفعلية (أي صفات الأفعال) إذا ظهرت فيمن ظهرت تقتضي ظهور الفعل منه. ألا ترى أن الحق إذا أعطى لعبده صفة القدرة وتجلى بها له، كيف تصدر منه خوارق العادات وأنواع المعجزات والكرامات؟ والرحمة مبدأ جملة الصفات الفعلية إذ بها توجد أعياناً. فسأل الله (أن) يرحمنا بالرحمة التامة إنحاصة العامة».

لا أرى الخلاص والشفاء في ميراث ابن عربي وأمثاله فقط، كما لا أريد القول أن

(1) المصدر نفسه، عن: شرح القيصري على الفصوص. ص 237.

ميراثه يتخطى المشروطيات التاريخية للزمان والمكان واللغة والثقافة، لكنني أحبه
يتضمن رؤى ومقولات يمكن أن تكون منطلقاً يضي لنا دروب عبور سجون لاهوت
التكفير وفقه الكراهية، في زمن تفشي هذا اللاهوت وسيادة هذا النمط من الفقه.
ويمتحن إمكانية استبصار المعنى الديني الإنساني، في زمن انطفاء الأبعاد الإنسانية
في الدين. إنه يضعنا في مسار الانطلاق، بغية تخطي عبور مناهج وآليات النظر
المتجدة للمعرفة الدينية التقليدية، والعمل على إعادة بناء مناهج وآليات نظر بديلة،
تنتج معرفة دينية، تنشق من لاهوت تتجلى فيه صورة الله، بوصفه: إلهاً للجمال، إلهاً
للرحمة، إلهاً للمحبة، إلهاً للشفقة، إلهاً للسلام، إلهاً للحياة، إلهاً للسكينة. وليس
إلهاً للقيح، إلهاً للوحشية، إلهاً للكراهية، إلهاً للقسوة، إلهاً للقتال، إلهاً للموت، إلهاً
للرعب.

لا خلاص إلا بالخلاص من أدلجة الدين وإعادته إلى وظيفته في إرواء الظمأ للمقدس⁽¹⁾

حوار مع: د. عبد الجبار الرفاعي

(1) حاورته: رحيل دندش. نشر هذا الحوار في صحف الكترونية وورقية عديدة، منها: تاتو «بغداد»، مؤمنون «المغرب»، آفاق «السعودية»، المثقف «سني»، المركز الإسلامي المعاصر «بيروت».

كثرت الأسئلة حول الدين والدولة، وأدلجة الدين والتراث، وعن دور الدين ومجاليه في الحياة، ولا سيما في ضوء ما نعيشه اليوم من صعود التطرف الديني، ودعوات التحرر من سطوة السلف وتحديث الفكر الديني. أسئلة من هذا النوع الإشكالي وغيرها حملناها إلى المفكر الإسلامي العراقي والأستاذ الحوزوي الدكتور عبد الجبار الرفاعي.

فكان هذا الحوار:

1 - ناقشت «اختزال الدين في الأيديولوجيا»، وهذا ما أسهت الحديث عنه في كتابك «إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين»، وقدمت كلاماً من علي شربعتي وحسن حنفي كنموذجين لتحويل الدين من ثقافة إلى أيديولوجيا. مع الرفض لأن يختزل الدين في الأيديولوجيا، ولكن إذا تحدثنا عن الإسلام، فهو ينطوي في فكره وتراثه على تحقيق العدالة، أي أنه دين في جوهره يحمل عقيدة تغييرية، فكيف يمكن أن يكون خالصاً من التمثلات الأيديولوجية؟

متى بزغت الأيديولوجيا تعطل التفكير الحر، الأيديولوجيا مضادة للعقلانية. طالما كان العقل ضحية ما يجهض عقلانيته، ففي مراحل ماضية كانت الأسطورة عائقاً يجهض العقلانية، ثم تجددت عوائق أخرى. في كل مرحلة تتوالد عوائق مشابهة لنمط التفكير المهيم عليها، تُعطل العقل.

العقل ليس مستقلاً عن الواقع، وليس خارجاً على التاريخ، كما تدلل الدراسات الإستمولوجية اليوم. العقل ليس ناجزاً نهائياً ساكناً، إنه في حالة تفاعل متواصلة مع البيئة المحيطة، ومع كافة أشكال المعقولة السائدة في عصره.

الأيديولوجيا هي الأشد إعاقة للعقل، وهي الأكثر حضوراً وتأثيراً في حياة مختلف المجتمعات، وهي عادة ما تبدل أسماءها كل مرة، وتتخذ أقنعة تتلون حسب نوع المعطيات الفكرية والدينية والسياسية السائدة في المجتمع.

الأيديولوجيا بارعة في حجب الحقيقة، ذلك أنها تستطيع إنتاج صورة متخيلة للحقيقة تماثل الحقيقة نفسها، وتظهرها كأنها هي.

إنها تحرص على تغييب الجمهور على رأي واحد، كما تهتم على الدوام بتعطيل العقل، وإشاعة البلاهة. توظف الأجهزة الأيديولوجية اليوم لذلك وسائل التواصل والفضائيات، بوصفها ذات مفعول سحري، لا لأنها تعمل على تغليف الواقع ودفعه فقط، بل لأنها تعمل على خلق واقع بديل بموازاة الواقع، تُصنع فيه: معتقداتنا، مفاهيمنا، آراءنا، سياساتنا، زعاماتنا، موافقتنا، وأحلامنا.

الأيديولوجيا تهتم بإيقاظ ما يختزنه المجتمع من: مكبوتات تاريخية، وجروح موجعة، وإثارة مشاعر مفعومة محبطة، توظف كوقود لتحريض الغرائز، وإنتاج بيئة متوترة مشبعة بالحساسيات الدفينة، بغية إقحام المجتمع فيما ترمي إليه.

كما تعمل الأيديولوجيا أيضاً على احتكار أنظمة إنتاج المعنى، وتسعى لامتلاك أدوات تسويق الأفكار الجاهزة، وتلقينها باستمرار للمجتمع. والانسان بطبيعته يصدق ما يلقنه، وإن كان وهمياً، حين يتكرر آلاف المرات بصيغ متنوعة، حتى يبلغ مرتبة تصير فيها تلك الأفكار الجاهزة لازمة تكوينية للذات.

وعادة ما يصدق الأتباع المعتقدات مهما كانت خرقاء، لو كررتها باحتراف الأجهزة الأيديولوجية للسلطة، والزعامات التي تخلع على صورتها هالة سميكة، ولديها خبرة في التنويم الاجتماعي، ومهارة في تعميم العدوى العاطفية بين الأتباع.

لم يكن المرحوم علي شريعتي أو الصديق حسن حنفي وحيدَين في دعوتهما الأيديولوجية وجهودهما لاخترال الدين في الأيديولوجيا، بل إن البروتستانتية الإسلامية منذ ولادتها تناضل في سبيل ذلك. الخير بأدييات الجماعات الإسلامية يعرف جيداً أن هذه الأدييات مكونة بأحلام خلاصية. وهي تدرك جيداً أن مثل هذه الأحلام الكبيرة لن ينحزها سوى «أدلجة الدين والتراث»

مازلت أدرك أن الدين يهدف لتحقيق العدالة، لكن الطريق إلى العدالة لا يمر من خلال «أدلجة الدين»، لأن «الأدلجة» تُفسد الدين، الدين يتمحور هدفه العميق حول تأمين ما يفشل العقل والخيرة البشرية في تأمينه للحياة.

«أدلجة الدين» ضرب من تمديد المقدس وتوسعته، ليستوعب كل ما هو دينوي. المقدس عادة يتخذ أفتحة يتلفح بها على الدوام، وهو لا يكف عن النفوذ والتمدد والاتساع، بنحو يلتهم كل ما هو دينوي فيحوّله مقدساً. وحين يتسيد المقدس، ويضمحل الدينوي، يختنق فضاء الحرية، ويكف العقل عن أن يظل عقلاً.

2 - في اللحظة الراهنة كيف يمكن الانفتاح على الدين، بما يملك من خصوبة للخلاص من الطفيلان والفساد، خاصة وأنتم تعلمون أن فكرة الدولة الوطنية الحديثة في العالم العربي غير ناضجة، لما نسبه بالدول عندنا أقرب ما يكون للسلطة؟

مأزق المسلمين اليوم يمثل في انهيار الحياة الروحية الأخلاقية والعقلية، وهو ما أفضى إلى ما نعيشه من انهيار للدول وتصعد للمجتمعات.

لقد تحوّل الدين في حياتنا إلى شيء يلتهم كل الأشياء، بما فيها الانسان. وحيث تملو قيمة الاشياء تنحط قيمة الانسان. هذا هو المآل الطبيعي لما أفضت إليه جهود البروتستانتية الإسلامية في عملية «تدين الدينوي».

لا خلاص إلا بالخلاص من «تدين الدينوي»، وإعادة الدين إلى وظيفته الأصلية في إرواء الظمأ للمقدس. ومن دون ذلك نهك ما هو ديني، وتبدّد ما هو دينوي.

نحن بحاجة ماسة لعبور التفكير الديني للمفكرين الأيديولوجيين من رواد البروتستانتية الإسلامية في عالم الإسلام في القرنين الأخيرين.

أعترف أن مثل هذا العبور يتطلب توضيحات، ويحتاج إلى جهود تنويرية متظافرة، إنه صعب جداً، كيلا أقول عنه إنه متعذر. من دون شجاعة، وضرورية ربما تكون موجعة، ليس بوسعنا تحرير العقل بعد سباته، وإيقاظ الارادة بعد نومها.

إن مجتمعاتنا مكونة بنحت الأصنام البشرية، فالزعيم السياسي أو غيره، سرعان ما يتحوّل في الوجدان الشعبي إلى أسطورة خارقة للطبيعة البشرية، فيصاب هو بجنون العظمة، ويصدق أنه أضحي أسطورة، وأنه «الرجل الضرورة».. لكن أخطر أنماط الأصنام الشريفة هي التي تولد في حقل الفكر، فحين يتحوّل المفكر إلى صنم، وقتئذ يكفّ العقل عن التفكير.

تنافس الأجهزة الأيديولوجية في مجتمعنا على تكديس الألقاب القبلية والدينية والسياسية، بل حتى «الأكاديمية الزائفة»، وهذا التنافس ينشد الاستحواذ على أنظمة

إنتاج المعنى، ومن ثم الهيمنة على السلطة، ذلك أن كل من يحتكر أنظمة إنتاج المعنى يحتكر السلطة، ومن يحتكر السلطة يحتكر أنظمة إنتاج المعنى.

التفكير الديني مطالب اليوم بالانتقال «من الأيديولوجيا إلى الاستمولوجيا»، ومن «تحويل الدين إلى أيديولوجيا»، كما يشدد علي شريعتي وحسن حنفي وغيرهما، إلى اكتشاف وظيفة الدين الأنطولوجية في إرواء الظمأ للمقدس. لقد انتهى بنا تحويل الدين إلى أيديولوجيا إلى ما نحن فيه اليوم من شقاء للعقل والقلب والروح.

3 - تشدد في كتاباتك على ضرورة نقد ثقافة الموت وترسيخ ثقافة الحياة. هل تؤثر بذلك إلى الأثر التعطيلي لهذه الثقافة على: التنمية الشاملة، وبناء الأوطان؟

أشير هنا إلى مثال من الماضي، فبعد مراجعتي مدونات التاريخ، لاحظت أن لا موضع للأمل والحلم والتفاؤل في خطب الجمعة في العصر العباسي مثلاً، ذلك أن الخطباء كانوا يكرسون الخطب لثقافة الموت، ونهاية العالم، والترهيب من القيامة، وعذاب القبر. تلك هي المادة المحورية لكل خطب الجمعة في القرون: الثالث والرابع والخامس، وهو العصر المعروف بازدهار الحضارة الإسلامية. كذلك لاحظت أنه قلما يشير الخطيب إلى الجنة والنعيم والغفران والسلام والرحمة. ونادراً ما يتعرض خطيب الجمعة في خطبته إلى: بناء الإنسان، وإعمار الأرض، وتنمية الأقاليم، والسعادة الدنيوية. هذا مثال للرواسب المختبئة في تراثنا، التي أغرقت مجتمعاتنا بالدم المصفوح والحروب المزمته، مضافاً إلى أنها لبثت معطلة لهوضنا، وأقعدتنا عن المساهمة بإنجاز المكاسب الكبرى للعلوم والمعارف والتكنولوجيا في العصور الحديثة.

وأيضاً أود أن أشير إلى أن الأحزاب القومية واليسارية والجماعات الإسلامية بارعة في تعبئة الوجدان وإيقاد المشاعر بكل ما يرتسخ نزعة الموت، وهو ما يتفشى في أدبياتها وتربيتها وشعاراتها.

«بالروح، بالدم نفديك يا زعيم»، هو الصوت الموحد المكرر الصاخب في كل التظاهرات والاحتجاجات الجماهيرية في بلادنا، بل إن عوود الشعارات لا تختتم عادة إلا بجملة: «... حتى الموت».

الأموات في حياتنا أشد حياة من الأحياء. مستقبلنا وحاضرنا وتاريخنا يمتلكه ويكتبه الأموات أكثر مما نمتلكه ونكتبه نحن.

بورصة الموت والاستثمار في أسهمها هي الأعلى ربحاً في مجتمعاتنا، أغنى رأسمال تمتلكه الأحزاب والجماعات في بلادنا هو مجموع ما تمتلك من أسهم في هذه البورصة.

الساحات والشوارع والجدران في مدننا تغطيها تماثيل وصور وشعارات وإعلانات الموت. لا أريد أن أستغرق في استقراء كل ما يشي بذلك في مقررات التربية والتعليم والأدب والفن والصحافة ووسائل الاعلام. فلو ألقينا نظرة سريعة على شئ من ذلك نصاب بالفئان. كل شئ يحتفي بالموت، كل شئ لا يكون إلا بالموت.

لا أتذكر أنني رأيت أو سمعت شعاراً تغذي فيه هذه الأحزاب والجماعات ضمير الناس، بما يتضمن تجيلاً واحتفاء ودعوة للحياة، أي تكون ثقافته: «... حتى الحياة».

أعرف بعض المبدعين من المثقفين والأدباء والفنانين حين يهرمون يُهملون، ويتخلى عنهم الجميع، فيكابدون وحدهم مرارت المرض والجوع والغربة في عزلتهم ووحشتهم، لكنهم لحظة يموتون يحتشد الجميع للإعلان عن علاقة استثنائية بهم، وتضج الصحافة ووسائل الاعلام بمقالات ومرثيات، تؤشر كلها الى وثوق علاقة من يرثيهم بهم، وروابطهم التاريخية العريقة معهم. وكيف أن فلاناً كان تلميذاً لهذا المبدع سنوات طويلة، وأن فلاناً تمتد صداقته معه العمر كله، مذ كانا معاً في المدرسة الابتدائية، وأن فلاناً يدين له بكل ما أنجزه في حياته، وهكذا. غير أن كل هؤلاء لم يعرفوا عنه شيئاً منذ: آخر معرض فني أقامه، أو آخر قصيدة أنشدها، أو آخر مقال كتبه، أو آخر محاضرة قدمها، قبل أن يدركه الهرم، ويقعده المرض، في السنوات العشر الأخيرة من حياته حتى باعتهم التلفزيون بنأ رحيله.

ومن أطرف ما قرأت بشأن الاحتفاء بالموت والاموات وإهمال الحياة والأحياء هو أن أحد مشاهير الأدباء في النجف أبدى رغبته لأصدقائه من الشعراء بكتابة قصائد رثاء له، كي يصني لما سيقولونه عنه في حياته، فعملوا مجلس رثاء، مددوه وسط مجلسهم، وذرروه بغطاء الموتى، وتنافسوا في رثائه، وهو كلما أشد زميل له قصيدة ابتهج وانتشت روحه. هكذا لم يجد هذا الأديب الجميل طريقاً للاحتفاء والاعتراف به سوى نافذة الموت.

تلك مشاهد من الاحتفاء بالموت في ثقافتنا، وشئ من أثرها في انطفاء جذوة الحياة في مشاعرنا، وكيف تعمل هذه الثقافة على إطفاء تطلع الروح للغد. ومعلوم أن كل من لم يعبأ بالحياة ينسحب من تغيير العالم وبنائه وتطويره.

4 تشددون في كتاباتكم على مراجعة الماضي، ونقد التراث، والتحرر من سطوة السلف. هل تحبون ذلك منطلقاً لتحديث التفكير الديني؟

إن «تبرئة الذات» وتزيهها عامل حاسم في عجز الشخص البشري عن عبور الماضي. وتعود منابع ذلك إلى «لاهورت الفرقة الناجية»، والتبرية على «تزيه الذات»، و«عدم الاعتراف بالخطأ».

تربيتنا على نموذج الإنسان الكامل، وترسيبها في لا شعورنا، جعلنا حالمين يبشر عابرين لطبيعتهم البشرية، مجردين من ضعفهم البشري. كأننا كائنات كاملة لحظة ولادتها، كأن كل شخص في مجتمعاتنا هو «إنسان كامل»، وسيلبث كاملاً أبداً. الاغتراب عن المحيط الذي نعيش فيه، بل عن العالم، ينشأ حين نبحث عن الكمال في البشر دائماً، فأما أن يكون الشخص كاملاً فقبله، وإلا فرفضه بشدة ونمقته.

مضافاً إلى أن تعليماً التلقيني لمنطق «البرهان واليقين» الأرسطي، ونفسه في ما تعلمناه من معارف موروثه، والذي يصير قطعياً جزءاً نهائياً في ضرته، كل وجهة نظر أو رأي أو مفهوم نفكر به أو موقف نتبناه.

الفلسفة الحديثة والمعاصرة، وفلسفة العلم، والفيزياء الاحتمالية جميعها أشاد المعرفة والعلم على الاحتمال، حتى أضحت تاريخ العلم مقبرة نظريات علمية. ذلك هو الأساس المنطقي لما شاع في الغرب من مرتكزات للعيش المشترك والديمقراطية، وتأسس على: حق الاختلاف، حق الخطأ، حق الحياة الخاصة، حرية التفكير، حرية التعبير.

لم تكفل ثقافتنا «حق الخطأ» للشخص البشري. الخطأ فضيحة في حياتنا، لذلك يحررنا، بل نرتبك ويفرنا الخجل والوجل لو اعترفنا به. حتى أطفالنا لا نمنحهم حق الخطأ، بينما لا تنجز التربية والتعليم وعودها إلا بمنح الحرية في ارتكاب الأخطاء.

لقد انتهى ذلك إلى أن يغدو تراثنا كله صواباً، وماضينا كله مشرقاً، وتاريخنا كله مجيداً، ورموزنا كلها مقدسة.

من يفشل في صناعة التاريخ يعشق تمجيده وأسطرته وتخليده. ربما لا توجد ثقافة غارقة بالثناء والتبجيل للتراث ورجاله كثقافتنا. ربما لا توجد لغة مشبعة بالمناقب والمدح للماضي ورموزه كلفتنا. وربما لا يوجد متخيل رومانسي لماضي كماضينا، إذ يعيد ماضينا نفسه بإعادة إنتاج نصوصه ذاتها اليوم، ففي السياقات ذاتها تكرر النصوص الماضية عبر الحاضرة بكلمات بديلة وصياغات جديدة.

تجلت الآثار التربوية لذلك في استخدام المرء في مجتمعاتنا لشخصية مستعارة، يرتدي من خلالها قناعاً في كل موقف نيابة عن غيره، كما تجلت هذه الآثار في عجز المرء عن أن يكون ذاته، لا كما تريد له التقاليد والأعراف الاجتماعية أن يكون.

كذلك تجلّت هذه الآثار في تفتيش الشخص البشري على الدوام عن عوامل خارجية لفشله، والتكرار لأي سبب للفشل من داخله. فالتلميذ يعتذر مثلاً عن سبب رسوبه بأن: «المعلم عدوه»، وليس كسله وإهماله هو ما تسبب برسوبه. وعندما يتأخر الشخص عن السفر يعتذر بأن «الطائرة غادرت وتركته»، وليس هو من تأخر عن موعدا.

وتبعاً لذلك ترسخت ظاهرة تبرير كل تخلف في مجتمعاتنا، بوصفه مؤامرات كونية تستهدفنا على الدوام. الآخر سبب تخلفنا، الآخر سبب فشلنا، الآخر سبب هزيمتنا في معاركنا، الآخر سبب ظهور الجماعات المتطرفة الإرهابية في مجتمعاتنا، الآخر سبب صراعاتنا الطائفية، الآخر سبب كل ما لا سبب له.

الآخر سبب يغذي نرجسنا المزمنة. نرجسنا تعلمي علينا أن نعتذر عن كل ما تصرّح به مدونات التاريخ، من تصف وإضطهاد وطغيان الخلفاء والسلطين، رغم أنه لم يكن في الرعية شخص حرّ سواهم، أما بقية أفراد المجتمع فظلوا على الدوام عبيداً لهم.

نرجسنا تدعوننا للتكرار لموجات الحروب الأهلية الطائفية المرعبة في بغداد مثلاً في العصر العثماني، والادعاء أن الطائفية مخلوق غريب لا يعرفه تاريخ العراق، وإنما ظهر بعد سقوط صدام حسين ونظامه!

ومما لا ريب فيه أن كل من لا يعترف بأخطائه، سيرغمه التاريخ على استئناف تجرع كؤوس هزائمه في الماضي. من لا يعترف بأخطائه لا يتعلم. التاريخ لا يُعلم إلا من يعترف بأخطائه.

من نتائج «تبرئة الذات» أيضاً أننا لا نعثر على مذكرات تسجل مسيرة تجارب الأعلام والمشاهير في تراثنا، لثلا تبحر بضعفهم البشري. ماخلا حالات نادرة. مثل كتاب «الاعتبار»، الذي ألفه أسامة بن مقذ المتوفى 584 هـ. ودون فيه سيرته الذاتية، غير أنه لم يكتبه الا بعد مضي ثمانين عاما من حياته.

في العصر الحديث مازال كتاب المذكرات خارج فضاء الحواضر والحوارات

الدينية عادة، لم أعر إلا على حالات محدودة لرجال دين دَوَّنوا تجارب تعليمهم الديني في الأزهر وتجربة دراستهم في أروقتهم، بكل ما تحفل به. وهكذا الحال بالنسبة لرجال الدين في الحوزة، ما خلا ما كتبه حسن النجفي القوجاني، في كتابه المثير والمهم: «سياحة في الشرق»، الذي يتحدث عن الحياة الداخلية لتلامذة الحوزة، وتقاليدها الخاصة، وما يسودها من تنافس وصراعات في عصر المشروطة، مطلع القرن العشرين.

وحتى أولئك الأدباء والمثقفين والسياسيين الذين ينشرون مذكراتهم، فإنهم في الغالب يمضغون الكثير من التفاصيل الجميلة، التي تؤشر لتطور منحنى شخصياتهم ومنعطفاتها، وضعفهم البشري، وما اكتف حياتهم من: ألم وأمل، نجاح وفشل، ضعف وقوة، قلق وطمأنينة، وإيمان وحيرة. وعادة ما يلوتون ماضيهم الشخصي بالوان جذابة، تتغافل عن الكثير من الأخطاء والهشاشة والعجز في شخصياتهم ومنعطفات حياتهم.

قبل سنوات طالعت مذكرات الشاعرة نازك الملائكة، بتحرير حياة شرارة، فكانت كأنها قصيدة غزل تنغنى فيها بشخصيتها وعائلتها. شعرت بالفشان، لفرط نرجسيتها وشعورها بالضيق. وعجزها عن إعلان شيء من صوت الشاعر المتوهج القلق المتمرد في ذاتها. وهواجس وخلجات وأحلام وأوهام الرائي في وجدانها. وتكتمها على المعجز الطبيعي في شخصية كل كائن بشري.

ربما نجد من يشذ عن هذه الحالة، مثل الروائي سليم مطر كامل الذي كتب سيرة تفضح «ثقافة العيب»، وتعلن عن «مذكرات رجل لا يستحي» حسب تسميته، تصرخ حياته فيها بعفوان وضجيج، وتكشف شخصيته عن منحنى تمزقها وهبوطها وصعودها، وانقباضها وانبساطها - حسب ما يقوله المتصوفة - بشكل صادم لوعي القارئ في مجتمعاتنا.

5 - ندعو لإحياء واستلهم ميراث الفلاسفة والمتصوفة والعرفاء كمحيي الدين بن عربي وجلال الدين الرومي وغيرهما، كعلاج للشقاء من أدبيات الكراهية ومناهضة الآخر. كيف تفكرون هذه العودة للتصوف اليوم؟ وهل يمكن فعلاً أن يشكّل شفاءً للآلام التي نعاني منها، علماً أنه يؤخذ على التصوف عموماً الاعتناء بالخلاص الفردي؟

لأقدس شيخاً من المتصوفة، ولا أتماهى مع قطب من أقطابهم، ولا أحاكي

سلوك أي أحد منهم أو أقلده أبدأ، بل إن شخصيتي تنفر من أي شكل من أشكال الرهبة وقمع الجسد وتعذيبه، ذلك أن إهدار الجسد والبطش به يفضي إلى إهدار الروح وتمزقها. مثلما تأبى شخصيتي أيضاً الانصياع والخضوع والعبودية الطوعية لأي شخص.

لا أعيش حياتي نيابة عن الآخر، أو أكرر نماذج بشرية في حياتي، أو أقتبس صورة غيري، فلا تفويضي صورة المتصوفة أو سواهم لأطمس صورتني فيها، أو أنماهي معهم.

أرفض تصوف الخلاص الفردي، تصوف مغادرة المجتمع، تصوف العزلة، تصوف الغياب عن الحياة والانطواء على الذات.

تراث المتصوفة والعرفاء عنصر من العناصر الحكونة لثقافتنا. ينبغي أن ندرس التصوف والعرفان بألوانه المتنوعة، وتجارب المتصوفة بتجلياتها كافة، في سياقاتها الدينية الاجتماعية السياسية الثقافية، ولا نتعاطى مع ميراثهم بوصفه متعالياً على التاريخ والزمان والمكان.

أشرت غير مرة إلى أن الالتباس ينشأ من الخلط بين التصوف الطُرُقِي، والتصوف المعرفي. التصوف الطُرُقِي «الاجتماعي» هو تصوف الدروشة والخانقاهات والكايا والزوايا. هذا النمط من التصوف مرآة لشبهات وعاهات المسلمين العميقة، إذ ترسم فيه صورة شبهات وعاهات التجربة التاريخية لعصور انحطاط المسلمين وتخلفهم وجهلهم.

نعم، يمكننا اليوم توظيف بعض رؤى التصوف المعرفي «الفلسفي» والعرفان النظري. ولا ضرورة لمحاكاته، أو اقتباس صورتنا عنه.

ما يهمني هو التقاط بعض الدرر واللالئ في رؤياهم المضئنة الرحبة، مما يتصل بقيم: الايمان والتدين، وعدم نسيان الذات، والجمال والفنون، واحترام كرامة الكائن البشري، والارتقاء بمكانته، والتسامي بمقامه، والتعددية الدينية، والخلاص والنجاة والرجاء، وغيرها من قيم ومقولات تدين المحبة والتراحم والسلام.

6 - بوصفك استاذاً في الحوزة، ما موقفك من النظام التعليمي في الحوزة، والمرجعية التقليدية؟

كنت قبل أكثر من ثلاثين عاماً ممن يتقدون النظام التعليمي في الحوزة، والمرجعية

التقليدية، لكن بعد تجربة تواصلت في الحوزة منذ 1978، وعلاقة عضوية بالدراسة والتدريس فيها، أدركت أن عملية اصلاح النظام التعليمي غرقت بالشكل وأهملت المضمون، أعنى: جرى توطين نظام التعليم الجامعي في الحوزة بأسلوب تبسّطي، يفتقد العمق والتكثيف والرصانة الأكاديمية.

نعم، أطر التكوين الموروثة الراسخة في الحوزة تتضمن عيوباً متعددة، وتُهدر فيها سنوات طويلة من أعمارنا، غير أنها تكفل بتكوين عمودي أفقي واسع في المنقول والمعقول، يمنحنا أهلية استثنائية للترغل في التراث، واستكشاف مسالكه ومدياته المتشعبة القصية.

أما المرجعية الدينية التقليدية، فقد تحوّل موقفها حيالها منذ أكثر من ربع قرن، بعد أن تفهمت أن حضورها ضرورة تفرضها متطلبات اجتماعنا اليوم. ذلك أن مجتمعاتنا مازالت في «مرحلة ما قبل الحداثة»، بل يمكن توصيف بعضها بأنها «مجتمعات ما قبل الدولة الحديثة». والمرجعية التقليدية في هكذا مجتمع، أي مجتمع ينتمي إلى الماضي بكل ما فيه، هي أهم نقطة ارتكاز في العواصف والمتعطفات العظمية التي تعصف به، مثلما نشاهد المجتمع العراقي منذ الاحتلال الأمريكي.

ولك أن تراجع مواقف مرجعية السيد علي السستاني في هذه الحقبة، ودورها الحاسم والمحوري منذ 2003 إلى سقوط الموصل وغيرها بيد داعش 2014، فلولا مواقفها الحكيمة لفرقتنا أعمق مما نحن فيه اليوم في الفوضى والحرائق المزمته.

7 - أنت تقدم نقداً للسلفية والجماعات الإسلامية، ومهادنة أو مجاملة للمرجعية في المقابل. هل يعود ذلك للسياقات والظروف الخاصة في العراق وإيران، وما تمتع به المرجعية من سطوة وقدرة على الحشد؟

لحظة أتحدث عن السلفية ولا أخصصها بسلفية قتالية أو غيرها، فأعني بها ما يشمل كل قراءة سلفية للنصوص الدينية، وكل محاولة استدعاء للماضي واتحامه في الحاضر كما هو. مهما كانت الفرقة أو المذهب الذي يدعو لها ويتبناها.

أما مرجعيات النجف وقم والزيتونة والقرويين فليست هي السبب للمأزق الذي نفرق فيه اليوم، ذلك أنها مؤسسات دينية مشتقة من الاجتماع الإسلامي نفسه، وهي تتحرك وتنمو وتتطور في ضوء المنطق الذاتي لهذا الاجتماع وسياقاته الخاصة، ولا تمثل تمرداً وانشقاقاً عليه.

بأزقنا يتمثل في الانشقاق على الاجتماع الإسلامي الراسخ، الذي يعمل على نحر

هذا الاجتماع وتمزيقه. وهو ما نشاهده كل يوم في ولائم الذبح، وحفلات الرقص على أشلاء الضحايا.

طوال تاريخ الاجتماع الإسلامي لبث المرجعيات الدينية في الإسلام فاعلة ومتفاعلة. ولم ينقل لنا تاريخنا القديم أو الحديث أنها مثلت في مرحلة ما مازقا للامة. مرجعية النجف قاتلت الإنجليز سنة 1914 حين دخلوا العراق محتلين، دفاعا عن دولة السلطنة العثمانية، بوصفها تحمل راية الإسلام، بالرغم من أن دولة السلطنة هذه ظلت تضطهد الشيعة وتهدر حقوقهم في العراق قرونا عديدة، كما نحكي لنا تواريخ تلك الفترة.

8 - هل تتفق مع من يقدم طرحا علمانيا للدين من داخل الدين، أو ما يسمى بـ«العلمانية المؤمنة». وهل نقبل هذا التوصيف لك؟

من مشكلاتنا الفكرية هذا الخلط العشوائي، إذ يختلط العقل مع اللاعقل، العاطفة مع اللاعاطفة، الدين مع اللادين، الثقافة مع اللاثقافة، الاقتصاد مع اللااقتصاد، الدولة مع اللادولة، والسياسة مع اللاسياسة.. وهكذا. يوسفني أننا نخلط كل شيء بكل شيء.. هذا خلط شاع في مرحلة ماضية، بل هي موضة تفشت في بعض الأدبيات الإسلامية منذ منتصف القرن الماضي. ومازالت بقايا صدى منها تتردد في مصطلح «علمانية مؤمنة»، وهو تعبير يستخدمه بعض الأصدقاء، أو «يسار إسلامي» كما تحلو التسمية لصديقنا د. حسن حنفي.

أرفض توصيف «علماني» لي، ذلك أنه يشي بحكم قدحي. الناس مرضى بالتصنيف ووضع اللافتات. لا أقبل أن أصنف نفسي تبعاً لهذه الخلطة الهجينة، مثل: يسار إسلامي، يمين إسلامي، ليبرالي إسلامي، ديمقراطي إسلامي، اشتراكي إسلامي، علماني إسلامي، علماني مؤمن.

يوسفني أنه يتفشى فهم تبيطي لدى بعض المراهقين، ممن يشبهون بالمتفقين، يتلخص في: امتناع اجتماع الايمان مع العقل، أي أن تكون مؤمناً - في مفهومهم - فأنت غير عاقل، أن تكون عاقلاً فأنت غير مؤمن. أما أن يجتمع فك العقل والايمان، مثل: ابن سينا وابن رشد وابن عربي، وديكارت وكانط وكير كيغورد، فهذا تهافت.

كررت اكثر من مرة: أنا مسلم مؤمن، متيم بحب الله والإنسان والعالم. أؤمن بالله

ونبيه وكتابه الكريم، وما جاء به النبي «ص». وأؤدي الصلاة والفرائض، طبقاً لما نصت عليه الشريعة.

أمضيت حياتي في دراسة وتدرّيس علوم الدين ومعارفه، لا أحتاج إلى من يعلمني ما الاسلام وما رسالته. لست ناطقاً باسم الله، ولا باسم أحد. أحترم معتقدات الآخر، متمنياً أن يحترمني الآخر. كل ما أكتبه أشدّد فيه على بيان مفهوم الدين، وأدعو لبناء تدين يثري الحياة الروحية والأخلاقية.

يؤذني من يجرح الضمير الديني للآخر، ومن يزدرّي الدين، ويتهمك على الاسلام، ويسخر من التدين والحياة الروحية الأخلاقية الأصيلة.

هنا أورد الإشارة في سياق شرح مصطلح «علماني مؤمن»، إلى أن الكلمات ليست بريئة أو محايدة. الكلمات لا تخلو من أحكام، لذلك تتطلب براعة وخبرة في تعاطيها واستعمالها كي لا يتبدد أو يتشوه معناها.

الكلمات مشبعة برؤية للعالم، مشتقة من أنساق بيئتها، ونمط الفضاء اللغوي الخاص بها. إنها مرآة للثقافة التي تنتمي إليها. الكلمات حساسة. الكلمات معبأة بطاقتها الخاصة للمعنى. نهدر المعنى ونبدده لو عبثنا بمواضعاتها واستعملناها خارج سياقاتها، وحاولنا تذيير المعنى في تركيبها مع كلمات لا تنتمي إلى مجالها التداولي، واستعملناها في عبارات وجمل لا تشبهها.

توصيف «علماني مؤمن» أو «مؤمن علماني»، يشي بجمع مفهومين متنافرين، لا يتيمان إلى سياق واحد، فالعلمانية كما تتعامل قديماً اليوم بإسراف في أدبيات الجماعات الاسلامية، تنصرف في فهمهم إلى شبكة مفاهيم ومواقف مناهضة للدين، أن بوصف بها شخص فهو يعني أنه «غير مؤمن»، بل هي شتيمة تطلق على كل من لا يتبنى رؤاهم ومواقفهم. ولعلها تؤثر في مضمون تلك الأدبيات إلى الحكم بإخراج المسلم الموصوف بها من الملة.

٩ - لماذا لا يصح أن يكون أحدنا علمانيا مؤمناً، فهو مؤمن بالله ورسوله وكتابه الكريم؟

أنت حددت إيمانه بقولك: «هو مؤمن بالله ورسوله وكتابه الكريم»، ومعنى ذلك، أنه ليس مخيراً في تبني أية صيغة للعبادة والطقس الذي يوصله إلى الله. ففي كل رسالة هناك تقليد خاص للطقس والعبادة، مشتق منها ومتق مع نمط الايمان

والاعتقاد الخاص بها. كما أشرت إلى ذلك من قبل. وبتعبير أوضح: مثلما أن للإيمان والتجارب الدينية أنماط، وهذه الأنماط تتنوع وتعدد بتعدد الرسالات، فإن الطقوس والعبادات تتنوع تبعاً لها. مع احترامي لأتباع الأديان، لكل دين تقليده العبادي وصلاته وطقسه الخاص في وصال الحق، الذي يُنهل منه نمطُ إيمان أتباعه. فلا يصح أن تكون مسلماً، وبدلاً من الصلاة تؤذي القُداس مع المسيحيين، تبعاً لتقليد الطقس الكنسي. أو أن تكون مسيحياً، وبدلاً من القُداس في الكنيسة تؤذي الصلاة في المسجد، تبعاً لتقليد العبادة الإسلامي.

10 - أريد أن أستفيد من هذا اللقاء لتناول موضوع الحوزة الدينية، وقد ذكرتم مراراً أن تحديث الحوزة لا يتم إلا عندما ينطلق من الحوزة نفسها، وليس من خارجها، وذلك كي لا يفنر التحديث للمشروعية. كأستاذ في الحوزة الدينية، إلى أي مدى لمستم تغييرات وقيام إصلاحات جديدة فيما يتعلق بتغيير المناهج والأدوات والمفاهيم ومن ثم قيام رؤى جديدة في التعاطي مع قضايا الراهن والتجديد الديني والحفريات في المعرفة الدينية، بالاستعانة بفضيلة العلم والعلوم الإنسانية الحديثة والمعاصرة؟

الحوزة واحدة من مؤسسات المجتمع، تطورها لا يفصل عن الاجتماع البشري المتنوع الواسع، فهي ليست خارج الزمان والمكان الأرضيين، وليست عابرة للتاريخ الإنساني، وتغيير المجتمعات البشرية لم يعد محكوماً بالأساليب والوسائل الموروثة، بل تجاوزت المجتمعات النمط الذي ظل فيه التاريخ تصوغه الأفكار والدعوات والمفكرون والأبطال، بعد انزياح عالمنا لصالح العالم الافتراضي، وسطوة تكنولوجيا المعلومات على كل ما يتصل بتدبير الشأن الديني، وإعادة تشكيل الاجتماع البشري في سياق مختلف. وما تفاجؤنا به تقنيات الجينات من نتائج، ربما تخلخل فيها الشفرات الوراثية للنوع الإنساني، فضلاً عن غيره من الأحياء. إنها ترسم صورة بديلة لنموذج من بني آدم، قد تبعد بالتدريج عن الخصائص المألوفة لدينا، حسبما أنبأنا اكتشاف الخارطة الجينية، والقدرة على التحكم بالـ «DNA»، وما يفضي إليه من تمبط للنوع البشري. مضافاً إلى ما تعد به تكنولوجيا المعلومات، وغيرها من آفاق متنوعة للتكنولوجيا.

ولا تبدو الوتيرة المتسارعة للتحوّلات المناخية، وما ينجم عنها من كوارث طبيعية غير متوقعة، أقل أثراً في تفكيك بنية المجتمعات وتحوّلها.

اما المشكلة الديموغرافية واختناق بلادنا بتكاثر عشوائى للسكان، والعجز عن توفير الحد المناسب للعيش الكريم لهم، فإنه يضعنا في مأزق مصري، تتعطل معه المجتمعات وتتهشم مرتكزاتها وعناصر بقائها وديمومتها. كل ذلك يعيد ترتيب العناصر الفاعلة في بناء المجتمعات، ويخضع العوامل الأساسية التقليدية في حركة المجتمع إلى نسل مغاير، تضمحل أو تختفي معه بعض العوامل المؤثرة، بينما يتعاظم تأثير عوامل ثانوية أو جديدة، وتتظم الأولويات في نسق بديل، بعد المتغيرات النوعية الجديدة، وما تفرضه من آثار وحقائق غير معروفة.

نحن جزء من موكب البشرية الزاحف. العقل البشري والتجارب الكونية مشتركة لدى الكل. لسا استثناء من البشر، هل يمكن أن يتغير ويتحول كل البشر، بينما نحن نظل مختبئين، وبظل كل شيء في حياتنا عصباً على التحول والتغيير. لا تغيير في عقلنا وطرائق تفكيرنا وفهمنا، لا منعطفات في مسيرة تاريخنا، لا صيرورة وتحول في هويتنا، ولا تأثر وتطور في معرفتنا وثقافتنا.

العالم يتبدل من حولنا. العالم يتغير من حولنا. العالم يتطور من حولنا. الصمت لا يعزلنا عن العالم. لا يسمح لنا منطق التاريخ أن نبقى متفرجين في عالم يتغير فيه كل شيء. لا خيار لنا، سوى مواكبة متغيرات العالم، والاستجابة للإيقاع العاجل لوتيرة التطور. ومع أن ماضينا يطمح إلى أن يتخفى دائماً في حاضرنا ومستقبلنا، لكن مكر التاريخ سيتلعه، ونسجنا قاطرة التاريخ الهائلة في مسيرتها. ففي «دراسة حكومية أميركية أجريت مؤخراً تبين أن 65 في المائة من الطلاب في مرحلة رياض الأطفال، سيعملون في وظائف غير موجودة حالياً، بل سيتم استحداثها. وفي دراسة لجامعة أكسفورد تبين أن 47 في المائة من الوظائف الحالية في جميع المجالات الرئيسية ستختفي بسبب التقدم التقني والتكنولوجي، إذ ستحل الأجهزة محل البشر، وذلك خلال عقد من الآن فقط... وأن أكبر 500 شركة عالمية قبل 40 عاماً، كانت أصولها المرئية تمثل 80 في المائة من إجمالي الأصول، لكن اليوم أصبحت الأصول غير المرئية، كالأبحاث والدراسات والاختراعات، تمثل أكثر من 80 في المائة من إجمالي الأصول». في قائمة الشركات الـ 500 الأولى عالمياً (صحيفة الشرق الأوسط 4-2-2015).

هذا ضوء يكشف صورة عالم الغد. فهل نتمي لهذا العالم، أو نتمي لعوالم خارج عالمنا؟ وكيف يتغير كل شيء في هذا العالم، فيما نلبث نحن نكرر أنفسنا؟

عالم الغد تعد به وتصنعه التقنيات الجينية، وتكنولوجيا المعلومات، وتكنولوجيا النانو، أكثر مما تعد به وتصنعه الحروب العبية والبياسات. الإنسان مثلما يكتشف التكنولوجيا ويصنعها، هي أيضاً تعيد اكتشافه، وتصنع له نمط حياته الجديد، المشابه لها، والمنجم معها. نعم، سبصارح كثيرون وجهة بوحلة التاريخ، لكن مكر التاريخ سيهزمهم كما هزم بالأمس أسلافهم، كما يشرح ذلك هبقل.

تكرر دائماً خسارات من لا يتعلم من خساراته. نحن مولعون بالتجريب، عاجزون عن المراكمة. نعمن بالتجريب على الدوام، ولا نراكم ما جربناه، فلا نغادر خطأ الى صواب، ولا نضيف صواباً الى صواب.

11 - ما رأيك بمن يذهب إلى ضرورة تبنى عقلانية المعتزلة وابن رشد والفلاسفة في عصرنا، فإنه لا خيار لابنمات التفكير الديني اليوم سوى استحضر تراثهم العقلاني؟

لم تُكرر عقلانية عصر النهضة عقلانية التراث اليوناني، فعقلانية ديكرات ليست عقلانية أرسطو، وعقلانية توير كانط ليس عقلانية سينوزا.. وهكذا.

عقلانية المعتزلة وابن رشد والفلاسفة، هي عقلانية زمانها، وأية محاولة لاستساخها في عصرنا تفضي الى تعطيل عقلنا، ذلك أن معقولات العقل كانتات تاريخية. لحظة يكرر العقل نفسه لم يعد عقلاً، بمعنى من يُكرر العقل يقلده، ولا عقل مع التقليد. أما أن يكون العقل حراً بلا سجون وأسوار، أو يكف العقل في أن يكون عقلاً.

إن الاستيعاب النقدي للتراث، وتأويله تأويلاً جديداً، ضرورة يفرضها وضع التراث في سياقه الزماني المكاني الثقافي الخاص. إن ذلك التراث يحمل بصمة عصره، ونمط الرؤية للعالم الحاكمة فيه، ومشروطياته اللغوية والدينية والثقافية والسياسية والاجتماعية. نعم، يمكن أن نوظف شيئاً من مؤشرات الحياة العقلية لعصرهم، أي ينبغي أن نقارن اليوم بين: افتاحهم وانغلاقنا، حريتهم الفكرية النسبية وعبوديتنا الفكرية، حارة عقولهم وخوف عقولنا، قدرتهم على نقد وتحاوز أساتذتهم وتقليدنا لأساتذتنا، وأسئلة عصرهم المشتعلة وانطفاء الأسئلة في عصرنا، وغير ذلك.

بالمناسبة، أود الإشارة إلى أن الحنين حد الشغف بالماضي يجهض التفكير

الفلسفي، لأن الحنين نمط من الانقياد والرضوخ يتعطل معه العقل الفلسفي. منطق الانقياد والانباع يجهض التفكير الفلسفي.

كما إن الفهم الخاطن لأراء الفلاسفة يجهض التفكير الفلسفي. إذ ترتد ندرة الابداع الفلسفي بالعربية الى الاحتفاء بفلاسفتنا القدماء، وتحويل بعضهم الى أصنام. كل فيلسوف أو مفكر لا يجب فكره إلا تلامذة هم نسخة مكررة عنه يموت. لا يتكون أي فيلسوف أو مفكر حقيقي إلا بعد أن يكون خلاصة نقدية لسلالات من المفكرين ممن يوافقه أو يختلف معه.

كذلك تلقينا بعض نصوص الفلسفة الحديثة والمعاصرة خطأ، ذلك أن ترجماتنا الأخيرة للفلسفة الغربية الحديثة والمعاصرة أحيانا تبدو مضطربة مشوشة. علماً أن الترجمات الفلسفية المبكرة للعربية في القرن العشرين كان معظمها جيداً.

ينبغي أن يتخلص الباحثون والدارسون والتلامذة في الفلسفة والمعقول من الاكتفاء بالمتخلصات والشروح والتعليقات والهوامش، ذلك أن خبرتي في دراسة وتدريس الفلسفة تقول: الهوامش تلمس الأصول. فلا يمكن معرفة الفارابي إلا بقراءة الفارابي، لا يمكن معرفة ابن سينا إلا بقراءة ابن سينا، لا يمكن معرفة ابن رشد إلا بقراءة ابن رشد، لا يمكن معرفة ابن عربي إلا بقراءة ابن عربي... لا يمكن معرفة كانط إلا بقراءة كانط، لا يمكن معرفة هيغل إلا بقراءة هيغل، لا يمكن معرفة هيدغر إلا بقراءة هيدغر، لا يمكن معرفة غادامير إلا بقراءة غادامير.. وهكذا.

12 - كيف تلخص رؤيتك لتحديث التفكير الديني؟

لا يمكن تخطي القراءة الموروثة للنصوص، وإنتاج قراءة تواكب العصر، مالم نشأف النظر بالبنية التحتية لتفسير النصوص، ونخطى آليات النظر والمناهج الموروثة.

أية بداية لتحديث التفكير الديني لا تبدأ بعلم الكلام، ومسلماته وقبلياته المنطقية والفلسفية، فإنها تقفز إلى النتائج دون المرور بالمقدمات. تجديد الفقه ينبغي على تحديد علم الكلام، ذلك أن مفروضات وقبليات الفقه مسلمات ومقولات تحددتها الرؤية للعالم، والحقل الذي يصنع هذه الرؤية هو علم الكلام.

هنا لا بد من الإشارة إلى ضرورة التفكير جدياً بتحديث اللغة في الدراسات الدينية. ذلك أن «حدود لغتي تعني حدود عالمي» كما يقول لودفيغ فيتغنشتاين.

اللغة مرآة حياة المجتمع في كل عصر. البيئة الفقيرة لغوياً فقيرة عقلياً. خصوبة اللغة وثراؤها بقدر ما تقتل التفكير السطحي الملتبس، فإنها تحيي التفكير العميق الدقيق المنظم. حين تسيخ اللغة ويصيبها الوهن تنضب فيها طاقة الأسئلة الكبرى، وتنفسى فيها كلمات واهنة، وعبارات هشة، تقول كل شيء، من دون أن تقول شيئاً له معنى. التحليل اللغوي يتيح لنا اكتشاف أنماط المعتقدات والقيم والمفاهيم والحوافز العميقة الموجهة لحياة المجتمع في ذلك العصر.

البحث اللغوي عند الأصوليين والفقهاء بلغ سقفاً توقف عنده، وما يقال فيه ليس قولاً جديداً، وإنما هو شروح للشروح، وتفصيل في الشعبات، وتفريعات داخل الفروع. ما يعدنا بأفق جديد هو استيعاب المعطيات الراهنة في الألسنيات والهرمنيوطيقا وعلوم الدلالة والرموز، وتوظيفها في الدراسات الدينية.

هذه المعطيات ترشدنا إلى أن للكلمة طبقات تراكم غير العصور حول نواة المعنى الأول. تتناسب هذه الطبقات وعمر الكلمة، ونمط تراكم دلالاتها، وتنوع استعمالاتها في كل عصر. التأويليون يكتشفون الطبقات المتراكمة التي نظمر نواة المعنى، مثلما يحددون نَسَب وجذر انتماء كل طبقة أصيغت للمعنى في الزمن الذي توالدت فيه، من خلال اكتشافهم لطبيعة الظروف الاجتماعية لكل حقبة زمنية، وصلتها بكيفية تشكل معناها في تلك الحقبة، في ضوء: أفق انتظار المتلقي، ورؤيته للعالم، وأحكامه المسبقة.

13 - هل أنجزت شيئاً من وعودك في «تحديث التفكير الديني»، عبر المجلة التي أصدرتها «قضايا إسلامية معاصرة»، منذ عشرين عاماً تقريبا، وما أصدره «مركز دراسات فلسفة الدين». المركز الذي أعلنت عن ولادته ببغداد سنة 2003 بعد هودنك من المنفى إلى وطنك؟

بقعة الضوء مهما كانت صغيرة تفضح الظلام. سيظل ضوء الأفكار الجادة المنفتحة على الحاضر والمستقبل يفضح الظلام الذي يستبدّ بعالمنا. أدرت مجلة قضايا إسلامية معاصرة لحظة صدورها أنّ التفكير الديني في دنيا العرب تحنكره المؤسسات الدينية من جهة، والجماعات الإسلامية من جهة أخرى. المؤسسات الدينية تواصل ترسيخ التقليد والبناء على ما كان، لا ما ينبغي أن يكون، والجماعات الإسلامية لا تنتمي للتقليد روحاً بقدر ما تنتمي إليه شكلاً وصورة وشعاراً، ذلك أن مؤسسيها وكتّابها لم يتكروا بتكوين تراثي تقليدي، ولم يسلحوا بأدوات تمكنهم

من الخوض في حقول الموروث الواسعة المتنوعة. فلا يعرفون شيئاً في الغالب عن المعارف العقلية كالمطق والفلسفة وعلم الكلام، ولم يتوغلوا في أصول الفقه ومالك الفقهاء المتشعبة في الاستنباط الفقهي. أما خبرتهم بالتفسير، فإنها مبتدئة، لا تعدو سوى محفوظات يجري تلقينها في أدياتهم. وكل ما يتصل بالعرفان والتصوف وميراث الحياة الروحية يخاصمونه تبعاً لمنظريهم، بلا اطلاع على مضامينه الخصة. ويضنون في ابتكار شعارات تبسّطية تعبرية حالمة ذات تأثير سحري في تجييش المراهقين والشباب.

جاء صدور هذه الدورية إيذاناً بتدشين مسار جديد لتحديث التفكير الديني، يستلهم أفقا يضيء لنا ما ينبغي أن يكون، بدل أن نلبث إلى ما لا نهاية فيما كان.

أفق لا يدعو لإقصاء الدين، بل يشدّد على أن الدين هو منطلق أية عملية للنهوض والتنمية والتحديث في مجتمعاتنا، يكون أسئالها ومادتها المحورية الشخص البشري، وكيفية تربيته وتأهيله روحياً وأخلاقياً، وأن الدين هو المنبع الأساس في بناء حياته الروحية، ونظهير حياته الأخلاقية، وحماية الكائن البشري من الاغتراب الكوني، والقلق الوجودي، والعبثية، واللامعنى، بإرواء ظمته الأنطولوجي للمقدس.

انطلقت قضايا اسلامية معاصرة من رؤية تبني على أنه في الأسئلة ليس هناك سؤال أخير. في الفلسفة ليس هناك مفهوم أخير. في الفكر ليس هناك رأي أخير. في العلم ليس هناك نظرية أخيرة. في الدين ليس هناك اجتهاد أخير. من هنا نجد أن كل عصر يفرض تفسيره الخاص للنص الديني مهما كانت معانعة التفسير الماضي للنص.

لذلك كان لهذه المجلة مقاربتها الخاصة لمأزق التفكير الديني في عالمنا المعاصر، والتي سعت من خلالها لتجاوز التبسط، والقطيعة مع حالة الفرق في الماضي وأسبجته المنيعه، فغامرت باجتراح تفسير لا يخشى توظيف معطيات العلوم الإنسانية والمعارف الجديدة في قراءة النصوص الدينية، ولا يمتنع من الاستفادة من خبرة فلسفة الدين الحديثة والمعاصرة في الكشف عن جوهر الدين، ونمط التجارب الدينية. وانتقلت بدراسة وتحليل ما يرتبط بالدين وتعبيراته في الحياة من الأيديولوجيا إلى الإيستمولوجيا، فلم تدرس الدين بعقلية لاهوتية، ولم تنقد علم الكلام بعقلية كلامية، واهتمت بالكشف عن المهمة المحورية للدين في إرواء ظمأ الكائن البشري للمقدس، وحرصت على ضرورة عودة الدين إلى حقله الأنطولوجي، بعد أن رحلته

الجماعات الإسلامية إلى الأيديولوجيا، وحوّله إلى وفود بحرق في عربة السياسة، وزجته في الدولة، فأفشلت الدولة، وأمضت الدين، وأفسدت رسالته.

وهذا ما دعى «المعهد البابوي في روما» التابع للفاثيكان إلى أن يخصص كتابه السنوي لمواد متقاة من مجلة قضايا إسلامية معاصرة، والذي صدر في ديسمبر 2012، اعترافاً بالمهمة التي نهضت بها قضايا إسلامية معاصرة في تحديث التفكير الديني في ربيع القرن الأخير، وبوصفها حسب تصنيف المعهد البابوي الدورية الأهم المتخصصة في الأديان باللغة العربية، الرائدة في اقتحام الحقل الممنوع في التفكير الديني، واجترار سؤال لاهوتي جديد، والعمل على كشف قصور مناهج النظر والمقولات الموروثة في ذلك التفكير اليوم، وتدشين مناهج للنظر وأدوات بديلة فيه، تواكب إيقاع الحياة الشديدة الغنى والتحول والتطور والتركيب.

وربما علمتم أنه في عدة جامعات غربية وعربية اليوم تنجز رسائل دراسات عليا حول مفهوم تحديث التفكير الديني لدى صاحب هذه المجلة، وأثر مجلة قضايا إسلامية معاصرة في ذلك. أما «مركز دراسات فلسفة الدين» فقد تأسس في المنفى، ودشن جهوده في البحث والطباعة والنشر قبل عشرين عاماً تقريبا، لكن إشهاره تأخر حتى عودتي من المنفى للوطن.

منذ ذلك التاريخ أصدر المركز مضافاً إلى مجلته الفصلية «قضايا إسلامية معاصرة» سلاسل كتب عديدة، تجاوز عدد ما صدر فيها 200 كتاباً. تناولت القضايا الإشكالية في التفكير الديني. وبدأ المركز العام الماضي 2014 بإصدار «موسوعة فلسفة الدين»، التي صدر عام 2014 مجلدها الأول في 500 صفحة، والمجلد الثاني 2015 في 550 صفحة. كما صدر المجلد الثالث 2016 في 550 صفحة. ونأمل أن تواصل بقية المجلدات الصدور تبعاً في هذه الموسوعة، حيثما يتم تحريرها. ونخطط أن تتوسع كل مسائل فلسفة الدين، في عشر مجلدات. وهي تضم مآهات لفلاسفة دين وباحثين عن الألمانية والانجليزية والفرنسية والفارسية، بموازاة النصوص العربية، بالرغم من شحة الأخيرة.

مع العلم أن مركزنا هو أول مركز أبحاث يخصص بفلسفة الدين في المجال العربي، وقد أمضيت ما يزيد على عشرين عاماً من الاهتمام بهذا الموضوع، عبر إصدار مجلة قضايا إسلامية عام 1994 وتوقفها، ثم إصدار قضايا إسلامية معاصرة عام 1997، والتي صدر منها حتى اليوم 66 عدداً متخصصاً، يتناول كل عدد واحدة

من مسائل فلسفة الدين، أو ما يتصل بها. علماً أننا حتى اليوم قلما نعثر على كتابات عربية جادة في هذا الموضوع البالغ الخصوبة والحيوية، والضروري لفتح آفاق بديلة لتحديث التفكير الديني، وبناء الحياة الروحية والأخلاقية الأصيلة.

الأصرار على ضرورة تدشين هذا الأفق الحيوي «فلسفة الدين» في الدراسات الدينية بالعربية ينبع من قناعتي بأنه حين يموت التفكير الفلسفي تموت العلوم والمعارف. كذلك تعطل الدراسات الدينية عن الإبداع حينما يموت التفكير الفلسفي في الدين، ولا يمكنها الخلاص من التكرار والاتباع. إذ تعطلت العلوم والمعارف في عالم الاسلام لحظة تعطل التفكير الفلسفي.

بعد عدة سنوات من جهود مركز دراسات فلسفة الدين في بغداد وإصداراته المتنوعة، وحضور مجلته «قضايا إسلامية معاصرة» بكثافة في العراق، قرّرت وزارة التعليم العالي والبحث العلمي قبل فترة إدراج «فلسفة الدين» في المقررات التعليمية لأقسام الفلسفة في الجامعات العراقية. كذلك تناولت مجموعة رسائل ماجستير ودكتوراه هذا الموضوع ومسائله المتنوعة في السنوات الأخيرة. فضلاً عن تبني بعض أقسام الفلسفة في الجامعات العربية لتعليم فلسفة الدين في مختلف مراحل التعليم العالي، والاتجاه الجديد لطلاب الدراسات العليا بالبحث والكتابة في هذا الموضوع.

كذلك تبنت أخيراً بعض مراكز الدراسات والدوريات الدينية لذلك، فوجهت الباحثين والمترجمين للبحث والترجمة في فلسفة الدين، واهتمت بنشر دراسات ونصوص عربية ومعربة في هذا الحقل.

ولو لم تفتح مجلة قضايا إسلامية معاصرة وإصدارات مركز دراسات فلسفة الدين لآنافذة الضوء هذه في الدراسات الدينية فهو ليس قليلاً.

تحديث التفكير الديني⁽¹⁾

حوار د. عبد الجبار الرفاعي

(1) حاوره: د. مولاي أحمد صابر، مجلة يتفكرون، العدد الثاني «خريف 2013».

عبد الجبار الرفاعي، مفكر عراقي، ولد في العراق سنة 1954. حصل على مجموعة من الشهادات العلمية، أهمها الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية، ماجستير في علم الكلام، بكالوريوس في الدراسات الإسلامية، دبلوم فني زراعي.

يمتلك هذا المفكر رؤية فلسفية إنسانية، وذلك بالتحيز للفكر العقلاني، والعمل على بسط قيم الحوار والتواصل والتعارف حول تحديث مناهج التفكير الديني، والتي تنبئ على رؤية المتبادل والجدال بالحكمة، وبالتالي هي أحسن، والتأكيد على أن قيمة السلام هي سبيل الأمن الاجتماعي والعيش المشترك، ولا نجاة للعالم إلا بالتشبيث بالوسائل السلمية لحل المنازعات، والتخلص من بواعث العنف والحروب، فمقاصد الدين العليا تؤكد على إشاعة التراحم والمحبة بين الناس جميعاً.

أصدر عبد الجبار الرفاعي مجلة «قضايا إسلامية معاصرة» سنة 1997، وترأس تحريرها، وقد صدر منها 62 عدداً، وهي مازالت تصدر حتى الآن. كما حرر وأصدر سلسلة من الكتب، ناهز عددها 200 عنواناً، نذكر منها: سلسلة كتاب «فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد»، وسلسلة كتاب «أفاق التجديد»، وسلسلة كتاب «فلسفة وتصوف»، وسلسلة كتاب «ثقافة التسامح». وأخيراً أصدر في بيروت سلسلة كتاب «تحديث التفكير الديني». وقد أشرف الدكتور عبد الجبار الرفاعي على أكثر من ستين رسالة دكتوراه وماجستير في الفلسفة وعلم الكلام، وأصول الفقه، والفقه، والدراسات الإسلامية.

ألف الرفاعي وأعدّ حزمة من الكتب تعنى بسؤال التغير وتحديث مناهج التفكير الديني، من بينها: كتاب «الاجتهاد الكلامي»، وكتاب «مقاصد الشريعة وفلسفة الفقه»، وكتاب «فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد»، وكتاب «مناهج التجديد»، وكتاب

«الفكر الإسلامي المعاصر: مراجعات تفويجية»، وكتاب «مبادئ الفلسفة الإسلامية، في مجلدين»، وكتاب «محاضرات في أصول الفقه، في مجلدين»، وكتاب «التسامح ليس منة أو هبة»، وكتاب «تحديث الدرس الكلامي والفلسفي في الحوزة العلمية»، وكتاب «إنفاذ النزعة الإنسانية في الدين». وأخيراً «موسوعة فلسفة الدين».

اشتغل عبد الجبار الرفاعي مديراً لدار التوحيد للبحث والتأليف والنشر ما بين سنتي 1982 - 1984. كما عمل أستاذاً للدراسات العليا لمادة الفلسفة الإسلامية والمنطق وعلم الكلام وأصول الفقه والفقه، ومديراً لمركز دراسات فلسفة الدين في بغداد. ورئيساً لتحرير مجلة قضايا إسلامية، وقضايا إسلامية معاصرة.

واعتمد الرفاعي مستشاراً لمجموعة من المجلات والدوريات، من بينها: «الوعي المعاصر» و«الحياة الطيبة» و«نصوص معاصرة» و«التوحيد»، والتي كانت تصدر في بيروت، ثم «الفكر الإسلامي» الصادرة في لندن، و«مقابسات» و«مدارك» الصادرة في بغداد، ثم مجلة «الكوفة» الصادرة عن جامعة الكوفة.

وبقصد تعميق النظر حول قضايا تعنى بسؤال التجديد الديني والتغيير الثقافي، والعمل على بسط قيم العفو والصفح والتسامح في المجال السياسي والديني، ارتأينا أن نجري معه هذا الحوار.

أ. مولاي أحمد صابر: الدكتور عبد الجبار الرفاعي، نرجو أن تقدم شخصكم الكريم للقارئ في العالم الإسلامي.

د. عبد الجبار الرفاعي: أنا قارئ قبل أي شيء آخر، سرقنتي المطالعة من الحياة، حرمتي من ملاعب الطفولة والصب، غيّبتني عن الرياضة، وانخرط الناشئة والشباب في ملاعب كرة القدم ومسابقاتها، وغيرها من الألعاب الرياضية.

بدأت المطالعة في فترة مبكرة من حياتي منذ الصف الخامس الابتدائي، وبمرور الزمن تحولت إلى إدمان مزمن، كلما تقدم عمري تنامي شغفي بالكتاب المثير، وازداد لهائي وراء النصوص المشتعلة.

لا شيء سوى المطالعة يلازمي في: سفري وحضري، صحي ومرضي، حزني وفرحي، عبي وراحتي، بل لا أندكر أي تمت من دون أن يكون انكتاب آخر رفيق أودعه، وأحياناً لا أودعه إلا حين يغلبني النوم. حتى حين أكون في مناسبات اجتماعية، أو لقاء أصدقاء أو أقرباء أو أصدقاء، أظل مشدوداً للحظة الانصراف عنهم، كي أعود لجلادي «المطالعة».

بالرغم من مطالعتي للصحافة منذ المرحلة المتوسطة يوماً، حبشما كنت، وحتى هذه اللحظة أنفق كل يوم ما يقارب الساعتين للنظر في الصحافة، بوصفها «زاد الفلاسفة» حسب هيجل، غير أن الصفحات الميتة لدي في الصحف هي الصفحات الرياضية. لكن بعد أن أدركت الأهمية الفائقة للرياضة في عصرنا، وأثارها الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية والتربوية والفنية وحتى السياسية، حرصت على التعرف على شيء من فنونها وآثارها المتنوعة، من خلال أبنائي، الذين أقحموا الصحافة والأفلام والملابس والأدوات الرياضية للمنزل، وكان الرياضة تنتقم من موقف المعاند لها، لتستولي اليوم على فضاء بيتي، وتغطي أسيانها معظم الغرف والصالات والممرات.

أنا حزين على غيابي عن الحياة وعكوفي الأبدى بين الأوراق، أنا حزين على حرمانني من المتع البرينة وغير البرينة، حزين على هذا النمط من السجن الذي غيبي على الدوام عن الفئة العمرية التي أنتمي لها، وأجهل أحلامها وتطلعاتها ومشاغلتها وجددها وعبثها.. لو استقبلت من حياتي ما استديرت منها، ربما أنخرط بتجريب ما في هذا العالم، ربما أندوق شيئاً من متع الحياة ومراراتها الشديدة الغنى والتنوع.

ما زلت أفقر الى خبرة الكثير من تجارب العيش وفنونه العملية خارج فضاء الورق، والآن أخرج بالتدرج من الورق، حيث أدخل فضاء العالم الافتراضي، وأغرق في عوالم الأنترنت والآياد والأيفون.

ربما لا أستطيع التحكم في مسار حياتي، حتى لو استأنفتها، ذلك أنني بطبيعتي كائن مسكون بمتعة الاكتشاف، والبحث عن كل ما يثير الدهشة التي تبعث عن كل ما هو غريب، مما تتكتم عليه الجماعات والطوائف والأديان والثقافات.

أنا مولع بالهرولة وراء كل ما هو جديد، لا أكف عن سياحتي ورحلتي العقلية والروحية، نموذجي على الدوام في المستقبل. وربما كان لتزوع السير واللووك الفكري المتواصل في شخصيتي تأثير بالغ على شغفي بالمطالعة وصحة الورق، ذلك أن الكتاب يوحون لي بما يتكتم عليه المجتمع، ويفضحون ما تمنع التصريح به العادات والتقاليد والمعتقدات ومختلف أنواع السلطات.

المطالعة مهتي الأبدية، إنها محطة استراحتي، إنها ما يمنحني الرضا، ويحررني من نمطية الواقع وتكراره الرتيب الممل، هي ما يفيض علي الهدوء، ويشري لحظات يومي بسعادة غامرة.

أما الكتابة، فأهرب منها، لا أتكلفها وأخوض فيها إلا بعناء، إلا حين أخضع لغرض تملئها علي مهماتي في البحث العلمي والتعليم والتواصل مع تلامذتي وقرائي.

منذ بدأت الكتابة مازلت أتهيب الكتابة، ففي كل مرة أقرر فيها أن أكتب أحاول الهروب، وأتمس غالباً الأعذار بانشغالي، وندرة ما يتوافر لدي من وقت فأنض أخصه للكتابة، وربما هربت إلى حيل نفية تنقذني من مأزق «هلع الكتابة». كنت أحب أنني مصاب بشلل الإرادة، وأني أنفرد بذلك، غير أنني اكتشفت أن معظم الكتاب الجادين يعانون من ذلك، ولعل من أعنف توصيفات وجع الكتابة ما تحدثت عنه الأديبة أني إيرنو، بأن «الكتابة كخنجر»، أو قول إرنست همنغواي عندما سُئل عن أفضل تدريب فكري لمن يريد أن يصبح كاتباً فأجاب: «إن عليه أن يذهب ويشق نفسه، لأنه سيجد أن الكتابة صعبة إلى درجة الاستحالة. ثم ينزل عن المشقة، ويفرض هو على نفسه أن يكتب على أفضل ما يستطيع للبقية الباقية من عمره. عندها سيكون لديه قصة شتق كبدابة».

يبدو أن هروبي وغيري من الكتابة يكشف عن شعور غاطس في الوجدان من خشية الفشل في إنتاج نص يرضي القراء، ويمنحونه اعترافهم، مثلما يخشى الفشل كل شخص يباشر عملاً نوعياً في حياته، فيحترز ويحذر كثيراً، قبل أن يقدم على أية خطوة في إنجازها.

لا شك أن طلب الكمال، والرغبة بالظفر بمنجز فائق الجودة، والمبالغة في التهيب من الوقوع في مغامرة الأفعال البالغة الصعوبة، يصبح أحياناً عائقاً يمنعنا من الانجاز، ويقعدنا عن المباشرة بالعمل، أو يعطلنا في منتصف الطريق عن الاصرار على المضي فيه، حتى جني الثمرة.

في حالة كهذه لا يتجح إلا أولئك المغامرون، ممن لا يتهيبون الاقتحام، ولا يترددون في الاقدام على أي عمل، مهما كان شاقاً وخطيراً، فإن الأعمال الخطيرة لا تنجزها إلا الهمم والعزائم الكبيرة.

في ريارمي لأية مدينة، الأماكن الأشد إعواء لي هي المكتبات، وطالما غير بعض رفاق السفر عن تدمرهم من تسكعي في أسواق الكتاب، وضياع وقتهم في أماكن لا تعينهم ولا تهمهم، وأحياناً يعربون عن استغرابهم، من تكاليف الوزن الإضافي التي أضطر لدفعها لشركات الطيران غالباً لتجاوز كمية الكتب الوزن المعفو عنه لكل مسافر.

لعل فضيلتي المتميزة تكمن في أنني أعرف أن مدارات ما أجهله لا حدود لها، وذلك ما يحثني على الدوام للهرولة وراء كل كتاب وكاتب جديد، عساني أضيق مساحات جهلي الشاسعة التي تؤرقني باستمرار.

أتساءل مع نفسي: لماذا أفتقر لأية ثقافة سينمائية، مما يضطرني للإفادة من ثقافة ولدي علي في هذا الحقل الشديد الأهمية والراهنية؟ لماذا أفتقر لأية ثقافة في مختلف أنواع الفنون؟ لماذا... 19

أ. صابر: يحسب لكم جهدكم الكبير في العمل على الدفع بؤال التجديد والتغيير الثقافي في العالم الإسلامي من خلال كتاباتكم العلمية وإسهاماتكم الفكرية. ما هو تقييمكم لما عليه الفكر الإسلامي اليوم؟ هل تخطى هذا الفكر لحظة المقارنات والموافقات مع الفكر الغربي إلى لحظة الخلق والإبداع الكوني المعاصر؟

د. عبد الجبار: أية هوية قارة ساكنة، وأي عقل مغلق، في ممانعة مزمنة للحضور في العصر. يجد المراقب الخبير بواقع التفكير الديني في مجتمعاتنا، وكل من يتفحص منجزاتنا المعرفية ومكاسبنا الفكرية، أن الأعم الأغلب مما ألفناه وكتبناه لا يتخطى هواجس الهوية، والحنين إلى الأصول.

منذ جمال الدين الأفغاني، لما نزل أدبياتنا تشد مديحاً وتجيلاً للموروث، نتج تسميات وتشعقولات هي بمثابة الشعر المفرغ من أية رؤية مضيئة ومضمون معرفي، إنشاءً يتكرر بأساليب وصور شتى، تارة بعنوان «الرسالة الخالدة» حسب مصطلح مؤسس حزب البعث ميشيل عفلق، وهي تسمية ملتبة مضللة تأطرت بأيديولوجيا عروبية تعصبية، أفضت لإنتاج أشنع نموذج للنظم الاستبدادية في النصف الثاني من القرن العشرين، وتارة أخرى بعنوان «جيل قرآني فريد» حسب تعبير سيد قطب الذي كنت أنا - في مرحلة مبكرة من حياتي - أحد ضحايا أناشيده الحماسية التعبوية، وبالأحرى ضحية لما نُسج على نهجه وإنشائه، من نصوص لا تقول شيئاً، سوى أنها تخلق تخيلات وأوهاما تزوم الشباب، وتفرقهم في أحلام مُخدّرة، تكف معها عقولهم عن التفكير، وتلبث في إجازات طويلة، تعجز فيها عن إدراك ما يحفل به الواقع اليومي من تعقيد وتركيب عميق. ولا تستطيع الإصغاء لما يحفل به العصر من فتوحات مدهشة للعقل، وما يراكمه من إضافات نوعية للمعارف البشرية.

مازلنا حتى هذه اللحظة نعيد صياغة عفلق وقطب، وكل تلك الشعارات المضللة المسكرة، ونسقيها لأبنائنا، عبر منابرنا وفضائياتنا وحتى جامعاتنا. ما زال بعض أساتذة

الشريعة والدراسات الإنسانية وربما الفلسفة في بلادنا يكررون ذلك، فيخدعوننا بحيل اصطلاحية، وشقشات لغوية، ومنحوتات لفظية موهمة، يسوقون فيها عقولنا إلى مفصلة نغدو فيها مخلوقات مشوهة غير قادرة على الحضور في زمانها الخاص.

هذا مصير التفكير الديني في مجتمعاتنا، لا نثر على مراجعات نقدية جادة في أدبيات الإسلاميين، وأي معنى للتقديتهم صاحبه ويصنف بوصفه مناهضاً لأمجاد الأمة وماضيها المشرق، وأخيراً يعتمد بعض أتباع الأحزاب القومية والجماعات الإسلامية لتوصيف مثل هذه المحاولات بأنها «جلد للذات» كما هو متداول في مقالاتهم ومؤلفاتهم.

منذ حسن البنا غرق التفكير الديني في بلادنا في مسار خاطئ، حين عمد الاخوان المسلمون ومن اقتفى أثرهم، وترسم خطواتهم، وتبنى مفاهيمهم وآراءهم، فدمج ما هو مقدس بما يتقدس، فيتبدى لنا أنه مقدس. وخلط ما هو ثابت بما هو متغير، ما هو تراثي بما هو ديني، ما هو زمني بما هو ميتافيزيقي، ما هو غيبي بما هو مادي، ما هو أرضي بما هو سماوي، ما هو رؤيوي بما هو محسوس، ما هو رمزي بما هو حرفي، ما هو أخلاقي بما هو فقهي، ما هو قانوني بما هو روحي، ما هو عقلي بما هو قلبي، ما هو دينوي بما هو ديني، ما هو إلهي بما هو بشري. وهكذا التبس الاعتقاد بالله تعالى بصور الانسان المتنوعة عن الله، وغير ذلك. وهو ما انتهى إلى إنتاج «بروتستانتية إسلامية»، بلغت مآلاتها القصوى في التفكير الديني لأبي الأعلى المودودي، وسيد قطب، تبعاً له، ومن ترسم خطواتهما واقتفى آثارهما، كما تحكيه أدبيات الجماعات الإسلامية.

لا أريد القول إن التفكير الديني لدينا دخل منطقة استحالة وعقم، لكنني أعتقد أن التفكير الديني في حالة ممانعة متصلبة بل عنيفة لأية محاولة جادة لتجاوز ما هو نمطي وساكن.

ولا أظن خبيراً يزعم بأن عقلنا وتفكيرنا في لحظة «خلق وإبداع كوني معاصر» حسب تعبيركم. ففي بلادنا: السياسي مشغول بغير السياسة، المثقف مشغول بغير الثقافة، الأديب مشغول بغير الأدب، الفنان مشغول بغير الفن، العالم مشغول بغير العلم، الطبيب مشغول بغير الطب، المهندس مشغول بغير الهندسة، المتدين مشغول بغير الدين.

معطيات الواقع تدل على أن التنمية العلمية والإنتاج الفكري في البلاد العربية ليس

في حالة صحية. إذ تحدثنا المعلومات عن أن إنفاق العرب على البحث والتطوير يؤدي إلى أرقام متدنية جداً، ذلك أن «كل الدول العربية، باستثناء تونس، تنفق أقل من 1٪ من الناتج المحلي الإجمالي على البحث والتطوير، مقابل (2.79 ٪ تنفقها أميركا، و 1.41 ٪ تنفقها السويد، و 2.26 ٪ تنفقها فرنسا. أما الصين فتتفق 10 أضعاف ما تنفقه الدول العربية على الأبحاث والتطوير. وتبلغ حصة العرب من مقالات المجلات العلمية 0.5 ٪ فقط، فتوسط عدد المقالات والبحوث لكل مليون نسمة في المنطقة العربية هو 41 مقالة، بينما المتوسط العالمي هو 147 مقالة. بالإضافة إلى ذلك، بلغ عدد براءات الاختراع في المنطقة العربية 836 براءة اختراع حتى عام 2010، فيما بلغ عدد براءات الاختراع في كوريا الجنوبية 84.840». جريدة الشرق الأوسط، 22-8-2015.

انهيار التعليم في بلادنا أفضى لتفشي الجهل والامية والتخلف، وهي بدورها أوجدت المناخات وشروط البيئة المناسبة لولادة الجماعات المتوحشة.

كم أتألم وأنا أرى كل هذا العبث الغرائبي المتفشي في العالم العربي. ففي بلادنا سياسيون بلا سياسة، اقتصاديون بلا اقتصاد، مفكرون بلا تفكير، مثقفون بلا ثقافة، أدباء بلا أدب، لغويون بلا لغة، كتاب بلا كتابة، حقوقيون بلا قانون، قضاة بلا ضمير، خطباء بلا بيان، أخلاقيون بلا أخلاق، متدينون بلا دين، مفسرون بلا تفسير، فقهاء بلا فقه، فلاسفة بلا فلسفة، متكلمون بلا علم كلام، متصوفون بلا تصوف.

البداية الصحيحة تبدأ بالتربية والتعليم، مالم يتم إصلاح التربية في بلادنا منذ الروضة، والتعليم بكل حقوله وتخصصاته، لا يمكن أن نبدأ بداية صحيحة. لا يصنع مستقبلاً متطوراً أمناً لحياتنا إلا التربية والتعليم النوعي الحديث اليوم لأبنائنا.

أعرف بعض وزراء التربية والتعليم في بلادنا العربية من الأमीين ثقافياً، ممن لا صلة لهم بالتربية والتعليم، ولا يعرفون شيئاً عن عالم اليوم.

الخبراء يعرفون ما لوسائل التواصل والفضائيات اليوم من مفعول سحري، لا لأنها تعمل على تغليف الواقع ودفنه فقط، بل لأنها تعمل على خلق واقع بديل موازاة الواقع تُصنع فيه: معتقداتنا، مفاهيمنا، آراؤنا، سياساتنا، زعاماتنا، مواقفنا، وأحلامنا.

أتمنى أن نستفيق من غفوتنا المزمنة. أتمنى أن نتفض على أولئك المحترفين من الخطباء والوعاظ والكتّاب الذين يسقوننا الأوهام، ويخوفوننا من العودة للعقل،

ويخدعوننا كل يوم. أتمنى أن نتأمل واقعنا. أتمنى أن نتفحص مصيرنا. هل نجرؤ على طرح تساؤلات كبيرة على أنفسنا، مثل: ما إضافاتنا للمعرفة البشرية منذ أكثر من خمسة قرون؟ ما إسهام أكثر من مليار وثلاثمئة مليون إنسان مسلم في أعياد التاريخ الحديثة؟ ما فتوحاتهم في حقل الاكتشافات والاختراعات العلمية ومختلف العلوم؟ ما منجزاتهم في الفلسفة والعلوم الإنسانية؟ كم عدد الملحنين ممن حازوا على جائزة نوبل والجوائز المماثلة سنوياً؟

أ. صابر: تبعاً لمطلب التجديد، ألا يقتضي في نظركم الواقع اليومي وأسلته، أكثر من أي وقت مضى، نوعاً من التأسيس للفكر الإسلامي يأخذ بالبيات المعرفة الحديثة والمعاصرة، ويستفيد من مختلف التجارب الإنسانية في التعاطي مع مرجعية الفكر الإسلامي بغية النظر إلى العلوم بشكل متكامل بدل تجزئتها إلى علوم شرعية وعلوم عقلية؟

د. عبد الجبار: إحدى المشكلات المعقدة في بنية تفكيرنا عموماً وتفكيرنا الديني خاصة، هي «الفويا» من المعارف الجديدة والعلوم الإنسانية. إن ما كتب إلى اليوم في رفض المعارف الغربية كمّ هائل من المؤلفات والمقالات. الأصوات الصاخبة في المؤتمرات والندوات والحلقات النقاشية هي أصوات الذين لا يكفون عن توبيخ وهجاء كل من يدعو إلى مواكبة فتوحات هذه المعارف، ويهتم بتعليمها في المدارس والجامعات.

لقد استُثيرت مبالغ طائلة في الخمسين سنة الأخيرة في دعوات أيديولوجية لا صلة لها بالعلم والمعرفة، دعوات لا تكف عن تجنيس المعرفة وتصنيفها: دينياً وجغرافياً وأثياً، مثل: «إسلامية المعرفة»، و«التأصيل الإسلامي للعلوم»، و«العلوم الإنسانية العربية»، و«العلوم والمعارف القومية»، وغيرها، مما نسج على منوال ما حاكته الماركسية في النصف الأول من القرن العشرين عن «الروح الحزبية في العلوم».

آفاق الدراسات الإسلامية مغلقة في الجامعات ومراكز البحوث والحواضر العلمية التقليدية في عالمنا. مشاغل تلامذة هذه المؤسسات وأساتذتها، تتمحور في محفوظات وهوامش وشروح وشروح للشروح، الكل يدور في آفاق رؤية السلف، حتى الدرس الفلسفي في الحوزات يختزل الفلسفة بعلا صدرا الشيرازي، ولا يتعاطى مع آثاره نقدياً.

غزارة التراث وتنوعه تحوّل إلى عبء يجهض أية محاولة لتقده وغربلته، ويعطل أي مسعى للاجتهاد والخلق والابتكار والإبداع. الحجم الهائل لثرائنا، يعطل تفكيرنا، ويشلّ وعينا، حين يفرقنا في مسالكه ودروبه، التي لا تقودنا إلا إلى أين!

أي مسعى للاجتهاد والتجديد لا يمنح لنفسه مشروعية تراثية يقاوم بضراوة ويُنفي. الدعوة للاجتهاد في الفقه تتوكأ اليوم على «مقاصد الشاطبي»، وتستدعيها كما هي، من دون أن تجرؤ على منحها روح العالم الجديد، وأحلام ونطلعات المسلم المعاصر. إنها لا تتجاوز تقليد الشاطبي، فتستغرق في شرحه، وأحياناً تمنع في تغييب نزوع تلك المقاصد ومعاها لبناء أصول بديلة لأصول فقه الشافعي، ومن رشح نهجه.

كيف يمكننا تحديث التفكير الديني في الإسلام مع انسداد آفاق هذا التفكير، والركون إلى رؤى السلف واسترجاعها والتعاطي معها كنصوص عابرة للزمان والمكان والاجتماع الإسلامي، ومناهضة معطيات العلوم والمعارف البشرية؟

المعرفة الدينية إحدى تجليات المعرفة البشرية، وافترض أنها استثناء ولا تنتمي للمعرفة البشرية ناجم عن الجهل بفلسفة العلوم، والمنطق الحاكم في صيرورة تغير وتطور المعارف والعلوم.

لا سبيل لتحديث المعرفة الدينية، إلا بالانخراط في مخاضات المعارف البشرية والتعرف على مكاسبها، ووعي فلسفة تغيّرها وتحولها. ولا نصل ذلك إلا بالاستيعاب النقدي للتراث، وتوظيف المعطيات الجديدة للمعرفة البشرية في تشريحه، وإعادة بناء التفكير الديني في الإسلام ضمن سياق المنهجيات والمفاهيم والرؤى والمعطيات الجديدة للمعارف والعلوم.

أ. صابر: ظهرت منذ سبعينيات القرن العشرين مجموعة من المشاريع الفكرية في العالم الإسلامي، عملت إجمالاً على التعاطي مع الموروث الثقافي بشكل نقدي، وكانت تهدف إلى العمل على بسط رسالة التنوير والرفع من شأن الفكر العقلاني في التعاطي مع قضايا الدين والدولة والمجتمع. وفي السنوات الأخيرة، رحل بعض من رجال هذه المشاريع مثل: محمد أركون ومحمد أبو القاسم حاج حمد ومحمد عابد الجابري ونصر حامد أبو زيد.. وغيرهم. في نظركم هل وجد جهد هؤلاء انمكاساً على أرض الواقع اليوم؟ أم إن جهدهم العلمي بقي محصوراً بين طيات الكتب؟ مع

العلم أن الفكر التقليدي الذي يُغيب العقل مازال مهيمناً في الوقت الحاضر بشكل مجمل على مختلف أنماط الدين.

د. عبد الجبار: أود التنويه بجهود مهمة لمفكرين آخرين، مثل: عبدالله العروي، جورج طرايشي، فؤاد زكريا، عبدالكبير الخطيبي، حسن حنفي، أدونيس، طيب تيزيني، محمد سيلا، وعبدالسلام بنعبد العالي... وغيرهم.

وفي الدراسات الدينية، ينبغي الاهتمام بالمنجز الرائد في بلادنا العربية للصديق عبد المجيد الشرفي، و«مختبر الدراسات الدينية» - كما أود تسميته - الذي أسسه جمعية مجموعة متميزة من تلميذاته وتلامذته الجادين في تونس.

لا شك أن الإنتاج الفكري لهؤلاء المفكرين ذو راهنية وأهمية فائقة، ولو تم استيعابه وتصنيفه وتقويمه وتوظيفه لتجاوز العقل في بلادنا المدارات الموروثة، وانتقل إلى آفاق تتسع لأسئلة عميقة، وتسمى لصياغة مفاهيم بديلة، تحاول توظيف مناهج حديثة، لم يعرفها باحثو ودارسو التراث من قبل، فتعمل على تفكيك التراث وغربله والتوغل في بنياته المتراكمة، وما لا تكشف عنه المناهج والأدوات التقليدية.

للمرة الأولى، تحيلنا تلك المناهج إلى تجاوز الأسلوب التقليدي في دراسة المدونة الفقهية، وترشدنا إلى ما يتخطى فهمنا السائد، فنبحث عن مرجعيات مسترة توجه عقل الفقيه، وتعمل على تبينه لموقف فقهي معين ورفض ما سواه.

كنا في الدرس الشرعي حين نسعى للإفتاء في مسألة معينة، نعمل على تطبيق أصول الفقه والقواعد الفقهية وعلوم الدراية ودراسة أسانيد الحديث وأدوات اللغة ومعالجتها نستعين بها في فهم نصوص الكتاب الكريم والسنة الشريفة، وفي حالة فقدان النصوص نعود للمقاصد والمصلحة والإجماع والاستحسان والقياس... وغير ذلك، تبعاً لتنوع الموقف الاجتهادي للمذاهب في أصول الفقه وطرائق الامتباط. بينما أتاحت لنا المناهج الجديدة في: الهرمنيوطيقا والألسنيات وفلسفة العلم وعلوم النفس والاجتماع والأنثروبولوجيا، أن نكتشف ما لم تُحج به مناهجنا التقليدية، فبهنا إلى وجود منابع مضمرة تسهم في صياغة فتاوى ومواقف الفقهاء، لم تنتبه لها من خلال مناهجنا وأدوات النظر والمفاهيم الموروثة، فمثلا الرؤية للعالم التي يبنها الفقيه، ونمط إيمانه ومعتقداته، تعمل على فرض موقف عليه ينسجم مع معتقده، فلو كان معتزلياً أو إمامياً أو أشعرياً أو ماتريدياً أو أباضياً، يبدو له معنى النص على وفق رؤيته الاعتقادية. وهكذا اكتشفنا عبر المناهج الجديدة أن سياقات إنتاج الفقه ترتبط

بأحكام الفقه المسبقة، ونمط تربته، وعصره، وبلاده، وبيته، ومجتمعه، وإثنيه، وثقافته، وخبراته الحياتية المتنوعة. بل إن معاجم اللغة خضعت في اختيارات معاني الكلمات وترجيح أحد المعاني دون سواه للرؤية اللاهوتية لمؤلف المعجم اللغوي. كل هذه العوامل وما يماثلها لها تأثير مباشر في طبيعة فهم الفقيه واستنباطه. كذلك ترتبط فتاوى الفقيه بفهمه لحدود الدين ومدياته ومجالاته في الحياة، وأيضاً ترتبط بأفق انتظاره، وما يترقبه من الدين في الحياة، وتوقعاته، وتطلعاته، ومطامحه.

الهرميوطيون جيلوجيون، يكتشفون الطبقات المترامية، التي تتكدس لتحجب عنا بؤرة المعنى، كما يحددون الأنساب والجذور الزمنية لانتماء كل طبقة ظهرت على المعنى الأول، ويتعرفون على عمرها، وطبيعة العصر الذي توالت فيه، كذلك يضيئون زمانها، وكيفية تشكل معناها في كل عصر، في سياق أفق انتظار المتلقي وتطلعاته وأحكامه المسبقة، ونمط معتقده وثقافته وبيته، وطبيعة الاكراهات المتنوعة، التي وجهت عملية بناء الدلالة، وصاغت كيفية فهم المعنى.

في ضوء هذه المعطيات، نستطيع أن نتعاطى مع المدونة الفقهية الموروثة، وما يقني به الفقهاء في كل عصر، بوصفها معرفة بشرية مشتقة من تلك المنابع المشار إليها وما يماثلها. ما يعني أن كل عصر ينتج مدونه وأحكامه الفقهية الخاصة، وهي مدونة لا تتسع أحكامها للعصور كافة، ولا تتوسع مختلف الأزمان، وحب تعبيرنا في أصول الفقه: إنها أحكام ليس لها «إطلاق أزمني وأحوالي»، أي أن فتاوى الفقهاء لا تمتد زمانياً خارج زمانها، ولا تتسع لحالات خارج سياق موضوعاتها.

هذا نموذج فقط للإمكانات الفائقة الأهمية التي تمنحها لنا المناهج والأدوات والمفاهيم المعروفة في الفلسفة والعلوم الإنسانية وعلوم التأويل الجديدة للقيام بحفريات عميقة في المدونة الفقهية، والكشف عن بنيتها التحتية والمنابع التي تستقي منها. كذلك يمكننا الاستفادة من تلك الإمكانات واستخدامها في دراسة مدونات التفسير والحديث وعلم الكلام والفلسفة والمنطق والتصوف والعرفان، وكل ما هو موروث.

يبد أن جهود هؤلاء المصكرين لم يحقق وعودها في أدراسات أندبية عدنا، وليت المقررات والمساقات التعليمية في الجامعات وكليات الشريعة والأدراسات الإسلامية، والرسائل الجامعية، ومراكز البحوث والدوريات والمؤلفات حية المناهج القديمة ولا تكثرث بالمناهج الجديدة، وفي الحالات المحدودة التي يهتم

بها الباحثون والمدرسون فإنهم لا يدرسونها بغية التعرف عليها وفهمها، وحتى لا يقاربنها نقدياً، وإنما يتعاملون معها بوصفها «شبهات»، و«بدع»، و«معتقدات باطلة»، و«ضلالات»، و«مغالطات»، و«هرطقات»، هدفها تضليل المسلم واختراق عقيدته.

وهنا أستأنف ما تحدثت عنه في مناسبة سابقة، قبل عدة سنوات، حول ضرورة تحديث التفكير الديني في الإسلام من داخل المؤسسة الدينية، وضعف تأثير المفكرين والدارسين والباحثين خارج هذه المؤسسة، بالرغم من أهمية منجزهم وريادته، ففي مراجعة عاجلة لحركات تحديث التفكير الديني الفاعلة والمؤثرة في تاريخ الأديان، والتي امتدت وترسخت عبر الزمان، نجد الحركات المشتقة من المؤسسة الدينية، والمتولدة من الخميرة ذاتها، كحركة الإصلاح الديني التي قادها مارتن لوتر داخل الكنيسة هي ما أحدث منعطفا وتحولا حاسماً في تقاليد ونظام المؤسسة الدينية، ويظل على الدوام صوتها مموعاً ومؤثراً في المؤسسة.

تحديث المسجد لا يتحقق إلا حين ينبثق من داخل المسجد، وتحديث الحوزة لا يتم إلا عندما ينطلق من الحوزة، لكيلا يفقر التحديث للمشروعية، وتبعا لذلك كي يتوافر له حامل اجتماعي. بينما لا تجد الدعوات والكتابات في الإصلاح من خارج المؤسسة الدينية حاملاً اجتماعياً يعتقها ويتبناها ويتفاعل معها داخل المؤسسة، ويستخدم الإمكانيات التي يتيحها له انتماؤه للمؤسسة الدينية، كالمنابر والشعائر والمواكب ودور العبادة في التثيف على المفاهيم والمقولات والرؤى والأفكار التي تدعو إليها.

ولا أعني بـ«المشروعية» هنا المفهوم الميتافيزيقي أو الغيبي أو الفقهي، بل أعني المفهوم السوسيولوجي والأنثروبولوجي، أي إن خطياً على منبر بوسعه تعبئة وتحريض المستمعين على اعتناق آرائه مهما كانت، تبعاً لما يمنحه المقام الذي يصدر عنه حديثه من مكانة وقيمة ومشروعية. فيما لا يمتلك المفكر والباحث خارج المؤسسة الدينية ما يمنح آراءه هذه القيمة الرمزية والمشروعية.

قد لا تكون هذه الفكرة محببة لدى بعض المشغلين بدراسة ونقد الفكر الديني، المنحدرين في تكوينهم الفكري من خارج المؤسسة الدينية، ولعل بعضهم يرى فيها قليلاً من دورهم التحديدي، إلا أنني أرى أن الواقع التاريخي لمسيرة التحديث ينحاز لصالح هذه الفكرة.

في النهاية، تبدو هذه الملاحظة سديدة إذا بقيت مجتمعاتنا في بنيتها الاجتماعية، وفي مصادر تكوينها العلمي والثقافي على ما هي عليه الآن. نعم، في ظل نظام تعليمي جديد، لا سيّما الجامعي منه، أكثر حداثة وتنوعاً وعمقاً مما نجده اليوم، من الممكن توقع دور للنخب العلمية المشار إليها أكبر وأوسع.

أ. صابر: ينظر للدين أحياناً على أنه مصدر للتصادم الاجتماعي فهل هذا صحيح؟
أليس من غايات الدين الكبرى بسط قيم العفو والرحمة والمحبة؟

د. عبد الجبار: نفي الآخر وعدم احترامه ليس غريباً في تراث ولاهوت الأديان، مقولات «شعب الله المختار... لا خلاص إلا بالكنيسة... الفرقة الناجية»، وما يماثلها في تراث الأديان الإبراهيمية، أغرقت أتباع الأديان في علاقات صراعية مازومة، لكن «الفاثيكان الثاني 1962 - 1965» استطاع أن يتحرر من لاهوت القرون الوسطى، ويعترف بـ«خلاص خارج الكنيسة».

علم الكلام، والفقه المنبثق من الرؤى اللاهوتية الموروثة، يتضمن مجموعة من المقولات والأحكام المشهورة التي تحدد نمط التعامل مع ذوي المعتقدات والآراء المختلفة، كما في «أحكام الارتداد، أحكام أهل الذمة، أحكام أتباع الأديان غير الإبراهيمية»، وغير ذلك، مما يجعل أتباع الديانات في مرتبة أدنى من المسلم في أوطاننا.

ومن المؤسف أن معظم المنخرطين في الجماعات الإسلامية يفتقرون للخبرة بعلوم الدين، فيكررون عبارات يُلقنونها من أدبياتهم المبسطة تشي بافتقارهم للتكوين العميق بالتراث، ويقولون كلاماً في منابرهم ومقالاتهم وأحاديثهم، يشدد على مفهوم فقهي للحرية الدينية، يحاكي مفاهيم الحريات الليبرالية، ومفهوماً للحقوق يتنسخ «الميثاق العالمي لحقوق الإنسان» الذي ينص على تساوي البشر بقطع النظر عن معتقداتهم وأجناسهم. لكن من يعرف الفقه جيداً يلاحظ أن الأحكام الفقهية لغير المسلمين في المجتمع الإسلامي تنفي ذلك.

مثلما يكون الدين منبأً للتراحم والمغفرة والعفو والمحبة، هو أيضاً منبع للصراع والعنف والإرهاب والقتل، فهي اللحظة التي أكتب فيها بسقط في بلدي اليوم حدود 400 قتيل وجريح. اليوم هو عيد الفطر لسنة 2013، وهو مناسبة دينية احتفالية اجتماعية إنسانية ثقافية، ينتهج فيها المسلمون ويمرحون ويفرحون، غير إن بعض الجماعات الدينية تقي سموم مفاهيمها وفتاواها ووعودها للشباب، ليمسي كل

منهم انتحارياً، يطمح بلقب «شهيد»، هذا اللقب المشع بمضمون قيمى روحى غيبي رمزى، يحقق للانتحاري الخلاص النهائي حين يظفر به. هكذا، يسقط أبناؤنا في شرك هذه الجماعات، وينحرون أنفسهم بتفجير المساجد وبيوت العبادة والأسواق والمؤسسات المجتمعية، ابتغاء وجه الله، والفوز برضوانه، والظفر بالنعيم الأبدى، والخلود في الجنة!

نحن على الدوام نحاسب الانتحاري المباشر، ونسى الب. نسى ذلك الفكر الذي عمل على غيل مخه وتجنيدده، والذي نعثر على مثاله القبيح، فيما تفرقتا فيه بروياغندا بعض القنوات الفضائية الطائفية، والذي يقضي بطبيعته إلى إنتاج خيال مفلول أبديولوجياً، يشعر معه المرء بأنه هو فقط دون غيره، الذي يكون الله دائماً معه، لا مع غيره من المبتدعة والزنادقة والهرطقة. ذلك أنه: الأخلاقي، صاحب الضمير اليقظ، البرى، المنصف، العادل، النبيل، المتفوق في معتقده. هذا هو ما يسم روحه، بمختلف أنماط: التعصب العنيد، الكراهية المتصلبة، الفتك البشع، ويجرده من أي شعور بالذنب، حيال انتهاكاته لكرامة الناس - خارج قبيلتك وحزبه ووطنته - واستهتاره بحقوقهم، وعدوانه عليهم.

الدين هو الدواء وهو الداء، هو المرض وهو الشفاء، هو السم وهو الترياق. هكذا كان وما زال أثر الدين في مجتمعاتنا، لم يتراجع دور الدين منذ عصر البعثة حتى اليوم، ولا نعرف في تاريخنا مرحلة أضحى تأثير الدين فيها هامشياً وضعيفاً.

الخروج من نفق التخلف شرطه الأول والأهم هو إعادة بناء فهم للدين، وتفسير بديل للنصوص الدينية يتوكأ على المناهج والمعطيات الراهنة للعلوم الإنسانية.

السلام بين الأديان مقدمة للسلام بين المجتمعات، ولا يتحقق السلام بين الأديان من دون التحرر من تلك المقولات والأحكام الموروثة، وأية محاولة أخرى هي مجرد طلاء براق، سرعان ما يتلاشى ويذوب.

نحن بحاجة ماسة إلى قبول البشر كما هم، والاعتراف بهم كما هم، واحترامهم كما هم، مادامت المواطنة هي الإطار المشترك الجامع بين أفراد المجتمع

التفكير العقلاني منبعه الفلسفة، والتجربة الروحية منبع إلهامها التصوف والعرفان. ميراث الفلسفة والتصوف والعرفان مكثف رؤيوي، لكن الجماعات الإسلامية تناهض الفلسفة والتصوف والعرفان، وتشن حرباً بلا هوادة عليها، وتحضر

على أتباعها دراستها ومطالعتها والتعرف عليها، فيما توجههم للموروث السلفي النوصي المتشدد، وتهتم بتلقيهم مقولات مبسطة ومفاهيم محبطة وشعارات، تحت على الموت والهروب من الحياة، كما يقول شعارهم: «الموت أسمى أمانياً»، ويشدد على الابتعاد عن المجتمع عبر «العزلة الشعورية» حسب سيد قطب، وغير ذلك من شعارات تستفز الفرائز وتوقدها.

يسكر الشباب والناشئة بهذه المقولات والشعارات، فتعطل إرادتهم، وتُشل عقولهم، ويتعرضون إلى هشاشة أخلاقية، وشيزوفرينيا ثقافية، تنفجر معها مشاعرهم وعواطفهم وأحاسيسهم بمقت العالم والحنق على الآخر.

أ. صابر: في نظركم ألا تشكل المؤسسة الدينية في نمطها التقليدي جزءاً لا يتجزأ من تحويل الدين إلى نسق إيديولوجي تراثي مغلوق، يتصر فيه أصحابه للمؤسسة الدينية التي يتمون إليها على حساب المشترك الإنساني؟

د. عبد الجبار: أشرت فيما مضى إلى أن تحويل الدين إلى نسق إيديولوجي تراثي مغلوق، خطيئة «البروتستانتية الإسلامية». لو طالعت أدبيات الجماعات الإسلامية تخلص إلى أن مضمونها المشترك يتلخص في اختزال الدين في الأيديولوجيا، وتحويل تراثنا إلى أيديولوجيا.

الأيديولوجيا ضيقة مغلقة. الدين عابر للأيديولوجيا. تحويل الدين إلى أيديولوجيا، يعني اختزال الدين في بعد واحد، والذي ينتهي إلى: اختزال الإنسان في بعد واحد، واختزال الروح في القانون، والعقيدة في الثورة، والله في الإنسان، والإلهي في البشري، والسماء في الأرض، والغيب في الشهادة، والميتافيزيقا في الطبيعة، الفيزيقا، والآخرة في الدنيا، والروح في الجسد، والرمزي في الحرفي، والرؤيوي في المحسوس، والمعاد في المعاش، والعبادات والطقوس في المداليل الاجتماعية والتنمية والإنتاج، والديني في الدنيوي.

وحين يتحول الديني إلى دنيوي يسمي لاهوتاً للتحريم والمقاومة، وتختلط الحدود بين ما هو ديني وما هو غير ديني، فيجري تدين الدنيوي، وتعميم الفهم الديني لكافة حقول المعارف البشرية، وتدين المعرفة في خاتمة المطاف يفضي إلى التضحية بالعقل والخبرة البشرية المستقلة عما هو ديني.

أنت تعرف والأصدقاء ممن يطالعون كتاباتي ويستمعون أحاديثي، أنني كنت وما

زلت ناقداً للنظام التعليمي التقليدي في المؤسسة الدينية، وأنا ممن يعملون على تحديث هذه المؤسسة، ووصلها بالعصر، عبر اكتشاف المنطق الذاتي للموروث، من أجل عبوره، وتوظيف المناهج الحديثة في دراسة التراث والنصوص الدينية.

لكن ليس من الصواب اتهام المؤسسة الدينية التقليدية وتوريثها فيما أفضى إليه حالنا اليوم. وقائع تاريخ الإسلام الحديث والمعاصر تدلل على براءة هذه المؤسسة من «تحويل الإسلام من ثقافة إلى أيديولوجيا». الجماعات الإسلامية هي من فعلت ذلك.

أرد أن نطلع على الوثيقة الصادرة عن الأزهر في يونيو 2011، سترى أنها لا تدعو إلى أي شكل من أشكال «الدولة الدينية»، وإنما تحدثت بصراحة عن: «دعم تأسيس الدولة الوطنية الدستورية الديمقراطية الحديثة، التي تعتمد على دستور ترضيه الأمة، يفصل بين سلطات الدولة ومؤسساتها القانونية الحاكمة. ويحدد إطار الحكم، ويضمن الحقوق والواجبات لكل أفرادها على قدم المساواة، حيث تكون سلطة الشريعة فيها لنواب الشعب...».

وهكذا أعلنت المرجعية الدينية للشريعة في النجف أنها تدعو لدولة غير دينية، تستند المشروعية فيها إلى الشعب، كما ورد ذلك بوضوح في نص مدون لأية الله السناني المرجع الأعلى للشريعة في المؤسسة الدينية النجفية، والذي جاء فيه: إن «شكل العراق الجديد يحدده الشعب العراقي، بجميع قوميته ومذاهبه، وآلية ذلك هي الانتخابات الحرة المباشرة.. وأما تشكيل حكومة دينية على أساس فكرة ولاية الفقيه المطلقة فليس وارداً مطلقاً».

لم تنشق الجماعات الإسلامية عن المؤسسة الدينية التقليدية. جماعة الإخوان المسلمين لم يؤسسها أحد من رجال الأزهر، لم تولد الحركة في أروقة هذه المؤسسة العريقة، وإنما أسسها حسن البنا في الإسماعيلية، وهو لم يتخرج في الأزهر. وحتى اليوم، لم يتقلد منصب «المرشد العام» أزهري. أما المرشدون الذين تعاقبوا بعد حسن البنا حتى اليوم: «حسن الهضيبي، عمر التلمساني، محمد حامد أبو النصر، مصطفى مشهور، محمد مأمون الهضيبي، محمد مهدي عاكف، محمد بديع»، فليس فيهم أحد تخرج من الأزهر، أو كان متخصصاً في الشريعة والدراسات الدينية.

وهذا هو حال الجماعات الإسلامية الأخرى، فحزب التحرير أسسه تقي الدين النبهاني في القدس، والنبهاني لم يتعلم في المؤسسة الدينية التقليدية. الجماعة

الإسلامية في باكستان أسماها أبو الأعلى المودودي، وهو أيضاً لم يتخرج في المؤسسة الدينية التقليدية. جماعة النهضة التونسية أسماها راشد الغنوشي، وهو أيضاً لم يتخرج في الزيتونة، ولم يتخصص في الدراسات الدينية. وهكذا لم يتخرج في المؤسسة الدينية معظم الرجال المؤسسين للجماعات الإسلامية الأخرى، سواء كانت شيعية أو سنية. وحتى لو عثرنا في مرحلة التأسيس على بعض الفقهاء ورجال الدين المعروفين، كما في بعض الحركات الإسلامية الشيعية، فسرعان ما يغادرونها بعد مدة قصيرة، فيتولى قيادتها وتوجيهها مهندسون وأطباء، ومتخصصون في العلوم الطبيعية غالباً، لا علاقة لتكوينهم بالدراسات الدينية ودراسة الشريعة. وحتى اليوم يقود «القاعدة» الطبيب أيمن الظواهري. أما المرشد الحالي للإخوان المسلمين فهو الطبيب البيطري محمد بديع.

ولو راجعنا تكوين زعامات الجماعات الإسلامية فلن نعثر على فقيه مكرس أو رجل دين مشهور اليوم في قياداتها. معظم القيادات تخرجوا في تخصصات الطب والهندسة والعلوم الطبيعية، والعلوم والمعارف التي لا صلة لها بدراسة وفهم الدين والشريعة والتراث.

ومن الطريف أن أتباع هذه الجماعات كأنهم يتبنون إلى هشاشة الثقافة الدينية والفقهية للمؤسسين والمرشدين، فيعملون على تغطية ذلك بإضفاء لقب «شيخ» على هؤلاء عند ذكرهم وتداول أسمائهم، فيصفونهم هكذا: «الشيخ البناء، الشيخ المودودي، الشيخ الغنوشي... الخ». لقب الشيخ بمثابة قناع يستغفل الناشئة، ويغطي على هشاشة الثقافة الدينية والفقهية لأولئك المؤسسين والمرشدين.

وأدق تفسير عثرت عليه لهذه الظاهرة هو ما قاله الفيلسوف الشهير مارتن هيدغر: «العلم لا يُفكر»، بمعنى أن العلوم الطبيعية ليست علوماً للتساؤل والتشكيك والتأمل والتفكير والتحليل والتأويل والفهم، لأن القوانين الطبيعية تُكتشف وتطبق، وهي جرمية لدى دارسيها، فلا تتدرب أذهانهم على الظن والتخمين والتشكيك والتساؤل، خلافاً للفلسفة والعلوم الإنسانية.

أ. صابر: من أهم كتبكم ما كان عنوانه «إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين» ماذا عن هذا الكتاب؟ وماذا تعنون بالنزعة الإنسانية؟ هل المقصود بالإنسانية التصور الغربي؟

د. عبد الجبار: يتناول هذا الكتاب الحدود بين المقدس والديني، وينقد عمليات إفراغ الدين من مضمونه وتحريف هدفه، عبر اختزال الدين بالأيديولوجيا. ويشدد

على أن وظيفة الدين هي إنتاج المعنى، كما أن نمط إنتاج الآلات ووسائل الإنتاج المادية مادي، فإن نمط إنتاج الدين يرتبط بالمعنى، أي إنه يخلق المعنى على ما لا يمكن أن تمنحه الوسائل والأدوات الأخرى التي يمتلكها الإنسان معنى. ويتنوع هذا المعنى حسب تنوع الظروف والأحوال، واستعداد الأشخاص الروحي، ومستوى اطلاعهم على الفكر الديني، ووعيمهم الحياتي وثقافتهم. بعبارة أخرى: إن المعنى الذي يخلقه الدين على الحياة، حياتنا نحن البشر، يتوقف في تفسيره وأبعاده وشموله ومجالاته على رؤيتنا للوجود البشري ومعناه وحدوده وإمكاناته، فقد يُعظَّم ويُجَلُّ هذا الوجود ويحتفى به، حتى يُجعل منه غنياً في «كل شيء» عن «كل شيء» ما عداه، فينتهي إلى موقف إلحادي فيما يتعلق بالدين. في المقابل قد يحط من قدره، فيعتبر تافهاً وضحلاً، فتبدو له حتى عبادة الأوثان شيئاً مهماً وخيراً، بل وضرورياً. وقد تشكل نظرة متوازنة - بحسب المؤمنين بالديانات - بشأن هذا الوجود، فيعود للدين وظيفة ومعنى يشغله في تفسيره أو توجيهه.

وما أعنيه بـ«الإنسانية في الدين» في عنوان هذا الكتاب: الخلاص والتحرر من «نيان الإنسان» في أدبيات الجماعات الإسلامية، والاعتراف بشريته ومكانته في الأرض، وتصحيح نمط علاقته بربه، وتحويلها من صراع مسكون بالخوف والرهبة والقلق، إلى علاقة تتكلم لغة المحبة، وتبتهج بالوصال مع معشوق جميل.

أشرت إلى أن هذا الكتاب لا يعيدُ بأجوبة، وإنما يهتم بطرح الأسئلة، حتى عبر عنه أحد الباحثين ممن نشر مراجعة نقدية له بأنه: «كتاب في التساؤل». إن هذا الكتاب يحرص على تنمية روح التفكير النقدي، الذي يفرض بدوره، وبنحو متواصل للتساؤل المستمر، وتدريب التفكير على عدم الكف عن التحري وفحص المسلمات. ولا يتجاوز ذلك إلا بمقترحات وافتراضات وآراء، يعرضها للنقاش والحوار والتفكير. إنه محاولة للتفكير خارج الأميعة التقليدية، ودعوة لمفادرة القطعيات واليقينيات والجزميات، وتكرار المكررات وشروح الشروح التي عطلت التفكير الديني.

أ. صابر: كان لكم الفضل في إصدار مجلة «قضايا إسلامية معاصرة» منذ سنة 1997م حتى الوقت الحاضر، وهي مجلة رائدة فريدة من نوعها، من حيث القضايا والملفات التي عالجتها. فماذا عن هذه التجربة منذ نشأتها وحتى الوقت الحاضر؟ وما الرسالة التي يهدف إليها هذا المشروع؟ بصيغة أخرى، ما تقيمكم للدور الذي لعبته مجلة «قضايا إسلامية معاصرة» منذ إصدارها في تعميق سؤال تنوير التجديد الفكري؟
د. عبد الجبار: صدرت مجلة قضايا إسلامية معاصرة في مطلع سنة 1997 خارج

العراق، تعبيراً عن أحلام وتطلعات بتجديد واجتهاد وإعادة بناء وتحديث التفكير الديني، بما يواكب متطلبات العصر ووتيرة التغيير المتسارعة في عالمنا، بعد أن لبثت تلك الأحلام عقداً من السنين، يتداولها في حلقات نقاشية نخبة من الدارسين العراقيين في الحوزة العلمية في قم، وسبقها سنة 1994 مجلة نصف سنوية باسم «قضايا إسلامية»، أصدرتها بتمويل الصديق المرحوم الشيخ مهدي العطار، ثم توقفت بعد ثلاث سنين، فكان توقفها إيذاناً بانطلاق «قضايا إسلامية معاصرة»، بموازاة مجموعة سلاسل كتب، طبع منها مثلاً كتاب تقريباً. وأعلنت عن تأسيس «مركز دراسات فلسفة الدين» مطلع الألفية الجديدة في بغداد.

أدركت هذه الدورية أن مهمتها تلخص في: الانتقال من القول إلى الفعل، والكف عن الاستفراق في الكلام، وترديد الشعارات، من دون أية مبادرة جادة لتحريك ما هو ساكن، فتمحورت جهودها حول الإشكاليات الراهنة للتفكير الديني، والأفاق المعاصرة والمستقبلية للاجتهاد الشامل في مختلف حقول المعرفة الدينية، بنشر كتابات الباحثين والمفكرين المتخصصين في ذلك، سواء كانت باللغة العربية، أو عبر ترجمتها من لغات أخرى.

وقد رفضت استثناء عالم الإسلام من توظيف مناهج العلوم الإنسانية الحديثة في دراسة وتحليل الظواهر الدينية والاجتماعية، فافتحمت حقلاً يحذر بعض المهتمين بالدراسات الإسلامية من التعاطي معه، فيما ينظر إليه آخرون بارتياح وخشية، وحرصت على المراجعات النقدية والحوارات والنقاشات لمختلف المقولات والمفاهيم والرؤى المتداولة في المعرفة الدينية، ولم تحيز لباحث أو مفكر وتدعو لمقولاته، وعادة ما أردفت نشر أية رؤية خلافية بما يقدها ويدلل على رفضها، ذلك أنها تشد الاستيعاب النقدي للتراث والمعارف الحديثة، وتحسب أن المصالحة مع التاريخ والجغرافيا يكفلها وعي الماضي والحاضر والمحيط الذي نعيش في فضائه.

خطاب هذه المجلة تخصصي منذ عدها الأول، مضافاً إلى أن الدعاية لها والإعلان عنها ضئيل، ما منعها من التواصل مع طيف واسع من القراء، وكأنها أضحت محدودة التداول، ما ضيق مجال توزيعها وحضورها، والتعرف إليها، والكتابة عنها، حتى الإحالات المرجعية في البحوث والمؤلفات والأطروحات الجاهلية إليها لا تتناسب مع ما تضمه صفحاتها من دراسات ومساهمات وآراء متنوعة.

يتساءل جماعة من المهتمين بقضايا إسلامية معاصرة عن كيفية تحريرها ومكثها وعدد المحررين العاملين فيها، وميزانيتها السنوية وحجم نفقاتها ومنابع دعمها

وتعملها، وما تمتلكه من إمكانات ووسائل تتيح لها التواصل مع أبرز المتخصصين في المعرفة الدينية واستكتابهم وإثراء ملفاتها بدراساتهم، ومبلغ المكافآت المدفوعة لما ينشر فيها، فيما يبدي آخرون دهشهم من سقف الحرية الواسع في موضوعاتها، واتساعها لاستيعاب مختلف المواقف التحديثية والمحافظة، مما تضيق به الدوريات الإسلامية الأخرى، وقدرتها على تخطي «الطائفية الثقافية» والانفتاح على مختلف الأقسام، في عصر بطنى فيه الاستقطاب الطائفي، ويتعاطم الصراع المذهبي، ينحو بتورط فيه لبراليون وإسلاميون في الدفاع عن هذه «الطائفية»، ولا يفيضهم تجاهلها للحرقات والحقوق.

مجلة «قضايا إسلامية معاصرة» فضلاً عن افتقارها إلى مكتب ومبنى، فإنها لا تتوافر لديها ميزانية، أو ممتلكات وأوقاف خاصة بها، ومساهمات الكتاب فيها تطوعية، ولا تتم عملية التحرير فيها في مكان واحد، فتحريرها وطباعتها وتوزيعها تجري في أكثر من بلد، وفريق تحريرها يتألف من «عائلة»، تتولى فيها الأم سكرتارية التحرير منذ العدد الأول، فيما يتولى الابن الإخراج والتنظيم، ويشرف الأب على التواصل مع الكتاب، واقتراح محاور وموضوعات كل عدد، وإدارة عملية التحرير، وإجراء الندوات والحوارات، غير أن ذلك لم يمنحها من الاستمرار لعدة عشرين عاماً، بالنهج الذي اختطته، وبكفاءة فكرية عرفها بها المتابعون لها.

يتفق جماعة من المتابعين لهذه الدورية، من باحثين ودارسين ومهتمين بدراسة الاجتماع الإسلامي، وما يسوده من ظواهر دينية وثقافية، عاى أنها تغلبت على التفكير داخل إطار المفاهيم والآراء الموروثة، واشتقت لنفسها نهجاً لا يتطابق مع ما هو متعارف عليه في الأدبيات الإسلامية المتداولة، اخترقت مجالات لا مفكر فيها، وأحياناً ممنوع التفكير فيها.

تغلب على نمط الكتابة فيها استفهامات تتناسل منها استفهامات فرعية، خرجت من الدوائر القارة الساكنة في التفكير الديني، وحاولت أن تتخلص من الجزمية، وتصوغ رؤية تقدمها للنقد والنقاش، من دون أن تبشر بها، أو تدعو إلى قبولها والاعتقاد بها وتبنيها.

التقليد الذي أرسته «قضايا إسلامية معاصرة» عملت على محاكاته بعض الدوريات الإسلامية، فأضحت الـ«معاصرة» عنواناً توشحت به أكثر من مجلة فصلية صدرت فيما بعد، ولاحقت تلك المجالات الإشكاليات ذاتها، وانفتحت على نصوص ظلت منفية تحذر بعض المطبوعات من التعاطي معها.

مقالات منتقاة

مما نُشر حول الكتاب مع بعض مناقشات المؤلف

لاهوتي يتكلم لغة الإيمان والحب والرجاء⁽¹⁾

الكاردينال الدكتور لويس ساكو⁽²⁾

لقد قرأت بتمعن وشغف كتاب د. عبد الجبار الرفاعي: «الدين والظلم الانطولوجي» ط2، والذي صدر عن مركز دراسات فلسفة الدين في بغداد ودار التنوير بيروت 2017.

بدأت بقراءة مقدمته، لكنني لم أتمكن من التوقف، فأنجذبت الى قراءة الكتاب بالكامل. انه سفرٌ مشوق يحمل بين طياته قلباً وجدانياً مفعماً بالحب والايمان، وفكراً ناضجاً عميقاً، نيراً صادقاً. كلماته تعبر عن ذاته لذاته وللآخرين. إنها خيرة حياة وايمان بكل معنى الكلمة، وليست اجتراراً للسلف، ولا ترديداً لطقوس جامدة، ولا تدنيا زائفاً.

كتاب أتمنى أن يقرأه كل رجل دين مسلم ومسيحي، وكل إنسان مؤمن، لأنه في

(1) نشر المقال في كانون الثاني «يناير» 2017، في صحف: المدى «بغداد»، المثقف «سدي»، أفاق «السعودية»

(2) مار لويس روفائيل الأول ساكو، بطريرك الكلدان الكاثوليك منذ شباط 2013. حصل على شهادة الدكتوراه من الجامعة البابوية في روما عام 1983، وماجستير في الفقه الإسلامي سنة 1984، كما حاز لاحقاً على شهادة دكتوراه من جامعة السوربون سنة 1986. ألف ونشر ما يزيد عن 200 مقالاً، و20 كتاباً في مجالات اللاهوت والدين...

النهاية باعتقادي، سيفوده إلى أن يعبد الله «بالروح والحق»، كما يقول السيد المسيح «إنجيل يوحنا 4/13». لأن من يقرأ سيزداد معرفة وتويراً وحقاً وحباً لله...

أقول ومن دون مجاملة وجدت الكتاب سفرأ غير معتاد من مسلم، يتحدث الجمود «الكليروساني - الاسلامي» عن معرفة وخير، فجاء مبدعاً ومحرراً. عبد الحبار الرفاعي «ابن الحوزة العلمية»، يتكلم عن خبرة ذاتية، وعن علاقة شخصية بالله، ويتكلم عنه بمنطق الايمان وليس بأسلوب فلسفي - ميتافيزيقي، أو بكلام الصالونات، أو باجتراء للسلف، بلا تاريخ، «عود أبدي»، كما يسميه عندما يروي سيرته الشخصية في الفصل المخصص عن سيرته والمعنون «بيان الإنسان» ص 35-90. استمتعت جداً جداً بسيرته الذاتية، والتي أتمنى أن تتحول إلى فلم أو مسلسل، يعلم الجيل الجديد كيف يكون عصامياً بجهد شخصي «بعرق الجين»، وليس بطريقة أخرى سهلة!

الكاتب لا يريد أن يعيش على الحدود، ويرفض البكاء على الأطلال، أو التضيي بالأمجاد كما يفعل العرب عموماً، بل يريد الإبحار إلى العمق إلى الجوهر ليكشف ما فيه من جديد الله في جديد الإنسان، وجديد الزمن، كما يروي في الفصل المخصص عن سيرته.

ما يشد في الكتاب أنه يحكي بياطة عن خبرة حياة ايمانية عن انسان يقيم علاقة شخصية معمقة مع الله، فيتكلم بشجاعة الأنبياء عن أن الإيمان ثورة حب، ووجدان، وغفران، وروح وليس ممارسات جوفاء. يتكلم عن إنسانية الدين ويعطي الطمأنينة والأمان. يتكلم عن خبرات الإنسان، وتساؤلاته، وأوجاعه، وقلقه، وأحزانه، وأفراحه الصغيرة، وآماله الكبيرة، وخيائه، وإمكاناته، وطاقاته التي من خلالها يظهر الانسان بكل جماله.

القيامة في الحياة والحياة في القيامة، لأن الحياة مشوار الى القيامة. ومن ليس قاتماً منذ اليوم، لا يقوم إلى الأبداء القيامة هي الحياة الحقّة التي لا تولد، بل تبده كما سطرت. الإيمان «وليس التدين»، الفكر، الحب، خدمة الإنسان هي الخلود.

إنه يواصل مع البدايات المعاصرة، مع النبايع الأصينة من أجل «الأصالة والمعاصرة»، وألا تتخشب المعطيات فلا تقول شيئاً ذا معنى لإنسان اليوم، كما فعل المسيح مع «الفريسيين، علماء الشريعة والذين سماهم: «القبور المكلمة» «متى، 23/27».

يشدد الرفاعي على أهمية الدراسة المقارنة للاديان، التي يتجلى فيها الجوهر الروحاني العميق لها، فيكتب: «الدراسة المقارنة للاديان والفرق والمذاهب ضرورة تفرضها النزاعات الدينية في مجتمعاتنا. المنهج العلمي في دراسة آية ديانة لا يصح إلا بالعودة إلى نصوصها المقدسة، ومدوناتها الحافظة بهذه النصوص. مالم يتسع حقل مقارنة الاديان والفرق والمذاهب بين الدارسين والباحثين في المعارف الدينية، لا يمكن تصويب سوء الفهم والأحكام المسبقة، وحذف الكثير من الاخطاء المتركمة في فهم اتباع ديانة أو مذهب لمقولات اتباع ديانة أو مذهب آخر. سوء الفهم والأحكام المسبقة تنال منها أحكام أحادية اقصائية حيال الآخر، وتتحول إلى منبع تستقى منه حالات التعالي، وازدراء الآخر، واحتقار دياناته وتراثه. وسيجد الباحث عبر المقارنة الموضوعية للاديان انها تنشئ تكريس واثراء الجوهر الروحاني للانسان».

وفي الحوار الذي أجري معه في الصفحات «175 - 216» والذي عنوانه: «لا خلاص للدين إلا بالخلاص من أدلجة الدين وإعادته الى وظيفته في إرواء الظمأ للمقدس»، يجيب الرفاعي عن الأسئلة العظمى للدين: «معنى الوجود والخلود والاخلاق والطقوس والقوانين...». ويسمى بشجاعة لتحديث التفكير الديني في الإسلام وخطابه، ولربما هنا جواب غير مباشر على من يفكر بلا منطقية الدين، أو يخطف للتحريض على الإكراه والقتل والدمار.

الدين خلق وإبداع وليس جمود وتحنيط، سفر دائم الى الأفاق البعيدة، لاكتشاف معنى الأحداث والأشياء، وإيجاد أبجدية جديدة تنطق وتشحن وتحرك وتغير. الدين يدعو الى تخطي عالم الكلمات الى عالم المعاني.

كتاب عبد الجبار الرفاعي يتكلم عن عبور متواصل، قادر على الحضور في زماننا، من خلال تجدد يومي في الحياة، واحتفاء دائم بسر الوجود، وصلة حية بالله. كي نولد في قلب الله... أليس هذا هو الايمان؟

لا يدعو الرفاعي للحب بأسلوب مبسط، وانما يحاول أن يتعمق في تفسيره، ليشرح جذوة الحب الملهمة. بوصفه حالة تحققها الذات وتحقق بها، ويكشف عن شيء من طابع الشخصية البشرية. يكتب الرفاعي: «الانسان كائن مكون بطلب الحب. الحب من أصعب اختبارات المرء في الأرض، وأغناها عطاء. حب الناس من أشق المهمات في حياة الانسان، ذلك أن الكائن البشري كثيراً ما يتعذر عليه أن

يحب هيزه. الحب لا يُتخذ كقرار، وإنما هو حالة تتحقق وتوجد في الذات، وتتحقق وتوجد بها الذات في طور أجمل. الحب لا يُمتلك إلا بعد تربية طويلة، وتزود بخبرات الشفاء من الكراهيات الغاطسة في الذات، ومقدرة الانسان على مراجعة سلوكه مع غيره وكيفية تعامله مع الناس، وشجاعة نقد وتقويم الذات، وبصيرة تمكنه من اختيار سلوكه مع الناس بمقارنته بما يفرضه من مواقفهم معه، فكل ما يزعجه منهم يزعجهم أيضاً لو صدر منه. الانسان أعمى عن أخطائه، لأنها مألوفة لديه، ولفرط تكرارها أضحت مدمناً عليها بشكل يمنعها من رؤيتها أخطاء، وعادة فإن ما يصبح مألوفاً في حياته يتعذر عليه أن يراه قبيحاً. الانسان ليس كائناً آلياً، بل هو بطبيعته أسير ضعفه البشري، لذلك لا تجف منابع الغيرة في أحاسيسه، ولا تموت نزعات الشرف في أعماقه، ولا يكف عن الصراع مع غيره، ولا يتوانى عن اللجوء للعنف مع خصومه. تلثقي في نفس الانسان الكثير من الدوافع والرغبات المتضادة، المنبئة من مكبوتات متنوعة مترسبة في ذاته».

أتمنى أن يقرأ هذا الكتاب كل رجل دين مسلم ومسيحي، حتى تكون له شجاعة الأنبياء في تبليغ الناس رسالة الايمان. هذا الكتاب صرخة موجهة أمام الواقع المرير، انه نداء بتوجه إلى ضمير كل مؤمن مسلم ومسيحي. ويتمنى هو، وأتمنى أنا أيضاً: أن يجد صدى ما في حياتنا.

أتمنى ألا يستمر صوت د. الرفاعي وحده حتى النهاية، بل أترقب أن يكون حوله مدرسة من طلاب فكر وإيمان ونور ومحبة وخير، فيعيد الى الدين جوهره وصفاءه ممن خطفوه وشوهوه!

عبد الجبار الرفاعي: للمدرسة بابٌ آخر⁽¹⁾

الشيخ مهند الساهدي⁽²⁾

إذ أختار ابو حامد الغزالي الهروب من المدرسة النظامية في بغداد، قرّر معاصري عبد الجبار الرفاعي أن يمكث في بغداد ويصبر على المدرسة، ويفتح لها باباً آخراً لذلك قلت له: انا فرح بك مرتين؛ الاولى بما تكتب، والثانية انك عدت تكتب وتنتشر من بغداد عاصمة العباسيين التي هرب منها الغزالي.

أن تهرب من المدرسة، وأن تفتح لها باباً آخر

خياران لا يقف عليهما إلا من أدرك بعمق حقيقة المسافة المصرية بين الدين التاريخاني الرسمي، والدين الروحي من خلال تجربة الانسان الذاتية في التدين. هذا ما أنكره الغزالي على المؤسسات البغدادية واعترب عنه، وما تحدّث عنه «روسو» في رسالته عن عقيدة قديس سافوا. إن خطر هروب الرسالات الى الأمام لا يقبل عن خطر هروبها الى الوراء، والمكوث في المدرسة والصبر على هشاشتها الرسمية، وتردّدها العلمي، لا يقبل - إن لم يزد فضيلة - عن الهروب، والمغاضبة، طلباً لعافية الدين والدنيا، او القروط مضمخاً بالإخلاص على طريق الحقيقة العلمية الشاقة.

(1) نشر هذا المقال في صحيفة الصباح «بغداد» الصادرة في 25-12-2017.

(2) كاتب عراقي مقيم في ألمانيا.

وهنا سأحتفي بالرفاعي من خلال تسجيل رؤية مركبة الأبعاد، تحصلت لي في ربيع القرن الأخير من متابعتي للرجل، وهو يزرع نوى التمر ويتطلع الى فيه ا

في المائة صفحة الاولى من كتاب «الدين والظلم الانطولوجي» تبعت سيرة غير مفصلة، أجمل فيها صاحبها رؤيته الكلية لأخيه الانسان، ودون فيها مشاهدات، ومعايشات ليست اعتباطية، أو غير مهمة إطلاقاً، في محاولة شجاعة لرجل جاء من خلفية لا تعترف او تبوح بجوانياتها بسهولة، من خلال ثقافة كتابة المذكرات، والسير الذاتية.

أن تكون لك ذاكرة مكان فهذا يعني انك كنت فيه، وأن ترد تجاربك مع الانسان فإنك تحكي تجربة الانسان الذي هو انت، وان تعيد ترتيب وتسلل الأحداث بطريقة غائية، الهدف منها تتبع مراحل بناء الذات، وملاحظة بيئات تكوينها، فأنت تؤشر للآخر من خلال الذات: دلالات، ومثابات، وغير.

وفي اللحظة التي يُختطف فيها الخطاب الديني، وتغصب قيمه، وتعرض مؤسسته للاختراق من أحباره، ورهبانه، وشيوخه، وتعرض رسالة الدين الى التشويه، فتعاد كتابة شروحها بالأفهام المغلوطة، والشروحات المغلوطة، والخطابات المغلوطة، لا يبقى أمام التجربة الدينية سوى العودة للذات، والتحصن بها، وتجاوز التعريفات الإشكالية للدين.

حين يتعرّض الخطاب الديني مع المجتمع، وفي السياسة، او الاقتصاد، فعلى الروح أن تجنب العقبة الكأداء، وتربح نفسها إن قدر لها أن تخسر العالم.

لم يكن متصوفاً على المطرة

في «الدين والظلم الانطولوجي» لاحظت أن الرجل لم يغفل عن نقد التصوف، فسجل ملاحظاته الذكية على محتوى التصوف وصوراته التاريخية، ومُنظّماته الاجتماعية، ومواقفه السياسية، ومآلاته الاخيرة.

توقف عند تفخيم الألفاظ، والمصطلحات الصوفية، وإحاطة الاولياء بهالات القداسة، وإسباغ الألقاب التي تتحول معها رموز التصوف الى أصنام جديدة، تعبد الانسان المتدين الى الحفرة ذاتها التي هرب منها، حين يعاد تمثيل الدين من خلال الفرد، أو المؤسسة، التي قد تكون الخلافة في الحكم، أو الطريقة في التصوف، وفي جميع الحالات، فإن التجربة الذاتية تفقد تجردها أيضاً.

وجدته انساناً خُلق كما يشاء

لك أن تحتفظ في كل من تعرفت عليهم بحق قياس المسافة والفارق بين ما يفكر به، وما يكتبه، وما يقوله، وما يعمل به، حتى تلتقي مع عبد الجبار الرفاعي، لتكتشف أنه رجل يفكر ويتكلم ويكتب ويعيش بطريقة واحدة.

وطالما قلت له: يا أبا محمد انت نسخة مريحة من بني آدم.

ذلك أن الصداقة والتعامل مع النمط السهل التركيب بين القول والعمل هي غير الصداقة والتعامل مع النمط الآخر المعقد أو الملتبس أو المشوه التركيب، بين القول والعمل، والذي قد يفكر، ويكتب، ويقول في مجرة، ويعمل، ويشغل، ويعيش في مجرة أخرى، وبينهما ما شاء الله من السنوات الضوئية.

لقد ربط هذا الإنسان الإنسان، بين الحقوق المعرفية والعلمية التي اشتغل عليها، وبين تكوينه الأخلاقي وسيرته الاجتماعية ومناقبه السلوكية، فتراه ينجم سريعاً مع معطيات العلم، ولا يخلع قديماً من الرأي إلا ليلبس جديداً غيره، ولا يغادر قناعة الأمس، وانتماء الأمس، وعقيدة الأمس، ونمط تدين الأمس، إلا لصالح قناعة وانتماء ونمط اليوم، وهو لعمرى معنى الحياة، ومعنى أن تكون كاتباً مهجوساً بها.

لا غضاضة في مديح صاحبي ما دام بعيداً عن السلطة

وصاحبي رجل شغف بالكتاب والمكتبة بقدر شغفه بالجديد والعميق والشجاع من الأفكار، فكان يصف الكتب في مكتبته صفاً، وينفق عليها كما ينفق المؤمن الذي يعني الحج على الزاد والراحلة، أو كما ينفق الجائع على طعامه، أو الظمآن على شربه. كان أول ما أهده لي الرفاعي في تاريخ صداقتنا هو كتاب، كما أن آخر ما أهده لي هو كتاب أيضاً، وكان العلاقة مع الرجل، في أبهى، وأنصح، وأنفع صورها هي علاقة ما بين كتابين.

سمى كتابه الأخير: «الدين والظلم الانطولوجي». «الدين والظلم الانطولوجي» كان آخر كتب الرفاعي وهداياه الثمينة. والكتاب الهدية الأولى كان عن الأسرة وتربية الأطفال في الإسلام. أهده لي منكوراً بمناسبة زواجي من أم أولادي الثلاثة، أيام كنا نكن في شارع واحد من شوارع مدينة قم، هو «شارع سمية»، حيث لا أتكلف لزيارته، ولا يتكلف لزيارتي، غير المشي المريح لخمسة دقائق، يتأبط فيها هذين المجلدين الجميلين، وعبارات التهنته، وابتسامته التي لا تفك ولا تغادر محياه

الطلق، وبعض من حكاياه، ونظراته، وأسفاره، ونصائحه، وتجاربه، وطُرفه التي لا يعدمها جليسه.

يتابع صاحبنا حركة الفكر والفلسفة العربية والإسلامية، وهو كما يشرف على التاريخ، ويتبع نبض المدونات الاولى وبيئات تدوينها، كذلك يدقق النظر في مآلات هذه المدونة، وبها الطويل الذي يحيط بواقع الفكر المعاصر، ويتتبع خطاب المستقبل ضمن مدياتها المتاحة. وهو في كل ذلك متلبس ومنتج للقلق المعرفي، ساعياً لوضع يده على الحقيقة التي تنأى بمقدار الاقتراب منها.

يُعدُّ الرفاعي من أندر المفكرين، المشتغلين على حقولهم المعرفية، الذي يدير منتجته وإسهامه بنجاح، كما يكتبه بنجاح. تحتاج المواهب والطاقات الى إدارة نفسها إدارة ناجحة، بعد فراغها من الإسهامات الناجحة، بل تعدُّ إدارة المشروع الفكري جزءاً مكتملاً للمشروع ذاته. لذلك تجد الدكتور عبد الجبار يتابع بنفسه مراجعة نصوصه، وتحمل مشقة الكتابة، وتقويم النصوص، وطباعتها. وكان يعبر عن مجلته الاولى «قضايا اسلامية»، فيقول: أنا محررها، وأنا عامل الخدمة فيها. وقد نسج صاحبنا منظومةً طويلة مما يمكن أن نسميه «العلاقات الفكرية العامة» مع أصحاب المشاريع الفكرية المهمة، في: العراق، وايران، ولبنان، ومصر، والخليج، ودول المغرب العربي، التي أرتبط الرفاعي مع جامعاتها، ومؤسساتها، ومعاهدها، ومفكرها، واصداراتها، بعلاقة لم تتح لعراقي آخر على الإطلاق، وربما لمشرقي عربي آخر. وهذا يعود بالأساس للمثابرة التي عُرف بها، ووليه بملاحقة كل جديد، والاتصال والتواصل مع كل جديد، ورغبته بالتواصل والتلاقي الذي صيره مفكراً فاعلاً في «التواصل» على حد الاستعارة والتصرف عن هابرماس.

نامت محاولاتي للكتابة عن الرفاعي طويلاً، حتى أحييتها جائزة الدوحة الأخيرة⁽¹⁾، وهي جائزة في عنوانها ودلالاتها، وسيرة صاحبها، ما يشير بمرحلة استعادة بغداد لعقلها الفلسفي والعرفاني الغائب أو «المُغيب»، حيث عكفت مجموعة من النخب المهمة لإعادة الاعتبار لدرس الفلسفة والمنطق والاخلاق في المنهاج الدراسي العام.

(1) مُنح عبد الجبار الرفاعي في الدوحة بقطر بتاريخ 14 ديسمبر 2017 جائزة الانجاز الأولى للشيخ حمد في التفاهم الدولي، على منجزه الفكري الرائد، وآثاره في: تأصيل ثقافة المعرفة والحوار، وترسيخ القيم السامية للتنوع والتعددية والعيش المشترك.

لا يمكن ان تتحول الفلسفة الى حقل عام في متناول الجميع، لكن زراعتها في البيئة العلمية والاكاديمية، توسع من آفاق النخب، وتثمر عقلاً مقارناً، يلحظ النسبية، ويتجهج الاعتدال، ويهرب من فخاخ الأحادية، واليقينة المطلقة، التي تحجب الرؤية وتوقف التفكير.

لقد عمل الدكتور الرفاعي بجهد، على وصل التاج الفلسفي والفكري الفارسي المعاصر بنظيره العربي، كما كان همزة وصل لآفة بين المشرق والمغرب العربي، وجسراً علمياً بين الحوزة والجامعة، ومحضراً خيراً بين السياسيين والمثقفين، وما ذهب إلى دولة في شمال افريقيا إلا وسألوني عنه، حتى بات الرجل قمرأ من فلك الأزوار مطلعته.

للفراعي، ولجائزته، ولبغداد، وأمها، وغدها، أكتب كلماتي والأمل يملأ القلب بغد جميل تأخذ فيه الافكارُ والفلسفات الصائبة مكانها في حياة العراقيين.

النفس المطمئنة.. عبد الجبار الرفاعي

د. سعيد هندان (1)

في أخريات العشرة الأخيرة من القرن العشرين؛ جاءني صديق بمجلة لم أطلع عليها من قبل، ولم أكن أعرف شيئاً من شأنها؛ وقال لي: إن فيها نمطاً جديداً من الفكر الديني. كان اسمها: (فضايا إسلامية معاصرة)؛ وحين شرعت بقراءتها وجدت شيئاً يختلف عما هو سائد؛ وجدت روحاً تنفذ من وراء الحروف إلى المغزى الإنساني الرفيع الذي ينطوي عليه النص المقدس، ووجدت رؤية لا تخشى تعدد القراءة، ومبدأ يرى أن الخلق بأجمعهم عيال الله، وأنهم كلهم لا ينفكون من صلة به بنحو ما، وأن المحبة دين، والدين محبة. ولم يكن ذلك مما يجري مع السائد المتداول؛ إذ بين المنحيين بون بعيد؛ بعد ما بين من يزعم امتلاك الحقيقة، والنطق بأمر الله، ومن يرى أن الطرق إلى الله بعدد أنفس سالكيها. وحين يقع لي عدد آخر من المجلة؛ أجد المنهج نفسه يتنظم كل أبحاثها؛ إذ ينظر كل كاتب من كتابها إلى وجه من وجوه الأمر؛ لتكامل العناصر، ويتم وضوح المقصد. ويطرد صدور المجلة؛ عدداً عدداً؛ ووراء ذلك كله رجل بعينه، لم يكن اسمه يومئذ، ونحن بالعراق، في العقد الأخير من القرن العشرين، في ماسقط الضوء؛ لكن المجلة بنهجها تبين عن رجل رصين العلم، واسع الأفق، ذي رؤية في الدين تقوم على الرحابة والسعة، تكون المحبة منها ركناً

(1) باحث وناقد وأستاذ جامعي عراقي. صحيفة إسلام مغربي «الدار البيضاء»، 15 - 2 - 2016.

رئيساً؛ إنه عبد الجبار الرفاعي. وكان للمجلة برؤيتها، وباسم صاحبها أن يتسع مداها، وأن تجد قراءها في المغرب مثلما وجدتهم في المشرق، وأن يأخذ نهجها مكانته في دراسة الدين. وكان صاحبها، الرفاعي، حريصاً على نهجه في تفهم الدين، ومعاناة تجربته في بعدها الروحي، وراثتها الوجداني؛ لا يني يسط رؤيته؛ مرة بالمقالة يكتبها، وأخرى بالكتاب يؤلفه. فقد وضع، وهو في سياق يسط الجانب الإنساني من الدين، كتابه: (إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين) لكي يُري وجهاً من الدين يكاد يخفى تحت قرون من الاحتراب؛ كانت تُبدي منه ما تريده سلطة جائرة، وتخفي ما فيه أمن وسلام ومحبة؛ وكل نص إنما هو قراءتك له؛ فإذا جنته معباً بالبغيضاء والكراهية؛ قرأت فيك ذلك، وجعلته أداة في محاربة الآخرين؛ وإذا أقبلت عليه بالمحبة والرضا والطمأنينة وجدت فيه ما لديك، واستطعت أن تُشيع به السلام، والسكينة. ثم وضع في السياق نفسه: (الدين والظلم الأنطولوجي) «يشد فيه إسلاماً يقوم على الحرية، والمحبة، والسلام»؛ ويروم به «إنقاذ النص من سوء القراءة»، «وتحرير التدين من العنف والتوحش». ولقد انزلت الحوادث، منذ قرون، بالدين نحو ما ينأى به عن جوهره، ويجعله أداة من أدوات السلطة في حكم الناس؛ فتضاءلت عناصر المحبة، والطمأنينة، والسلام، وزادت عناصر الكراهية، والخوف؛ إلا ما كان من فئات قليلة أرادت أن يكون الدين تجربة روحية، تزيد الأنفس سلاماً وسكينة وأملاً، ولم يكن ذلك مقصوراً على السلطة ورجالها، بل إنه قدر مشترك بينها وبين من خرج عليها من أحزاب وجماعات؛ إذ كلهم جعل الدين أداة من أدوات الصراع؛ غافلاً عن بعده الروحي؛ حتى استحال الدين عامل فرقة، ومدعاة نزاع. غير أن الناس، في عاقبتهم، من غير رجال السلطة، ومن غير معارضهم؛ قد فهموا الدين على أنه ملاذ، وسكن، وشيء روحي يسمو بالإنسان، وبهية الطمأنينة؛ حتى كان العصر الحديث، وكانت إطلالة الغرب بايديولوجياته؛ نشأ بين العرب المسلمين من سعى إلى جعل الدين أيديولوجياً، وحزبياً يقابل به أيديولوجيات العصر وأحزابه؛ ويريد أن يقيم سلطة على أساس منه؛ فكان من ذلك أن أخرجوا الدين من أفقه الروحي، وهبطوا به نحو معترك السياسة، وما يضطرب فيه من أحابيل وفتن. وقد خبر الرفاعي ذلك، وعرفه في مشنه ومآته، ورأى ما ألحق بالدين من أذى، وما أوقع على الإنسان من جور؛ فكان أن غادر إطاره منصرفاً إلى الدين في صفاته وسموه، وشرع يدون تجربته؛ بالمجلة التي أصدرها، وأحسن إدارتها، وبالكتب التي ألفها، وبمركز دراسات فلسفة الدين الذي أنشأه. جاء كتاب: (الدين والظلم الأنطولوجي) معبراً عن تجربة صاحبه،

ملاهما ما هو عليه، بعيداً عن النظر المجرد، قريباً من الروح وأشواقها؛ ذلك أنّ الدين عند الرفاعي ملاذ نفس، وسكن روح، وليس جدلاً ومحااجة. وقف الكتاب عند عنوانات جديرة بالمعالجة؛ من مثل: «نيان الذات» و«نيان الإنسان» و«علي شريعتي: ترحيل الدين من الأنطولوجيا إلى الأيديولوجيا» و«التجربة الدينية والظلمة الأنطولوجي للمقدس» وغيرها ممّا هو على شاكلتها. وعالجها كلّها بنحو يُعرب عن مكانة الفرد، وأصالة تجربته، وصدق وجدانه؛ وأن لا شيء يُخلّ بذلك كلّ مثل القسر، والتسلّط، وفرض الأفكار. يقول: «إنّ أدبيات الجماعات والأحزاب تتجاهل فردية الكائن البشري، ولا تتحدّث عن الهوية الشخصية عادة. وهو ما يبدو مائلاً في أدبيات الأحزاب اليسارية، والقومية، والجماعات الإسلامية، التي تتعاطى مع الفرد بوصفه عنصراً يذوب في مركّب هو الجماعة». و«إنّ هذه الجماعات تهتم بكل شيء خارج الذات؛ فيما تعدّ الاهتمام بالذات أنانيةً وتفاهةً، ومروقاً عن الجماعة... من هنا تحرص أدبيات الجماعات الإسلامية على مناهضة ورفض الثروة الفلسفية، ومدونة التصوّف والعرفان في الإسلام». وعنده أنّ «الإيمان شخصي، وهو خيار فردي». وأنّ «الكلام الكثير عن الدين والنشيرة، وتحشيد كتاب عديدة من البشر من أجل تلقينهم الإيمان؛ سيفضي إلى نتائج منافية لروح الإيمان والضمير الديني العميق. ولا شك في أنّ ذلك منحى جديد في القراءة والفهم، يريد سعة في المدار الروحي، ويأبى أن يتسلّط بشر على بشر باسم الغيب ومنابعه. ولكي تتضح المعالم، وتبيّن أبعاد التجربة؛ فقد شرع الرفاعي يستعيد أطرافاً من حياته؛ في نشأته الأولى، في قرينه النائية، وأخذ يتأمّل في ما كان له، وما كان منه، وما كان من آخرين اتّصلت بهم حياته بنحو ما؛ يقول: «اكتشفت في وقت مبكّر أشخاصاً من زملائي الإسلاميين مات الإنسان في داخلهم، ثمّ هتكت تجربة السلطة في العراق عورات بعضهم فمات الله في داخلهم... مجموعة متّعة عاشرت من الأصدقاء قبل السلطة؛ فضح ظفرهم بالكروسي كلّ ما هو رديء مخبئ في داخلهم؛ من: هشاشة الشخصية، هذيان الذهن، هذر اللسان، تبدّل الشعور، موت الضمير، نرجسية الذات، انطفاء الروح. كتب «نيان الإنسان» مستعيداً النشأة، والصبّ، وصدر الشاب، وما أحاط بذلك كلّ من نيان الإنسان، وهدر درامته، وإعصان حياته. يقول: «أنظمة التربيّة والتعليم في مجتمعاتنا مشغولة بتكديس المعلومات في ذهن التلميذ؛ من دون أن تتعلّم طرائق التفكير». ويتحدّث، في لقطه بارعة، عمّا في المدارس من عنف يمارسه المعلمون؛ فيقول: «لعلّ معلّمنا يستوفي ديوناً متراكمة؛ من اضطهاد تعرّض له في طفولته من الأبوين،

وغيرهما... أو في مدرسته... فيسقط علينا كل ما يختزنه لآويعه من تعذيب وتكيل وقمع تلقاه في حياته... المقموع يُسَمَّى قامعاً، والمُعْتَف يهيم مُعْتَفاً... أحب أن هذه الوحشية المتفشية في مدارسنا هي أحد المنايع الأساسية التي شكّلت النسيج الرابض للعنف والنزعات العدوانية في مجتمعنا. وحرّيّ رجال التربية أن يقفوا عند هذه اللقطة البارعة، ويصلحوا الأمر؛ فقد قلّ من عُني بما يقع من عنف في المدارس؛ ولا سيّما الابتدائية منها؛ وما يلحق ذلك من أذى في نفوس الطلبة الصغار. ولا يختم حديثه عن نفسه حتّى يقول: «لله الحمد، منذ غادرتُ الجماعات الإسلامية - قبل أكثر من ثلاثين عاماً - أنا سعيد في حياتي، أعيش سلاماً روحيّاً، وسكينة وطمأنينة، أمضي نهاري - بعد أن أصلي الفجر - في نشوة الإدمان على العمل، أنام وأصحو بسلام؛ من دون خطايا انتهاكات لحقوق وحرّيات الناس تلاحقني، أو كوابيس سرقة الأوطان تطاردني». ولا يقول ذلك إلّا رجل صادق؛ لا يكذب نفسه؛ يريد وجه الحقيقة؛ وعنده أن جعل الدين أيديولوجيا يهبط به عن منزلته، ويُضيق جانبه الروحي؛ ولكي يتّضح ما يذهب إليه؛ وقف عند علي شريعتي وقفة تفصّل في حياته وفكره؛ لعلّها أوّل وقفة في العربيّة على هذا النحو من الجرأة والعمق. يقول عنه: «انتهى تشديد شريعتي على الأبعاد الدنيوية للدين إلى تمركز مفهومه للدين على العناصر المتغيرة التي وصلها عضويّاً بأدلجة الدين، وأهمّل التوغّل في جوهر الدين، ولم يتنبّه لاكتشاف مضمونه الأصلي ومهمته في إرواء الظمأ للمقدّس». ويقول أيضاً: «إنّ ما أفضت إليه أدلجة الدين هي عبودية الإنسان للأيديولوجيا، واستلاب الأيديولوجيا لروحه وقلبه وعقله، وإقحامه في أحلام رومانسية ووعود خلاصية موهومة». والكتاب، من بعد، غنيّ بما يرّد الدين على الناس صافياً نقيّاً، بعيداً عمّا انحدر إليه من توحّش، وإيقال في الدم. ومن عرف الرفاعي فقد عرف فيه السكينة، والرضا، والطمأنينة، وقد تجلّى ذلك كلّ في كتابه (الدين والظلم الأنطولوجي).

مرافعة عن «جوهر الدين»

القاهما محام بارع في محكمة الضمير

أحمد عبدالحسين⁽¹⁾

الآن أكملت قراءة كتاب أستاذي وصديقي المفكر د. عبد الجبار الرفاعي (الدين والظلم الأنطولوجي)، وأردت أن أشارككم هذا التأمل فيه. منذ عنوان الكتاب (الدين والظلم الأنطولوجي) يربط المفكر عبد الجبار الرفاعي بين ما يراه احتياجاً لاستكناه الغيب وتشوقاً للمجهول وعطشاً إلى ينبوع الوجود من جهة، وبين الدين من جهة أخرى، باسطاً على صفحات الكتاب رؤى ناصّة على أن هذا الظلم الراكز في جيلة الإنسان ليس له رواء إلا بالدين. لكن الالتباس واقع في الاثنين معاً، في عبارة (الظلم الوجودي) ذات التركيب الشعري والموحية بجذر عرفاني، كما في لفظ الدين، بل أزعج ان الأخير أشدّ التباساً وأبعد عن أن يكون له معنى واحد في الأفهام يناظر واحديته في الأسماع. فما الدين؟ أهو الجملة المكونة من الشرائع: عبادات ومعاملات، ومن العقائد والأعراف ونمط العيش؟، أهو النصوص الأولى فقط أم يمكن أن يستوعب النصوص الدائرة في فلكهما؟، هل الدين هو الاسم الآخر للتدين من عبادات وطقوس، أم هو محض الإيمان قبل ترجمته على هيئة مخصوصة؟، هل

(1) شاعر وناقد عراقي. جريدة العالم الصادرة ببغداد 10-1-2016

تدخل المؤسسة الدينية في ملاك ما يمكن أن يسمى ديناً؟ معلوم عند كل متأمل ذي بصيرة أن تاريخ فكرة ما هو عينه تاريخ من تعاقبوا على الاستيلاء على هذه الفكرة، تبنياً وإشهاراً أو صرفاً واستثماراً. وبحديثنا عن الدين فنحن لا يمكننا إغفال الآثار العميقة التي خلفتها فيه باطناً وظاهراً أصرف الحركات السياسية والمدارس الكلامية والفقهية والفلسفية، حدّان الدين في بعده التاريخي ليس شيئاً آخر سوى هذه الآثار التي وسعت رقعة انتشار الدين أفقياً، في الوقت الذي عمقت مواطن التناحر فيما بين معتقيه على ما نرى من شيوع للطائفية والمذهبية، وتناحر يبدأ من الدرس الديني الصرف وينتهي إلى مقابر ومستشفيات. لكنّ هذه الآثار هي ما يتوجّه إليه الباحث الدكتور الرفاعي، مزيلاً طبقاتها شيئاً فشيئاً، كأنما يعمد في قرارة نفسه إلى ترسيم هذه العبارة المضينة (ان ترددي في الآثار يوجب بعد العزار) المنسوبة طوراً إلى الحسين بن علي (ع)، وطوراً إلى ابن عطاء الله السكندري. وقد اتضح جلياً أن عمل الباحث محض قبول كئاني لعمل العارف الذي لا بدّ أن يبدأ أولاً بالتخلّي (أي بإزالة العوائق والشوائب) وصولاً إلى التحلّي فالتجلّي، فهو يقتر بعطش الإنسان إلى ينوع الغيب لكنه يرى بأن هذا الينوع مردوم اليوم بأحجار وأقدار تعيق الوصول إليه، ومهمته تتحدد بإزالة كل ذلك وصولاً إلى ما يسميه تارة بالجوهر وتارة بالمعنى وأخرى بالدين الانطولوجي تفريقاً له عن الدين الايديولوجي. لا يغالط الباحث نفسه ولا يخدع أحداً، فهو يقرر منذ البدء أنه منشغل بالدين انشغالاً عميقاً استغرق حياته بأكملها (سيرته التي رواها في الكتاب بأسلوب أخاذ شاهد على ذلك)، ليس لحياته معنى من دون هذا الانشغال الديني الذي باشره منذ طفولته وجُداً وشغفاً، ثم عبادة وانخراطاً في الإسلام السياسي، ثم بحثاً ودرساً معمقاً، وصولاً إلى ما هو عليه الآن من مهمة عيرة تتمثل في الدلالة على جوهر ديني براه منسياً ومعنى لا يكاد يلتفت إليه أحد. أكثر من أيّ وقت مضى، فإن الباحث الديني المستير اليوم، ينخرط بوضع هو أقرب إلى حالة الطوارئ منه إلى استرخاء البحث الأكاديمي، ذلك أن ما يستجره الدين الآن من كوارث وحروب أهلية وإشاعة للبغضاء والتفرقة لم يعد خافياً على أحد فنحن جميعاً شهدوه وشهداؤه، وأن تجنّب بقاء الدين مولدّاً للكارثة غير ممكن إلا بالانقضاء إلى الدين نفسه ومساءته ومحاولته التعرف إلى العريب فيه، إلى جرثومة الخلل التي جعلته موطن البغضاء والتناحر ومحرضاً على كراهية الإنسان للإنسان. البحث حالة طوارئ يراد منها إنقاذ الدين، جوهره أو معناه، وليس صدفة أن الكتاب هذا يأتي بعد كتاب آخر للباحث عنوانه (إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين). وكما إن

عنوان (الدين والظلم الانطولوجي) يستر على مصادرة مؤداها أن هناك ظلماً وجودياً لا يرويه إلا الدين، فإن في عنوان الكتاب الآخر مصادرة بيّنة ذات ثلاث شُعب: أولها: أن هناك نزعة إنسانية في الدين. والثانية: أن هذه النزعة في خطر. والأخيرة: أن هذه النزعة الإنسانية يمكن إنقاذها. وأحسب أن هذه المصادرة الثلاثة تهيمن على كتاب (الدين والظلم الانطولوجي) برمته. لكن هل يمكن لنا مؤاخذه الباحث على ارتكابه مصادرة كهذه؟ المسألة باعتقادي أعمق وأعمق من أن نباشرها بتخطئة أو تصويب منطقيّ، فكلما كان مدار الحديث عن الغيب وتجلياته في النفس كان الأمر متعلقاً بتجربة روحية ذوقية لا سبيل إلى البرهنة عليها أو التثبت منها بحثياً، وتؤكد الحيرة إذا ما عرفنا أن هذه التجربة استغرقت عمراً بأكمله بحيث باتت هي الإنسان ذاته. وأنا أمام حيرة أستاذنا الرفاعي أتذكر حيرة الفيلسوف المعاصر ألان باديو في حديثه عن الحب وإقراره أكثر من مرة أن في حديث الفيلسوف عن الحب لا مفرّ له من أن يجزّ وراءه سلسلة مُصادرات. مشروع الرفاعي يبلغ مع هذا الكتاب مدى بعيداً في تنزيه الجوهر الإنسانيّ الذي تتطوي عليه الصناعة الإلهية (الدين)، فمع إن مشروعاً كهذا يجد له في العرفاء والمتصوفة آباء مؤسسين، إلا أنه في الوقت عبث ينأى بنفسه عن تصوّف الانعزال والتطير من الناس. نبهني الكتاب إلى إفادة قلما فكرت بها ملياً قبل قراءته، تتعلق ببراءة المؤسسات الدينية كالحوزة والأزهر مثلاً من الحركات المسماة «إسلامية»، فالمؤلف يتقصي أسماء قادة هذه الحركات العنيفة وأبرز ممثليها ليجد معه أن لا أحد منهم قد تخرّج من هذه المؤسسات، وهي نقطة غاية في الأهمية لم أكن ملتفتاً إليها. الكتاب باختصار مرافعة عن جوهر الدين. ألفاها محام بارع في محكمة الضمير.

من تغيير العالم الى تفسيره

هاجر القحطاني⁽¹⁾

يشير المفكر الاسلامي عبدالجبار الرفاعي في كتابه الجديد (الدين والظماً الأنطولوجي) أكثر من قضية اشكالية في التفكير الديني اليوم، أهملها الكثير من كتاب الأدبيات الاسلامية، إذ نجد المفاهيم والشعارات في هذه الأدبيات تبادل الكلمات والعبارات ذاتها. وهي كلها كتابات مسكونة بالدعوة لتغيير العالم، في ضوء تفكير مبسط، يختزل المفاهيم المركبة بفهم وعظي مسطح، لا يمتلك أدوات ومهارات الحفر في طبقات المجتمع، ولا يستند الى كشوفات العلوم والمعارف البشرية الحديثة، ومعطياتها البالغة الأهمية في التعرف على طبقات النفس البشرية، ونسيج العلاقات الاجتماعية، وفاعليات التغيير، وعوامله المرئية وغير المرئية.

لكن كتابات الرفاعي خلافاً لغيرها من كتابات زملائه، مسكونة بتفسير العالم وليس تغييره، انها تحاول تحليل طبيعة النفس البشرية، والتعرف على مدياتها وأغوارها، ودراسة الدين وتجلياته المختلفة في المجتمعات، والتعرف على أنماط الدين، عبر دراسته في ضوء الوقائع المجتمعية المتنوعة، والكشف عن العوامل

(1) قصة وناقدة عراقية، والمدير التنفيذي للمبشر الدولي للحوار الاسلامي في لندن. مجلة قضايا اسلامية معاصرة، ع 53 / 54 صيف وخريف 2015.

المتعددة المتجة له، وكيفية ولادة تلك الأنماط وتعبيراتها وتحولاتها وتطوراتها، كل ذلك يقوم به الرفاعي في سياق المعطيات الحديثة والراهنه للعلوم الانسانية، بدراية وفهم جيد.

يتحدث الرفاعي عن الدين، ويدافع عن أصلته ومكانته المحورية في حياة الكائن البشري، لكنه لا يكرر ما يقوله غيره من زملائه الاسلاميين. فلا نعثر في كتابه هذا على توصيات وأحكام قيمة، وصيغ جاهزة، وشعارات مبتذلة، بل حتى عنوان كتابه (الظلمة الأنطولوجي) هو عنوان مبتكر، لم أعثر عليه في الكتابات العربية، مضافا الى أن عناوين فصول الكتاب غير متداوله في الأدبيات الاسلامية، إذ يعالج الدكتور الرفاعي ما أسماه (نسيان الذات)، وهذا الضرب من النسيان من المنسيات في كل كتابات زملائه الاسلاميين، وكأنه هنا يتأنف البناء على القاعدة (اعرف نفسك بنفسك) التي صاغها الفيلسوف سقراط «469 - 399 ق.م». كذلك يعالج الرفاعي في فصل آخر (نسيان الإنسان)، وفحوى معالجاته هذه تشير بما هو مهمل في التفكير الديني اليوم.

يشي مدخل الكتاب بمضمونه الذي تدور حوله موضوعاته، وهو: (الدين والظلمة الأنطولوجي للمقدس)، يضعنا الرفاعي في صورة ما يرمي اليه في فصول هذا الكتاب، فيشدد على أن هدف الكتاب يتلخص في اكتشاف مهمة الدين ومجاله في حياة الكائن البشري، وكيف تم التلاعب بذلك في هذا العصر، عندما عملت الجماعات الاسلامية على ترحيل الدين وإخراجه من حقله الخاص الى فضاء آخر، تحوّل معه الدين الى وقود يحترق في صراعات الهيمنة والاستحواذ على المال والقوة والسلطة.

يرى الرفاعي الى مهمة الدين المركزية بوصفها تمثل في إرواء ظمأ الكائن البشري للمقدس، فحيثما كان إنسان لا ينفك عن هذا الظمأ، وحيثما كان الظمأ للمقدس لا يبد أن يحضر الدين. كذلك يرى الرفاعي أن الدين يقدم تفسيراً وتبريراً لتأييد الحياة، واستمرار وجود هذا الكائن على الدوام. إذ يشرح الدين الموت بالشكل الذي يغدو فيه مجرد تحول من طور وجودي إلى طور وجودي آخر، أو تبدل من نمط وجود إلى نمط آخر، أو من نشأة إلى نشأة أخرى.. ويضيف: صحيح أن الطور الثاني يكتفه إبهام وغموض، غير أن الدين يقدمه كمعطى نهائي ناجز لا نقاش فيه، ويصوره بنحو

يتبدى فيه مقنعاً لمعتقيه، بوصفه شكلاً من التطور والصعود والتجرد والتسامي في رحلة تكامل الكائن البشري.

ولا تقتصر مهمة الدين على ذلك، بل إنه حتماً يعتقد الرفاعي، بمنح الإنسان معنى لما لا معنى له، ذلك أن: الإنسان يبحث عما يتجاوز الوقوف عند سطوح الأشياء، والاكتفاء بظواهرها، ومفهوم أعراضها الحية، فهو يفتش على الدوام عما هو أبعد مدى من المعنى البسيط. إنه في ترقق لاكتشاف «معنى المعنى». في رحلته مع الدين وبالدين يمكنه بلوغ «معنى المعنى»، ذلك أن الدين يمتلك جهازاً تفسيريّاً يسمح بتعدد التأويلات وتوالدها، فكما أن الوجود لا متناهٍ، فإن الكائن البشري بطبيعته لا يكفّ عن ملاحقة التفسيرات والتأويلات اللامتناهية أيضاً، كي يعزز ذلك شعوره بأنه ليس متناهياً.

على ذلك، لا يتبنى الرفاعي تعريفاً للدين خارج وظيفته المفترضة، وهو إذ يدافع عن حضوره فإنه يدافع في الواقع عما يتصوره حاجة الإنسان العميقة له. الدين عند الرفاعي يأخذ أهميته من أهمية الإنسان، لا وجود للدين خارج مكابدات الإنسان وأشواقه وقلقه. التعريف نفسه يعكس محاولة الرفاعي الجادة في إعادة- ترحيل الدين من المجال الأيديولوجي إلى المجال الأنطولوجي: الرحلة التي ليست ولم تكن بالضرورة ذهنية فقط بل هي مسيرة الرفاعي الشخص خلال الأربعين سنة الماضية.

أثار الفصل الأول موضوعاً مهملاً في أدبيات الإسلاميين، تناول فيه المؤلف (نيان الذات) بالشرح والتحليل، فأوضح أن الإنسان يولد بمفرده، ويحيا بمفرده، ويموت بمفرده، ويتألم بمفرده، ويشعر بالخطيئة بمفرده، ويستفيق ضميره بمفرده، ويؤمن بمفرده، ويلحد بمفرده. ويجتاحه بمفرده أيضاً: القلق، اليأس، والاعتراب، والضجر، والسأم، والألم، والحزن، والغثيان، وفقدان المعنى، وذبول الروح، وانطفاء القلب، والسوداوية، والعمدية، والجنون الخ. وكشف عن أن عودة المرء لذاته تبدأ بالخلاص من عبودياته، واسترداد حرياته، وبه إلى أن (أخطر أنماط العبودية عبودية العقل، إنها هي التي تُفضي إلى عبودية الروح والعواطف والضمير. الجبان عقله مشلول، لا طاقة لديه للتفكير، ذلك أن التفكير شجاعة، وأحياناً تكون

ضريته موجعة، وفي بلادنا من يفكر بحرية لا بد أن يكون مُستعداً للتضحية بمقامه وماله وامتنامه لجماعته، بل ربما حياته).

الفصل الثاني جاء بعنوان: (بيان الإنسان)، والذي يغطي 70 صفحة من الكتاب، وهو كما وصفه المؤلف (محاولة أولية لكتابة سيرة ذاتية). ويشير الرفاعي في أول فقرة من هذه السيرة إلى (صعوبة الاعتراف)، بل يعترف بتعذر الحياد الموضوعية في (كتابة الذات عن الذات، ورواية الذات لسيرة الذات)، إذ يصرح بأنه: أمضى قرابة أربعة عقود من حياته في الحوزة العلمية، وانخرط في عمر مبكر في الجماعات الإسلامية، مضافاً إلى ولادته ونشأته في قرية جنوبية لا تنتمي إلى العالم الحديث، وكل هذه المحطات يسودها التكنم وقلة البرج والاعتراف. ومن الجميل أن يعلن الرفاعي بصراحة: (لا أزعم أنني أمتلك ما يكفي من روح المجازفة والمغامرة والشجاعة، لتدوين ما يחדش الحياء، أو يتهك الثابوت المتجذرة في عالمننا، خاصة وأني ما زلت متميماً للحوزة، ومتسكناً مع الإسلاميين بألوانهم واتجاهاتهم كافة، وحرصاً على حماية ذاكرتي المشتركة معهم، وعدم التضحية بعلاقاتي التاريخية، بل أعمل على تعزيزها، وعجزني عن الانفصال والخروج والانشقاق على المحيط الاجتماعي، ذلك أن من يعترف بخطئه في مجتمعنا يغامر بفقدان هويته، ويكون الطرد والنفي واللعن مصير كل من ينتقد قبيلته وطائفته وحزبه). لكنه مع كل ذلك لا يخجل باعترافات مثيرة في محطات حياته، تحكي الوقائع والظروف والأوجاع والبؤس والحرمان الذي كابده في طفولته، وانخراطه في بداية شبابه في حزب الدعوة، ودراسه وتدرسه في الحوزة التي بدأت سنة 1978 واستمرت إلى اليوم. وهو لا يمر على تلك المواقف مروراً عابراً، وإنما يحاول أن يقدم لنا في سياق كل موقف تفسيرات متنوعة، ورؤى فلسفية، وتأمل نقدي عميق، حتى أضحت وقائع حياته هامشاً محدوداً حيال ما صاغه من مفاهيم وآراء ونتائج لتحليل وتفسير تلك الوقائع والحوادث، التي تبدو لنا عادية بالنظرة الأولية. يختم الرفاعي سيرته بقوله: (تعلمت أن الحياة عبورٌ متواصل... لا أتهب المغامرة مهما كانت شاقة، ولو افتقدت أية وسيلة أستعين بأظفاري للحفر بين الصخور، والعض بأسناني لتفتيتها، كما هي عادتي، منذ مغادرتي بيت أهلي بعمر اثني عشر عاماً، واستقلالي في إدارة شؤون حياتي، وتجرع مرارت أيامي).

تمنى على الرفاعي كتابة هذه السيرة بشكل موسع، وطباعتها في كتاب مستقل، بعد تحريرها وتغذيتها بمحطات حياته، وتطور تجربته الروحية الاخلاقية الفكرية. إنها سيرة ملونة لطفل ريفي، انضم كفتى الى الجماعات الاسلامية ثم غادرها 1985، وكشاش انخرط في الحوزة 1978 وبقي يواصل انشغالاته التدريسية والفكرية في فضائها حتى الآن، وهي سيرة لا تغرق باليومي والعاير، إلا بقدر توظيفه لتشكيل رؤية للعالم، وبناء فهم للحياة، ورسم صورة تلتقي فيها ألوان متنوعة، تبدو كأنها لوحة ناطقة. يحتاج الشباب الاسلاميون لهذه السيرة قبل غيرهم، وأخال أنها مرآة ترسم فيها أحلامهم وأقدارهم، وربما مصائرهم، ذلك أن أحلامهم وأقدارهم هي أحلام وأقدار الرفاعي أسس، وأن دروبه ودروبهم، وأن مآل الرفاعي اليوم يتطابق معهم في: إيمانه، وإخلاصه لدينه، وتدينه، وأخلاقه.. وإن كان اشتق لنفسه دربا لا يتطابق مع كتاب أدبياتهم، وسلوك الكثير من رجالهم.

تحدث الرفاعي في الفصل الثالث من كتابه عن: (المثقف الرسولي علي شريعتي)، وهو يعني بمصطلح (المثقف الرسولي) هنا (المثقف النبوي)، أي ذلك المثقف الذي يرى نفسه بمثابة النبي المرسل إلى أمته لهديتهم. وأردف الرفاعي عنوان الفصل بتوضيح ينص على أن ما قام به شريعتي هو (ترحيل الدين من الأنطولوجيا إلى الأيديولوجيا)، فشرح كيف عمل شريعتي على (أدلجة الدين والتراث). اتسمت هذه الكتابة عن فكر شريعتي بالتحليل النقدي، وتشريح مرجعيات فكر شريعتي، وإحالة الى الروافد التي تغذى منها، ومحاكمة آرائه، بالاعتماد على نصوصه الفارسية. وبوسعنا القول إن هذا الفصل مراعاة نقدية جادة لأدبيات الجماعات الاسلامية، عبر اختيار مؤلفات شريعتي كنموذج بوصف هذه الآثار ظلت ملهمة لأكثر من جيل من الشباب، وما زالت حتى اليوم واسعة الانتشار في البلاد العربية، بعد ترجمة معظمها مؤخرًا. ولا نبوح بمحتواها الأيديولوجي إلا للخبير الذي يقوم بحفريات دقيقة لأرائه. وهي أول مراجعة شاملة تغربل أفكار علي شريعتي بالعربية.

وتزداد أهمية هذا الجهد النقدي لمشروع علي شريعتي وراهنته، لكون قراءته التي تتم اليوم في العالم العربي تأتي منقطعة عن سياقه التاريخي والمعرفي، ناقلة إياه الى عصر مختلف باجتزاء مخل، فيه الكثير من التباس المفاهيم والقفز على الطبيعة

السياقية للتفكير الموسيولوجي، خاصة أن لغة الدكتور شريعتي هي لغة تحفيزية وتحريضية في أغلبها، تخاطب الوجدان وتسرّب مباشرة الى الفعل على الارض.

ويقترح الرفاعي على الباحثين والدارسين للجماعات الاسلامية: أن تغدو قراءة ومراجعة آثار وتجربة المرحوم شريعتي، هي النموذج الذي يحسب أنه ينبغي أن نقرأ ونراجع في سباقه أدبيات الجماعات الاسلامية سنية وشيعية. وهو يشير إلى أن ما يفعله بعض الكتاب، من: الازدراء، والتويخ الشخصي، والفرق في تفاصيل رثة، هي بمثابة استثمار في الضغينة والكراهية، لأنها لم تتحرر من النيمة والوشايات والغشائات، التي تفجر من مكبوت أحقاد ونار شخصي متراكم. سلوك ومواقف الاسلاميين في العراق وعالمنا العربي، وإفشالهم للدولة، وفشلهم في بناء الحياة الروحية والعقلية والأخلاقية، تشي في شئ هام منها؛ مما استقوه من هذه الأدبيات.

ويشير الرفاعي إلى أنه: ليس بوسع الناس العيش بلا آباء، شريعتي هو الأب الرومانسي الجميل لحنين الهوية، وأن تلك الأدبيات هي التي ساهمت بصياغة نمط رؤيتهم للعالم، وأحلامهم، وأوهامهم، وما ينشدونه من صورة المجتمعات والانسان والأوطان. يؤسفني أنه لم يفكر الكثير منا بمحاكمتها. ويضيف: حاولت أنصف شريعتي، لذلك عدت للمجموعة الكاملة لأثاره وكتاباته ومن كتب عنه من الايرانيين بالفارسية، وتجنبت ما هو مترجم بشكل سيء بالعربية. وبنه بقوله: اعتاد الاسلاميون على المديح والثناء او اللعن والهجاء. ليست هناك مراجعات نقدية جدية للأدبيات التي تربينا وتقفنا عليها. كتابات المرحوم شريعتي هي النموذج والمثال لطيف واسع من تلك الأدبيات.

تناول الرفاعي في الفصل الرابع: (التجربة الدينية والظلم الأنطولوجي للمقدس)، فأوضح أن التجارب الدينية بمختلف مستوياتها وأنماطها هي منهل إرتواء الظلم للمقدس. ومع أنها تختلف باختلاف البشر، وتمثلهم للإلهي في البشري، لكن كلّ شخص يرتوي منها حسب استيعاب ظرف وعائه، وقدرته على العثول في حضرة الله. التجربة الدينية تمثل البعد الأنطولوجي في الدين، وجوهره وذاته وروحه وباطنه العميق. التجربة الدينية جوائية، غاطسة في الذات، بل متماهية معها، لا يمكن بلوغها بأدوات ووسائل حية، وربما لا تشير إليها ظواهر الدين الخارجية، أو قد تشي

بمعكها أحياناً، كما لدى بعض رجال الدين، الذين ربما يوشر خطأ ما يمارسونه من قداسات وطقوس وشعائر، إلى عمق تجاربهم الدينية، رغم أن عالمهم الباطن بعيد عن الله.

واللافت أن الرفاعي في كتابه هذا لا ينقد القراءة الأيديولوجية للدين فقط، بل ينقد القراءة السلفية لأي فرقة أو مذهب تنتمي إليه، كذلك ينقد التصوف والمتصوفة، رغم اهتمامه بنصوصهم واستشهاده بها في موارد متعددة من (الدين والظلم الأنطولوجي). فهو يصرح: بأنه حين يستشهد بابن عربي وجلال الدين الرومي والتفري فإنه لم يقلدهم، ولم يصبح صوفياً، ذلك أنه يستفيد من التصوف المعرفي، تصوف الحياة الروحية والأخلاقية، والبهجة العقلية في وصال الحق. ويرفض التصوف الطرقي، تصوف الدروشة، وتعذيب الجسد، والانتواء، والغياب عن العالم. فهو: يقبل من جلال الدين الرومي معظم نصوصه، وتجربته الروحية البهيجة، لكنه يرفض رقصه في الأسواق، وعبودية المريدين المولوية له. يحترمه، لكن لا يحاكيه، أو يكون نسخة منه. بل أوضح الرفاعي أنه يتعاطى مع جلال الدين التاريخي، ويرفض جلال الدين المثولوجي المتخيل المفارق للزمان والمكان والواقع، الذي نحت صورته مخيلة المتصوفة، فتحول إلى صنم يعبدونه، لا شخصية روحية ملهمة يستلهمون ما هو جميل منها. ويحذر من تجاهل أن موروث التصوف الإسلامي كأي موروث إسلامي آخر، أي لا يصح تحويل نصوصه إلى مطلقات تعمم لكل عصر، بوصفه - كما هي كل معرفة وتجربة إنسانية - يخضع لمتروطيات وظروف عصره كافة، من: ثقافة، ولغة، وسياسة، واقتصاد، وحروب، وانتصارات، وهزائم.. وغيرها.

في الفصل الخامس عالج المؤلف (تكفير الآخر المختلف) وكيف أننا جميعاً نهرب من تسمية الأشياء بأسمائها، ونلجأ لحيل مفضوحة، نتكتم على ما تتضمنه المدونة الكلامية والفقهية، من أحكام: المشركين، أهل الذمة، الرق، الجزية.. إلخ. وتكفير الفلاسفة وذوي التفكير الحر، وأتباع الفرق والمذاهب.. فقد كفر ابن تيمية مثلاً من المسلمين: الفلاسفة، والمتصوفة، والجهمية، والباطنية، والإسماعيلية، والنصرية، والإمامية الاثني عشرية، والقدرية.

ورأى الرفاعي أن مازقنا يتلخص في أن العقل الإسلامي يكرر ذاته باستمرار، ولا

بني بتسخ ماقاله الأوائل، ويستأنف قواعدهم وعباراتهم ومصطلحاتهم وأراءهم كما هي. ولم يخرج من نسخ على منوالهم واقتضى آثارهم عن تلك القواعد والآراء في الغالب، إلا بحدود بيان القاعدة وشرح العبارة، وشرح شرحها، والحواشي والتعليق عليها، وتوضيح المراد واستخلاص المضمون. ذلك أن الأول لم يترك للأخر شيئاً، حب القول الموروث، الذي سمعناه وقرأناه كثيراً، وأضحى قبدأ على تفكيرنا، لا يسمح لنا أن نفكر كما فكروا، وتأمل مثلما تأملوا، ونصوغ قواعد بديلة لتفكيرنا الديني في سياق عصرنا ورهاناته، والمعارف والعلوم والفنون المستجدة فيه، كما صاغ السلف قواعدهم التي شكّلت المعارف بالتدرج في مرحلة بعيدة زمانياً عن عصر البعثة الشريفة، واستقت من المعطيات السائدة في عصرها، ولم يتخطأ أفق انتظارها من الدين المشروطة اللغوية والسياسية والاجتماعية والنظام المعرفي والرؤية للعالم المهيمنة فترة انبثاقها. ينبغي ألا نفتخر للحس التاريخي في دراسة الموروث الديني، ولا نتردد في اكتشاف مواطن قصوره وثغراته المتنوعة، وعجزه عن الوفاء بمتطلبات روح وقلب وعقل وجد المسلم اليوم. فضلا عن ضرورة أن نتعرف على آفاق الحاضر، ونتبصر مديات المستقبل. وشّد الرفاعي على ضرورة الخروج عن المناهج والأسس وأدوات النظر الموروثة للتفكير الديني، بوصفها «أنساقاً عميقة» وحدوداً نهائية، يعاد إنتاج الأسئلة والأجوبة ذاتها من خلالها كل مرة. إنها تعطلّ العقل، وتسجن عملية التفكير الديني في مداراتها المغلقة، ولا تكف عن التكرار والاجترار، تبدأ من حيث تنتهي، وتنتهي من حيث تبدأ. تبدأ من أصول الشافعي ولاهوت الأشعري لتنتهي بهما، وتنتهي بهما لتبدأ منهما.. وهكذا.

هذه اشارات لبعض فصول هذا الكتاب، ولم نستوعب فصوله الأخرى، وهو كتاب تخطى ما هو مكرر في الكتابات الاسلامية المماثلة: إن من حيث عنوانه، أو مضامينه، أو عناوين مباحثه، أو جرائته على قول ما لم يقله غيره، أو كشفه عن حدود حقل فاعليات الدين وآثاره الايجابية البناءة، وكيف انه لو تم إقحامه في حقول أخرى تنقلب وظيفته الى الضد، اذ يصير أداة للهدم لا البناء، وتنضب كل فاعلياته وآثاره الايجابية، كما تبرهن على ذلك صورته المتوحشة اليوم في تدين داعش والسلفية الجهادية، وكما يدل على ذلك اختباره في فشل وفساد تجربة إسلامي السلطة في البلاد العربية.

وينبه الرفاعي إلى أن: لا حل نهائي، لا جواب نهائي. ففي الأسئلة ليس هناك سؤال أخير. في الفلسفة ليس هناك مفهوم أخير. في الدين ليس هناك اجتهاد أخير. في الفكر ليس هناك رأي أخير. في العلم ليس هناك نظرية أخيرة.. بعض ما كان بدعة أمس أصبح سنة اليوم. بعض ما كان هرطقة أمس أصبح ديناً اليوم. بعض ما كان كفرة أمس أصبح إيماناً اليوم. الناس يفتشون عن الذي ينوّمهم، من يوقظهم يدفع ضريبة موجعة، ذلك أن العقل شقاء، النوم خمول، بل هدوء ودعة.

وكانه يوجز ما يشده كتابه هذا إذ يكتب: نحن بحاجة لأن بعيد التفكير الديني تأسيس ذاته من أجلنا، أو نتحمل نحن مهمة (ضريبة) إعادة تأسيه لتستعيد امتلاكه، وامتلاك حاضرننا ومستقبلنا، ونظفر بذواتنا. وذلك ما يجازف كتاب «الدين والظلمة الأنطولوجي» بالتجذيف باتجاهه. ولو كان لهذا الجهد أن يلخص بعبارة، فإنه مشروع إعادة تأسيس الخطاب: خطاب الله / الانسان.. خطاب الانسان / ذاته.. خطاب الانسان / الآخر.. الخطاب بوصفه فهما، ومعنى، ولغة.

يقول الرفاعي: (ان كل كاتب يكتب كتابا واحدا، ما قبله تمارين وما بعده تنويعات)، ولعل (الدين والظلمة الأنطولوجي) هو هذا الكتاب الواحد، ما كتبه قبله تمارين، وما سيكتبه بعده تنويعات.

الدين بين الإيدلوجيا والأنطولوجيا

أسامة الشحمانى⁽¹⁾

صدر مؤخراً عن مركز دراسات فلسفة الدين كتابٌ جديد للمفكر الاسلامي د. عبد الجبار الرفاعي تحت عنوان «الدين والظلم الأنطولوجي»، ولعلّ أول ما يشدّ المتلقي لهذا الكتاب هو عنوانه، لما يحمله مصطلح أنطولوجيا من سعة قد تصل أحياناً حدّ الالتباس. فالمصطلح، إذا ما نظرنا إليه داخل الحاضرة الفلسفية التي أنتجت وتجدّر فيها، وأخصّ منها العقل الفلسفي الألماني، أخذت دلالته بالتمدد منذ أواخر القرن الماضي لتخطى الترجمة العربية له: (نظرية الوجود المحض أو الكينونة)، وتخوض علوم المعلوماتية وهندسة النظم الرقمية، وخاصة على مستوى نسج العلاقات بين القيم والمفاهيم ذات الأرضيات والجذور المختلفة والكشف عن مشتركاتها الدلالية. على إنّ الكتاب لم يكن معنياً بتفكيك المصطلح أو تععيد دلالته الفلسفية، وإن كان أثبت في أول صفحة منه ما يعنيه الظلم الأنطولوجي داخل المتن: «هو الظلم للمقدس، أو الحنين للوجود، إنه ظلم الكينونة البشرية، بوصف وجود الإنسان وجوداً محتاجاً إلى ما يشره، وهو كائن متعطش على الدوام إلى ما يرتوي به»¹.

(1) باحث و مترجم عراقي مقيم في سويسرا. مجلة الكوفة «تصدرها جامعة الكوفة»، العدد 10 (2016).

الكتاب وثيقة لإحياء الإيمان، وهو بهذا المعنى ليس كتاباً أكاديمياً خاصاً بإقامة حدود المصطلح أو رصد مراحل تطوره، بقدر ما هو خطاب في مجالٍ فكري نوعي، توخى الروح والضمير، وحاورهما عبر العقل. على إن هذا لم يخل بمنهجية الكتاب، فقد بدت واضحة على فصوله السبعة، إذ رصدت الظاهرة الدينية وتباينها بين دين الإيدلوجيا ودين الأنطولوجيا من جهات مختلفة عبر حفريات معرفية في علوم التفسير والفقه والأصول. ولذا كان للكتاب منهجه الخاص، الذي تميّز بالرصانة والانساق بين الفصول والمباحث، حتى وهو يقرن المتن بجزء مهم من سيرة الكاتب الشخصية، حيث قدّم فرشة للعلاقة الفطرية بالدين. وهي العلاقة الأكثر أصالة في التكوين الوجداني للإنسان، يقول: «ظلت التجربة الدينية لأمي متبعاً لا ينضب يستقي منه تديني. هي من غرست المنحى الميتافيزيقي الروحي الأخلاقي في حياتي، وإلى نمط تدينها، الفطري العفوي البريء الشفيف، يعود الفضل في رسوخ إيماني وتجذره، ومقاومته لأية مجادلات، أو مناقشات، أو إشكالات، أو مشاكسات، أو قراءات تشكيكية. وإلى تدين أمي أيضاً يعود الفضل في تجذّر الأخلاق في ضميري»². ويكاد يكون الرفاعي في هذا الفصل أول حوزوي، في حدود ما أعلم، يكتب بشفافية وصراحة عن جذوره ومكوناته العائلية والاجتماعية ومن ثمّ تشكّل وعيه الثقافي.

لم يسبق لي أن اطلعت قبل كتاب «الدين والظلم الأنطولوجي» على بحثٍ أخذ على عاتقه تفكيك دلالات الدين والتعاطي معه بوصفه حاضرة ثقافية وفكرية ذات صفة دينامية متحوّلة ومتجددة، من دون المساس بالبعد الإيماني للإنسان. والنظر لعلاقة الدين بالفنون والآداب، وضرورة المنجز الإبداعي لحياة الإنسان، من زاوية لا تضع بوناً بين الدين وميادين المعرفة، ولا تخضع الدين لاشتراطات المكتسبات المعرفية الإنسانية. فالفن عند الرفاعي لا ينفصل عن جوهر الحياة ولبّها، لأنّه يرفد حياة الكائن البشري بشيء من المعنى، غير أنه لا يمكن أن يكون بديلاً عن الدين، ذلك أن الفن يلوّن العالم بالجمال، أما الدين فيخلع هالة سحر على العالم، وهو بذلك يسافر بنا إلى خارج ما هو معيش ومحسوس ومادي جاف، في ما يحيطنا من عالم محدود، لتنخرط في إيقاع موسيقى الوجود اللامتناهية³. ثمّ فك الارتباط مع ما عدّ بمرور الزمن من المسلمات الراسخة، كمقدمة لمساءلة الإرث التاريخي المتراكم من أصول وتفسير حولت الدين إلى مادة للصراع. الدين الذي تحدّث عنه الرفاعي إصغاء لصوت الضمير، يحمل سمات الفطرة الإنسانية، ويفتح المجال للكشف عن الحاجة للمقدس، ولذا فإنّ الظلم للمقدس هو أحد أهم مباني الكتاب في التأسيس

لحاجة الكائن البشري للدين. وبهذا المعنى يشكّل فهم الدين وتفسيره سمة ضرورية لوجود الإنسان، ذلك الوجود الطالِب لكمالهِ، إذ يصفه قوله: «لكل موجود نمط كماله الذي هو من جنس كينونته، ويتسق مع سنخ وجوده. الظمّ الأنطولوجي إنما هو الفقر الوجودي، وارتواء هذا الظمّ هو الغنى الوجودي. أي أن هذا النقص لا يكتمل إلاّ ببلوغ الكائن البشري طوراً وجودياً جديداً، يضعه في رتبة أعلى في سلّم التكامل الوجودي. الدين هو ذلك السلّم الذي يرتقي عبره هذا الكائن صعوداً للكمال، ويرتوي من خلاله ظمّاه الوجودي».

يكتسب الكتاب، خصوصيته وتفرده من محاور عديدة لا يمكن أن يخفى على القارئ المتمرّس رصدها داخل المتن وتلمس ما أفضت إليه من مساحات للتأويل. إلاّ إنّ النقطة المركزية التي دارت حولها كل مباحثه هي النأي بالدين عن سوح الصراع ونواميس الحروب على اختلاف أشكالها، فصله عن مظاهر التخبط بين خيارات ضيقة، ومن ثمّ إنقاذه أو تحريره مما لحق به من عوائل لا تمت له بصلة ولا ينتمي إليها. ولقد شكّل الكتاب بالنسبة لي شهادة براءة جامعة مانعة لا يشوبها النقص، انتشل فيها الدين والتدين، أنماطه ومظاهره، مما أقحم فيه من عوالم مترعة بالجهل والعنف والعبودية.

لعلّ أوّل ما يحفّز المتلقي لمتابعة القراءة الواعية، ومنذ الصفحات الأولى للكتاب: هو ما اشتمل عليه من زلزلة لطرائق فهم الدين، وإعادة ردّ الاعتبار إليه من دون الانتماء لتلك الحدة والنسقية فضلاً عن أساليب الوعظ والإرشاد التي ينخرط فيها الأعم الأغلب مما يندرج تحت المدونة الفكرية الإسلامية من دراسات أخذت على عاتقها تناول علاقة الكائن البشري بالدين. وإذا ما قيّض لقارئ ما أن يطلع على الشحيح الذي كُتب في البعد الوجودي للدين، فإنّه سيواجه نصوصاً مكرورة اتبع أصحابها خطوات من سبقهم في مضامير وسياقات باتت مستهلكة في استدالاتها وفي منظرها.

لا شك أن هناك ما لا يحصى من المقالات والدراسات التي اشترطت على نفسها تبني أدوات الحدائث في قراءة مفهوم الدين، ولكنّ كتابها سرعان ما يؤوِّبوا راجعين لاتباع خطى من سبقهم أو إلى النقاط المشتركة في الفهم، ولا سيما حين يتعلّق الأمر بمناقشة مقدمات وفرضيات وضعها السلف، وأقرّها أو تأقلم مع صورتها النمطية من أعقبهم.

لقد برع الرفاعي في تشخيص مشكل الدين، حيث فكّك الصياغات الأيدولوجية

التي أطاحت به، وأثبت عبر تناول سيد قطب وحسن البنا وعلي شريعتي وسواهم من رواد الأدبيات البروتستانتية الإسلامية أن الأيدلوجيا أساءت للدين وأطافت وهجه المقدس، «منذ حسن البنا غرق التفكير الديني في بلادنا في مسار خاطئ، حين عمد الاخوان المسلمون ومن اقتضى أثرهم، وترسم خطواتهم، وتبنى مفاهيمهم وآراءهم، فخلط ودمج ما هو مقدس بما يظهر ويتبدى لنا أنه مقدس، ما هو ثابت بما هو متغير». ومن هذا المدخل التفكيكي تناوش الكاتب نقد مسارات التفكير الاجتماعي وآليات التعليم، التي استنبتت تحت سطوتها أيدلوجيات مدمرة حولت الدين إلى ماكنة للإبادة. وهنا نطالع نقداً صريحاً لا يحتمل التأويل إذ يقول: «ما زلنا حتى هذه اللحظة نعيد صياغة عقلنا وقطب، وكل تلك الشعارات المضللة المسكرة، ونسقيها لأبنائنا، عبر منابرنا وفصائيانا وحتى جامعاتنا. ما زال بعض أساتذة الشريعة والدراسات الإنسانية وربما الفلسفة في بلادنا يكررون ذلك، فيخدعوننا بحيل اصطلاحية وشقشقات لغوية، ومنحوتات لفظية موهمة، يسوقون فيها عقولنا إلى مقصلة، نغدو فيها مخلوقات مشوهة غير قادرة على الحضور في زمانها الخاص». ولذا فإن الحلول تبدأ لدى الرفاعي بالعودة للعقل وللأسلوب العلمي، وربما لا يوافق في هذا المنطلق الكثير ممن يرفعون شعار الدين. ولكن غاية وسعي لردم الهوة الشاسعة، التي وضعتها الأيدلوجيا بين الإنسان والدين جعلته يعود بالتوجه الاصلاحى إلى الأصل أو البداية الصحيحة التي تبدأ لديه بالتعليم النوعي، «مالم يتم اصلاح التعليم في بلادنا، بكل حقوله وتخصصاته، لا يمكن أن نبدأ. لا يصنع مستقبلاً متطوراً آمناً لحياتنا إلا التعليم النوعي الحديث اليوم لأبنائنا. أتمنى أن نتفض على أولئك المحترفين من الخطباء والوعاظ والكتاب الذين يقنوننا الأوهام، ويخوفوننا من العودة للعقل، ويخدعوننا كل يوم، أتمنى أن نتأمل واقعنا، أتمنى أن نتفحص مصيرنا، أتمنى أن نجرؤ على طرح تساؤلات كبيرة على أنفسنا، مثل: ما هي إضافاتنا للمعرفة البشرية منذ أكثر من خمسة قرون؟ ما هو إسهام أكثر من مليار وثلاثمئة مليون إنسان مسلم في أعياد التاريخ الحديثة؟ ما هي فتوحاتهم في حقل الاكتشافات والاختراعات العلمية؟ ما هي منجزاتهم في الفلسفة والعلوم الإنسانية؟ كم هو عدد المسلمين ممن حازوا على جائزة نوبل والجوائز المماثلة سنوياً؟» كل هذه التساؤلات نم يحدث أن نتحدث عنها أو تنبى أهميتها مفكر إسلامي بهذه الصراحة والمباشرة الصادمة أحياناً، ولا أظني مبالغاً إذا قلت إن منهم من لا يجذب أن يترك مثل هذا الكلام سامعه.

ومن بين أهم ما وقف عليه الكتاب في سياق تحليل البنى الفكرية للجماعات والأحزاب الإسلامية، هو طبيعة تفاعلها مع فردية الكائن البشري. كيف تجاهلته وطمس هويته الشخصية، لحساب الجماعة، إذ أخذت تعاطى مع الفرد بوصفه عنصرًا ليس له أن يوجد إلا في لحظة ذوبانه في مركب الجماعة. وكأنّ الإنسان لا حق ولا حرية له في أن يوجد مستقلاً بذاته خارج هذا الإطار. وما نجم عن ذلك من اضمحلال في القدرة على الإبداع التي هي فردية دائماً، لأنّ «النسخ المتماثلة من البشر عاجزة عن اختراق السائد، وابتكار أيّ شيء خارج ما هو مألوف. ولا قدرة لدى النسخ المتماثلة تمكّنها من أن تتخطى ما هو شائع، فكل ما تنجزه إنّما هو محاكاة لما هو مكرّر دائماً».

ولابد من الإشارة هنا إلى لغة الكتاب، إذ امتازت بالرشاقة والاكتمال المعرفي، فضلاً عن أمطار الأدب التي هطلت عليها، فجعلتها رائعة ندية حتى في تناولها لأكثر المقولات الفلسفية تجرداً وجفافاً. ومن ذلك تناوله للأصول والمنايع التي تعود إليها مناهج التشدد، التي تتبعها الجماعات الإسلامية. ثم أسباب وقوف مقولاتها وشعاراتها وأساليب تربيها لأتباعها على إنّ واجب البشر في الحياة هو: «الامتثال لما يؤمر به، والتكسر لذاته، والذوبان في المركب، والكفّ عن آية محاولة لاستبطان الذات، واكتشاف فضاءات ومديات عالمها الجوّاني.»¹ وهنا يجد القارئ نفسه أما الخطر الذي يحمله نفسي روح القطيع في المجتمع وسيادة الشخصية النابية ومنطق الجماعة، الذي يغيب بطبيعة الحال قدرات الفرد كفرده وروحه الإبداعية.

ولم تكن فكرة التجديد في البنى والملمتات بغائبة عما حرصت فصول الكتاب على طرحها من حلول وبدائل اتسمت بروح الحدائث لعلاج التفكير الديني المأزوم. وهي حلول لم تتوان عن العودة إلى الأسس أو لنقاط الانطلاق، فالبحث اللغوي عند الأصوليين والفقهاء كما يراه الرفاعي بلغ سقفاً توقف عنده، وما يقال فيه ليس قولاً جديداً، وإنما هو شروح وتعليقات وشروح للشروح، وتفاصيل في التشعبات، وتفريعات داخل الفروع. ما يعدنا بأفق جديد، هو استيعاب المعطيات الراهنة في الألسيات والهرميوطيقا وعلوم الدلالة والرموز، وتوظيفها في الدراسات الدينية.²

ختاماً أقول إنّ الدين الذي جردته الأيدلوجيا من حيويته وجعلته خافتاً لا يخدم سوى مشروعها، قدّم له الرفاعي في هذا الكتاب مشروعاً متكاملًا لبعث الحياة فيه من جديد. وهذه هي المرة الأولى التي أقرأ فيها، بالعربية، بحثاً فكرياً يثير قضية الدين،

جوهره، وماهية المقدس فيه، ثم أزمة الإصلاح الديني من دون أن تواجهني على امتداد فصوله ومباحثه جملةً وعظيمةً واحدة أو فكرة سطحية من شأنها أن تضعف ما ربطني بالكتاب من وشائج ابتداءً من متعة المعرفة مروراً بمهارة الحفر في التراث، وليس انتهاءً بلذة السفر مع لغته الشفافة.

هوامش،

1. الدين والظلم الأنطولوجي، د. عبد الجبار الرفاعي، دار التنوير للطباعة والنشر، مركز دراسات فلسفة الدين، ط 1، 2016، ص 5.
2. المصدر السابق، ص 41.
3. ينظر المصدر نفسه، ص 7-8.
4. نفسه، ص 6.
5. نفسه، ص 244.
6. نفسه، ص 243-244.
7. نفسه، ص 246-247.
8. نفسه، ص 21.
9. نفسه، ص 17.
10. ينظر ص 230 وما بعدها.

نحو عقلانية دينية.. الرفاعي نموذجاً

د. رسول محمد رسول⁽¹⁾

وسط خراب اللحظة، وموت الإنسان على نحو مجاني، وضياح الأوطان في مطلع القرن الحادي والعشرين، يستعيد العقل الفلسفي وظائفه الممكنة كبارقة أمل تعكس حيوية التفكير البشري في مواجهة كل تلك الهزائم الوجودية، وهي استعادة لا يخوضها سوى مفكرٌ تنويري يُدرك مجرى الوجود بكل تفاصيله؛ يُدرك اليومي كما الكوني، ليس بعيداً عن صيرورة الفكر وتحولاته، ولا عن الواقع ومجرياته وكذلك عن مآلاته، وتلك استعادة لا تتم إلا بإعادة بناء العقل البشري، عبر تحليل واقعه المعرفي والوجودي، وتبيان عوائق اشتغاله، وكشف مضادات أدواره المعرفية والوجودية.

منذ عقود عدّة، يشغل المفكر العراقي الدكتور عبد الجبار الرفاعي في مجالات المعرفة النظرية والعملية. وفي خلال عشرين عاماً مضت بلور مشروعه الفكري في تجديد التفكير الديني مستعيناً بـ (العقل) كونه قدرة نظرية - عملية في آن واحد. ويمثل ذلك تحولاً في المشهد الفلسفي والفكري العراقي، كما يمثل تحولاً في مشهد التفكير الفلسفي في الدين، ليستعيد تلك الجذوة الفكرية التي مارسها أسلافنا

(1) باحث وناقد عراقي. الصباح 25 / 5 / 2016

الفلاسفة العرب والمسلمون عندما قاربوا بين الدّين والفلسفة أو بين الإيمان والعقل، ولكن بروية لا تغادر حراك ما يجري في صميم الحياة والوجود على نحو تاريخاني، ولذلك تكتب تجربة الرفاعي أهميتها التاريخية كما المعرفية في آن.

يتأثر التفكير الفلسفي في الدّين باهتمام الرفاعي، وهو أرضية أنطولوجية شاملة يتفكر عبرها العلاقة بين الفلسفة والدّين أو العقل والإيمان أو المعرفة والواقع. ولذلك، يعتقد بأن التساؤل أو التسأل حالة مطلوبة لدفع الانغلاق بعيداً عن حرية الإنسان في التفكير؛ فليس هناك سؤال أخير، وفي الفلسفة ليس هناك مفهوم أخير، وفي الفكر ليس هناك رأي أخير، وفي العلم ليس هناك نظرية أخيرة، وفي الدّين ليس هناك اجتهاد أخير⁽¹⁾.

فتح أبواب الأسئلة والتساؤل هي طريقة فلسفية كون الإنسان في حد ذاته هو كائن تساؤلي، لكن أسئلة هذا الكائن ستذهب هباء مشور المصير إذا ما جرت في حقل معرفي لا يتساوق معها. وفي تجربة الرفاعي بدت (فلسفة الدّين) خير حقل للمضي قدماً في تجديد الحال الوجودي والمعرفي معاً. ولذلك هيأ مجاله عندما غامر «باجتراح تفسير لا يخشى توظيف معطيات العلوم الإنسانية والمعارف الجديدة في قراءة النصوص الدّينية، ولا يمتنع من الإفادة من خبرة فلسفة الدّين الحديثة والمعاصرة في الكشف عن جوهر الدّين، ونمط التجارب الدّينية»⁽²⁾.

تبدو العلاقة بين الدّين والفلسفة محورية في تفكير الرفاعي تلك التي تتجلى في خيمة فلسفة الدّين، ما يعني أن التفكير الفلسفي في الدّين ليس ترفاً فكرياً إنما ضرورة واقعية ومعرفية؛ فحين «يموت التفكير الفلسفي تموت العلوم والمعارف، كذلك تعطل الدراسات الدّينية عن الإبداع حينما يموت التفكير الفلسفي في الدّين، ولا يمكنها الخلاص من التكرار والاتباع. لقد تعطلت العلوم والمعارف في عالم

(1). (لا خلاص إلا بالخلاص من أدلجة الدين)، حوار رحيل دندش مع الدكتور عبد الجبار الرفاعي، موقع مؤمنون بلا حدود الإلكتروني، الرباط، مارس، 2015. منشور ضمن كتاب: (عبد الجبار الرفاعي: الدين والظلم الأنطولوجي، ص 232، مركز دراسات الدين - بغداد ودار التنوير، بيروت، 2016).

(2). نفسه، ص 232.

الإسلام لحظة تعطل التفكير الفلسفي»⁽¹⁾.

إن العودة إلى (الدين) لدى الرفاعي تبدو مبررة لأهمية هذا القطاع الروحي والفكري في الحياة والوجود مثلما هي أهمية العودة إلى (الفلسفة) التي تمنح التفكير الديني حياته ونضجه. وفي سياق التفكير الفلسفي في الدين، وفي سياق العقلانية الدينية، تأتي أهمية الدين الضرورية؛ فالدين «منطلق أية عملية للنهوض والتنمية والتحديث في مجتمعاتنا يكون رأس مالها ومادتها المحورية الشخص البشري»؛ فالدين هو المنبع الأساس في بناء حياته الروحية، وتطهير حياته الأخلاقية، وحماية الكائن البشري من الاعتراب الكوني، والقلق الوجودي، والعيشية، واللامعنى، وإرواء ظمته الأنطولوجي للمقدس»⁽²⁾.

هكذا تبدو المهمة المحورية للدين إنما هي «إرواء الظم الأنطولوجي للكائن البشري»⁽³⁾. وكذلك «إنتاج المعنى، فمنع إنتاج الدين يرتبط بالمعنى، أي إنه يخلق المعنى على ما لا يمكن أن تمنحه الوسائل والأدوات الأخرى التي يمتلكها الإنسان معنى»⁽⁴⁾.

لقد تعرّض الدين بوصفه نهوضاً، تعرّض إلى القمع، وبوصفه منبعاً إلى الردم، وبوصفه إرواء إلى النضب، وبوصفه معنى إلى التحريف والقمع، وتلك إشكاليات الدين عبر التاريخ، خاصة في الراهن المعاصر؛ حيث «رحلته الجماعات الإسلامية إلى الأيديولوجيا، وحوّلت إلى وقود يحترق في عربة السياسة، وزجته في الدولة، فأفشلت الدولة، وأمراضت الدين، وأفسدت رسالته»⁽⁵⁾.

إن محاولة التخلّص من كل تلك الإشكاليات إنما يبدأ من وضعها على مسطرة التساؤل الفلسفي عبر حقل معرفي هو (فلسفة الدين). على إن حقلاً من هذا النوع لا

(1). نفسه، ص 234.

(2). نفسه، ص 231.

(3). نفسه، 232.

(4). (تحديث التفكير الديني)، حوار مولاي أحمد صابر مع الدكتور عبد الجبار الرفاعي، مجلة يتفكرون الإلكترونية، الرباط، خريف 2013. منشور ضمن كتاب: (عبد الجبار الرفاعي: الدين والظم الأنطولوجي، ص 262، مركز دراسات الدين - بغداد ودار التنوير بيروت، 2016).

(5). لا خلاص إلا بالخلاص من أدلجة الدين)، ص 232.

بدله أن يتوَّسل التفكير الفلسفي طريقة له، وذلك لا يمكن أن يكون من دون إعمال دور العقل، وإحياء مكانته، وتشغيل فاعليته بطاقة قصوى، فالعقل، ومن منظور الرفاعي، حفيظة موضوعية؛ فهو ليس مفارقاً أو متعالياً أو متجاوزاً للعالم الموضوعي نحو آفاق ماورائية غير منظورة ولا محسوسة أو مشعور بها، لذلك لا يجب عد العقل «مستقلاً» عن الواقع، وليس خارجاً على التاريخ، وليس ناجزاً نهائياً ساكناً، إنه في حالة تفاعل متواصلة مع البيئة المحيطة، ومع كافة أشكال المعقولية السائدة في عصره»⁽¹⁾.

إن العقل، بل والتفكير العقلاني الذي تمدُّ الفلسفة خيلته ومنبعه، بحسب الرفاعي⁽²⁾، يعاني من عوائق ومعيقات تعطلُّ دوره وتلجم فاعليته في الوجود اليومي والمعرفي للإنسان وحراكه التاريخي؛ منها: (الأسطورة) بوصفها عائق إجهاض للعقلانية، و(الأيديولوجيا) بوصفها العائق الأخطر، ومنه أدلجة الدِّين فيها. و(الصنمية) حيث الرغبة العارمة بنحت زعيم سياسي أو غيره يراد له أن يُعبد، خاصة عندما يتحوَّل المفكِّر إلى صنم، وقتل يكف العقل عن التفكير. و(الشُّغف بالماضي) حيث الحنين المرضي الذي يجهض التفكير الفلسفي⁽³⁾.

إن التفكير العقلاني الذي يتوَّسل (العقل) كخُلِّ له، لا بدُّ أن يودي بهذه المعيقات التي تعطلُّ عمله، وتلجم التفكير الفلسفي عن ارتياد دوره في الحياة والوجود. ولذلك يتطلب تجديد التفكير الدِّيني المؤسَّس على رؤية فلسفية عقلانية تفكيراً أبنتمولوجياً جلبي المنحى، ومهمة من هذا النوع، وبحسب مشروع الرفاعي، تحدث الآن نقلة نوعية في تاريخ التفكير الفلسفي العراقي، بل تحدث قطعة معارفية (إبنتمولوجية) مع موروث فلسفي عراقي معاصر عطل دور العقل (ياسين خليل أنموذجاً منذ عام 1970)، كما إن قطعة من هذا النوع نراها تؤسِّس لرؤية فلسفية تنصرف إلى قطاع معرفي غاية في الأهمية والخطورة ألا وهو قطاع الدِّين - المعرفة الروحية، وقطاع الدِّين - التجربة الوجودية، فالغاية من كل ذلك هي التصالح مع (الدِّين) بتفكير عقلاني يتوَّسل تفكُّر الدِّين بالعقل، وتدشين مرحلة جديدة في النظر إليه نظرة عقلانية

(1). نفسه، ص 210

(2). (تحديث التفكير الدِّيني)، ص 256.

(3). (لا خلاص إلا بالخلاص من أدلجة الدين)، ص 209، ص 210، ص 211، ص 212، ص

بوصفه منتجاً لمعنى واقعي المصعب، ذلك أن «المعنى الذي يخلعه الدِّين على الحياة» حياتنا نحن البشر، يتوقف، في تفسيره وأبعاده وشموله ومجالاته، على رؤيتنا للوجود البشري ومعناه وحدود إمكاناته»⁽¹⁾. ما يعني أن الإنسان يمثل أهمية كبرى في مجرى أنطولوجيا الدِّين، فهذا الأخير ليس متعالٍ في برج روعي مفارق لكل ما هو محايث، بل هو دين حياة وعمل وتفكير يطلب دائماً من البشر التفكير في حالته، ليس بعيداً عن المخلوق البشري بوصفه حالة أنطولوجية تفتقر إلى المقدس المتزه من مثالب التفكير الأسطوري والأيدولوجي والصنمي وتقديس الماضي المغلق.

(1). (تحديث التفكير الديني)، ص 261.

في الحاجة إلى سقراط

د. عماد الرفاعي⁽¹⁾

لا أرى نفسي أهلاً لتقييم المشروع الفريد الذي تصدى العلامة عبد الجبار الرفاعي للاشتغال عليه، ولكنني اتحدث كمتلقي ضمن طبقة المثقف الديني، وأنقل انطباعاتي وتفاعلي وأحاسيسي العفوية المباشرة عند مطالعاتي لما يكتبه الرفاعي أكثر من مرة. أخذ مشروع الرفاعي على عاتقه تصحيح المسار لرسالة الدين في الحياة بعد أن ضاعت مقاصده، وتلاشت روحته، وأغرقتة السياسة في ثراتها ودهاليزها المظلمة، وأفرغته من الروح والمعنى.

كان المتدين يعيش الرعب من صورة نمطية رسمتها الأفكار السائدة عن الإله، لتجعل صورته الوحيدة صورة لحاكم قاهر يبطش، يبحث عن الزلة لعباده كي يصيبهم بعقابه، لا منبعاً للحب والرحمة والسلام، وصارت العلاقة معه في الفهم الديني الشائع علاقة توجس وقلق وخوف فقط، ولم نفهم أن هناك علاقات أخرى مع الله أهمها علاقة الحب والرحمة والشفقة. غابت علاقة الحب والرحمة والشفقة عن سلوكياتنا رغم أن النصوص تزجر بها.

ونتيجة لتوهم العيش في هذا الكون (البوليبي) المفترض، بدءاً من الإله فما

(1) شاعر وكاتب عراقي، وطبيب مختص بجراحة الوجه والفكين. اسلام مغربي 12 - 6 - 2016.

دون، سادت ثقافة القهر والبطش، وشاعت أخلاقية القسوة، وصار المتدين في العادة لا يتعامل مع الواقع إلا بمنطق العقاب والوعيد، وحين رأى تمرد الآخرين، أما لعدم قناعة أو لضعف إرادة، على ما ألزم نفسه به، صار هاجسه ترقب ساعة الشفي بهؤلاء، كي يحصل على ما يراه مكافأة على جلده لذاته، ولفرضه أنواعا من الحرمان على نفسه. ظل المتدين يبحث عن الساعة التي يناله فيها التكريم والثواب، وتنال الآخرين العقوبة والعذاب، فماتت مشاعره تجاه معاناة الآخرين، واندثرت نزعته الإنسانية.

لذا فقد كانت بنا حاجة إلى كتاب يتخذ النزعة الإنسانية في الدين. وكنا (ظالمين) فعلا لكتاب ينهنا إلى (ظلمتنا) الأنطولوجي.

كنا نبحث عن الروح التي أسرها جمود الاستدلالات المعتادة، والقوالب الفكرية العتيقة، وعن المقاصدية التي ضيّمها الانهماك في التفاصيل الهامشية وغير الجوهرية، ونعاني من تضخم المطالب التي قد تملأ عقل الإنسان، لكنّها لا تملأ قلبه بالنور، على حد تعبير السيد الشهيد محمد باقر الصدر... كنا متحيزين فيما يرفضه الوجدان بينما يبرّره زائف البرهان، في جو من السفطة المعاصرة، ونشعر بوجود خلل ما في منظومتنا الفكرية، ولكن تشخيص ذلك الخلل كان عسيراً، بسبب حُجُب المصادر العديدة التي نادراً ما تخضع للتحليل أو يجرؤ أحد على المساس بها. كنا بحاجة ماسة إلى «سقراط جديد»، يؤسس طريقة جديدة في التفكير، ويؤشر لنا بهدوء إلى مواضع الخلل. المهمة الأولى كما يعلمنا سقراط هي أن تعود الذات لذاتها لتكتشف عوالمها، ذلك أن مفتاح الفلسفة حسب رأيه هو: «إعرف نفسك». لا بداية عند سقراط إلا باكتشاف عوالم الذات.

مع عبدالجبار الرفاعي نصفي لصوت سقراط جديد، فقد بدأ كتابه: «الدين والظلم الأنطولوجي» بفصل يتحدث فيه عمّا اصطلح عليه: «نسيان الذات»، في ثقافتنا وتربيتنا. شرح في هذا الفصل كيف أن التربية والتعليم والتثقيف في العائلة والجماعات والأحزاب والمنظمات لا تشد إلا محو الذات، إذ تشدد على صهر الفرد في بوتقة الجماعة، وطمس هويته الشخصية.

اسهل الرفاعي فصل نسيان الذات قائلاً: «يولد الإنسان بمفرده، ويحيا بمفرده، ويموت بمفرده، ويتألم بمفرده، ويشعر بالخطيئة بمفرده، ويستفيق ضميره بمفرده، ويؤمن بمفرده، ويلحد بمفرده. ويجتاحه بمفرده أيضاً: القلق، اليأس، والاعتراب، والضجر، والسأم، والألم، والحزن، والغثيان، وفقدان المعنى، وذبول الروح».

وانطفاء القلب، والسوداوية، والعمدية، والجنون... إلخ. لا تبدأ الحياة الإنسانية الحقيقية إلا عندما تتحقق وتوجد الذات الشخصية، وهذه الذات لا تتحقق من دون الفعل، فالوجود الإنساني لا يصل إلى الامتلاء إلا بالفعل وحده. الذات البشرية وجودها وصورورها الحرية، وحيث لا حرية تنطفئ الذات. الحرية ليست أمراً ناجزاً قبل أن نشرع بتحقيقها، وجود الحرية يعني ممارستها. الحرية لا تتحقق بعيداً عن مسؤولية الفرد تجاه ذاته. لحظة تنفئ الحرية تنفئ الذات، إذ لا تنفئ الذات وتتسع وتتكامل إلا بالحرية ١.

لقد أعمت أدلجة المعرفة عقولنا عن اكتشاف الذات، والانفتاح على الآخر ومعرفة نقاط قوته، وعن مراجعة افكارنا وملامتنا. كنا بحاجة إلى من يقدنا من التفكير المؤدج، الذي أفرزته الأدبيات الأصولية، التي تربى عليها أغلب أبناء الأجيال المتدينة، منذ زمن ما يعرف بالصحو الإسلامية إلى الآن، وأن نسعى إلى تفسير العالم قبل التفكير في تغييره على حد قول الدكتور الرفاعي.

في مثل هذا الجو المتوتر، كنا نرى الاختلاف المذهبي ضلالاً، والتصوف انحرافاً، والمقلانية تجديفاً، والاحتكام إلى العلم هرطقة، والانفتاح على بقية الأديان شبه ارتداد... كأننا لا نزال نعيش في زمن محاكم التفتيش وصكوك الغفران.

كل فئة تنكفي على نفسها محاولة الحفاظ على كيانها من الانشقاق والتشطي، مثقفة على أبلسة الآخر والقطيعة معه، وتغليب منطق المؤامرات والنوايا السيئة، فضاعت بذلك فرص الانفتاح والتلاقح والتواصل.

كنا نتمنى استعادة واستلهاهم جمال النصوص الأولى التي أهدرت كرامتها النصوص الثانوية، وقيدتها تعسف التأويلات والشروح والحواشي، الصادرة في إطار تاريخي معين، وبقينا نجترها ونكررها، ونحن نحسبها نهاية العلم وخاتمة المعارف.

كنا ومازلنا نعيش صراعاً مع العصر وثقافته، وغربة عن العالم المعاصر، بسبب التقديس المطلق لكل مفردات التراث والاستغراق في الماضي. لبث سقف المسلّمات شديداً جداً، وكان عددها كبيراً جداً، لا يُسمح للتفكير أن يتجاوزها أو أن ينفذ لأعمق منها.

نعم، كنا مع المصلحين أحياناً، لكن بشرط أن يكون إصلاحهم حركة تنتمي إلى الماضي الذي لا يُقلق أحداً، أو أن يكون ضمن حدود مرسومة تحددها المؤسسة

التقليدية، أما الالتحاق بمُصلح لا يزال يعمل فقد أمسى محاصراً بكثير من هواجس الشك، ودعوات التضليل والإقصاء والتسخيف، والتهم الجاهزة، حتى يارنا كان يعينا في واقعه، بعد أن تحول اليسار القديم الى يمين بمقاييس عصرنا، وتجمّد الإصلاح عند لحظة تاريخية محددة.

باختصار، لقد أفلسنا روحياً وأخلاقياً، وأخرجنا عقلياً، وكنا بحاجة الى من يضرّم فينا جذوة العشق، ويعيد للروح حيويتها وبراءتها وعفويتها، ويُرجع للدين رسالته وألقه، ويعطي للعقل دوره المنشود في النقد والتساؤل والغربلة.

يضع الرفاعي في مشروعه خارطةً طريق لحلّ الكثير من هذه الإشكاليات. ويقدم محاولة واعدة لتجديد التفكير الديني في الاسلام. كتابه الجديد «الدين والظلم الأنطولوجي» نصّ رؤيوي مكثف، نثر مكتوب بكلمات الشعر. يحتاج الى شروحات عديدة لا تسعها عدة مقالات، لكنه مع ذلك مكتوب بلغة سهلة ممتعة، الكلمة حساسة، والعبارة في الكثير من مقاطع الكتاب تحيل إلى شذرات كشذرات الحكماء والعرفاء. من هنا يتطلب هذا الكتاب أن تدوقه، لا أن تتعقله فقط. نصّ الرفاعي يختصر بطرحه مفاهيم وقواعد جديدة للتفكير، والبناء الروحي والأخلاقي والعقلي، لكن ما ينبثق من تطبيقها على المصاديق سيكون كثيراً وثرياً.. أفكاره مبتكرة عميقة، وتعابيره أدبية رشيقة.. ولعلي لا أبالغ لو قلت ان كتاب «الدين والظلم الأنطولوجي»، هو بمثابة مانفستو manifesto لتحديث التفكير الديني في الاسلام، إن كُتِب لهذا النصّ النجاح والاستمرار، ربما يصلح أن يصبح منعطفاً يؤشر لولادة نمط آخر في قراءة وتفسير النصوص الدينية، وكأنه يبشر بولادة مرحلة جديدة في الدين وفهم الدين.

لقد أنكأنا دينٌ يحترق بماكنة السياسة، أنكأنا دين يبدو فيه الله عدواً للحب والجمال والفرح والسلام، أنكأنا دين يضعنا في معارك مزمنة مع خالقنا، أنكأنا صورةُ الآله المحارب الدموي. ببراعة، يحررنا الرفاعي من هذه الصور المخيفة لله، ويرسم لنا صورة كلها حب وخير ورحمة وجمال وفرح وسلام

هذا الكتاب الذي هو «رسالة في الايمان» حسب تعبير مؤلفه، يشدد على أنه: «لا يعد بإجابات نهائية، انما يعنى بإثارة الأسئلة واستفزاز العقل»، وكما يحدثنا التاريخ، فقد انتعشت الفلسفة قديماً عندما بدأ سقراط يشير المشكلات، رغم أنه - كما يقول

أرسطو - لم يضع لها الحلول، لذا فإن ثقافة التساؤل أعظم نفعاً من ثقافة الحلول الجاهزة.

ورغم أن الرفاعي قدّم في أكثر من موضع أجوبة لإشكاليات معينة، إلا أنه نجح أيضاً في الترويج للتساؤل كقيمة مهمة ومحترمة بل وضرورية، وتخليصه من وصمة الاستخفاف التي يصمها بها الدوغمائيون. لذلك يشدد على رعاية حق الاختلاف، وفتح باب مراجعة المسلمات وعدم التوقف عن طرح الأسئلة، وعلى التخلي عن المنطق الوثوقي الذي يستهدف قسراً الآخر وإكراهه على إيمان معين، ويوضح أن الإيمان والتجربة الروحية هما ما يعيشهما الإنسان فعلاً لا ما يلقنه تلقيناً.

يعترض المؤلف على ما يسميه لاهوت الفرقة الناجية الذي يتج نزع الاستعلاء والتفوق على الآخر، ويرى أن لا خلاص إلا بالتخلي عن هذه الفكرة، والتأسيس للاهوت جديد هو لاهوت التعددية، الذي سيكفل إمكانية التعايش السلمي بين مختلف الأديان والمذاهب والفرق والاتجاهات الفكرية. لاهوت الفرقة الناجية يجعل الطريق إلى الحق طريقاً واحداً يرثه المرء من أبويه ومجتمعه، ولا يفكر أن يحيد عنه، فيحاول أن يراكم ما يؤيده، ويتجاهل ما يعارضه. هذا اللاهوت لن يسمح لمعتقيه في الغالب بمراجعة الأفكار وغبلة المواقف والبحث المجرد عن الحقيقة ومعرفة أبعادها ووجوهها المتنوعة. هذا اللاهوت حجاب يحول دون اكتشاف المنجز المعرفي للآخر، أو التفكير في أن لديه منجزاً، بل سيقطع الطريق منذ البداية على كل محاولة من هذا النوع ملوّن العالم بلونين لا ثالث لهما. ويقدم دائماً أجوبة جاهزة وتصنيفاً نهائياً، تحددهما رؤية واحدة للعالم، ووجهة نظر منفردة وضيقة في فهمه وتفسيره.

في الكتاب يقدم المؤلف قراءة نقدية لما يسمى بـ«البروتستانتية الإسلامية» التي عملت على تدين الدينوي حسب تعبيره، ويركز على دور المرحوم الدكتور علي شريعتي في ذلك، وقد نقده بصورة قد تكون قاسية نوعاً ما، حيث يرى أن له الأثر الكبير في «ترحيل وظيفة الدين من الأنطولوجيا إلى الأيديولوجيا». يناقش الرفاعي المرحوم شريعتي بوصفه مثالا مهماً ومؤثراً لأدلجة الدين.

قام أيضاً بتحليل مايفعله الانتماء الأيديولوجي من «تنميط» للكائن البشري، وما يؤدي إليه ذلك من ضياع لهويته الشخصية، وخلق ما اسماء بالشخصية المستعارة، مضافاً إلى تفشي التعصب لفكر الجماعة، وقتل القدرة على الإبداع لدى الفرد،

بسبب ما تمارسه الجماعات الأصولية من محاولة إنتاج نسخ مكررة بلا ملامح للمتبعين لها.

عندما تتحول الثقافة والمعتقدات الى أيديولوجيا، تُختزل وظيفة الدماغ في الدفاع عن الدوغمات، ويتمشئ الطلب الموضوعي للحقيقة، وتكرس الاصطفاقات على حساب حيادية البحث، ونسود الحلول الترفيعة للمشاكل الفكرية، والتي تستهدف الحفاظ على الكيان الأيديولوجي بالكامل على حساب الحلول الجذرية، بل تُخفى بعض الحقائق بسبب هواجس الخوف على الهوية، ويصير الانسان عند تقيمه لفكر معين أمام واحد من طرفين فقط، فأما القبول المطلق، وأما الرفض المطلق، من دون أن يرى منطقة وسطى بينهما، ويصير الاستدلال تابعا للايمان لا العكس.

ربما كان للتفكير الأيديولوجي مبرراته في زمن صراع الحضارات، بسبب ما يؤديه من دور تعبوي تفرضه طبيعة هذا الصراع، لكننا نحسب اليوم أن عصر الأيديولوجيا قد ولى، بعد أن أتاحت الفرصة لأغلب هذه الاتجاهات، يسارا أو يمينا، لأن تأخذ فرصتها في إدارة الحياة واصطدمت بالواقع عند التطبيق، وواجهت إشكالات ليست بسيطة أبدا.

يختصر المؤلف تشخيصه لواحد من أهم أسباب شيوع الفهم السلفي للدين، وإنتاج خطاب العنف والتحجر، وغياب النزعة الانسانية في الخطاب الديني المعاصر، في مفهومين يعبر عنهما بـ"توثين الحروف، واهدار المقاصد"، على اختلاف درجاتهما شدة وضعفا بين المذاهب المختلفة، ويضيف لذلك سببا آخر: هو الجمود على ما خلفه السلف، والخضوع الكامل لأدوات ومناهج الفهم المتوارثة، التي يرى أنها بحكم إنتاجها وصورورتها في سياق إطار زمني غابر لم تعد مناسبة لعصرنا، ويؤكد على مسألة بالغة الأهمية هي أن تجديد المعرفة الدينية يتطلب إعادة النظر في البنى التحتية العميقة المؤلدة لهذه المعرفة، والموجهة لدلالات النصوص، والتي تكوّنت في ظل ظروفها الخاصة التي تختلف عن ظروفنا بالتأكيد، فليس التجديد في نظره مجرد بضعة فتاوى تصدر هنا او هناك لتُخالف مشهور الفقهاء، بل التجديد يقتضي إعادة النظر في مناهج التفكير والبحث والنظر والدراسة للنصوص الدينية، والاستعانة في سبيل ذلك بإنجازات العلوم والمعارف الانسانية الحديثة المختلفة وفتحاتها، ويشير إلى أن علماء المسلمين قد مارسوا ذلك في الماضي، فاستعانوا بالمنجزات الفكرية والفلسفية للأمم السابقة عليهم، حتى أدخلوها في

بنية علوم الدين، ولم يخشوا من الاتهام والحكم عليهم بمخالفة الكفار بسبب ذلك، رغم حدوث معارك فكرية بين الحين والآخر، كهجعة الغزالي على الفلاسفة وردّهم عليه، وذلك على عكس الحال السائدة الآن في دراسة وتدرّيس الدين، حيث يسود التوجس من كل ماهو غربي تقريبا، إلى أن وصل الحال إلى نتائج العلوم التجريبية، التي شُنَّ عليها بعض رجال الدين حملات شعواء، مفتشين فقط عن نقاط الضعف ومحاولين ما استطاعوا التقليل من أهميتها ومنجزها الهائل، حتى صار ذلك قاعدة للتعامل معها عند الكثير من قواعدهم الشعبية.

يخلص الرفاعي الى ضرورة تقديم قراءة جديدة للإسلام، عن طريق الأخذ بعين الاعتبار السياق الزماني والمكاني التاريخي للأحكام، وعلى أن تغيّر الزمان يفرض لتغيّر الحكم، ويضرب أمثلة على هذه الأحكام، كالرق والإماء وأهل الذمة والجزية والردة. وهذه المنهجية الجديدة لو طبقت فإنها سوف تغيّر الكثير من فهمنا للدين، وتجعله أكثر تصالحا مع متطلبات العصر والضرورات التي يفرضها تطور العلوم والمعارف البشرية.

رغم ان الرفاعي مفكر ديني وُلِد من رحم المؤسسة الدينية الرسمية «الحوزة»، وخلافا للنظرة الشائعة السلبية لمعظم رجال هذه المؤسسة عن الفن، لكنه يصرح بأن الفن يصنع معنى للحياة كما يفعل الدين، وإن كان لكل منهما مجاله ودوره المستقل. بل إن للفن دورا في إحياء البعد الروحي في الإنسان وإثرائه.

يبادر المؤلف بالرد على شبهة قد ترد على ذهن القارئ بأنه يدعو للدين لا يناله الا خواص الناس كالمصرفة والعرفاء، فيوضح أن تلك الطبقة العميقة للدين - الدين الانطولوجي لا الايدولوجي - تتذوقها حتى العجوز الفلاحة الأمية، وقد سرد هو في الصفحات التي كتبها عن سيرته الذاتية كيف أن: «تدين أمه الفطري العفوي البرئ الشفيف غرس الايمان في روحه، واليه يعود الفضل في ترسخ إيمانه وتجزده»، ويستشهد لذلك بقصة جميلة من قصص المشوي، حول أحد الرعاة الذي كان يناجي الله بعفوية وبراءة وصدق ملهم، لدرجة أن النبي موسى (ع) رأى في كلمات مناجاته سوء أدب مع الخالق فوبخه لذلك. قبل أن يبس الوحي لموسى أن تلك المناجاة مقبولة عنده تعالى، بل ويعاتبه على توبيخه ذلك الراعي المسكين بسبب كلماته العفوية تلك.

في ضوء ذلك يمكننا كذلك التمييز بين نوعين من التشيع مثلا، التشيع الفطري

المرتكز في الوجدان الشعبي الذي توارثه الناس البطء جيلا بعد جيل، والتشبع الغنوصي الباطني المتأثر بظاهرة الغلو، والذي يستعير الكثير من مقولاتها ويروج لطريقة باطنية في التفكير، تربط كل شيء بأسرار مزعومة لا يعلمها إلا الخواص، والذي انتشر مؤخرا عن طريق الكثير من رجال المؤسسة الدينية والمحسوبين عليها، والذي يقف أيضا على الطائفية بحماس شديد، بدعوى الخوف على الهوية التي هي أكبر أولوياته الفكرية.

في الوقت ذاته يشدد المؤلف على أن الحاجة للدين والارتباط بالمطلق أصيلة وضرورية، ومن دونها يصاب الإنسان بالجذب والإفلاس الروحي، وتُحَقَّق إنسانيته، ويتحول مجتمعه إلى مجتمع ميكانيكي لا يحب حسابا للإنسان بقدر ما يراعي متطلبات الآلة، ويفلس الرفاعي هذه الحاجة إلى الدين بقوله: «الدين يؤيد الحياة، بعد أن ينتج تفسيراً للموت بوصفه طورا وجوديا آخر للحياة». والدين أيضا - كما نرى - يقدم تفسيراً للمشكلة الشرور ويجيب عن سؤال: (إن كان هناك إله، فلِمَ يحدث هذا؟)، ربما على طريقة (كانط) في الاستدلال على وجود الله، الذي رغم أنه لم يستدل على وجوده بالعقل النظري، إلا أنه جعله من أحكام العقل العملي، فالعقل يحكم بضرورة إثباته من يعمل الخير ومعاقبة من يفعل الشر، وبما إن الطبيعة لا تقوم بذلك، فلا بد من وجود كائن عادل فوق الطبيعة سيقوم بذلك.

باختصار، فإن رسالة الكاتب تهدف إلى قبول التعددية، وتفعيل التفكير النقدي، وتخليص العقل من أدلجة المعرفة، وإحياء البعد الروحي في التدين.

مشروع الرفاعي أثار العديد من النقاشات، وأثار الكثير من الأسئلة والانتقادات التي تنتظر البحث والدراسة والإجابة من مختلف الاتجاهات الفكرية الراهنة في عالم الإسلام، ووقر لها فرصة نادرة للقاء والتعرف على بعضها البعض، والوقوف على أرض مشتركة رغم الاستقطاب الذي يسود حياتنا الفكرية منذ زمن طويل.

مفكرون إسلاميون من طراز الرفاعي هم العملة الأندر في عالمنا الثقافي اليوم، ويحس المثقف المتدين أكثر من غيره بقيمتهم الحقيقية، فبهم يجد هذا المثقف التجسير المنشود لنهضة انكسرية بين التراث الديني والفكر المعاصر، والتفاعل بين هذين العالمين بطريقة التلاقح والانفتاح والتكامل وتبادل الخبرات، لا طريقة الصراع والتضاد والتناثر والبحث عن الزلات، ذلك التجسير الذي حاوله سابقا مفكرون من خارج المؤسسة الدينية مثل الدكتور زكي نجيب محمود والدكتور فؤاد

زكريا والدكتور علي الوردي في قراءتهم للتراث، لكنهم لم يحققوا أهدافهم كاملة في ذلك، أما بسبب اتهامهم بالتطفل الفكري، أو لعدم اطلاعهم المعمق على هذا التراث بصورة مقنعة للمتحمين إليه، ولكن الأمل واعد بهؤلاء الذين ولدوا من رحم المؤسسة الدينية التقليدية، وقد قرؤوا التراث بعمق أكثر من غيرهم، بمقدورهم غربته واستلهام مساحاته المضيفة، وتخليصه مما علق به من قباحات يمجها الوجدان.

شكرا لك أستاذنا الرفاعي على ما أسديته للتوير من خدمة، ونحن بانتظار المزيد منك، ومتشوقين لمعرفة تفاصيل وتطبيقات مشروعك في تحديث التفكير الديني في الاسلام، بعدما أطلعنا على كلياته.

من الأيديولوجيا إلى تجديد علم الكلام

د. عبد الجبار عيسى السعدي⁽¹⁾

«إن بومة مينرفا لا تحلق إلا عند الغسق». هيجل

في حالة البؤس التي يمر بها عالما العربي وعالما الإسلامي، وفي ظل حالة الضياع والتشردم، لا بد أن يفكر المثقف بالأسباب التي أدت الى هذه الحالة. وإذا ما غاص في ما وراء الأسباب الظاهرية فإنه سيكتشف أن هنالك جملة من الأسباب القارة في عمق هذه الأزمة يشكل الموروث التقليدي الجامد للثقافة أو الفكر وجهها الأبرز. في ظل هذه القوضى الثقافية والتشتت الفكري يلح على عقولنا اسم استطاع أن يضع بصمته الفكرية ذات المنحى التجديدي والتنويري المستند على إطار فلسفة الدين، ذلك هو الدكتور عبد الجبار الرفاعي.

لاشك أن كل مفكر في أي زمان ومكان لا يتجأ أفكاره من تلقاء ذاته وإنما تكون أفكاره تلك نتاجات لتأثره بأفكار من سبقوه أو حتى من عاصروه، لكن عظمة المفكر تأتي من صياغته أو حتى توظيفه لتلك الأفكار في سبيل تغيير واقع راكد أو رجعي، وكذلك كان الرفاعي. فهو ابن البيئة الدينية والمتخصص في علوم الدين،

(1) استاذ الاجتماع السياسي في كلية العلوم السياسية في الجامعة المستنصرية ببغداد. الصباح

تأثر بالنزعات الفلسفية الأخلاقية والايمانية الغربية، وكذلك النزعات التجديدية في التراث العربي والإسلامي، فضلا عن اتجاهات التنوير الديني لاسيما المعاصرة منها في إيران.

يتسع فضاء النقد كثيرا لأفكار الرفاعي طالما هي أفكار نقدية، وطالما هي تنطلق من فضاء فلسفة الدين التي تتسع بدورها لتشمل منهجيات التفكير الديني ومقارباته في اجتماعية الدين وتاريخيته والأيدولوجية التي تبطن ذلك الاجتماع وذلك التاريخ.

وعلى قدر تخصصي في العلوم السياسية، وبالذات في حقل الاجتماع السياسي سوف أحاول أن أركز على محورين مهمين في أفكار الرفاعي هما: نظرتة الى الأيدولوجيا، والثاني نظرتة الى قضية التجديد في علم الكلام. وعلى الرغم من أن الأخير لا يبدو ضمن حقل اختصاصي العلمي إلا أنه يقع ضمن اهتمامات فضولي المعرفي من جانب، ومن جانب آخر، إن تاريخ علم الكلام وتفرعاته وسجلاته يشكل جانبا مهما لصورة الاجتماع السياسي الإسلامي، ومن جانب ثالث أرى إنه ينبغي على أستاذ العلوم السياسية الاستفادة من مخرجات فلسفة الدين وديناميكيتها، حتى يصبح متجا لمعرفة عضوية وواقعية لا تكون بمعزل عن تلك المعطيات التاريخية والمعاصرة، والتي طالما أثرت وتأثرت باللطة السياسة على مر التاريخ الإسلامي ولا زالت حتى الوقت الراهن.

في موضوع الأيدولوجيا، يطرح الرفاعي فكرته الأثيرة في نقد الأيدولوجيا في أماكن متعددة من كتاباته. ورغم إن نقد الأيدولوجيا كمفهوم ابتدأ بتهمك نابليون من الأيدولوجيين، ومر بقصد ماركس وأنجلز ووضفهم لها بأنها (وعي زائف)، ولم تنته عند نقد المفكر الإيراني الحدائي داريوش شايعان، ولا حتى عند مفكري ما بعد الحداثة، إلا إن نقد الرفاعي لها جاء متميزا كونه يطرح هذا النقد، بل والقطيعة معها، ضمن إطار الفضاء الإسلامي، أو بالأحرى ضمن فضاء الإسلام السياسي وهو الذي انتمى إليه لسنوات طويلة عندما كان عضوا حركيا فيه وتلميذا وأستاذا في الحوزات العلمية، علاوة على إن فكرته تلك تأتي في إطار تجديد الفكر والتفكير الديني. فضلا عن انطلاقها للمرة الأولى ربما ضمن الفضاء الشيعي العربي. هو ينتقد الأيدولوجيا كونها تعطل العقل وتتنافى مع الحس الإنساني. ورغم إن نقده كان محددًا لأسماء فكرية بعينها تبنت الأيدولوجيا كوسيلة خلاصية إلا إنه بالتأكيد كان يقصد بالتعبية

كل التجارب الأيدلوجية في الدين، لم يشأ ذكرها لأسباب وجيهة ذكرها في عمله القيم (الدين والظلم الأنتولوجي). ولعل أهم نقد وجهه الرفاعي بهذا الخصوص كان لعلي شريعتي ولحسن حنفي، حيث يرى ان (لاهوت التحرير عند حنفي وشريعتي، يختزل الدين في أيديولوجيا المقاومة والثورة، ويطمس الوظيفة المحورية للدين. الدين أرحب وأشمل وأوسع من الأيديولوجيا. الأيديولوجيا مظهر وتعبير اجتماعي للدين، تحويل الدين الى أيديولوجيا يعني: اختزال الإنسان في بعد واحد، والروح في القانون...).

والواقع أنني أؤيد تلك الفكرة استناداً الى أن الأيديولوجيا تعني ببساطة أنك تقول إن منظومتي الفكرية أو العقيدية أو الثقافية أفضل من منظومتك، وعلى ذلك أرسلت للدكتور الرفاعي رسالة كتبت فيها:

عندما قرأت (الدين والظلم الأنتولوجي) استذكرت حواراً في فيلم (الرسالة) لمخرجه الراحل (مصطفى العقاد) في سبعينات القرن الماضي يقول فيه (الحمزة بن عبدالمطلب) للنبي «ص»: (يا ابن أخي، عندما أجوب الصحراء في الليل أدرك بأن الله أكبر من أن يوضع بين أربعة جذران). أقول: نعم، الله أكبر من أن يوضع بين جذران حزب سياسي، وأوسع من أن يكون أسأ في مصفوفة [أيديولوجية]

من الطرافة أن يدولي أن فيورباخ أكثر (إسلامية) من بعض المؤدلجين الإسلاميين عندما يدعو إلى أن تمثل الله في زهرة جميلة، أو في منظر جميل، أو في كل عمل نبيل! فيما يدولي إن هؤلاء (الإسلاميين) كانوا قد وصلوا، أو سيوصلون الآخرين، إلى ذات العبارة التي انتقد بها فلاديمير لينين سلفه في المادية فيورباخ، عندما قال: (إننا نريد أن ننفي الله من السماء، فيما فيورباخ ينزله إلى الأرض. ليس هنالك مكان لله على الأرض)!! أخشى أن يصل الجيل الحالي أو القادم إلى مثل هذه القناعة، بعد الزلزال الذي سيتعرض له الإسلام السياسي والجهادي الذي لا أشك بوقوعه. تلك الأدلجة التي أخشى أنها ستؤدي إلى أن يتحجم الإله أكثر في مسجد ما أو حيينة لا يذكره فيها إلا العجايز!.. لقد كفر نوار الثورة الفرنسية بكل شيء بما في ذلك الرب، وبعد أن انتهوا من فوزتهم كتبوا متهمكين لافتة عريضة أمام البانتيوم في باريس: (إلى من يهتم بأمر الرب، لقد تم إعادته الى كنيسة نوتردام)!!

مع كل ذلك النقد الذي يوجهه الرفاعي للاتجاه الأيديولوجي في الدين أو الأيديولوجيا بصورة عامة، وهو محق فيه الى حد كبير، لاسيما أننا نواجه أسوأ

مخرجات تلك الأيديولوجية المتمثلة بالإسلام الجهادي المتجدد بالقاعدة وداعش والجماعات الجهادية الأخرى، إلا أن الرفاعي لم يطرح لنا بديلا عمليا عنها. فإذا كانت أيديولوجيا الإسلام الحركي منذ عشرينيات القرن الماضي على سبيل المثال قد جاءت كرد فعل على الحركة الاستعمارية الجديدة بعد الحرب العالمية الأولى وما أصاب الأمة الإسلامية جرائها، بصرف النظر عن اقترابها أو ابتعادها عن المعيارية الإسلامية، فإن هنالك ما هو أسوأ الآن، إسرائيل وقضية فلسطين، أمريكا وبريطانيا والغرب الذين يحتلون أو يقيمون قواعدهم في غير بلد إسلامي، والحملة ضد الإسلام كدين حتى لو كان سببها سلوك الإسلاميين المنحرف. المهم نحن إزاء محيط عالمي معادي، وهذه المرة دينيا، سواء أكان على حق أم على باطل. أعلم أننا مولعون بخلق الذرائع وخلق الأعداء مثلما أعلم أن أيديولوجياتنا قومية ويسارية وإسلامية سفكت من دمائنا ما لم يسفكه الآخر الاستعماري، ولكن هذا العداء أصبح واقعا، اليهودي الصهيوني في السلطة في إسرائيل وخارجها يقول كيف نقضي على العرب والمسلمين؟ ومن ثم هل تكفي النظرة الأخلاقية والاستفراق بالروحانية الصوفية العرفانية التي يبدو أن الرفاعي يضعها كبديل أساسي للرد على كل هذه التحديات؟ إن إفرازات التسلط الشمولي في انظمتنا السياسية يمكن التخلص منها عن طريق تربية دينية اجتماعية، تساهم فيها مقولات التصوف المعرفي (الذي يثري الروح، ويضيء القلب بجماليات الوجود)، وفي سياق ذلك يمكن التخلص من الأيديولوجيا، ولكن ماذا عن التسلط الشمولي الدولي؟.. هل نكرر تجربة أئتنا مع أسبارطة؟ هنا أخشى أن يُظن بأن عبد الجبار الرفاعي يتماهى مع موجة ما بعد الحداثة التي تشن هجوما حاسما على بقايا الأيديولوجيات بما تسميه (موت السرديات الكبرى) لكن معرفتي به وقراءاتي له تنزهه من أن يكون مؤمنا بالشق الآخر لما بعد الحداثة وهو (موت المرجعيات) التي تفرض أن لا مرجعية غير مرجعية الذات. إذن نحن بانتظار تقنية فكرية عملية تكون بديلا عن الأيديولوجية. وقد كتبت للرفاعي ذات مرة منوها بقدراته الإبداعية: (لعلني لا أبالغ إن قلت بأن عملكم الكبير «الدين والظما الأنطولوجي» يمثل في كونه واحداً من أهم تمثيلات الحكمة والعقل المعاصرين. إن لكل زمن تمثلاته الفذة، هذه القاعدة التي لا يريد البعض. لضعف أو لحسد. أن يقبل بها، فالحكمة لم تنته عند ابن عربي أو ابن رشد أو ملا صدرا).

في الموضوع الآخر، وهو (علم الكلام الجديد)، بصوغ لنا الرفاعي بواحد نظرية أو منهجا جديدا لعلم كلام جديد، أستطيع أن أسميه بـ(المنهج الإنساني)، ليس

بمعنى إنسانية عصر النهضة الأوروبية التي كانت رد فعل سلبى على التفكير اللاهوتي وحصر التفكير بالإنسان وهمومه المعيشة مع استبعاد التفكير بالإله مما فتح الباب واسعا للحركات الإلحادية، فالرفاعي يسمى الى (تخليص النزعة الإنسانية في الدين) ضمن إطار الأيمان الحقيقي. والواقع ان هذا الاتجاه يمكن أن يشكل منهجا خامسا في سلسلة مناهج التجديد التي ابتدأت بمنهج الأفغانى الذي يقوم على العقل والعلم، والمنهج الثاني الذي مثله محمد إقبال ومالك بن نبي والذي اهتم بالتأسيس الفلسفي للتجديد، والثالث الذي اهتم بالتأسيس المنهجي عند السيد محمد باقر الصدر، والرابع الذي ينسب حن حنفي لنفسه والذي يسميه بـ (التيار الاجتماعي-السياسي). لقد وجه انتقادات محقة بحق ما درج عليه علم الكلام القديم، لعل أهمها ابتعاد هذا العلم عن هموم الإنسان (نسيان الإنسان في الكلام القديم)، والذي كان برأيي من أهم التوظيفات الحدائية التي استخدمها الرفاعي في نقد علم الكلام الكلاسيكي. ورغم ان قضية تجديد علم الكلام ليست بالجديدة وربما ترجع الى قرن من الزمن، وكذلك عند من عاصروهم الرفاعي في إيران أمثال عبدالكريم سروش ومحمد مجتهد شبستري ومصطفى ملكيان وغيرهم، وكذلك وجود أصداء لها في الوقت الراهن عند السيد كمال الحيدري زميل الرفاعي في حوزة قم، الا ان الرفاعي طرحها في إطار نقدي وروحاني أخلاقي، وفي فضاء يتعد نوعا ما عن الفضاء الفقهي.

والواقع ان الرفاعي في سياق طرحه لهذه القضية التي أشار لها في عدة كتب وبحوث كان آخرها كتابه (علم الكلام الجديد: مدخل لدراسة اللاهوت الجديد وجدل العلم والدين) يشير مرة أخرى الى تاريخ أدلجة الدين في الإسلام، تلك الأدلجة كانت الاتجاهات الكلامية أساسا لها والتي شكلت بدورها تخادما أو تافرا واحدا من أهم مخرجات الاجتماع السياسي الإسلامي الذي سادته علاقات السلطة العمودية وتعضّفات بأشكاله البطرياركية الإسلامية (فالتربية على الخوف ترسخ أرضية عميقة لنشأة وتفشي الاستبداد)، عامل الخوف الذي كان واحدا من المخرجات التي أنتجها علم الكلام القديم.

مع ذلك، وبرأيي المتواضع، تبقى أطروحة الرفاعي في تجديد علم الكلام أطروحة غير مكتملة طالما أنها تأتي في السياقات التحريرية لكتب وأبحاث لأخرين على حد علمي، حيث ينبغي على الرفاعي أن ينحو الى توسيع إسهامه في هذا المجال حتى تبلور نظريته بشكل أوضح.

أخيراً، أقول لعلمي لا أبالغ إذا قلت إنني عندما أقرأ للرفاعي أحس بأنني أقرأ العلم فكري حي، لأننا تعودنا على أن لا نكتشف المبغرية إلا بعد رحيلها عن الدنيا، وذلك بسبب الأفعال التي على القلوب، فأنت تعطي الدين بعده الحقيقي الأوسع فذلك انتصار للدين، وأن تروي ظمأ الآخرين فيه فذلك فتح أوسع من فتوحات السيف.

الرفاعي لا يابه كثيراً بالمدح، فأنا عرفته عن قرب، دمت الأخلاق، متواضع على غزارة علمه. أن يُمدح الدكتور عبد الجبار الرفاعي فذلك مما صدق به المادح، كون الرفاعي لا يملك سلطة يتملقه الآخرون عليها، لكنه يملك سلطة أقوى من السلطة المادية وهي سلطة العقل لمن يعي معناه. سلطة الروح الأخلاقية لمن يملك أسأ أخلاقياً. جاء الرفاعي من بيئة فقهية نمطية لم ينقلب عليها بقدر ما أراد إصلاحها، ومن خلال مشروعه التنويري ضمن إطار الدين، لم ينظر للدين على أنه مجرد مجموعة من المثل السامية، بقدر ما نظر إلى الدين كمنظومة كلية غير قابلة للتجزئة فكان ذلك سر نجاحه.. ولعل أهم ما يتميز به مشروعه هو أنه مشروع معرفي شامل يدعو إلى منهجة جديدة وتناول جديد وروح جديدة.. عالم المعنى هو الأسلوب والهدف في آن واحد، ذلك الذي يبحث عنه ويدعو إليه.. التسامح هو الآخر عنده غاية ووسيلة.. كل ذلك هو صلب وجوهر الدين.. أنه نموذج لانتصار الأخلاق الدينية على دوغمائية وإيديولوجية الفهم المغلق للنصوص.

لعل واحدة من (التائج العرضية) لطروحات الرفاعي أنه بسط للقارئ العربي، العراقي بالذات، القراءة الفلسفية للدين تلك التي كانت غائبة أو بالأحرى مغيبة عن الذهن. لازلنا نتظر منه دفقا أكثر لتكامل نظريته الإنسانية في إطار فلسفة الدين في هذا الزمن الصعب.

منهجية عبد الجبار الرفاعي

د. فالح مهدي⁽¹⁾

لقد كتب الكثير عن عبد الجبار الرفاعي، وهو يستحق دون ريب عبارات الشناء والتقدير التي وردت في كل تلك الكتابات. لم تكن تلك الكتابات بدافع الإطراء والمديح لذلك الرجل الدمث الأخلاق، المفكر الذي ينزع إلى أنسة الدين، إنما كانت تتلاقى مع أطروحات الكتاب.

في قراءتي هذه سأغرد منفرداً، اعتماداً على منهجي الذي يدرس الظاهرة الدينية في ضوء المكان. من المؤكد هو أنني لم أقرأ كل ما كتب عن عبد الجبار الرفاعي، إنما وفي ضوء ما كتبه عنه أصدقاؤه تلامذته ومريدوه، وفي ضوء ما قرأت من نقد ومراجعات لعمله.

يضعنا عبد الجبار الرفاعي من البداية ودون موارد أمام إشكالية الكتاب الأساسية، والمتشكلة بالفقر الوجودي لعالم لا دين فيه. ففي الصفحة 6 يذهب إلى الآتي: «الفقر الوجودي حقيقة يتفق عليها الكثير من الفلاسفة والمتصوفة والعرفاء، لكن ربما يقال: لماذا الدين هو سلم الكمال لا غيره؟...». ويستمر في طرح الأسئلة. وفي تلك الفقرة نفسها يتساءل عن دور الفنون والآداب في الحد من ذلك الظلم، ويشير إلى أن المعرفة

(1) أكاديمي وباحث عراقي مقيم في باريس. جريدة المدى «بغداد»، 17-7-2016.

والشوق إلى الإبداع ذات أهمية قصوى لكي يحس الكائن الحي أن لوجوده معنى.
وفي ضوء ثقافته وسعة أفقه لم ينكر أن لكل ذلك أثرا في إغناء الوجود الإنساني،
إنما وفي تلك الصفحة نفسها يؤكد: «لكن ذلك كله أيضا لا يفنيه عن الحاجة إلى
الدين، ولا يكون بديلاً عن الدين، وإن قدّم له شيئا مهما بهبه الدين...».

كما أشرت ليس من أخلاق عبد الجبار الرفاعي المخاتلة واللعب بالكلمات، فهو
أمين أشد الأمانة إلى ما يعتقد أنه صحيح. لذا فإن جوهر كتابه مع تعدد مقاله يصب
في الدفاع عن الفكرة القائلة: ليس هناك من حياة تستحق العيش دون إيمان ودون
دين.

تلك المقولة تجد صداها وجوهر وجودها في الحيز العمودي، ذلك أن الدين
يوصفه مفهوما وفهما للكون، تفسيرا وتأويلا وأيديولوجيا، طقوسا ومعابدا، من نتاج
ذلك الحيز. أما الحيز الأفقي فهو فقير في إنتاج عقائد ماورائية. ما موجود من عقائد
وأديان في العالم المعاصر هي من بنات الحيز العمودي.

عبر الكاتب بأمانة عن ثقافة ذلك الحيز الذي هو جزء منه. لذا فإننا لن نجد صعوبة
في فهم عبارة: الدين سلم الكمال، ولا يمكننا أن نتخيل أمراً آخر في ضوء ثقافة
المكان التي أنتجت الدين.

ثقافة عبد الجبار الرفاعي الواسعة والمنفتحة على كل النواقد، لم تمنعه عند
الكلام عن الإنسان، من اللجوء إلى التعميم، إذ نجد في الصفحة 8 ما يلي: (الإنسان
يبحث عما يتجاوز الوقوف عند سطوح الأشياء والاكتفاء بظواهرها... انه يفتش على
الدوام عما هو أبعد مدى... إنه في توق لاكتشاف «معنى المعنى»...)

عن أي إنسان يتحدث عبد الجبار الرفاعي هنا؟ فهو لم يأت إلى هذه الدنيا يوم
أمس، بل إن تجربته في الحياة، وفقر حال والديه وضعه أمام سكتين، إما أن يتقم من
ذلك الماضي، ويتحول إلى كائن رخيص، أو أن يترفع عن كل ذلك. ودون تردد اختار
السير على السكة الثانية، حيث تجد في سلوكه حبه للإنسانية، ترقعه، موضوعيته،
وقدرته الهائلة على التسامح والتسامي. إنه على دراية من أن عبارة إنسان تضم تحت
جناحيها مشارب، واتجاهات، ميول ومواقف، أذواق وحساسيات... الخ، بيد أنه لم
يتوان من استخدامها بمعناها المطلق.

عندما تلتقي به يذهلك حكمه على من يعرفهم، دون أن يتخلى ولو لهنيئة عن

موضوعيته ورقته، فيقول: إن فلانا متمكن بيد أنه وعرف في سلوكه، وإن فلانا مع أن الدنيا فتحت له أبوابها إنما يبقى يعاني من عقدة نقص الأقليات... الخ.

استعماله لمفردة «إنسان» وعلى ذلك النحو غير دقيقة في تقديري، لا اجتماعياً ولا انثروبولوجياً، ولا ثقافياً ولا نفسياً. عبد الجبار الرفاعي على دراية بأن الناس مشارب واتجاهات، وليسوا سواية كأسنان المشط: لا في سلوكياتهم، ولا في ردود أفعالهم، واندفاعاتهم، ورهافة حسهم، وتآلق ضمائرهم، واستعدادهم لبيع أنفسهم... الخ.

لوم يكتف بذلك، بل ذهب إلى مقولة متشبهة بشوق ذلك الإنسان إلى البحث عن معنى المعنى! لا أعرف ماذا يعني الرفاعي بمعنى المعنى، ذلك أن البحث عن المعنى لوحده أمر شاق من الناحية المنهجية، فما بالك بمعنى المعنى؟

منهج ذلك أدى به إلى إيجاد مصطلح أطلق عليه «الأنا الخاصة»، إذ يبدأ القسم الأول من كتابه بتعريف تلك الذات، وفي ضوء منطقه وعقلايته، يقوم بتعريفها على النحو الآتي: «وإنما نريد بها الذات الفردية والهوية الشخصية والتي هي قوام الحياة الباطنية للكائن البشري. فمن دونها يفقد كل إنسان ذاته ويصير نسخة مكررة مطابقة مع نموذج محدد مصاغ سلفاً...» ص 15.

في تقديري إن الذات والتي بطبيعتها شخصية ليست الهوية التي أطلق عليها الرفاعي «شخصية»، ذلك أن مفهوم الإنسان عن نفسه يبدأ وينمو ويتفاعل ويتضح في ضوء تجاربه ومراراته وخيبات أمله، أو إحاسه المرضي والترجسي المتمثل بتضخم تلك الذات. هذا الشعور ينبع من إدراك الفرد لوجوده وكيونته. البعض يعرف الذات بوصفها إناءً يستقر فيه الوعي أو الشعور والاستجابات لخبرات وتجارب تنطوي على ألم وسرور. عملية التفاعل تبدأ عندما يقوم المرء بوعي تلك الذات كموضوع، أي إدراكه لنفسه بنفسه وتقييمه لها، أو الفكرة التي يكونها الفرد عن نفسه.

أما الهوية، فهي كموضوع متقلة عن الذات ومرتبطة بالثقافة والمكان، التاريخ والجغرافية، التقاليد والعادات. وتعرف بوصفها مجموعة القيم والمثل والمبادئ التي تقوم عليها الشخصية الفردية والجماعية. فبدون هوية لا يستقيم أمر الذات، إذ إن هناك علاقة ديبالكتيكية بين المفهومين ولا يقوم أحدهما دون الآخر. هوية الفرد هي لغته وثقافته وتاريخه. الهوية مرتبطة على نحو لا فكاك منه بمفهوم الثقافة.

ولا يغفل الكاتب هذا المفهوم، فيذلل جهداً واضحاً لتطويره، فنجده يقول في الصفحة 16 «لا تبدأ الحياة الإنسانية الحقيقية إلا عندما تتحقق وتوجد الذات الشخصية، وهذه الذات لا تتحقق من دون فعل... الذات البشرية وجودها وصيرورتها الحرية، وحيث لا حرية تنطفي الذات...».

وقبل الحديث عن الحرية، تنبغي الإشارة إلى أن الذات البشرية لا تتحقق دون أن يكون لها وجود، لذا فالأصوب هو أن الحياة الإنسانية لا تبدأ إلا عند وجود تلك الذات أولاً وتحققها ثانياً.

لا يكتف عبد الجبار الرفاعي بذلك، بل ربط ما بين الذات والحرية وتوصل إلى نتيجة مفادها «وحيث لا حرية تنطفي تلك الذات». إذا أخذنا تلك المقولة العميقة على نحو مطلق، نجد أنها سليمة. بيد إننا أمام كاتب مؤمن، وهو يعلم قبل غيره أن الإيمان والدين، لا سيما في الأديان التي لم تخرج من ماضيها ولم تقم بقراءة جادة ونقدية لكثير من الطقوس والمفاهيم، يحدّ من تلك الحرية.

الكاتب يصرّ على مسألة الشعائر والطقوس، إذ يذهب في الصفحة 73 إلى الأتي: «لا يتكرس الاعتقاد، ويتج الإيمان، من دون العبادة والطقس الخاص بهذا الدين. ليس هناك اعتقاد، وإيمان منبثق عنه، من دون تقليد محدد للعبادة. لا إيمان بلا حدود وعبادات وشعائر وسنن مرسومة. لا إيمان إسلامياً بلا صلاة إسلامية...».

في هذه النقطة بالذات، اختلف كلياً مع عبد الجبار الرفاعي، في قناعاتي أن الدين منتج من المنتجات الأساسية للحيز الدائري. الطقس فعل إيديولوجي، فرضته العقلية الدائرية، قائم على المقايضة «أعطني لأعطيك». ولو نظرنا إلى ثقافة عصر الصيد والعصر الزراعي والذي لا زال قائماً، نجد أن مفهوم المقايضة جليّ ومن الأسس الجوهرية لمفهوم الدين والإيمان، ففي كتابي القادم: البحث عن جذور الإله الواحد، نقد الأيديولوجية الدينية، دراسة عن هذا المفهوم.

عبر مفاهيم الطقوس والصلوات يقوم عبد الجبار الرفاعي بإعادة بناء الإله الدائري. إله الكون لا يحتاج إلى طقوس وعبادات.

الرفاعي على علم بأن التفكير يتوقف عن ممارسة نشاطه عندما تغلق الأسئلة المفتوحة، وهو على يقين من انهيار الأيدولوجيا أمام تلك الأسئلة (راجع ص 122)، إلا إنه يعتبر الطقوس والصلوات فعلاً إيديولوجياً، بل من ماهية الدين وجوهره.

ولإثبات وجهة نظره يخصص صفحات معظم هذا الكتاب للتفريق بين الدين والأيدولوجيا، ففي الصفحة 148 من الفصل المخصص لنقد شريعتي (103-150) نجده يقول: «إن ما أفضت إليه أدلجة الدين هي عبودية الإنسان للأيدولوجيا، واستلاب الأيدولوجيا لروحه وقلبه وعقله، وإقحامه في أحلام رومانية ووعود خلاصية موهومة». لو كان الكلام متعلقاً بالأيدولوجيات فحسب لأعلنت إعجابي بذلك الفهم المتميز، إلا أن الرفاعي يفرق بينها وبين الدين. في حين لا يستقيم أمر أي عقيدة في تقديري دون أدلجة وطقوس وعبادات في مجال الدين، سيرات ودعايات، إعلام وثقافة، كبش فداء (الطقس ديني إلا أن الفاشية والنازية والسالية حولته إلى طقس علماني وذلك بإيجاد أعداء وتشخيصهم ومن ثم تصفيتهم، وقد استخدم صدام حسين هذا السلاح على نحو مفرط).

لقد أصاب الرفاعي الهدف بتفكيك فكر شريعتي ونقد ما جاء فيه، ذلك أن شريعتي يفرق بين التشيع العلوي والتشيع الصفوي وهو مُصِيب في ذلك، بيد أن تشيعه لا يمكن له أن يقف على قدميه دون أيدولوجيا. كل ما كتب باسم هذا الرجل هو إيدولوجيا لا غير. وأكاد أن أكون على يقين من اتفاق الرفاعي معي في هذه النقطة بالذات.

الدين من دون إيدولوجيا لا يمكنه أن يستمر على قيد الحياة. الدين كما يؤكد الرفاعي نفسه معتقدات وطقوس وعبادات، وهذا يعني الخضوع لمشيئة رب أو أرباب تحيكها المخيلة الدينية.

الدين يولد إيدولوجيا، فهناك عقيدة (تتحول إلى كتاب)، وهناك رب مهمته الأولى إنقاذ من يؤمن به. في كل العقائد (توحيدية أم تعددية) يقوم الدين بصناعة أحلام رومانية (ينسبها الرفاعي إلى الأيدولوجيا)، ويقوم بنشر وعود خلاصية موهومة، إذ تنشئ تلك الأحلام والوعود من لحظة قيام ذلك الدين، أي لحظة التأسيس. البناء الأيدولوجي لا يبني صروحاً من دون لحظة التأسيس تلك.

كما أن الرفاعي يقيم علاقة بين الدين والأخلاق، مستندا في ذلك إلى نفي الفيلسوف إيمانويل كانط «الاعتقاد النظري بالله، لكنه رأى الاعتقاد الأخلاقي به راسخاً لا يتزعزع» (ص 170)، ومن ثم يؤكد وفي تلك الصفحة نفسها «إن الأخلاق إنما تقوم على نحو لا بد منه على الدين... الإنسان لا يتحلى بالأخلاق لأنه متدين، إنما يتدين لأنه أخلاقي».

لا اعلم كيف توصل الرفاعي إلى تلك الأحكام المطلقة! من أين جاءه اليقين من أن الإنسان يتدين لأنه إخلافي؟

عند التأمل ودراسة ما قام به عدد من أهم الباحثين في موضوع فلسفة القانون، توصلنا إلى قناعة بأن وجود الأخلاق أملت ضرورات العيش المشترك. وبما أن الإنسان كائن اجتماعي، لذلك أوجد عادات وتقاليد أصبحت ملزمة بمرور الزمن، كاحترام الآخر، رعاية اليتيم، مساعدة الفقير، احترام الأبوين... الخ. هذه القواعد وغيرها كثير لم تنشأ بفضل الدين بل اقتضتها الضرورات الاجتماعية والعيش المشترك.

كل ما فعله الدين هو أنه احتضن تلك المبادئ السامية. ولو عدنا إلى قانون حمورابي مثلاً، بوصفه الأكثر كمالاً في قوانين العالم القديم، فنجد أن حمورابي أوجد قانونه لأن ربه شمس طلب منه ذلك، إنما وعند التدقيق نجد أن حمورابي قام بتقنين ما وجد في قوانين السومريين قبله بمئات السنين. بل إن السومريين أنفسهم قاموا بهياغة ما اعتاد عليه القوم في تلك اللحظات من التاريخ الإنساني.

لا ادري إذا كان يعلم الصديق عبد الجبار الرفاعي من أن أكثر من ثمانين بالمائة من السويديين لا يؤمنون بوجود إله خالق، ولا يؤمنون بأي دين، بيد أنهم من أكثر شعوب الأرض خلقاً!

اللحظة الانطولوجية أو الوجودية، تلك التي تتساءل عن جوهر الحياة الإنسانية وعن أصل الوجود، ولِمَ نحن هنا، وإلى أين سذهب مثلاً، لا علاقة لها بالأخلاق البتة، بل بحساسية الإنسان ورهافة حسه، وإلى بيته الثقافية، وإلى حيزه الذي ولد وترعرع فيه.

قبل أن أنني ملاحظاتي هذه بودي الإشارة إلى أحد فصول الكتاب، الذي يأخذ بتلايب النفس نتيجة صدقه وعضوته وعمقه، واقصد بذلك الفصل الثاني. فتحت عنوان «نسيان الإنسان» راجع الصفحات 29 - 101، دعانا الرفاعي لتلك الرحلة الممتعة في ماضيه، في طفولته، في عذابات، في فقر أهله، في موت أبيه المبكر. هذا الفصل يصلح أن يكون عملاً روائياً مستقلاً فهو ممتع للغاية.

وختاماً لم يبقَ أمام الرفاعي في تقديري سوى هدم الأسوار التي بناها بين الدين والابدولوجيا، ليرى بأم عينه أن ذلك التفريق هو الوهم بعينه.

استغلال الأيديولوجيا للدين

عبد الجبار الرفاهي

كتب الصديقُ د. فالح مهدي مراجعةً نقديةً لكتابي «الدين والظلم الأنطولوجي» من منظور مختلف عن المنظور الذي أتبناه في كتابي هذا. فكتبت له: كتابتك اعتر بها، ذلك أنها كانت أقرب للمنهج الغربي الحديث في البحث والنقد العلمي، وهو منهج يفتقر إليه الكثير من الكتابات في شرقنا العربي، التي تبعد عن النص، وتنشغل بالكتابات أحياناً، وتنزع للمدح والثناء أو الذم والهجاء.

كل كتابة تكشف لي ثغرات كتابتي، وتحيل إلى مرجعيات غير مرجعياتي، وتحاكم أفكارني من منظور مختلف، تمنحني فرصة لمراجعة مرجعياتي، وفحص أفكارني، وترشدني لنقد وثوقياتي ومنطقي في التفكير والتعبير.

أكرر امتناني للصديق فالح مهدي، لأنه حرّض عقلي على التفكير في الإيمان خارج الإيمان، والتفكير في الدين خارج الدين، والتفكير في الدين خارج الدين، والتفكير في التراث خارج التراث، والتفكير في أفكارني خارج أفكارني.

لا أزعجني أي نصح في التحرر من ذاتي، ذلك إلا تفكير خارج الذات، كل تفكير يتلبس بـ«الذات». تداخل تفكيرنا بذواتنا حتمي، يصعب عليّ الفرار من أحكامي المسبقة القابعة في أعماق عقلي، ويتعذر عليّ فهم العالم خارج رؤيتي للعالم التي تشكلت في سياق تربيتي وبيئتي وثقافتي وديانتي، ويشق عليّ التفكير بأفكارني

خارج أفكاره المترسبة في ذهني والمولودة في فضاء دراستي وتدريسي ومطالعاتي وخبرات حياتي، ويصعب عليّ عبور آفاق انتظاري.

أود عاجلاً توضيح مايلي:

1. كتاب «الدين والظلم الأنطولوجي» يشدو لحنه الخاص، خطبته أنه لم يكرّر الأصوات المكررة في أدبيات الجماعات الاسلامية، أو غيرها من أدبيات الجماعات اليسارية والقومية، التي يفرق المجال العام في مجتمعاتنا في شعاراتها ومقولاتها ودعواتها وأحلامها وأوهامها، منذ أكثر من قرن.

«غير الاسلاميين» من بعض القراء أزعجهم دفاعي الشديد عن الايمان والدين والوحي والنبي الكريم «ص»، ودعوتي لتدين يشد اغناء الروح والأخلاق. كذلك أزعج بعضهم اكشافهم أنني كاتن روحاني أخلاقي ميتافيزيقي مؤمن، وامتعض البعض الآخر من تمسكي بالصلاة والفرائض العبادية وتدنيي التقليدي، إذ فوجئوا بأنني مازلت حتى اليوم وسأبقى الجأ لطقوس تدين أمي.

كما أن معظم الاسلاميين أزعجهم ايماني وتفكيري الحرّ، ونفدي لإحراقهم الدين في عربة الأيديولوجيا والصراعات على السلطة والمال والنفوذ.

لا أستطيع حين اكتب أن أزيّف تفكيري، أو أكذب، أو أتملق احداً. لا قيمة لكتابة تملق القراء. ما قيمة صوتي حين يصبح صدى بيغاء تكرر أصواتاً لا تفقهها. الكتابة هي الكاتب، كل كاتب أصيل يكتب ذاته، وينسج من ألوان حروفه لوحة تحيل إلى: مسبقاته ومعتقداته وفكره وأفق انتظاره وأحلامه.

2. الدين في مفهومي يمكن أن تستغله الأيديولوجيا فينقلب إلى سم يدمر الحياة، ويحطم الحضارة والتمدن البشري، مثلما تستمره بعض الجماعات الدينية اليوم. ويمكن أن يكون الدين مفارقاً للأيديولوجيا، كما هو دين أمي وأمك ودين أبي وأبيك، ودين الحلاج وأبو اليزيد البسطامي وجلال الدين الرومي وايكهارت والدالاي لاما... الخ. فيكون عذياً خلّاقاً، يمنح الحياة معناها، وطاقته الحيوية الايجابية، عبر تكريس الحياة الروحية، وإثراء الحياة الأخلاقية.

ربما لا تستطيع أنت تذوق حالات الروح وفضاء إشراقها وتجربة تسميها عبر وصلها بالحق خارج سياق الأيديولوجيا، ذلك أن تذوق الحالات لا طريق له سوى القلب، وما كان طريقه القلب يضل العقل الطريق اليه غالباً.

علماً أن اختزال الكائن البشري في العقل بنطوي على تبسيط تكذبه علوم الانسان في القرن الأخير، وأنت تعرف جيداً المواقف النقدية الجذرية لعلم النفس التحليلي، وفلاسفة ومفكري «معهد العلوم الاجتماعية في فرانكفورت»، وغيرهم من فلاسفة ومفكري فرنسا في القرن العشرين، لمنطق العقل الوضعي، وفضحهم العقل الأدا تي، الذي يتجاهل اللاشعور والمخيل والأسطورة والرمز، ويتعاطى مع الانسان بوصفه كائناً يسيّره العقل فقط.

لقد أوضح فلاسفة ومفكرو الغرب في القرن العشرين أن كارل ماركس وفريدريك إنجلز فضحا تزييف الأيديولوجيا للوعي البشري في كتاب «الأيديولوجية الألمانية»، وإن كانت كتابات ماركس لم تنحصر من بصفة أيديولوجية، بل أضحت آثاره أيضاً لاحقاً ضحية استغلال أيديولوجي، واكبنا بعض تطبيقاته المتعسفة بل المتوحشة على المجتمعات البشرية في سنوات طويلة من القرن العشرين، كما فعل جوزيف ستالين، وجماعة «الثورة الثقافية» في الصين، وبول بوت في كمبوديا، الذين برروا في سياق ذلك المنطق الأيديولوجي كل انتهاكات الكرامة البشرية، والمجازر الشنيعة التي ارتكبوها.

أظن ليس من الصواب تعميم منطق «الأيديولوجيا» على الثوت والأديان قبل العصر الحديث الذي ولد فيه هذا المفهوم كما أشرت لذلك في مقدمة هذه الطبعة من الكتاب، فقد تمت صياغة مصطلح «الأيديولوجيا» متأخراً بالفرنسية، وكان استعماله في أول مرة بمعنى «علم الأفكار»، وهو المعنى الذي وضع له المصطلح بعد الثورة الفرنسية أنطوان دسيت دو تراسي، لكن نابليون سكب في قالب دلالي آخر، فجرى ترحيل معناه منذ ذلك الحين، واستعمله بعض الفلاسفة والمفكرين والباحثين من بعده بمعنى الادراك المقلوب والزائف للواقع. وأوضحت أن ما أقصده بـ«الأيديولوجيا» في كتابي هذا هو نظام لإنتاج المعنى، يصنع نسيج ميكروسلطة متشعبة لإنتاج حقيقة متخيلة، تبعاً لأحلام تخيلية مكونة بعالم طوباوي موهوم. إنها عملية تزييف للحقيقة وطمس لمعناها عبر حجب الواقع، واحتكار نظام إنتاج المعنى.

3. لو بطل التعميم تبطل العلوم، العلوم تشد التعميم والارتقاء من الجزئي إلى الكلّي، ومن الجزء إلى الكل، ومن الخاص إلى العام. لو بطل التعميم لاندثر التقدم في كل معارف وفنون وخبرات ومهارات البشر، ولم تتطور ويهتدي

الانسان من خلالها كل يوم لاكتشاف القوانين العامة للطبيعة، وسنن النفس والمجتمع.

حين يتعطل منطق التعميم لا تعطل علوم الطبيعة فحسب، بل علوم النفس والمجتمع. فلماذا يصبح حديثي عن الدين وتعبيراته، بوصفه ظاهرة أصيلة عامة كلية مشتركة في الحياة البشرية، ليس دقيقاً.

4. اشارتكم إلى عدم تمييز الكتاب بين (الذات الفردية) و(الهوية المجتمعية)، إذ أشرتكم بقولكم: (في تقديري إن الذات والتي بطبيعتها شخصية ليست الهوية التي أطلق عليها الرفاعي «شخصية»...). والذي ورد في سياق تعليق على حديثي عن «الأنا الشخصية»، وبيان أنني أعني بها: (الذات الفردية والهوية الشخصية، والتي هي قوام الحياة الباطنية للكائن البشري. فمن دونها يفقد كل انسان ذاته، ويصير نسخة مكررة متطابقة مع نموذج محدد مصاغ سلفاً).

من الواضح أن (الهوية) لا ترادف (الذات). سياق الحديث يدل على أنني استعملت الهوية هنا وفي هذا المورد فقط بمعناها اللغوي لا الاصطلاحي، لذلك خصصتها بأني أعني بها (الذات الفردية والهوية الشخصية) بغية تفسير ما أقصده. وماورد في الفصل الأول من الكتاب يؤشر بوضوح في عباراتي للتمييز الذي أقمته بين الذات الخاصة (الأنا)، و(الهوية) المجتمعية. كما تشي بذلك هذه التماذج من عبارتي: (فائض هويتي يسجُن ذاتي، ويصادرُ حرיתי.. أنا لست أنا، يفرض علي اتماثي لهويتي ألا أكون أنا؛ كي تتطابق صورتني مع ما تشده هويتي).

5. نقدم لكم لكتابي (الدين والظلمة الأنطولوجي) يستقي من رؤيتكم للعالم، وللدين أيضاً، بوصف الدين كما ترون متجاً بشرياً، وهي رؤية أحترمها، وإن كنت لا أتبناها. لا أنكر أن فهم وتأويلات وتمثلات الدين بشرية. رؤيتكم للعالم والدين من الطبيعي أن تختلف عن رؤية للعالم وللدين لمؤمن لا يشرق قلبه إلا بحب الله وتجليات جماله، كما هو (أنا)، إذإني أتذوق تجليات جمال الله في كل شيء. ولا أستطيع تذوقها إلا عبر تديبي وإيماني. هذه الرؤية خلاصة عمر تجاوز الستين عاماً، تكرر في دراسة الدين والعلوم الاسلامية والانسانية، وتجربة حياتية لنمط ايمان وتدين اقترن بياحة وأسفار مزمنة لكائن لن يكف شغفه الأبدى عن متعة أسفار الروح والقلب والعقل، متعة الطريق لدى هذا

الكائن على الدوام تسببه متعة الوصول، إنه لن يبلغ محطة الألبيرحل منها إلى ما هو أعلى وأثرى منها، وهكذا. إنها أسفار لن تبلغ مدياتها النهائية مهما امتد به العمر، ذلك أنها مسكونة بغبطة السير التي تشغلها عن الوصول.

هذه هي خلاصة شديدة لتجربتي الدينية التي أعيشها، ورؤيتي للعالم، وفهمي للإيمان والدين، والتي لا أنشد فرضها على أي كائن بشري في هذا العالم، ولا أحسب أنها خشية الخلاص المحصورة لكل البشر.

6. كان عبد القاهر الجرجاني «ت 471هـ» أول من استعمل مصطلح «معنى المعنى» في كتابه «دلالت الإعجاز»⁽¹⁾. كما ورد هذا المصطلح من بعده في أكثر من كتاب، مثل دستور العلماء. ما يقصده الجرجاني والبلاغيون وصاحب دستور العلماء من «معنى المعنى» هو: المجاز والكناية والاستعارة والتشثيل، كما أوضح ذلك الجرجاني الذي دسّن تداول المصطلح.

ما أقصده أنا في سياق هذا الكتاب من «معنى المعنى» فهو: ذروة المعنى، أو كشافه المعنى، أو فائض المعنى، أو ما وراء المعنى، أو ما هو أبعد مدى من المعنى، أو ما هو أعمق منه. يمكن أن تعرف على «معنى المعنى» في آثار الكثير من الفلاسفة واللاهوتيين والمتصوفة والعرفاء الذين تناولوا دلالات المعنى في اللغة والدلالة والعلامة والإشارة والرمز، وتجلياته في العقل والروح والعاطفة. وفي مطالعة كتابات شلايرماخر ودلتاي ونيتشه وهوسر وهيدغر وغادامير وبولتمان وتيليش وريكور ورولان بارت وأميرتو إيكو وغيرهم ما يضيء ذلك. كذلك يمكننا اكتشاف مضمون «معنى المعنى» في آثار فلاسفة الإشراف والحكمة المتعالية، ونصوص التصوف والعرفان في الإسلام.

(1) يقول الجرجاني: «(المعنى)، و«معنى المعنى»، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تُصَلُّ إليه بغير واسطة و«بمعنى المعنى»، أن تُعْقَل من اللفظ معنى، ثم يُعْضَى بك ذلك المعنى إلى معنى آخر، كالذي فَشَّرْتُ لك... فاعلم أنهم يضعون كلامًا قد أعطاك المتكلم أغراضه فيه من طريق معنى المعنى، فكثُرَ عَرْضُ، مَثَلُ، استعارة، دلالات الإعجاز. تحقق: محمود محمد شاكر. القاهرة: مطبعة المدني، ط3، 1992، ص 263-264.

قال عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري (ق 12هـ): (معنى المعنى إذا كان ظاهرًا كان كالمعنى الذي هو في بطن اللفظ). دستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون. عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحوص. بيروت: دار الكتب العلمية، 2000، ج 2: ص 3.

ولتوضيح ما أعنيه بذلك أشير إلى حدث الموت، بوصفه مثالاً يتجلى فيه «معنى المعنى». الموت حدث وجودي يكف فيه الكلام عن الكلام، وتكف فيه الكلمة عن أن تظل كلمة. إنه الكلمة التي تفشل في البوح بمعنى صريح، إذ أن كل معنى تورده لها يحتاج إلى معنى يكشفه ويعلن حقيقته.

تعجز لغتنا البشرية عن القبض عن مدلول الموت، لأن هذه اللغة ولدت وتنوعت وتغذت من أحداث حياتنا وتجارب عيشنا المألوفة لنا. اللغة معطى تاريخي يخزن خبرات تعاطي الإنسان مع كل ما حوله من طبيعة وبشر، وتتسع لأفكاره ومشاعره وأحلامه ومتخيله، لذلك تعجز هذه اللغة عن التعبير عما لا يدرك الذهن صورته.

يتطلب التعبير عن الموت اجتراح لغة رمزية بموازاة هذه اللغة. ذلك أن الدلالات التي يحيل إليها حدث الموت لا تستقي معناها من معاجم وقواميس اللغة، وإن كانت بعض كلماتها ذات دلالات متداولة، غير أن بعض معانيها لا نعثر على كلمات تحكيها ولو مجازياً. إنها لغة خاصة، معانيها خارج سياقات اللغة. إنها لغة ما وراء اللغة. كي تفهم معبنة الموت لا بد أن تكون لغة تحكي تجربة جديدة خارج سياق ما يعرفه الإنسان، لأن تجربة الموت حدث شخصي آتي، لا يتموضع في تجارب الكائن البشري اليومية قبل حدوثه، ولا يعرفه الإنسان ما دام حياً.

كي تبوح هذه اللغة بمعنى الموت فإنها ينبغي أن تنبثق من داخل هذا الحدث الحياة. إنه الحدث العصي على التفسير والتبرير، ذلك أن كل تفسيراته تكرر نفسها، فهي غالباً ما تبدأ حيث انتهت، وتنتهي حيث بدأت. لعل الدين، ودين الوحي خاصة هو الوحيد الذي حاول أن يقارب الموت بشكل أكثر وضوحاً من سواه، فقدم له تفسيراً وتبريراً مختلفاً، وإن كان ذلك الوضوح يكتفه شيء من الإبهام أيضاً، لذلك يتطلب مفهوم الدين للموت دائعاً مزيداً من البيان والتوضيح.

الموت دُهُول لا يماثله دُهُول. إنه أخطر حدث وجودي تواجهه كينونة الكائن البشري، فتبدل به طبيعة هذه الكينونة. إبهام المعنى في الموت لا يعني انعدام المعنى، وإنما يعني أنه معنى يفوق ما هو متداول أو مبتذل من معنى، بل إن الدلالة في ضرب من الدلالة الموازي لنظام الدلالة المتداول في اللغة. إنه معنى كثيف عميق جداً لا يتطابق مع ما هو معروف في عالم المعنى.

الموت أمر أنطولوجي، وكل ما هو أنطولوجي يشك جوهرياً بكينونة الكائن البشري، إنه مكوّن تتحقق به هذه الكينونة وتحقق بها، إذا تبدل به فيوجدتها من

جديد في حالة مختلفة. طبيعة التجربة الوجودية إنها مما يتذوق. كل ما يتحقق به الكينونة ويتحقق بها هو مما يمكن تذوقه لا إدراكه، وتذوق الشيء غير العلم الذهني به ومعرفته. الموت ذروة اختبارات كل روح وابتلاءاتها، حتى تلك الأرواح المتمدة الهاربة، تنصاع كرهاً لهذا الاختبار المرعب، وترضخ له مرغمة عليه.

يعود إبهام المعنى وغموض كنهه في الموت إلى أن الموت هو الحدث الوحيد الذي تلقي فيه كل معاني أحداث حياة الكائن البشري المريرة وامتحاناته الحزينة وتجاربه الكثيرة.

أعرف أنني أتحدث عن الموت بلغة لا تخلو من التباس وغموض ورهبة، لأنني أتكلم عنه بلغة قابعة وراء اللغة، والكلام بلغة كهذه يتحير فيها الفهم عادة، بوصفه فهماً لما وراء المحسوس. هكذا هي دائماً اللغة التي تحكي اختبارات وجودية، وتجارب ذات طابع أنطولوجي، بل إن اللغة الرمزية تضيء بشيء من ذلك، مثلما نطالعها في الشعر والرسم والنحت، ولغة الأساطير والكتب المقدسة. ذلك أن الفعالية اللغوية فيها تقوم على استيعاب اللامحدود في المحدود. إنها لا تخبرنا فقط عن شيء موجود، بل عما يمكن أن يتحقق بها ويوجد. اللغة طبقاً لتلك الرؤية رهانات وجودية، تنكشف بها للكائن البشري ذاته، مثلما يتحقق هو فيها شيئاً من هذه الذات.

خزان الكلمات لا يفي على الدوام بكل أغراض وانطباعات وغايات وأحلام الذات، ذلك أن توالد الكلمات أقل من أن يتسوعب كل معاني المشاعر والانفعالات والأفراح والأحزان والعذابات والألام التي تمرور بها الذات، وتتبطنها الطبقات العميقة لعالمها الباطني.

بغداد 26 - 7 - 2016

فحص العلاقة الملتبسة بين الإنسان والدين من منظور ذاتي

د. ناظم عودة⁽¹⁾

الدكتور عبد الجبار الرفاعي، مفكر عراقي متخصص في الدراسات الدينية والفكر الديني، وهو شخصية تتمتع ببطراز رفيع من السلوك الإنساني. ومولفاته لا غنى عنها لكل من يريد أن يدرس فلسفة الدين، فكتبه توفّر مقارنةً لا بدّ منها لكل طالب وباحث في مسألة تحديث التفكير الديني. وقد أراد أن يكون كتابه: الدين والظلم الأنطولوجي، ضمن محاولات التحديث التي تعيد فحص العلاقة الملتبسة بين الإنسان والدين من منظور ذاتي صرف. فهذه الطريقة تحاول تكوين مقارنة للعالم والإنسان انطلاقاً من الذات. أراد الرفاعي، في هذا الكتاب، أن ينظر إلى مسألة الدين والإيمان وإصلاح العلاقة بين الفرد والدين نظرةً ذاتيةً صرفة. وهذا مقرب يعبر عن طريقة الرفاعي في معالجة المسائل المتعلقة في التفكير الديني الحديث. والكتاب يجمع بين التأملات المصوغة صياغة الشذرات المضمومة إلى بعضها، وبين السيرة الذاتية، والبحث الأكاديمي، والحوار الشخصي. ومن أجل تغليب نظرته المثالية للدين، فإن إرواء الظلم الوجودي لا يتحقق عنده إلا من خلال الدين نفسه، مُغنياً في تلك المنابع الأخرى للإرواء كالفن والأدب وغيرها من الممارسات الروحية. فهو يعتقد أن الدين وحده القادر على رسم «صورة ممتدة رحبة للحياة. إذ إن تمديد

(1) باحث وناقد عراقي مقيم في السويد. العالم الجديد «بغداد» 14 - 4 - 2016

الحياة وتخليدها، وإشباع توق البشر للتكامل والأبدية، كلها خارج حدود الفن، فهي ليست من عوده». وإذا أردنا أن نَعْقِدَ مقارنة بين رسم الدين ورسم الفن، فإنَّ الفارق يتكشف من خلال صورتين مختلفتين تماماً، فرسم الدين إنما هو رسم قسري وإجباري، وشكلي ومثالي، وهو يمنح الدين قوة التأثير الإيديولوجي، فيتلاعب بالخطابات على نحو يؤثر تأثيراً حاسماً في الأفراد وأنماط حياتهم. بخلاف رسم الفن الذي يرسم أنماط الحياة وصورها وأشكالها انطلاقاً من العصب الحيوي المتحرك في لحظة توتر الحياة والفرد، فيرسم الجوهر الإنساني متماهياً بالجوهر الجمالي. يرسم الحياة في صورها الواقعية التي قد ينفر منها الدين نفوراً متعالياً. واعتقد غير واحد من المُنظِّرين والفلاسفة أنَّ الفن الحقيقي هو الذي يلتزم بتصوير هذا الواقع، ويقف مع إنسان هذا الواقع، ويعبّر عن لفته ومواقفه وقيمه. لكن للدين قيم بعيدة جداً عن هذا الواقع، وهي تترفع عنه على النحو الذي يوسع الفجوة بينه وبين الإنسان. لقد نشأ الدين والثقافة من منبع واحد في حياة الإنسان. وهما نشاطان من أنشطة الإنسان في طريق الوصول إلى الحقيقة. ففي الوقت الذي اتجه فيه الدين إلى تكوين معارفه استناداً إلى الخدس، فإنَّ الثقافة اتجهت إلى تكوين معارفها استناداً إلى العقل. والمعنى الأعمق للدين أوسع من أن يُحَدَّ بالأديان المعروفة ذات الرسائل النبوية، وإنما هو مفهوم يتوعب كلَّ النشاطات والطقوس والشعائر، سواء أكانت فردية أو جماعية، التي تنحو منحى ميثافيزيقياً. وقد التقى الدين بالثقافة في أنهما يعبران عن نشاطات روحية مشحونة بالمعاني الوجدانية. لقد أرادت الثقافة أن تكون سجلاً للنشاطات الروحية الجمالية في الحياة الواقعية للإنسان، على حين اضطلع الدين بمهمة الإجابة عن الأسئلة الميثافيزيقية التي بقيت مجهولة بالنسبة للعقل الإنساني. لكنَّ تلك الإجابات، افتقرت إلى المنطق العقلاني وإلى الاختبار العلمي، واستندت في الإجابة إلى التفسيرات الميثافيزيقية، وإلى ما يسمى لدى المتصوفة: العلم اللدني، فمصادر العلم في الدين لم تكن مصادر مستقلة عن الغيب، بخلاف الثقافة التي يجري التثبت من مصادر العلم عندها واقعياً. وأتخذ الدين في مراحل متأخرة؛ بسبب المحن التي مرت بها البشرية، مخلصاً للإنسان من هذا العناء الأبدي. فالدين مقوم من مقومات الكينونة وضرورة روحية من ضرورات الوجود، أو ما يسميه عبد الجبار الرفاعي: الظماً الانطولوجي. لكنَّ هذا يصدق على نوع معين من المجتمعات، حدّد علماء الاجتماع والفلاسفة خصائصها بدقة متناهية، ولم يكن بشكل مطلق لدى جميع المجتمعات. وقد طرح الدين أسئلة معقدة أمام الفكر

البشري ساهمت في تحفيز العقل الإنسانيّ على إنتاج الأفكار والنظريات. نعم، الدين أكبر طارح للأسئلة، لكنّ إجاباته ساذجة، ولا تُقارن بما أنتجه العقل والعلم من إجابات عميقة، وأكثر واقعية من مسائل الإنسان المعقدة. وإذا ما كان الإنسان قد دخل في مواجهة مع القيم الدينية، فإنه كان أكثر انسجاماً مع الثقافة، لأنّ الدين كان يسلك طريق الفُرض والقسوة ومعارضة الحياة الدنيا التي انغمس فيها الإنسان ومعارضة انغماسه في الملذات، على حين كانت الثقافة أكثر صداقة للإنسان لأنها ساعدته على تمثّل التجربة الجمالية في الحياة والفن، وكانت وسيلة في الدفاع عن وجوده وحياته وملذاته وحرثته الفكرية والسلوكية.

لقد أراد الدين أن ينظّم التجربة الأخلاقية، فالأخلاق ليست نسبة في مفهوم الدين، وليست مكتبة اجتماعياً، بل هي مجموعة من القيم المثالية والمطلقة المفروضة. وبسبب الغلوّ في هذه المثالية، حدث التصادم بين الدين والإنسان. إنه التصادم بين قيم متعالية ومطلقة معلقة بحال قوية إلى السماء، وقيم واقعية مشدودة بحال قوية إلى الأرض. لم يستطع الدين، عبر تاريخه، أن يتغلب على المعضلة العقلية، وظلّ يتصادم بشكل مستمر مع العقل والعلم؛ لأنه يعتقد بأنّ العقل والعلم لكي يصلوا إلى غايتهم لا بدّ أن يتجاوزا على بعض القيم الدينية، وهذا من المحظورات التي لا تقتضي حتى الحلّ الوسط. تفسير الدين للعالم، لا يختلف في شيء عن التفسير الشعري للعالم، مع اختلاف أنّ الشعر لا يقتضي الاعتقاد الصارم، لكنّ الدين لا يتنازل عن مطلب الاعتقاد. فجوهر الشعر هو جوهر جماليّ صرف وليس جوهر غائياً، بمعنى أنّ الجمال هو طريق الخير، على حين أنّ جوهر الدين هو جوهر غائيّ يتخذ من الإلزام طريقاً للحقيقة المطلقة. ومن هنا، فإنّ فكرة الرفاعي بأنّ الدين يفسر لنا «الغاز هذا العالم الذي تسوده الألغاز، وكل ما هو غير مفهوم، فما هو غير مفهوم يجعله الدين مفهوماً، وما لا معنى له يجترح الدين له معنى» هي فكرة تبدو ممكنة في نطاق التفسير الميتافيزيقيّ والتفسير اللذنيّ. فهذا التفسير ممكن في حدود اللامعقول، كما في نظريات النشوء، فهذه التفسيرات تعارض مقدماتها وتنتجها كلياً مع الفرضيات العلمية. ويبقى التفسير الديني للعالم مجرد توهّمات صادرة من عقول غير متحررة من هيمنة القوى الميتافيزيقية. وهو ما يجعل تفسيرات الدين تعارض مع الواقع. ويرى الدكتور الرفاعي أيضاً أنّ: «الإنسان يبحث عما يتجاوز الوقوف عند سطوح الأشياء، والاكتفاء بظواهرها، ومفهوم أعراضها الحسية، هو يفتش على الدوام عما هو أبعد مدى من المعنى البسيط. إنه في توق لاكتشاف «معنى المعنى». في رحلته مع

الدين وبالدين يمكنه بلوغ (معنى المعنى) ذلك أن الدين يمتلك جهازاً تفسيرياً يسمح بتعدد التأويلات وتوالدها، فكما أنّ الوجود لا متناهٍ، فإنّ الكائن البشري بطبيعته لا يكفّ عن ملاحقة التفسيرات والتأويلات اللامتناهية أيضاً، كي يعزز ذلك شعوره بأنه ليس متناهياً. إنّ معنى المعنى الذي يكتشفه الدين، هو مجرد تأويلات حدسية مسرفة في ذاتيتها، ولو قارنا الاكتشاف الذي يقوم به العلم والتجربة والوسائل المادية الأخرى التي هتكت أسرار العالم وبلغت معنى معناه، لوضعنا أيدينا على درجة التباين الهائلة بين الاثنين. فالدين ينطلق من مبدأ تقديم الإيمان على العقل، وعمل الإيمان قطعي الاعتقاد كما هو معروف، بخلاف العلم والعقل اللذين لا يؤمنان بالمعتقدات القطعية، وينطلقان من إثبات الحقائق من خلال إخضاع الظواهر للتجربة والملاحظة والاختبار المحسوس. إنّ الاختلاف، يكمن في طريقة التفسير وتحديد «معنى المعنى» فما يقرره الدين بالتأويل والتفسير، ينطلق من قبلات تؤدي بالضرورة إلى تطابق المقدمات والنتائج. فالدين فسر، مثلاً، النشأة والتكوين (الحقّق) فقرر ما كان يرغب في تقريره هو لا كما تقرره الحقيقة. وفي مقابل ذلك، فسر العلم النشأة والتكوين فتوصل إلى حقائق جرى الثبوت منها مادياً وحسباً. فالفرق يكمن، إذن، في أنّ العلم يعتبر المادة جزءاً من حقيقة هذا الكون، بخلاف الدين الذي يتجاهل ذلك فلا يؤمن بالحقائق الفيزيائية. وهذا اختلاف كبير في الرؤية التي ينطلق منها الدين والعلم. يقول الدكتور الرفاعي: «يتكرر التساؤل لدى الباحثين والمهتمين: ما الذي يسوق الشباب في الغرب وغيره، ممن هم في كفاية معيشية، وبعضهم يعيش ترفاً مادياً، للهجرة إلى ولائم الذبح، وحفلات الرقص على أشلاء الضحايا في بلادنا. والتسابق على الانخراط في وحشية عبثية، تلذذ بالدم المسفوح، وتهافت على مغامرات مهووسة في العمليات الانتحارية؟ الشباب يتساقطون في ولائم الذبح، ويتلذذون بالدم المسفوح (...) بسبب ما يعانون من ظمأ أنطولوجي للمقدس». إنّ هذا السلوك الإجرامي لعدد من الشباب، يكشف عن مجموعة من العوامل المادية التي دفعتهم لهذا السلوك، منها البطالة والفقر وعدم الحصول على التعليم، والشعور بالذنب الذي تكرسه نصوص التحريم وفتاواه، هذا بالنسبة للشباب في البلدان العربية والإسلامية، أما الشباب الذين يعيشون في أوروبا فإنّ الشعور بالنقص والغيرة الحضارية من الأوروبي المنسجم مع ذاته وتقاليده وقيمه، والبطالة تدفع هؤلاء الشباب للانخراط في هذه الجماعات الكريمة في المال ووعود الخلاص من الذنوب، فأكثر هؤلاء المنخرطين كانوا قد مارسوا الرذائل قبل انخراطهم. ويؤكد هذا الانضمام الأعمى

للحركات الإرهابية، طبيعة الخطاب الديني القادر على إغواء النفوس وتعطيل العقول من خلال استثارة الجوانب الوجدانية في النفس. وعبرة الرفاعي التي جعلت «الظلم الأنطولوجي» هو السبب وراء انضمام الشباب للمنظمات الإرهابية، تصحُّ لو كان هؤلاء من القديسين الصادقي الإيمان والطاهري النية. لكنهم، في الحقيقة، مجرد مرضى مهوسين بالإجرام. الظلم الأنطولوجي للدين كان عبر التاريخ يتمثل في شخصيات ذابت محبةً في الله، وأظلمها الشوق إليه، كما لدى الأنبياء والمتصوفة والقديسين. ويبدو أنّ تحويل الدين من قيمة أنطولوجية صرفة إلى قيمة إيدولوجية، هو السبب الذي خفّض الطاقة المقدسة في الدين. وهذا التحويل، هو الذي أوجد الهوس الديني واستثماره من قبل الجماعات المتطرفة.

لكل من الدين والفن والعلم سياقاتها الخاصة

عبد الجبار الرفاعي

الصديق العزيز د. ناظم عودة.. خالص امتناني لشكرمك بنقد كتابي: «الدين والظما الأنطولوجي». تسعدني كتابة تختلف معي، هكذا تتكامل وتصوّب الأفكار. الكتابة الحقيقية هي تلك التي تثير أسئلة قبل أن تقدم أجوبة، وتعرض للمراجعة نفياً قبل الاثبات، وتثير الاختلاف أكثر من المطابقة. أنا مسكون بالبحث عن الذين يختلفون معي، بل أصدادي. هكذا هم أصدقائي في كل مراحل عمري، بفضلهم يستيق عقلي، ويترسخ إيماني، وتنبثق تجربتي الروحية، وتكرس قناعتي في أنه بالرغم من تعدد الطرق إلى الله وتنوعها، لكن لا أجمل وأخصب وأثرى من عشق الحق طريقاً إليه. مع الملحدين ينمو إيماني، مع العدميين تتحفز جديتي، مع العبيثين تتجلى أهدافي، مع الشاكّين يشتد التزامي، مع من يجرحون ضميري الديني يزداد احترامي لمعتقدات الآخر المعاندة لمعتقداتي. ممن لمن يختلف معي، ذلك أنني أتعلم منه أكثر مما أتعلم ممن يتفق معي، أتعلم منه «نفي النفي» فيتجذر إيماني.

تنتقل أنت من وجود منهج واحد تخضع له العلوم الطبيعية والدين وكل شيء، بمعنى أن الحقيقة واحدة في كل شيء. أنا أنطلق في فهمي للدين، من أن لكل من الدين والفن والعلم حقيقته وسياقاته الخاصة بحبه. في ضوء ذلك يكون فهم الدين من داخله، وإن كانت تمثلاته في الحياة البشرية تُفهم من خارجه، ذلك أن للدين

حقيقته وسياقته، مثلما أن للعلم حقيقته وسياقته، وهكذا للفن حقيقته وسياقته. الحياة الروحية والأخلاقية هي الأفق الذي يتحقق فيه الدين، وهي لا تتطابق مع الأفق المادي الذي تتحقق وتتكشف فيه العلوم وقوانينها.

الفهم البشري سواء كان في حقل الدين أو الفن تحضر فيه الذات، بوصف هذا الفهم يمثل طوراً من أطوار وجودها، كما شرح ذلك غادامير تبعاً لأستاذه هيدغر. في فهم الدين تتحقق الذات بما يتسق مع الدين. وكذلك تتحقق الذات في الفن بما يتسق مع الفن. الدين والفن كل منهما يمثل شكلاً من أشكال تجربة الحقيقة.

الإنسان ليس حجراً، حتى في العلوم فإن مناهج العلوم الطبيعية لا تتطابق دائماً مع مناهج العلوم الاجتماعية، كما أوضح ذلك وليام ديلتاى في بيانه للفرق بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة الانسانية، بوصف الأولى تخضع للتجريب، فيما لا تدرك التجربة المحتوى العميق للإنسان. للعلوم الطبيعية حقيقتها وموضوعها وسياقاتها، للعلوم الاجتماعية حقيقتها وموضوعها وسياقاتها. لا معنى للعلوم الاجتماعية إن كانت تتوقف عند عتبة ماهو مادي محسوس، من دون أن تبصر الحياة الباطنية للطبيعة البشرية، ومن دون أن تتوغل فيها هذه العلوم إلى داخل هذه الطبيعة، كي تكتشف عالمها الجواني. سياق العلاقات وموضوعاتها في العلوم الاجتماعية لا يتطابق دائماً مع العلوم الطبيعية، وإن كانت أحياناً الموضوعات والوقائع ذاتها، ذلك أن الأولى ينبغي أن تتوغل في الحياة الباطنية للكائن البشري ولا تتوقف عند المحسوس المادي فقط، خلافاً للعلوم الطبيعية التي مجالها ماهو مادي.

أنماط التدين:

أود أن أشير إلى أن هناك خمسة أنماط يتحقق فيها الدين بأشكال مختلفة في الحياة الفردية والاجتماعية:

الأول: التدين الشعبي، وهو تدين عفوي برئ بسيط ساذج، لكنه طالما وقع ضحية للجهل واتفرست الخرافة.

الثاني: التدين الشعبي، وهو تدين تنشوه فيه الروح، ولا تنجلي فيه عفوية وبراءة التدين الشعبي. إنه ضرب من غياب العقل وحضور الجهل المقدس. لا يخلو هذا التدين من افتعال يتولاه دجالون يضللون الناس لغايات رخيصة. في هذا النمط من التدين يلتبس مفهوم المقدس، فيجري تقديس غير المقدس ونيان

المقدس الحقيقي. إنه تدين كثيراً ما تفرسه الوثنية، وهو أشبه بالشموذة منه بالتدين.

الثالث: التدين القانوني المقترن بالمدونة القانونية الفقهية، وهو يتمحور حول التطبيق الحرفي للأحكام والفتاوى الفقهية، ولا يكثر كثيراً بالروح والأخلاق.

الرابع: تدين الجماعات الإسلامية، وهو تدين يقترن عادة بالسعي للاستحواذ على السلطة والنفوذ والثروة.

الخامس: تدين عقلائي روحاني أخلاقي، وهو تدين يتجلى فيه العقل بموازاة تكريس الروح والأخلاق. إنه تدين يدرس الدين بوصفه ظاهرة لها حقيقة تقع داخل أفق الدين، وهي حقيقة لا تدرك العلوم كل مداراتها وأفانقها وأعماقها وجوهرها. وهذا التدين أقل الأصناف حضوراً في الحياة الفردية والاجتماعية.

وعادة ما تصدر الأحكام السلبية على الدين والتدين بوصفه الأنماط الأربعة الأولى للتدين في الحياة البشرية لا سواها.

أما الدين الذي أعتقته فهو النمط الأخير خاصة، وهو الذي أعمل على أن يتجلى في تديني، أي أنني أحرص على ألا يتوكل الإيمان في حياتي على الخرافة، وأحاول ألا أكون مهووساً بالاستحواذ على المال والسلطة، وألا ينفصل في تديني القانون عن المعنى والروح والأخلاق.

هذا هو التدين العقلائي الروحاني الأخلاقي الذي أنشده في حياتي الشخصية. إنه تدين إنساني يرادف الإيمان فيه الكرامة والحرية. تدين يسعى حثيثاً للكشف عن منابع المعنى في الدين، واتباع النزعة الإنسانية فيه، والكشف عن حدود كل من المقدس والديني، بتحرير ما هو ديني مما هو ديني، وما هو ديني مما هو ديني، والتوغل في عوالم الروح وإشراقاتها، لاستبصار تذوقها لمعنى الوصال مع الحق في تجاربها وخبراتها الدينية. أنسة الدين التي أدعو لها هي نمط حضور لـ «الإله الروحي الأخلاقي» في حياة الإنسان.

أنسة الدين عندي بمعنى «إنسانية إيمانية، وإيمانية إنسانية»، وهي لا تتطابق و«الإنسانية الغير إيمانية» التي يتحدث عنها بعض المفكرين في الغرب والشرق، وتتمحور على مركزية الإنسان، وتفضي إلى نسيان الله وتأليه الإنسان.

مفهوم التدين في «الانسانية الايمانية» غير التدين المستلبة فيه إنسانية الانسان. ما أعنيه بالايمان في «الانسانية الايمانية» هو الايمان الحر، الذي يقترن فيه الايمان والتدين دائماً بالحرية وليس بالاسترقاق والعبودية. في «الانسانية الايمانية» يكون إيماني حيث تكون حريتي، أي أن الصلة بالله هنا صلة عضوية لا تتأسس على الرضوخ والانسحاق وإهدار الكرامة البشرية، بل تتأسس على الحريات والحقوق البشرية.

الانسانية الايمانية تعني أيضاً أن «الله واحد والانسان واحد»، من هنا يكتب الانسان حقوقه الطبيعية من كونه انساناً لا غير. وعلى هذا الأساس يتني مفهوم المواطنة التي ينبثق عنها استحقاق كل مواطن لحقوقه المدنية والسياسية.

مشاكسة الأيام بالأسئلة المشاكسة

د. محمد جمعة عباس⁽¹⁾

هذه قراءه لكتاب المفكر العراقي الدكتور عبد الجبار الرفاعي «الدين والظلم الانطولوجي»، الذي صدر ضمن سلسلة «تحديث الفكر الديني» التي يشرف عليها الرفاعي. الكتاب مجموعة من النصوص التي أراد من خلالها الرفاعي الاجابة عن تساؤلات أصدقائه وتلامذته حول مايعنيه به «الظلم الانطولوجي»، المصطلح الذي بدأ الرفاعي باستخدامه في سنواته الاخيرة.

هل استطاع الرفاعي تقديم الجواب؟ لترك حكمنا الى نهاية القراءة؟

برغم ان دافع الرفاعي هو توضيح مصطلح يحاول القبض على ماهو جوهرى وفردى في التجربة الدينية، إلا أن الكتاب يقدم قراءة بل دعوة الى إعادة فهم وظيفة الدين الأوسع. هذه القراءة سوف تصطدم بالفهم الذي أصبح شائعاً للدين، الفهم الذي يترك المجال الفردي والنفسى الى غزو مجالات الحياة المختلفة، والى ما يسميه «تدين الدينوي». أعتقد أن الاشكاليات الكبرى التي يواجهها الاسلام بحاجة ماسة الى محاولات من هذا النوع، والى هذا الاصطدام الذي ينتجه الكتاب. اصطدام

(1) طبيب نفساني عراقي مقيم في لندن. استشاري الطب النفسي في جامعة لندن. نشر هذا النقد على صفحته في الفيس بوك، في شباط /فبراير، 2016.

الطاقة الناتجة منه، الى «انقاذ النزعة الانسانية للدين»،
 رفاعي الفكري. النزعة الانسانية التي قلّصها الاسلام
 به الجماعات الاسلامية بطوائفها المتعددة، والتي اعتمدت
 للدين يعتقد الرفاعي أنها خفضت من طاقة الدين المقدسة،
 حج فهم تعبوي ايدولوجي حيث تعامل النصوص على أنها «جزئية
 مة»، فهم تجاهل الثروة الفلسفية والصوفية كما يرى الرفاعي. وفي
 خر هذا الفهم يتم «تنميط الكائن» في عملية «صهر للذات في المجموع».
 شحط وهذا الصهر هو ما يرفضه الرفاعي الذي يدعو الى إعادة الاعتبار
 هر دانه. يقول الرفاعي في محاولة السيرة الذاتية التي احتواها أحد فصول الكتاب:
 انه المقادير في تجربته مع حزب الدعوة الاسلامية التي ابتدأت في النصف الثاني من
 السبعينيات وانتهت في منتصف الثمانينيات. هذا الخروج من الاسلام الأيدولوجي
 ليس بغريب على شخص يؤمن بمحورية السؤال، ولا يقدم أجوبة مكررة جاهزة في
 الفعل المعرفي. شخص يقول عن نفسه: إنه تعلم من أبنائه أكثر مما تعلم من آباءه،
 وانه ولد ولادات عديدة مازالت مستمرة.

يُعرّف الرفاعي الظلمة الانطولوجي بأنه: «افتقار الشخص البشري الى مايشري
 وجوده ويكرس كينونته، ويمنحه وقوداً لحياته»، ويقترح: ان الدين، والدين وحده،
 هو القادر على إغناء هذا الافتقار وسد هذه الحاجة الروحية. ورغم أنه يعترف أن
 للاداب والفنون والمعارف أدوراً ربما تكون متشابهة بعض الشيء، إلا أنه يعتقد
 أنها غير قادرة على إرضاء هذه الحاجة، ذلك أن الدين هو «الجواب الوحيد لتحدي
 الموت»، القادر على تقديم «التفسير الأخصب لمعنى الحياة والموت». هذا
 الاطلاق في الحكم غريب نوعاً ما حين يأتي من الرفاعي الذي يدعو دائماً الى آفاق
 مفتوحة للتساؤل المعرفي. أعتقد أن هذا الاطلاق، كما ناقشته معه في لقاء مباشر
 في جامعة الكوفة إذ التقيته هناك أول مرة بشكل شخصي في أثناء احدي زياراتي
 للعراق للمشاركة في برامج أكاديمية. لعل هذا الاطلاق نتاج لشخصية كان للدين في
 تشكلها دوراً محوري لايمكن تحييده حتى لو توسع إطار الفهم او المقاربة. هل كان
 الرفاعي سيؤمن بهذه الفكرة لو هيأت الأقدار له ولادة مختلفة وتاريخاً مختلفاً؟ لا
 أعتقد. ولذلك تبدو مقولة الرفاعي بأن «الانسان كائن متدين» فيها اطلاق آخر، ربما
 لن يوافق عليه الانسان الغربي الحالي الذي يصنع تاريخه ويصنعه التاريخ بعيداً عن
 الدين وقرباً من العلم بشكل يكبر يوماً بعد آخر، إذ إن هناك الكثير من الاشخاص

الذين لا يمثل الدين محوراً أساسياً في تكوينهم وحياتهم ولكنهم مع ذلك يمتلكون حياة غنية بالمعنى، واجابات مختلفة لأسئلة الموت.

يقول الرفاعي: إن «الدين هو سلم الكمال»، وإن هذا السلم المفضي الى ارتواء الظلمة الانطولوجي هو سلم من الطقوس. يقول الرفاعي: إنه لا يتلذذ حلالة الايمان دون التمسك بالتدين الطقوسي، مستعيراً المقولة العرفانية: «الشریعة توصلنا الى الطريقة، والطريقة توصلنا الى الحقيقة». بل إن الرفاعي يدعو الى الالتزام بالتعبير التقليدي للطقوس وأن لا تتم «شخصتها بمعنى جعلها فردية تختلف باختلاف الاشخاص». هذا الرفض أجده غريباً بعض الشيء بل وربما متناقضاً مع دعوة الرفاعي الواضحة الى إعادة الاعتبار للفردانية ورفضه لتنميط الاشخاص الذي يتجه الفهم الأيديولوجي للدين. ربما يكون أحد أسباب موقف الرفاعي هذا هو أن للدين وظيفة رئيسية وكبرى لم يعالجها الرفاعي في كتابه هذا إلا بشكل غير مباشر، وهي الوظيفة الاجتماعية. الدين هو إحدى الطرق التي تمكن الانسان من الانتماء الى جماعة، هذا الانتماء الى جماعة هو ضرورة نفسية مشفرة في جينات الكائن البشري، وعبرها يتم ارضاء جزء كبير من الحاجة النفسية، ذلك أن الهوية الاجتماعية ضرورية جداً للهوية الذاتية. وأحدى الطرق التي يتم من خلالها تعزيز هذه الهوية الاجتماعية هي الطقوس، ومنها الطقوس الدينية التي يشترك بها أعضاء الجماعة، وفي أحيان كثيرة يؤدونها بشكل جماعي. لذلك أفهم حين يتحدث الرفاعي عن أن شخصية الطقوس سيؤدي الى تحولها الى نية وفوضوية.

المهم في كتاب الرفاعي هو تلك النفحة من الهواء المنعش في جو الاسلام المختنق بسبب الأبواب المغلقة التي تزداد يوماً بعد آخر بسبب الفهم الأيديولوجي الشائع. هذه النفحة هي ما يحتاجه المشهد الاسلامي الملتبس، نفحة يتجهها «فهم مختلف للدين، وتأويل مختلف للنصوص»، كما يدعو الرفاعي وكما يفعل عبر مشروعه المعرفي الضخم. نفحة إن قبض لها أن تكبر وتفتح الابواب المغلقة فإنها ستحيل القبح الى جمال عبر إعادة الدين الى حقله الانطولوجي الاساسي، ذلك «أن لا جمال كجمال القلب»، القلب الذي يقول الرفاعي إن مساره لديه لا يتطابق بالضرورة مع مسار العقل، مما حرر عقله من سطوة قلبه، فتمكن من أن يطلق أجراً الاسئلة الغير متداولة في الدراسات التقليدية للدين.

نعود الآن الى سؤالنا الذي طرحناه في بداية القراءة، هل استطاع الرفاعي تقديم الاجابة عن سؤال الكتاب المحوري في بيان معنى «الظلمة الانطولوجي»؟

أعتقد أنها محاولة محورية وشجاعة وضرورية، ولكني لا أعتقد أنه قدّم إجابة كاملة وواضحة، ذلك أن الرفاعي شخص «لا يبعد بأجوبة» كما يقول هو عن نفسه، بل بهمه «طرح الأسئلة» حتى «ضجّت حياته بمشاكسة الأيام».

سؤال الدين

اولان مع آدم الأول اخيران مع آدم الأخير⁽¹⁾

عبدالجبار الرفاعي

الدين ظاهرة تتصل عضوياً بالروح والقلب والعقل والجسد، الدين ظاهرة مركبة متنوعة الأبعاد والتعبيرات، أي فهم يختزل الدينَ ببعده واحد هو فهم تبسّطي ساذج، الكائنُ البشري كينونته متعددة الأبعاد، وتبعاً لذلك تعدد أبعاد دين هذا الكائن بتعدد أبعاد كينونته.

الدين من جهة هو فهم لما هو الإله، ومحاولة تأويل وتفسير لحقيقة الإلهي، وما يتصف به من صفات لا تكرر ما هو بشري، ونمط الصلة الأنطولوجية للبشري بالإله، وكيفية تمثّل البشري للإلهي، وحضور المطلق الكامل الفني - الذي لا يحده شيء، ولا يشبه شيء، ولا ينقصه شيء، ولا يفتقر لشيء - في وجود وحياة الكائن البشري، هذا الكائن الفقير المحدود غير الكامل بطبيعته.

الدين من جهة أخرى تفسير لحقيقة الانسان، وماهيته، وحدوده، ومتطلبات حياته

(1) مؤمنون بلا حدود 22 - 2 - 2016. تحية إلى الصديق د. محمد جمعة عباس، الذي حفزني لكتابة هذا المقال جواباً عن مقاله حول كتابي.

المتنوعة، والمعايير والقيم التي تنتظم في سياقها تلك المتطلبات، بما تشهده حياته من قيم الايمان والحب والجمال، وما ينجز فيها من الخير والحق والعدل.

ازمات الانسان تعود إلى أن العلم الحديث ينتج إنساناً ذا بعد واحد، في حين أن لكيونة الإنسان طبيعة النسيج المتجانس، اختصارها في الجسد يفضي إلى قلق وجودي يمزق الروح، ويحرق القلب، كما أن اختصارها في الروح أو القلب يفضي إلى إنتاج كائن يعيش خارج الواقع المعيش. كذلك يفضي اختصار هذا الكائن في العقل إلى اهدار طاقات الروح، واطفاء ما يفيضه القلب، وتبديد قدرات الجسد. وقتئذ لا يعود هذا الكائن أرضياً بشرياً، بل يصير موجوداً يمكن أن يشبه كل شيء إلا الانسان، بعد شطب أبعاد وجوده الأخرى المقومة لكيونته؛ ذلك أن محو أي بُعد من أبعاد وجوده يححو معه عنصراً محورياً في ماهيته، ويخلق إعاقه وانكساراً يمزقان عالمه الجواني.

الدين يسعى لتأمين توازن لحاجات الروح والقلب والعقل والجسد، كل بحبه، وطبقاً لحدود إمكاناته وسعته الوجودية. أشرت في الكتاب إلى أن تمثلات الأديان الأرضية لبث تحكيمي رواية أنماط الاجتماع البشري، وطرائق عيش الانسان، وما يسود في الأرض من مختلف مواطن ضعفه وقوته، وحره وسلمه، وهزيمته وانتصاره، وحزنه وفرحه، وفشله ونجاحه، وقبحه وجماله، وشره وخيره، وشقائه وسعادته، وجهله وعلمه.. فأسمى الدين قناعاً يخلعه الانسان على قراراته ومواقفه المتضادة، إذ يمكن أن يكون تبريراً للحرب، في الوقت الذي يكون فيه تبريراً للسلم، وهكذا يمكن أن يكون تبريراً للفرح، في الوقت الذي يكون فيه تبريراً للحزن.. إلخ. تبعاً لمطامح الاستحواذ على المال والسلطة، أو حاجته للأمن والسلام والطمأنينة والمعادة.

ما يهمني الاشارة اليه هنا ليس حضور الدين في مؤسسات المجتمع، والتوكؤ عليه في الاستحواذ على الثروة والسلطة، بل الفاعليات الجوانية للدين، أي الدين بوصفه تجربة باطنية معيشة، وآثاره في بناء ذات الكائن البشري، وكيف يرتقي هذا الكائن بالايمان فيتحقق بطور وجودي أغنى، بشري كينونه، ويكرس وجوده، وكان كينونه تتوالد عبر سلسلة ولادات، تتطور فيها طبقاً لتطور ايمانه وتكامله.

أما الإلحاد فهو ضرب من ضياع الروح وتعطش القلب واضطراب العقل، إنه كدح شاق في الظلام ينهك روح الملحد، ويستنزف قلبه، ويستهلك عقله. إنه تجل

لقلق وجودي يجتاح كينونة الكائن البشري للمعقول التي لا تكفّ عن البحث عن الإله وعوالم الغيب، غير أنها لا تصل الى ما ترمي اليه، ذلك أنها تخطى الطريق، ومن يخطى الطريق لن يصل، إذ إنها تأسفر كل مرة اليه بما لا يوصلها إليه، إنها كمن يحاول السفر إلى مدينة وسط الصحراء عبر سفينة. لا يشفي داء الروح إلاّ دواء من جنس الداء. الإلحاد محاولة سفر للحق على غير الطريق، وتجلّ لقلق وجودي عميق، يحزق الروح، ويعبث بالقلب.

الانسان كائن ليس بوسعه العيش بلا حياة روحية، وقيم أخلاقية، حتى إن كان لا يؤمن بالأديان كلها. وإن كان البعض يصرّ على قمع أشواق طفل الروح في باطنه، وإسكات صوت طفل القلب في وجدانه، وإهمال طفل المعنى في كينونته، وعدم الاصغاء لصوت الله في ضميره، مواصلاً قلقه الوجودي، ممانداً كل نداء أصيل يصرخ في ذاته. وهو كلما كبر وتقدم عمره تكبر معه أصوات طفل عالمه الجواني، وهي لا تتي كل يوم تلح على بعثه من سباته، وإيقاظه من نومه، وغالباً ما يفرغ مذعوراً، محتتماً بأفياه المتصوفة والعرفاء نهاية حياته.

لا طريق للحق إلاّ الحق، الحق هو الطريق. لا طريق للقلب إلاّ القلب، القلب هو الطريق. لا طريق للإيمان إلاّ الأيمان، الأيمان هو الطريق⁽¹⁾.

أفهم سحر الأديان، وسطوتها على روح الانسان. من هنا تجي النبوات لتحمي الانسان من الضياع في الشهوات الحادة للأديان، وإنقاذه من عبثها بحياته، ووضع الشخصيات الدينية البشرية في سياقها الواقعي وزمانها الأرضي.

التمثلات البشرية للأديان لا تقتصر على التعاطي مع تلك الشخصيات في إطار بشري تاريخي، بل تحاول أن تتخطى ذلك لتخرجها من عالمها الأرضي، وخصائصها البشرية، كما يفعل بعض مريدي المتصوفة الذين يغالون بشيوخهم فيخرجونهم من الزمان البشري الأرضي إلى زمان مقدس لا بشري.

إن خطورة أي شخصية دينية تكمن في عبورها من الواقعي الى المثولوجي، بل انقلابها من كونها حقيقة الى متخيل محض، لا حضور له في الواقع. وقتئذ يصير

(1) (برهان الصديقين) يضمن هذه الإشارة، ففي ضوء هذا البرهان الواجب تعالى يدل على ذاته بذاته، من دون توسط مخلوقاته. وكان ابن سينا أول من قال بهذا البرهان، ثم تطورت صياغاته لدى من تأخر عنه، مثل: ملا صدرا الشيرازي، ومحمد حسين الطباطبائي.

الرمز شيئاً بعد أن كان مُلهماً، مُخدراً بعد أن كان مُوقظاً. فتقلب الأديان ونهزب إلى عالم غير عالمها تخسر فيه رسالتها. نعم، في كل ديانة غطاء مثيولوجي، لكن حين يستهلك الغطاء المضمون، تخسر الأديان مقاصدها وأهدافها.

يشغل الدينُ بؤالين محورين هما سؤالاً الأستلة، عنهما تتفرع، واليهما ترتد الأستلة الكبرى في الوعي البشري. سؤالان كانا ومازالا وسيلتان يغديان وعيَ الانسان، ويوقدان عقله على الدوام، حيشما وأتى كان. سؤالان جاتعان لا يكفان عن التلهف للإجابات، ولا يرتويان من النقاش، ولا يتوقفان عند تخوم إجابات العقل الأذاتي، وينفرهما العلمُ الوضعي الذي لا يتخطى أسرار المحسوس، وينجس في عوالمه، ويختنق في مجالاته الضيقة. ذلك العلم الذي يتسد في العقل، ويجري فيه توثينه بالمعنى الوضعي المادي، ومحو ماسواه، من: روح وقلب وشعور ولاشعور ومخيلة ورمز. لا يمكن اختزال الانسان بالعقل. الانسان كائن حقيقته مركبة من: الروح والقلب والعقل والجسد، محور أي عنصر منها يفضي إلى انشطار الكائن البشري وتبديد ماهيته.

سؤال الدين يتكرسان ويتراكمان ويتطوران بتكرس وتراكم وتطور وعي الانسان، وتراكم تجاربه الروحية، وتعزيز خبراته العاطفية، وتوهج مشاعره وانفعالاته وأحاسيه وأشواقه. سؤال الدين كانا وما زالا وسيلتان سؤالي الأستلة في وعي الانسان، حتى آخر كائن بشري يمتلك وعياً يعيش في الأرض. سؤال الدين أولان منذ آدم الأول، أخيران مع آدم الأخير. سؤال الدين، هما:

أولاً: سؤال (ما الاله)، ما حقيقته، ما المبدأ، وكيف، ولماذا، وأين، ومتى؟

ثانياً: سؤال (ما الانسان)، ما حياته، ما معناها، ولماذا.. ما موته، ولماذا، ما مصيره، ولماذا.. ما الذي يحيط به، ما طبيعة صلته بما حوله، كيف يتمكن من تطبيع علاقته بما يحيط به، ما حقيقة الصلة بين الاله والانسان من جهة، والانسان والعالم من جهة أخرى؟

هذان السؤالان تثبق عنهما، وتتفرع منهما، وتعود اليهما أسئلة الانسان كافة في: العلوم والمعارف. سواء في مجال اللاهوت والميثافيزيقا، أو الأخلاق، أو العلوم الانسانية. بل حتى العلوم الطبيعية تتمحور حول سؤال (ما الانسان)، وما يتفرع عنه. ذلك أن العلوم الطبيعية ليست سوى إجابات عن أسئلة تشد اكتشاف ما هو مجهول من أبعاد حسية، في الانسان أولاً، وما يحيط به ثانياً.

الانسان بطبيعته كائن مسكون بتفسير وفهم ذاته، وكل شئ فيما حوله، من أجل الخلاص من قلقه الناجم عن غموض وخفاء ما حوله. الغموض والخفاء يتج في الخوف، المعرفة ضرب من الأمن، بالمعرفة واكتشاف قوانين الطبيعة يستطيع الانسان تطييع صلكه بالطبيعة، والخلاص من الوجع والقلق الذي تثيره طبقاتها الخفية، وعواملها المجهولة. مضافاً إلى أن اكتشافه للمزيد من القوانين المتحركة في الطبيعة يمنحه إمكانات واسعة للتحكم فيها وتسخيرها، بدلا من أن تكون هي متحركة فيه، وهو عاجز حيالها.

أما كتابي: (الدين والظلم الأنطولوجي) فهو كما أشرت في المقدمة (رسالة في الايمان)، وليس كتاباً أكاديمياً علمياً، مقطوع الصلة بالروح والقلب والشعور. ميزة رسالة الايمان أنها خطاب للروح والقلب والشعور من خلال العقل. إنها ليست نصاً يابساً بارداً، وإنما هي مثل كلمات الشعر التي يتحول معها كل شئ تلامسه شعراً.

المهم أن تصل هذه الرسالة للكل، يتفاعل معها الكل، يتذوقها الكل، نفاً أو إثباتاً، النقاش والتفقد فيما أثارته من آراء يعني أن (الدين والظلم الأنطولوجي) أنجز شيئاً من وعوده في تجديد الحوار الحرّ في أعمق وأهم سؤاليين في الوعي البشري، سؤال الاله وسؤال الانسان، السؤالان اللذان يتمحور هذا الكتاب على التماس أجوبة ليست مبتذلة لهما عبر التشديد على بيان وظيفة الدين، التي يمكن تلخيصها بما يلي:

1- الاجابة عن أسئلة المبدأ والمصير.

2- انتاج معنى لما لا معنى له.

3- إرواء الظلم الأنطولوجي للمقدس.

4- اغناء وتكريس القيم الأخلاقية.

5- انتاج وتكريس القيم الروحية.

القيم الروحية ليست قيماً أخلاقية، نعم هناك تأثير متبادل بينهما. الاولى «الروحية» تشع لدينا الحنين للوجود، ونمتلئ بها صلابة وقوة، وتمنحنا توتراً للإرادة. والثانية «الأخلاقية» تجعل علاقاتنا الاجتماعية سليمة، تنشئ خير البشرية، لكنها ليست بالضرورة توفر اشباع الظلم الأبدي للكينونة البشرية، والذي لا يحقق له الرضا والسكينة والطمأنينة والامتلاء الروحي سوى القيم الروحية.

الحب مثلاً رغم انه يساهم بمنح حياتنا الاجتماعية وعلاقاتنا الكثير من الدفء والسلم، لكنه بوصفه قيمة روحية خصبة، يهنا ما لا تهنا أية قيمة اخلاقية سلوكية، كالصدق وغيره. للحب كيمياء تبدل معها مادة القلوب، فيصير جوهرها نقياً. كذلك الايمان بوصفه قيمة روحية يمتلك كيمياء سحرية تتحول معها الأرواح، لتسامى وتخلق في عوالم ملكوتية. كل ذلك لا تنجزه القيم الاخلاقية. وهو ما تكشف عنه مواقفنا حيال مواقع الحياة وجروحها ونكباتها، فمهما يكن موقفنا وضميرنا أخلاقياً، لكن النكبات ستهكنا ونفتك بنا، لو لم نمتلك رصيلاً روحياً ثرياً يمنحنا طاقة حقيقية لعبور تلك النكبات. فقط أولئك الروحانيون، المتيقنون بحب الله والانسان والعالم، هم من يعبرون نكبات الحياة بلا انكسارات وانهيارات، وبلا ضياع وحرارق وجنون⁽¹⁾.

(الدين والظلم الأنطولوجي) مرافعة للدفاع عن الدين، مثلما أفهمه وأعيشه، ومحاولة بناء الحياة الروحية الأخلاقية العقلية، ونقد تحليلي لأدبيات الجماعات الاسلامية. رسالتي تلخص في إحياء الحياة الروحية الأخلاقية العقلية عبر تكريس حب الله والانسان، وبناء قيم الحق والخير والعدل والجمال والثقة والسلام.

لا طريق لنجاة مجتمعاتنا إلا بأحياء صورة الله المقترنة بالحب والحرية والحق والجمال والخير والعدالة والسلام. اقتران صورة الله بالكرهية والإكراه والقبح والتمييز والقتل، هو ما يغذي كل أشكال التدين القاتل في مجتمعاتنا.

تحرير صورة الله يبدأ بتحرير الانسان. تمجيد الله وحمده والثناء عليه لا يساوي تبخيس مكانة الانسان، والحط من كرامته وإهانتة. مقاصد دين الله تشد تحرير الانسان من كافة عبودياته القاتلة. أسقط الانسان عبودياته على صورة الله كي يخلع مشروعية مقدسة على تسلطه واستبداده وعدوانه وعبودياته في الأرض.

وهذا ما تشدد عليه أدبيات الجماعات السلفية الجهادية التي ترسم صورة متوحشة لله تفنقر لمنطق المحبة والرحمة الالهية. بينما يلتمس الله أية مناسبة ليحط الناس برحمته، ويعلن أنه يجهم قبل أن يجوه. الشباب الذين يُلقنون تلك الادبيات ينصبون أنفسهم بوليساً إلهياً، وأوصياء على البشرية، يراقبون حركات الناس وسكناتهم،

(1) الرفاعي، عبدالجبار «اعداد وتحرير». الحب والايان عند كيرككورد. بيروت: دار التنوير ومركز دراسات فلسفة الدين، 2016، ص 12-13.

ويتهكون خصوصياتهم، ويستبيحون دماءهم، وقأنهم لا يعلمون أن الله غني عن العالمين، وليس فقيراً أو عاجزاً كي يمنحونه احتياجاته. المحزون أن هؤلاء الشباب لا يعلمون أن صوت الله لا نسمعه الا بصوت الانسان. فلو مات صوت الله في ضمير الانسان، لن نسمع صوته في آياته التكوينية والتدوينية، وأن الطريق الى الله لا يمر الا عبر الانسان، ورحمة الله لا تتجلى الا في رحمة الانسان، ونور الله لا نقتبسه الا بإشراقه في قلب الانسان، وكرم الله لا يظهر الا بيد الانسان. حين نلتقي عاشقاً لله فإنه أجمل عاشق للانسان.

الناس قلقون من فقدان ايمانهم. إنهم يبحثون عن خارطة طريق تنقذ حياتهم من القلق والأضطراب واللامعنى، وتبهيهم الخلاص، وترشدهم إلى دروب النجاة. وحين تغيب الكتابات الايمانية الجادة يضيعون في كتابات لا يعثرون فيها على ايمانهم، وقتئذ يتفاقم اغترابهم. الايمان أئمن الممتلكات القدسية للإنسان، الناس يبحثون عن كتابات لا يخشون معها طاقة أرواحهم ومنايع أخلاقهم. كتابات ترسم لهم خارطة طريق تنجيهم من ضياعهم.

المحتويات

5	مقدمة الطبعة الثالثة
9	مقدمة الطبعة الثانية
17	الدين والظلم الأنطولوجي للمقدس
25	1 - نيان اللات
27	الأنا الخاصة
29	تميط الكائن البشري
31	الشخصية المتعارة
32	الإنسان كائن عميق
35	الإيمان خيار شخصي
36	الحق في الاختلاف
39	2 - نيان الإنسان
41	صعوبة الاعتراف

- 44.....الأقدام الحافية لا يرهقها تراب الأزقة.....
- 46.....الاحتماء بأسماء ليست جميلة للأبناء.....
- 47.....تدين أمي غرس الايمان في روحي.....
- 49.....لا ذاكرة مكان في وجداني.....
- 52.....طفولة مُحبّت فيها صورة الطفل.....
- 54.....مدرسة المتني الأفق الجديد.....
- 58.....المعلم المُعتف يمي مُعتفاً.....
- 63.....أولد كل يوم عبر أخطائي.....
- 65.....التاريخ يصنع الانسان.....
- 68.....ملكتني الحوزة مفاتيح التراث.....
- 70.....حياتي الروحية الأخلاقية.....
- 71.....الدين عبادة مشتقة من اعتقاد.....
- 74.....التحلي بشيء من الغفران.....
- 78.....المحبة والايمان.....
- 79.....القلب / العقل، ساران.....
- 83.....اكتشاف صورة الله في الانسان.....
- 85.....إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين.....
- 92.....حياتي عبور متواصل.....
- 95.....3 - علي شريعتي: ترحيل الدين من الأنطولوجيا إلى الأيديولوجيا.....
- 105.....اتجاهات التفكير الديني في إيران.....
- 109.....أدلجة الدين.....

- 113 الحاسبية اليابانية والحاسبية الفلسفية
- 117 بروتستانتية إسلامية
- 119 التناظر الأنطولوجي بين الرؤى المتنوعة للعالم
- 121 أجوبة جاهزة
- 123 يوتوبيا شريميني
- 125 تحرير الذات من عبودياتها
- 131 4 - التجربة الدينية والظلم الأنطولوجي للمقدس
- 133 التجربة الدينية
- 134 الظلم الأنطولوجي للمقدس
- 136 نمطان للتصوف
- 141 تمثيلات الدين الأرضية
- 142 الإيمان والتدين
- 144 الإيمان والعقل
- 145 إرواء الظلم للمقدس
- 146 الدين يمنح الحياة معنى
- 148 «دين الأنطولوجيا» و«دين الأيديولوجيا»
- 150 الإيمان يروي الظلم للمقدس
- 151 معرفة الله غير حب الله
- 152 «الدين هو الحب، والحب هو الدين»
- 153 الإيمان ليس علقاً
- 154 تدين مفرغ من الحياة الروحية

- 5 - أهة دولة بلا حياة روحية وقيم أخلاقية؟ 157
- تكفير الآخر المختلف 160
- التدين السلفي يُفقر الحياة الروحية والأخلاقية 163
- أزمة روحية أخلاقية عقلية مضاعفة 164
- البنية التحتية المتجهة للتفكير الديني 165
- يتلون النص تبعاً للأوعية التي يحل فيها 167
- نسخ آية «لا إكراه في الدين» في سياق منطق علوم القرآن 170
- تحرير صورة الله 172
- 6 - لا خلاص إلا بالخلاص من أدلجة الدين 177
- 7 - تحديث التفكير الديني 199
- مقالات متفاعة مما نُشرَ حول الكتاب مع بعض مناقشات المؤلف 221
- لاهوتي يتكلم لغة الإيمان والحب والرجاء الكاردينال لويس ساكو 223
- عبد الجبار الرفاعي للمدرسة بابّ آخر الشيخ مهند الساعدي 227
- النفس المعطّنة د. سعيد عدنان 233
- مرافعة عن «جوهر الدين» أحمد عبد الحنين 237
- من تغيير العالم الى تفسيره هاجر القحطاني 241
- الدين بين الإيدلوجيا والأنطولوجيا أسامة الشحماني 251
- نحو عقلانية دينية.. الرفاعي أنموذجا د. رسول محمد رسول 257
- في الحاجة إلى سقراط د. عماد الرفاعي 263
- من الأيدولوجيا إلى تجديد علم الكلام د. عبد الجبار السعدي 273
- منهجية عبد الجبار الرفاعي د. فالح مهدي 279

289 عبد الجبار الرفاهي	استغلال الأيديولوجيا للدين
293 د. ناظم حوده	فحص العلاقة المتبادلة بين الإنسان والدين
294 عبد الجبار الرفاهي	لكل من الدين والفن والعلم سياقاته ..
303 محمد جمعة عباس	مشاكة الأيام بالأسئلة المشاكة
307 عبد الجبار الرفاهي	سؤال الدين

(لقد قرأتُ بتمعنٍ وشغف كتاب د. عبد الجبار الرفاعي: "الدين والظمأ الانطولوجي". بدأتُ بقراءة مقدمته، لكنني لم أتمكن من التوقف، فانجذبتُ الى قراءة الكتاب بالكامل. أقول، ومن دون مجاملة، وجدتُ الكتابَ سفرًا غيرَ معتاد من مسلم يتحدّى الجمود "الكليروساني-الإسلامي" عن معرفة وخبرة، فجاء مبدعاً ومحرّكاً. ما يشدُّ في الكتاب أنه يحكي ببساطة خبرة حياة إيمانية عن إنسانٍ يقيم علاقةً شخصيةً معمّقةً مع الله. استمتعتُ جداً جداً بسيرته الذاتية، والتي أتمنى أن تتحول إلى فلم أو مسلسل، يعلمُ الجيلَ الجديد كيف يكون عصامياً بجهود شخصي "بعرق الجبين"، وليس بطريقة أخرى سهلة. أتمنى أن يقرأ هذا الكتاب كلُّ رجل دين مسلم ومسيحي، حتى تكون له شجاعةُ الأنبياء في تبليغ الناس رسالة الإيمان. هذا الكتابُ صرخةٌ موجهةٌ أمام الواقع المرير، إنه نداءٌ يتوجّه إلى ضمير كلِّ مؤمن مسلم ومسيحي. ويتمنى هو، وأتمنى أنا أيضاً: أن يجد صدىً ما في حياتنا).

الكاردينال لويس ساكو، بطريرك الكاثوليك في العراق.

نُشرت أكثرُ من خمسين مقالةً تُعرّف بهذا الكتاب منذ صدوره قبل عامين، وتتناول أفكاره بالتحليل والنقد. وفوجئى مؤلفه باحتفاء القراء الشباب به، واهتمامهم بما أثاره من أسئلة، وما خلص إليه من رؤى حيال الدين، وبواعث حضور الدين المزمّن أمس واليوم في الحياة البشرية، وكيف أنه كان وما زال أحدَ العوامل الفاعلة في تاريخ المجتمعات، بكلِّ ما يحفل به التاريخ من تقدّم وتخلّف، وبقطة وسبات، ونهوض وكبوة، وحرب وسلام، وانتصار وهزيمة.

من مقدمة المؤلف للطبعة الثالثة.



28-03-2020



مركز دراسات فلسفة الدين - بغداد
Philosophy of Religion Study Center



مركز للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - القاهرة - تونس